

مُحَسِّنُ الْمُؤَسَّسِي

دَوْلَةُ السُّوُلَامِي

عَلَى سُلْطَانِ الْعَرَبِي

الرَّحْمَةُ لَكُمْ



السَّيِّدُ مُحَسِّنُ الْمُوسَوِيِّ

دَفْلَةُ السَّيِّدِ

مُوسَوِيَّةٌ
دَفْلَةُ السَّيِّدِ
المطبعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١٠هـ - ١٩٩٠م

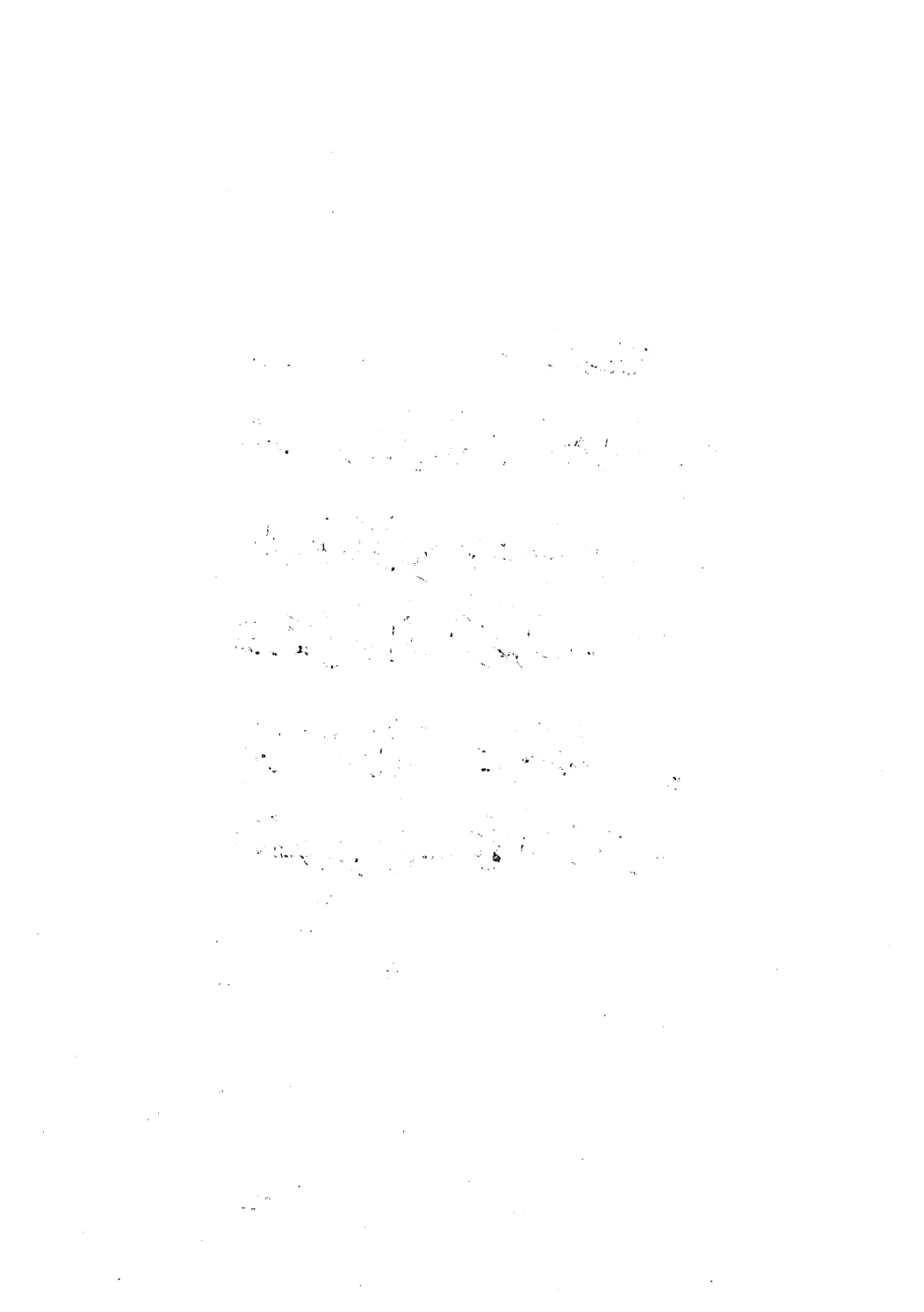


حارة حريك - خلف بنك بيروت والبلاد العربية: بناية ميبتي ط ٣ . ت ٨٢١١٤٢ - ص . ب

٢٢١٧BACHAIR LE تلکس ٨٦٣٤٦١ بيروت - لبنان تلفاكس ١١٣/٥٧٨٩ و ٢٥/٩٧

دار البيان العربي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
أُحْمَدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ *
مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ
نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ *
صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ
الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ *



بسم الله الرحمن الرحيم

لماذا هذا الكتاب؟

عشت اياماً جميلة في المدينة المنورة بجوار نبي الرحمة ورسول الهدى (ص) اثناء زيارتي لاداء مناسك الحج وقد قضيت فترة وجودي في مدينة رسول الله (ص) ابحث عن المواقع التاريخية التي لا زالت قائمة حتى اليوم او التي اندثرت ، فكنت مولعاً لمعرفة كل موقع من مواقع المسيرة الاسلامية ، هنا . . بيت رسول الله (ص)!! ، وهنا . . كان يجتمع باصحابه وهنا مسجد قبا المكان الذي استقبل فيه المسلمون قائدهم المنتصر ، وهنا . . موقع مسجد ضرار وهنا . . كان يجتمع المتآمرون ضد الاسلام ، وهنا . . بيت علي (ع) الذي ما انفك يوماً وهو يستقبل النبي (ص) ، وهنا . . أحد المكان الذي أخذ فيه المسلمون اعظم الدروس في الطاعة والانضباط ، وهنا قبر حمزة اسد الله ورسوله ، حيث امتدت يد النبي (ص) ووارت التراب عليه ، وكنت اتعايش مع كل موقع اللحظة التاريخية التي وقع فيها الحدث وكأنني اراه بعيني وألمسه

بشعوري واحاسيسي ، فالارض التي اطاها اليوم كانت في يوم من الايام يطأها رسول الله (ص) وصحابته الكرام ، فكنت اقتفي اثره خطوة بخطوة ، وبلغ بي الحرص على معايشة التاريخ حدا ، ان اخذت اتمثل النبي (ص) وهو واقف مع اصحابه أوجالس معهم فكنت أقول لرفاق السفر: من هنا خرج رسول الله (ص) وهو لابسُ لامة حربه ليحسم حالة التردد قبل غزوة احد ، وهنا كان يجلس رسول الله (ص) يعبأ اصحابه في كل معركة . .

وقضيت احلى الايام مع رسول الله (ص) ومع صحابته فوق تلك الارض التي شهدت قيام اول دولة اسلامية ، وعندما عدت الى بلادي كانت بعض تلك الاستعارات التاريخية حية في نفسي تدفعني الى مطالعة ما اجد من كتب حول حياة النبي (ص) .

وعدت مرة ثانية الى مدينة الرسول (ص) في عام آخر كنت فيه اشد عُلقة بالاحداث التاريخية مقرونة بالمكان الذي وقع فيه الحدث ، وكانت معاشتي هذه المرة اعمق من الاولى وكانت القضية التي سيطرت على مشاعري وتفكيري هي كيف اقام رسول الله (ص) دولته؟ ، وكيف كان يُدير شؤون المسلمين؟ ، ومنها استوحيت الكتابة عن دولة الرسول (ص) ، فعندما عدت اسرعت الى القلم والورق فبدأت اكتب وفي نفسي بقايا من الذكريات الحية التي عشتها في المدينة ، ولم يكن صعبا عليّ ان اكتب عن تلك القضية وانا اعيش احداثها لحظة بلحظة ، وكانها تقع امامي ، وذلك لي هذه المعاشة الكثير من الصعاب التي وجدتها في طريقي اثناء البحث والتقصي ، فهي التي امدتني بروح الماثرة لمواصلة البحث على رغم الصعوبات الجمة التي اعترضت سبيلي .

اما لماذا اخترت هذا الموضوع فلسبب واحد هو حاجة الامة الى الدولة الاسلامية التي تستطيع فيه ان تترجم اهدافها وتطلعاتها نحو المستقبل العريض . . فالدولة التي تقام على مبادئ الرسول (ص) وتقفو خطواته المباركة

هي مطمح كل مسلم اليوم وهي الفرصة الوحيدة التي تستطيع فيها الامة ان تنهض لبناء حضارتها الاسلامية وهي الضمانة الاكيدة للاستقلال والحرية والعدالة الاجتماعية .

وفي عالمنا اليوم الذي تتقاذفه موجات الدكتاتورية والشوفينية والفتوية والعشائرية ، ما احوجنا الى الدولة الاسلامية التي تقوم على نفس الأسس التي اقام الرسول (ص) دولته المباركة عليها ، ومن هذه الزاوية طرحت فكرة الدولة الاسلامية في عهد الرسول (ص) .

فقد حاولت ان ابحث في كل ما ينفعنا اليوم من سيرة النبي (ص) ، ونحن نشقّ طريقنا نحو ترسيخ دعائم الدولة الاسلامية فابتعدت كثيرا عن الموضوعات التي لا تتسجم مع هدف البحث . . ولعل البعض سيعيب عليّ ترك بعض موضوعات السيرة النبوية او المرور على البعض الآخر مرور الكرام فكنت احب ان اجيب هؤلاء البعض . .

ان هذا الكتاب ليس بحثاً في السيرة النبوية لان السيرة محيط واسع ، فقد اغترفت من هذا المحيط ما يروي ظمأى وظمأ الأمة في مجال تكوين الدولة الاسلامية وليس في ذلك عيب .

وقد يعيب عليّ البعض الآخر اني لم اطرح الفكرة من خلال بحث اكاديمي وتحقيق موسع ، ول هؤلاء البعض اقول ايضا بان الفكرة والهدف من طرح هذا الموضوع لا يستوعب البحث الاكاديمي الصرف بالرغم من ان فكرة البحث في قضية مثل (دولة الرسول (ص)) بحاجة الى توسع وتحقيق ومقارنة بالانظمة الراهنة ، ومقايسته بنظريات الدولة ، لكن هدفي من البحث لم يكن اثبات صحة النظرية الاسلامية في الدولة بقدر تحريك مشاعر الامة نحو الحاجة الى الدولة الاسلامية ، وطرح دولة الرسول (ص) كمثال اعلى للدولة الاسلامية

امثالاً لقوله تعالى : ﴿ ولقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ﴾ .

وكان لا بد وقبل الحديث عن الدولة الاسلامية التي انشأها النبي (ص) في المدينة ، استيعاب الخطوات التي سبقت تكوين الدولة الاسلامية .. لان هذه الدولة لم تتكون من فراغ بل نتجت عن تفاعلات عناصر اساسية شاركت في تكوينها وظلت هذه العناصر تتفاعل ، ونجم عن هذا التفاعل تلك المسيرة الخالدة التي بدأت ببناء المسجد والتي واصلت طريقها نحو تكوين الدولة الاسلامية حتى بلغت بها مرحلة التكامل في السنة العاشرة للهجرة عندما أضحت جزيرة العرب كلها القاعدة القوية لانطلاقة الحضارة الاسلامية الى العالم .

فكان لا بد للبحث من ان يقتفي جذور هذه الدولة وتلك الحضارة التي نشأت عنها ، من قبل البعثة النبوية لمعرفة العناصر الانسانية التي شاركت في عملية التغيير والبناء، كيف كانت وكيف اصبحت في ظل الإسلام ؟ ثم متابعة المسيرة من البعثة النبوية وما اعقبها من بناء النواة الاولى للحركة الاسلامية ثم تحوّل النواة الى تجمع اسلامي ثم انتقال التجمع الصغير الى مجتمع كبير اخذ يضم القبائل وسائر العشائر العربية ..

وبعد الانتقال الى المدينة اخذت الدولة الاسلامية تتشكل وتتركب من اجزاء صغيرة اصبحت بتفاعلها تركيباً واحداً هو الدولة الاسلامية واخذت هذه الدولة تتطور في مجال التركيب والتفاعل حتى اصبحت وهي تحمل صورة متكاملة عن الدولة المنشودة التي أرسى القرآن الكريم دعائمها والتي يجد فيها الانسان أنشودته في الاستقرار والعيش الكريم .

والبحث الذي بين ايدي القراء هو محاولة متواضعة لرسم صورة متجانسة عن الدولة الاسلامية كتبته بروح كانت تسبح في نهر الاحداث التاريخية الخالد

في حياة النبي (ص) ، فمن ذلك النهر الريّان حملت بعض القطرات ، وقد لا تستطيع هذه القطرات ارواء ظمأ القراء، فانا لا انفي القصور عن نفسي لان الكمال لله وحده ، لكن املني ان يسدني كل من قرأ هذا الكتاب بما لديه من ملاحظات فهذا هو طريق التكامل في العمل الفكري ، ومن الله ارجو التوفيق لي ولكل من يفكر ويعمل من اجل اقامة الدولة الاسلامية الكبرى والحمد لله رب العالمين .

محسن الموسوي

١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م



قبل الرسالة

دراسة الحقبة التي سبقت الوحي ذات اهمية قصوى في البحث عن الحضارة الاسلامية لان هذه الحضارة لم تتكون في الفراغ ، فالامة التي صاغتها ايدي الرسالة والتي اصبحت امة الحضارة الاسلامية منبعها عرب الجزيرة الذين كانوا يغطون في ليل سحيق ، فانقلبوا على واقعهم فاصبحوا يقفون فوق ارجلهم بعد ان كانوا يقفون فوق رؤوسهم وذلك بفضل الرسالة الاسلامية ، فالبحت في جذور هؤلاء وتقصي الحقائق عن وضعهم الاجتماعي والاقتصادي قبل الاسلام امر ضروري لكل من يريد تتبع مسار الرسالة .

كما وان التتابع التاريخي يستلزم منا الوقوف على المراحل التي سبقت مرحلة الرسالة للكشف عن المؤثرات الجذرية العميقة في المجتمع الاسلامي والنقاط التي لا يمكن الانفكاك عنها والتي تشكل نقاط تداخل بين الحقتين . ولربما كانت دراسة حقبة ما قبل الوحي احدى النواذ الهامة للكشف عن عظمة الرسالة والرسول (ص) الذي تمكن وخلال فترة قياسية ان ينقذ مجتمعا كان غاطاً حتى فروة رأسه في مستنقع الجاهلية ، وان يخرج اناساً كانوا يعيشون في الظلام لعشرات القرون الى النور ، وهنا تكمن عظمة الرسالة وقوة تأثيرها في تغيير

الجمادات الى أبطال صنعوا التاريخ وسطروا الامجاد .

الدور العالمي للإسلام :

تحملُ الرسالةُ الاسلامية الخصوصية العالمية فهي رسالة لكل البشر اسقطت من امامها حاجز الجغرافيا وحاجز الزمن فاصبحت رسالة للعالمين اجمع .

فكان يُراد لهذه الرسالة ان تنتشر في كل الاتجاهات ، وان تضع بين يدي الانسان الحلول الجاهزة لمختلف المشاكل ، وكان يراد لها الديمومة الى آخر يوم من الدنيا لانها خاتمة الرسالات السماوية فليس هناك نبي يأتي بعد الرسول (ص) .

وكان يُراد لهذه الرسالة ان تُحمل على اكتاف بشر وليس على اكتاف الملائكة ، وقُدِّر لهؤلاء البشر ان يتحملوا مسؤولية ابلاغ الرسالة الى آخر انسان في الارض وان يمدّوا بعمرها الى اخر يوم من الحياة .

وباختصار كان يراد للرسالة ان تشق طريقها الى القمة بقوة الانسان فكان لا بد وان يختار لهذه الرسالة ارضاً وعرة ، تعصر حَمَلَةَ الرسالة حتى يستطيعوا البلوغ بها الى القمة ، والا فان الانسان المرفّه والارض الفارهة لا تستقبل الرسالات بسهولة ولا تتعرض فيها القيم بسهولة ولا يكبر فيها الايمان بسهولة .

ولان الرسالة الاسلامية قد امتلكت من الخصوصيات التي لم تمتلكها الرسالات السماوية الاخرى ، فان مهمة حملها كانت تستوجب ظروفًا خاصة وبيئة خاصة تستطيع ان تصنع الرجال القادرين على اداء تلك المهمة ، وينتج من تلاقي الرسالة بتلك الظروف نقطة مشعة لا ينقطع توهجها عبر الزمان والمكان .

وبلغة الفيزياء نستطيع ان نقول ، لو اردنا ان نصنع لهباً من النار و اردنا مشاهدته من اقصى نقطة ممكنة و اردنا الابقاء على اللهب لاطول فترة ممكنة فان علينا ان نراعي ثلاثة امور اساسية لانجاز التجربة :

الأمر الأول : طبيعة المادة التي سنستخدمها في صنع اللهب .

الأمر الثاني : الطريقة التي سيتم بها حرق هذه المادة .

الأمر الثالث : طبيعة الظروف المطلوبة والكافية لايصال المادة التي يراد اشعالها الى درجة الانتقاد ، وهكذا كانت الرسالة الاسلامية فقد كان المطلوب ايصال شعاعها الى ابعد نقطة زمانية ومكانية ، فكان لابد من اختيار المكان المناسب والناس المناسبين والظرف التاريخي المناسب حتى تستطيع ان تقفز من على الحواجز السميكة وان تعبر المسافات البعيدة في عمق الزمن والمكان لتصل الى كل كائن حي في هذا العالم المترامي .

لهذا كان لزاماً ان نقف ملياً عند انسان ما قبل الرسالة وعلى الارض التي قامت فوقها الرسالة ونعني بالارض الظرف بكامل ابعاده - الظرف الجغرافي والظرف الاجتماعي والظرف السياسي - ، واذا ما ارفقنا بالارض ، الانسان والفكرة لتكاملت العناصر الثلاث البانية للحضارة ، فالانسان الرسالي هو الشعلة الوهاجة التي تحمل النور ، والفكرة هي الصاعق التي تُوجد الشعلة والظرف هو الذي يُعين درجة الانتقاد في المادة الملتهبة .

الارض . . الانسان . . في جزيرة العرب :

البيئة التي نشأت فوقها الرسالة هي الصحراء ، والصحاري تغطي ثلث ارض الجزيرة العربية وهي تمتد على مساحة مقدارها مليون ومائتي ميل مربع ، وهي ارض ظامئة فلا نجد على سطحها نهراً واحداً بل كل ما نجده من المياه فهو في جداول صغيرة تغمرها المياه في بعض المواسم . وهناك بعض الابار وبعض

التجمعات المائية التي مصدرها الامطار الشتوية .

وقد ادت قلة المياه الى قلة المحاصيل الزراعية ، فالمحصول الرئيسي في جزيرة العرب هو التمر الذي اصبح يحتل موقع الصدارة في تغذية الانسان العربي ، اما الحبوب فقد اقتصرت على موائد الموسرين وزعماء القبائل .

واذا ما اضعنا الى قساوة الأرض قساوة المناخ ، لتصورنا كيف كان الانسان يعيش في جزيرة العرب ، فكان الانسان العربي في معركة دائمة مع الطبيعة القاسية التي وضعت في حالة تاهب قصوى ، وفي نضال مستمر لكسب الوضع الافضل .

فكان العربي وباستمرار يُغيّر مواقعه من مكان لآخر بحثاً عن المرتع والماء فكان في حركة مستمرة لا تعرف الاستقرار ، والى جانب الحركة المستمرة كان العربي يعيش وضعاً قلقاً على مصيره وخوفاً من عجزه على تأمين حاجاته المعيشية .

والانسان العربي كان يعيش وسط صحراء قاحلة ممتدة على مدى البصر في العراء اذ سينال بغيته . كل من يريد الفتك به ، وجعله هذا الوضع حذراً يرتقب الخطر كل لحظة ، وهو لا يجد ما يستطيع الرد عليه الا نفسه وسعيه ، فاصبح يعتمد على نفسه واصبح ايضاً يبحث عن افراد يتحالفون على الدفاع المشترك فقامت رابطة العشيرة فاصبحت في ظروف الصحراء اقوى رابطة لانها الشيء الوحيد الذي كان يمنح الانسان العربي الطمأنينة والشعور بالأمن . وباستثناء الذين توطنوا في المدن واشتغلوا في التجارة او الزراعة فان الغالبية العظمى من سكان جزيرة العرب كانوا يعيشون حالة قلق غير مستقرة وكانوا في حركة دائمة اما بحثاً عن حياة افضل او بحثاً عن الماء او المأوى وقد انعكست هذه الحالة المتواصلة على شخصية الانسان سلباً وايجاباً ، وفيما يلي نستعرض بعض سمات شخصية الانسان العربي :

أولاً : دفعت قساوة الطبيعة الى وضع الانسان العربي امام واقع يتطلب منه استنفار قواه الذاتية والاستفادة القصوى من ملكاته ، فاصبح يتسم بالشجاعة والجرأة والاقدام وبالعكس لو كانت الطبيعة بغير تلك الصورة لما كان قد اتصف بمثل تلك الشجاعة التي يذكرها لنا التاريخ في صور عديدة غصّت بها كتب التاريخ .

والشجاعة هي رمز قوة العربي في السيطرة على الطبيعة والعيش بمأمن من خطرها ، فالرجل الشجاع من كسب المعركة على عدوه الاول - الطبيعة - والذي تمكّن ان يزيل عنه الخوف والحذر بينما الرجل الضعيف من عجز عن مقاومة هذا العدو والذي اصبح نهياً لمشاعر الخوف فكان على الضعيف ان يلتجئ الى القوي ليوفر له الحماية وليزيل عنه مشاعر الخوف وما يهدده وسط الصحراء المكشوفة لكل الاعداء .

ثانياً : الصحراء بطبيعتها تحوّل دون وقوع الاتصالات بسهولة بين انسان واخر فبعد المسافات وامتدادها على طول البصر يجعل من الاتصال امراً شبه مستحيل في ظروف الانسان الذي لم يجد الا النياق وسيلة للنقل والاتصال ، فلم يكن امامه الا العيش ضمن مجموعات بشرية صغيرة او كبيرة تتركز فيها العلاقات الاجتماعية كاقوى ما يمكن وهي الرابطة القبلية التي اخذت تربط هذه المجموعات فيما بينها محكومة بالظروف القاسية .

واصبحت القبيلة تعبّر عن الوجه الاجتماعي للانسان العربي فهي تُشبع حاجاته الذاتية الى الدفاع والحماية وتجسد امانيه وطموحاته بشرط ذوبانه وانصهاره في نظام القبيلة ، وهو لا يعني التجرد عن النزعة الفردية وعن الشوق الى الحرية خصوصا عندما يصبح الفرد في اطار خارج القبيلة ، ونتج عن هذا الواقع الاجتماعي نمط من التمسك والالتزام بقيم واعراف ونظام القبيلة التي تستثمر في العادة في مواجهة القبائل المعادية وفي التفاخر بمآثر القبيلة وحتى

الامور التافهة تصبح مدعاة فخر لآبناء القبيلة .

ثالثاً : وأدى الخوف والهلع المستمرين في البيئة الصحراوية الى ايجاد نمط قوي من التضامن اخذ يسود القبائل العربية ، فاصبحت كل قبيلة تبحث عن حليف لها لتوسع من مساحة القوة التي تتطلبها الاوضاع فاصبح الضعيف يلتجئ الى القوي ويات القوي وهو على استعداد لاجارة الضعيف .

وترك هذا التضامن آثاراً ليس على المستوى السياسي للقبائل العربية وحسب بل ايضا كان له أثر نفسي على مستوى الانسان فكان على استعداد لحماية كل من يطلب منه ذلك ، فمجرد طلب الحماية كان يستثير في العربي المروءة وتجعله يدافع حتى لو كان الطالب عدواً للقبيلة او حتى لو كان قد هدر دمه لجريمة ارتكبتها .

رابعاً : افتقرت الصحراء الى المركزية في السلطة بسبب تباعد الافراد ووجود القبائل في أماكن متناثرة ، فكانت كل قبيلة بذاتها تشكل حكومة مستقلة ، فاعرافها وتقاليدها هي قوانين يجب على كل فرد في القبيلة مراعاتها ، وبعد سلطة القبيلة لم تكن هناك اية سلطة تتحكم بالانسان العربي ، وبقدر ما كان لهذا الواقع من اثار سلبية كانت له اثار ايجابية ايضا على نفسية الانسان العربي ، فقد منحت حالة التجرد عن السلطة فسحة كبيرة من الحرية وبالتالي جعلته على اهبة الاستعداد للتمرد بعنف امام اي واقع يرفضه .

فقد كانت في نفس العربي حالة من التمرد الى جانب حالة من الالتزام ، وهذا يفسر لنا خروج البعض من القرشيين على قوانين العشيرة يوم اعلنت مقاطعتها لبني هاشم ، وبفضل الحرية كان البعض يتجرأ لابداء رأيه حتى امام الملوك ، فيذكر لنا التاريخ ان احد الملوك طلب من رجل من بني تميم في الجاهلية فرساً يقال له سكاب فامتنع الرجل وقال ابياتاً هي :

ابيت اللعن ان سكاب علق نفيس لا تُعار ولا تباع
فلا تطمع ابيت اللعن فيها ومنعكسها بشيء يُستطاع

خامساً : وفي هذه البيئة التي يتنافس فيها الاقوياء ويقهر فيها الفقراء
يصبح الثأر هو الوسيلة الوحيدة لرد الاعتبار وهو الضمان في اقرار الآخرين له
بأنه انسان قوي ذو كرامة وعزة فباعتماد العربي ان السكوت عن الإهانة جبن
وضعف وان السكوت يشجع الآخرين على التهامه ويطمعهم في الاغارة عليه
فكان لا بد وان يظهر قوته وحتى لو كان فيه موته .

ومما يستدعي الثأر للشرف - وللشرف عند العربي مفهوم خاص - فأقل
كلمة نابية يعتبرها مساً لشرفه يجب عليه الثأر . . اما التعبير فالرد عليه بحرب
شعواء .

ذكر لنا المؤرخون ان الشاعر عمرو بن كلثوم قَتَلَ ملك الحيرة عمرو بن
هند وهو في ضيافته وذلك عندما استخفت هند ام الملك عمرو بن هند بليلى ام
الشاعر عمرو بن كلثوم طالبة منها ان تناولها الطبق فرفضت ليلى لانها وضعتها
في موضع الخدم وعندما كررت هند طلبها صاحت ليلى : « واذا له يا لتغلب »
فوثب الشاعر عمرو الى سيف للملك كان معلقاً في السقف فتناوله فضرب رأس
الملك وهو في ضيافته نتيجة لتلك الحادثة الصغيرة التي اعتبرها الشاعر انها
مسته في شرفه .

سادساً : وفي مواجهة اعباء الحياة الشاقة لم يكن العربي ليجد بُدّاً من
التعاون مع افراد قبيلته ومع كل من هو على استعداد لمديد التعاون اليه .

اما الكرم فهو من مصاديق روح التعاون التي اوجدتها حياة الصحراء والتي
شجع عليها الامتداد التاريخي بين بعض القيم التي كانت موجودة في جزيرة
العرب وبين القيم التي جاء بها الانبياء فالجذب والحرمان لم يلغيا هذه الصفة

الخالدة منذ عهد الانبياء فالفقر والحرمان يصفلان في بعض الأوقات النفوس ، فيصبح التنافس في امر اسـمى من جمع الثروة وخصوصاً عندما يكون هناك عنصر معنوي موروث يعتمـل في النفوس ، فبينما كان البعض يتنافسون على المال كان البعض الآخر يتنافسون على الشرف والسمعة بين ابناء القبيلة وليس الكرم والجود إلا مفردات في قاموس الشرف وهي ذات دلالات كثيرة عند الفرد العربي .

سابعاً : نفسية العربي نفسية بسيطة غير معقدة فهو يعيش حياة فطرية لا يشوبها التعقيد ولا تعرف العقد ولا الازدواجية لانها حياة مشحونة بحركة مستمرة فوق ارض قاسية وتحت سماء صافية . . والاحتكاك العنيف بالبيئة القاسية كان يزيل العقد قبل ان تطفح والحركة العنيفة في تلك الصحراء كانت تقلع المشكلات قبل ان تتفاقم وتتحول الى عقد . وكانت اشعة الشمس الحارقة قادرة على صهر الازدواجية والكراهية فتغـدو النفوس بسيطة موصدة الابواب امام الحسد والحقد ولم تظهر هذه العقد الا بعد الانتقال من حياة الصحراء الى حياة الحضر .

ثامناً : فرضت حياة الصحراء على العربي حالة التنقل المستمر من مكان لآخر من ديار لآخرى ومع التنقل يحن الانسان بطبيعته للديار التي كانت على طريقه .

وعندما يجنّ الليل ويرخي سدوله ويرمي الظلام باجنحته الوادعة فوق تلك الصحراء الشاسعة وعندما تبدأ النجوم بالتألؤ وسط ذلك الظلام الحالـك ، وعندما يعصف الحنين بذلك الانسان الراقـد لوحده في الخيمة والمتوجه بمشاعره ووجدانه نحو تلك الاجواء الساحرة عند تلك اللحظات تبدأ رحلة ذلك الانسان مع الشعر .

فالشعر في الواقع هو انعكاس لحياة الانسان وهو يستمد جذوره من

الحالات النفسية والفكرية التي يعيشها الشاعر .

تولّد الشعر في جزيرة العرب من عنصرين :

الاول : وجود تلك الاجواء الصحراوية بقساوتها في النهار وبسحرها الاّخاذ في الليل بما تحمله تلك الاجواء من دموع وابتسامات ، دموع القسوة عند لحظة التوديع وابتسامة عند استقبال الفجر ، وعند توديع اشهر الحر واستقبال فصل الامطار .

فحياة الصحراء حياة توديع واستقبال حزن وفرح دموع وابتسامة خوف ورجاء . . يأس وامل .

العنصر الثاني : هو وجود انسان يبحث عن شيء في اعماقه . . انسان لا تنتهي رحلته مع نفسه وهي رحلة تبدأ مع سكّون الصحراء في الليل ولا تنتهي الا بـ (الشعر) تلك الكلمات التي تُعبّر عن خلجات النفس والتي يحاول الشاعر من خلالها ان يضفي حوله طابعاً جميلاً للحياة تنسيه آلامه .

والشعر نتيجة للحياة الفردية التي يحياها الانسان العربي فالذي يجد نفسه وحدها يأنس لصرخات الذات وتوجعات الضمير ويستجيب لدموع القلب وابتساماته .

والشعر في حياة العربي يمثل جانباً من الابداع وهو يُعبّر عن حالة قوة وضعف في آن واحد واذا اردنا ان نسمي المجتمعات بخصائصها الإبداعية فان سمة المجتمع العربي هو قول الشعر وتذوقه واقامة المهرجانات من اجله .

تاسعاً : وهناك تأثير اخر لحياة الصحراء على الانسان هو توجيهه نحو الخرافة ايضاً، فليالي الصحراء الطويلة ونجومها البديعة التي تراءى له وكأنها شياطين دفعت بالانسان العربي دفعا نحو الاعتقاد بالخرافة واصبح يرث هذه المعتقدات من آبائه واجداده فاخذ العرب يعتقدون بأن هناك ارواح شريرة هي

التي تسبب لهم المرض فيقوموا باستحضارها في اماكن مجهولة وكانوا يؤمنون
باقوال العرافين وكاشفي البخت واكثرهم لا يعتقد بالآخرة والذي يعتقد بها يربط
بعيراً الى قبره ويجوعه حتى يموت ، معتقداً بأنه اذا مات سيمتطي بعيره في يوم
القيامة .

واعتقدوا ايضا بان روح الانسان بعد الموت تحوم فوق قبره على صورة
يوم فاذا كان مقتولاً فان البوم سيصرخ بعشيرة القتيل حتى يأخذون له الثأر فكانوا
يتشاءمون ويتفعلون لأتفه الأسباب فاذا مرّ عليهم طير من الشمال الى اليمين
تفعلوا ، واذا مر من فوقهم من اليمين الى الشمال كان ذلك مبعثاً للتشاؤم واذا ما
ألّمت عليهم كارثة كانوا يدخلون من الباب الخلفي اذ كانت لبيوتهم باب من
الامام وباب من الخلف .

وفي ايام الجذب كانوا يربطون الاعشاب اليابسة في ذيل البقرة فيضرموا
فيها النيران ، ويدفعون بها الى اعالي الجبال وكانوا يعتقدون بان لهب النار في
اعالي الجبال سينزل المطر للشبه الموجود بينه وبين البرق .

عاشراً : وكان للبيئة الصحراوية وما تثيره من احساس عميق بالرهبة
والضعف اثر في تشكيل الحياة الدينية لدى الانسان العربي ، فهناك من عبّد
النجوم والسماء والقمر والهواء معتقدين بانها مهيمنة على مصائرهم . .

وهناك من عبّد الاشجار والاحجار فكلما وجدوا حجراً جميلاً سجدوا له
وبعضهم عبّد كُثبان الرمل وكانوا ياتون بنياقهم فيحلبونها على الرمال فتذهب
البانها سُدى . والذين عبدوا الاصنام كانوا يقدمون لها القرابين فيهدرون اموالهم
سُدّاً ، فانعكست الصحراء في حياة العرب انعكست سلباً وايجاباً ، وصاغت
منهم شخصية متميزة بالسمات التي ذكرناها ، والتي بقيت على قوتها حتى مع
الانتقال الى الحضر ، فكانت قواسم مشتركة قائمة بين البدو والحضر على رغم

التباين في البيئة من حالة لآخرى .

ولا يخفى أن البيئة الصحراوية كانت صاحبة الفضل في الأبقاء على بعض القيم التي جاءت بها الرسائل السماوية ، فاکثر الفضائل التي كانت موجودة في المجتمع الجاهلي كالكرم والوفاء بالعهد هي في الواقع قيم جاءت بها تلك الرسائل والتي لم تستطع الأيام أن تزيلها أو تخفف منها على رغم ما طرأ على هذه السمات الخيرة من تحوير عند بعض الجماعات العربية ، فالكرم أصبح عند البعض مفخرة شخصية يقصد به السمعة والوجاهة ، وهكذا بقية الصفات الخيرة الأخرى .

لماذا نزلت الرسالة في المجتمع العربي؟

من الضروري إجراء مقارنة تقييمية بين الإنسان العربي والإنسان الفارسي والإنسان الرومي من أجل إدراك أبعاد الاختيار إلهي لجزيرة العرب لتكون مهذاً للحضارة الإسلامية ، واختيار سكانها لاحتضان الرسالة الإسلامية ، فقد كانت هناك ثلاث حضارات تتأخم جزيرة العرب ، حضارة مجوسية في فارس وحضارة بيزنطينية نشأت في بلاد الروم وحضارة كانت في اليمن مهّدت لتكوين الحضارات الأخرى .

وكانت مكة تُشكّل منتصف المثلث الحضاري في ذلك الوقت وكانت الحياة مختلفة تماماً في مكة عنها في تلك المناطق التي شهدت تطوراً نوعياً في الزراعة والصناعة وال عمران ، فانعكس هذا التقدم على طبيعة الفرد وطبيعة المشكلات التي يعاني منها ، وفيما يلي أهم الفروق بين أفراد الجزيرة العربية الذين كانوا يعيشون وسط الصحراء وأفراد الدول الثلاث الذين كانوا يعيشون وسط حضارات متطورة .

الفارق الاول : في المعتقد :

كان تمسك البدو بمعتقداتهم الخرافية اقوى من تمسك الاقوام الاخرى بالرغم من انهم كانوا اكثر ايماناً في الخرافة والجهل من الآخرين ، ولهذا السبب فان تغيير هؤلاء المتخلفين كان اصعب من غيرهم وهذا يفسر لنا فشل حملات التهويد والتنصير التي كانت تشنها الدول بقصد تغيير ديانة العرب ، فكان تمسك هؤلاء بمعتقداتهم على خرافتها قد افشل كل محاولة لتغيير العقيدة ، وتكمن المشكلة في ضعف قابلية العربي على تغيير معتقده وقوة تمسكه به ، واذا ما بدل معتقده الى معتقد آخر فانه سيمسك بالعقيدة الجديدة بنفس القوة التي كان فيها قبل ذلك .

الفارق الثاني : التحمل والشجاعة والصبر . .

انسان البادية اقوى واكثر تحملاً من انسان الحضار سيما اولئك الذين كانوا يعيشون حياة الترف في روما وفارس ، فبينما يعيش العربي البدوي تحدياً مستمراً مع الطبيعة ويقاسي من خشونة الحياة وجشوبة العيش كان على العكس من ذلك اولئك الذين يعيشون فوق سهول فارغة بالثمار والخضار وعلى مقربة من شطآن الانهار والجداول .

فكان طبيعياً ان يخرج الانسان الحجازي اكثر صلابة واكثر قدرة على التحمل والصبر فكان ترشيحه اقوى لتحمل اعباء الرسالة الاسلامية وما يتبعها من التزامات .

الفارق الثالث : حيوية الفرد :

حيوية الانسان العربي في جزيرة العرب هي اقوى من غيره ممن كان يعيش في بحبوحة وترف ، والحيوية ناتجة عن حالة الاستنفار الدائم التي كان

يعيشها الانسان البدوي .

فقد صاغت البيئة من الانسان العربي طاقة خلاقة اذا ما وجهت الوجهة الصحيحة ، فكان دائم البحث عن الحياة الافضل عن المرعى وعن المياه ، وقد منحته حالة البحث هذه طاقة اضافية كان من الاولى عليه استهلاكها في وسائل العيش . لكن محدودية الصحراء جعلته محدود النشاط ، واضطرته في بعض الاوقات الى استخدام هذه الطاقة الاضافية في نشاطات مخربة محرمة اجتماعياً كقطع الطرق والغارة على القبائل .

وهناك فرق رابع : هو تعرض المجتمعات التي تعيش في ظل الحضارات الى التلوث بسبب طغيان النزعة المادية ، بينما ظل المجتمع البدوي محتفظاً بخصائصه الطبيعية دون ان يعتريه التلوث الحضاري فقد ظلت صفات الشجاعة والصدق والكرم والوفاء جزءاً من شخصيته .

وكانت هذه الفوارق تعطي الانسان في الجزيرة العربية الاولوية في احتضان الرسالة الاسلامية ، فاولا : لان المجتمع العربي كان احوج من غيره الى رسالة سماوية بسبب ما بلغه من انحطاط اجتماعي وتردي عقائدي .

وثانياً : اقناع الانسان العربي المोगل في الجهل سيعني ان للرسالة القدرة على اقناع غيره ممن يعيش حياة افضل متنعماً بالوعي والشعور والادراك .

وثالثاً : كان من الضروري للرسالة الجديدة وهي في انطلاقتها ان تبحث عن اشخاص يتسمون بالشجاعة والجرأة وقدرة عالية على التحمل ويمتلكون طاقة مستنفرة تمكّنهم من مواجهة اعباء المسؤولية ويصبحون حملة للحضارة الاسلامية الى الامم الاخرى ، وهي حالة لم تكن لتتوفر الا في جزيرة العرب ، فما كان على صاحب اية دعوة جديدة الا ازالة التراكمات الجاهلية واعادة

الانسان العربي الى فطرته ثم ترسيخ الفضيلة فوق تلك الارض التي باتت مهياة لاستقبال بذور الخير بعد ان كانت ارضاً جرداء لا تنبت سوى الشوك .

هذه الحقائق تدفعنا الى الاعتقاد بان هناك اسباباً قد تكون واضحة في اختيار جزيرة العرب كمهبط للوحي فارضها اخصب (للمرسلة) من اية ارض اخرى بالرغم من جديها ، فاذا استقبلت بذرة الرسالة فانها ستتمو بسرعة وستعطي ثمارها بسرعة ايضا ، فمثلها مثل الارض الخصبة التي يخصصها الفلاحون لزراعة البذور في المرحلة الاولى ثم يتم نقلها على شكل نبتة الى اماكن اخرى .

وارض الجزيرة العربية ارض خصبة لكنها كانت بلا (زارع) فنمت فوق ارضها كل شجرة ضارة واعطت ثماراً ضارة ايضا .

فمثل هذه الارض بحاجة الى مزارع من نمط خاص يستطيع ان يقلع تلك الاشجار الضارة ويزرع مكانها اشجاراً باسقة ومثمرة .

ورابعاً : جزيرة العرب هي مهد الرسالات ، ومكة هي موطن الانبياء ، فليس هناك من عجب ان ظهر نبي جديد على هذه الارض التي طالما حملت مشعل النبوة والخير .

الانجذاب

تَحَكَّم التخلف بالمجتمع الجاهلي الى درجة اغلق مسامع العربي عن كل شيء جديد ، واغرقه في مستنقع من المعتقدات البالية بحيث لم يكن بمقدوره مشاهدة الحقيقة وهي ماثلة امامه كالشمس في رابعة النهار .

ويذكر لنا التاريخ ان محاولات عديدة جرت لتغيير معتقدات ذلك المجتمع ، لكنها اصطدمت بالارادة المتكلسة لذلك الانسان الجاهلي الذي ظل محافظاً على خرافاته معتقداً بها وكأنها جزء من شخصيته .

فعلى رغم ما كان يربط الامبراطورية البيزنطية بالعرب من روابط وما كانت تقوم به من محاولات لنشر المسيحية في البلاد العربية وعلى رغم ما بذلته الجماعات اليهودية من مسعى لتهويد العرب فقد ظل سكان هذه البلاد متمسكين بمعتقداتهم الا حفة ممن اعتقد باليهودية والنصرانية لتمشية مصالحه ، اما السواد الاعظم من سكان الجزيرة فلم ينجذبوا الى هذه الديانات الا اللهم بعض من تأثر بنصارى نجران الهاريين من سطوة اليهود الذين حكموا اليمن في فترة سابقة وهناك من تأثر باليهودية وهم عرب اليمن وبينهم ذنوءاس الحميري احد ملوك اليمن ، وذكر في التاريخ ان الملك الحميري هو الذي قام

بغزو نجران وقتل عدداً هائلاً من المسيحيين ويذكر المؤرخون الحادثة بهذا الشكل . .

كان هناك مبشر مسيحي اسمه قيميون اظهر المسيحية فيها ودعى الناس اليها وتظاهر بالصلاح وحماية الفقراء فاذا سمع بمريض قصده ووعدته بان يدعوه الله شرط ان يصبح مسيحياً واذا ما رأى فقيراً اعطاه ما يسد حاجته حتى استطاع ان ينصّر اهل نجران ، وقد أثار ذلك الملك ذنوء اس اليهودي الذي قرر اعادة المنطقة الى الديانة اليهودية فهاجمها وقتل الآلاف في الأخدود .

وهناك حكايات كثيرة عن انتشار النصرانية واليهودية في الممالك التي تحيط بالجزيرة العربية كالخيرة التي كانت خاضعة للدولة الفارسية ودولة الغساسنة التي كانت تابعة لبلاد الروم ، ومما يستخلص من كل ما ذكره المؤرخون ان الدول القوية كانت تحاول طيلة القرن الخامس والسادس الميلادي ان تتسلل إلى منطقة الحجاز لفرض عقيدتها على القبائل العربية لكنها كانت تصطدم بجدار الوثنية وما كانت بقادرة على اجتياز المدن القريبة منها ، ويعود السبب في ذلك الى طبيعة مجتمع الجزيرة وقوة تأصل الوثنية فيه ، فعملية تغيير هذا المجتمع من الحالة الجاهلية الى واقع آخر لم تكن بعملية سهلة ولم يكن بمقدور أي دين غير الاسلام ، وأي رجل غير محمد (ص) بقادر على القيام باعباء هذه المهمة .

اما تغيير بعض العرب المحيطين بالجزيرة العربية لمعتقداتهم ، فهناك اسباب واضحة وراء ذلك فقرب هؤلاء الى الدول المتحضرة جعلهم اكثر تحضرًا من عرب الحجاز وبالتالي كانوا أسهل اقتناعاً لاي معتقد اكثر تطوراً من الوثنية ، كما وان بعض هؤلاء العرب كما هو الحال في دولة المناذرة والغساسنة واليمن كانوا يخضعون للاستعمار البيزنطي او الفارسي الذي كان يفرض معتقداته على رعاياه من موقع القوة وبالتالي فلا تقيد بوضعهم العقائدي كقاعدة عامة بل

القاعدة هي تكلس هذا المجتمع على معتقداته ورفضه لأي معتقد آخر الا في حالة واحدة ، وهي انجذابه لدين جديد يستطيع ان يسيطر على القلوب ويلمس الضمائر ويفتت العقيدة الوثنية الصماء ، فاي دين يستطيع ان يجذب هذا الوثني ويتشله من الحضيض الى القمة؟ واي رسول يستطيع ان يقلب الصخرة الصماء الى قلب نابض بالحياة؟ .

بالتأكيد ليس هناك غير الاسلام ديناً وغير محمد رسولاً ، ولذا وجدنا بعض زعماء العرب يتفاجؤون بقوة محمد (ص) وهو يثير فيهم سؤالاً ما انفك يؤرقهم هو كيف استطاع محمد(ص) ان يغير هذه الهمج الرعاع ويحولها الى مجتمع متحضر . . فاعتقد البعض انه ساحر واعتقد آخرون انه كاهن اما أصحاب البصائر فلم يتجاوزوا حدود ما رأته أعينهم ووعته قلوبهم انه ليس الا رسول من رب العالمين .

لم ينجذب العرب الى الرسول والرسالة في عشية وضحاها ، فقد سبقت البعثة مقدمات حاكتها يد الأحداث كانت قد أوصلت خيوط الجذب الى المركز في السابع والعشرين من رجب من عام ٦٢٢ للميلاد فقد اشتركت عناصر كثيرة في تركيب الحدث القوي الذي قلب الانسان العربي وجعله يقف بصورة معتدلة .

وعندما قامت الدعوة كان العرب على أهبة الاستعداد ليسمعوا ما يقوله الرسول الا النفر الضالّ من المترفين المستكبرين ، وانجذاب العرب الى الرسول (ص) تم قبل البعثة ومراً بثلاث مراحل :

اولاً : الانجذاب الى مكة . .

ثانياً : الانجذاب الى بني هاشم . .

ثالثاً : الانجذاب الى شخص الرسول (ص) . .

اولاً : الانجذاب الى مكة .

لم يكن في مكة ما يثير الاهتمام ويُشكل عنصر جذب لدى سكان الجزيرة العربية ، فلم تكن مكة اكثر من ارض صفراء محترقة بأشعة الشمس وسط صخور وجبال فقد افتقدت هذه الارض اكل ما يشكل عنصر ، جذب كوجود الماء او الكلاء او الارض الصالحة للزراعة .

وبدأ الاهتمام بمكة يوم اقام ابراهيم وابنه اسماعيل البيت الحرام كمنطلق للتوحيد فاخذت الجماعات تفد الى هذا المكان للاقامة حول البيت ، واتخذ اسماعيل مكة مكاناً للسكن فتزوج من قبيلة جُرهم احدى القبائل الوافدة الى مكة ، واغناه الله بالبنين الذين اصبحوا دعاة للتوحيد وظلت قيادة مكة بأيدي جُرهم حتى هزيمتهم امام خزاعة التي سيطرت على مكة وبدأت الفترة المظلمة من حياة هذه المدينة .

فقد حدثنا التاريخ ان عمرو بن لُحي الخزاعي هو اول من غير الابراهيمية بنصبه الاوثان في الكعبة وادخل عبادة الحيوانات الى المجتمع العربي ، ويعود السبب في ذلك الى تأثر عمرو الخزاعي بعبادة الاوثان اثناء احدى رحلاته الى الشام فرأى اهلها يعبدون الاصنام ففتن بها وجلب بعضها الى مكة فنصبها وامر الناس بعبادتها وتعظيمها ، وقد روي عن الرسول (ص) انه قال في عمرو الخزاعي : « رايت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قصبه في النار كان اول من سيَّب السوائب » .

وباتت مكة من ذلك العهد تغفو اغفاءتها المعروفة في التاريخ فقد خرجت من دائرة الضوء واصبحت مدينة عادية كأي مدينة اخرى ، وخف الاهتمام بها والانجذاب اليها . واستمرت الإغفاء حتى عهد قصي بن كلاب الجد الخامس لرسول الله (ص) فانتقلت وفي منتصف القرن الخامس الميلادي من طور البداءة

الى طور الحضارة المدنية ، فقد استطاع قصي ان يتغلب على خزاعة وان يزيجها عن البيت الحرام في قصة تاريخية مذكورة في كتب السير .

واخذ بعد أستتباب الأمر يريسي أركان حضارة محدودة على تلك الارض فانتشر العمران وحلّت البيوت المرصوفة بالحجر او المبنية بالطين والحجر محل الخيام والابخية ، وانطلقت الحركة العمرانية مما يلي المسجد الحرام الى بطحاء مكة ، وكان اهلها يبنون بيوتهم اول الامر بصورة لا تستوي على سقوف مربعة احتراماً للبيت ، ثم غيروا عقيدتهم في ذلك فلم يروا بأساً أن يرفعوا اسقف منازلهم إلا أنهم كانوا لا يرفعون بيوتهم عن الكعبة . . واخذت مكة تتطور وتنمو في ظل النظام الذي أقره قصي ، فقد جاءته قريش والتفت من حوله فقسّم الارض الى رباع وهي المنازل وما حولها فانزل كل جماعة من قريش في مكان مخصص .

والى جانب النظام العمراني والسكاني انشأ قصي داراً للندوة وكانت ملاصقة بالمسجد الحرام ، وجعل بابها الى المسجد وهي دار للشورى ودار للحكم والادارة ، ولم يكن يدخل دار الندوة من غير بني قصي الا ابن اربعين سنة وكانت الدار خاصة بهاشم وامية ومخزوم وجمع وسهم وعدي وأسد ونوفل وزهرة ، واخذت مكة تشق طريقها الى عالم جديد بعد ان وضعت قدمها على عتبة الحضارة وبعد فترة من عهود التخلف والظلمات أخذت تتقدم في مجالات مختلفة وأبرز هذه المجالات هي النشاط التجاري فقد ساعد على بروز هذا النشاط الموقع الهام الذي تحتله مكة ، فقد كانت في منتصف الطريق بين الحضارات الثلاث وهمزة الوصل بين التجارة الذاهبة والقادمة من اليمن الى الشام وبالعكس ومن اليمن الى بلاد فارس وبالعكس ، فكان التجار ينقلون من اليمن الجلود والبخور والثياب ومن العراق التوابل ومن الهند الذهب والقصدير والعاج وخشب الصندل والتوابل والزعفران ، ومن مصر والشام الزيوت والغلال

والأسلحة والحرير والخمور وينقلون من افريقيا الصمغ والعاج والتبر وخشب الابنوس ، فكانت تجارتهم عامرة في كل زمان في الشتاء والصيف وقد ادى هذا النشاط الى نمو طبقة من اصحاب الاموال الطائلة من المترفين الذين كانوا يستخدمون اموالهم في نشاطات مختلفة بالاضافة الى التجارة .

وازدهرت الحياة الادبية في مكة وبرز فيها شعراء عمالقة في الشعر والادب ، وهوى البعض علوماً اخرى كالتفرّس والعيافة ومعرفة النجوم والانواء ، وكان المكيون يحترفون الصناعة ويحتفرون من يعمل فيها لكن هناك عدد كثير ممن مارس مهنة الصناعة كصناعة البناء والسيوف والدروع واشتهر الخبّاب بن الارث في صناعة السيوف .

ومع تزايد رؤوس الاموال ازداد تألق مكة بين العرب وازدادت الحاجة الى تخصيص اماكن لمزاولة النشاط الاقتصادي فكانت الاسواق التجارية الى جانب البيت الحرام وكان العرب يهرعون اليها من كل مكان ومن أبعد نقطة في الجزيرة فكان سوق للعطّارين وسوق للفاكهة وسوق للطرب وخصص مكان للحجّامين والحلاقين ومكان آخر لبيع الحنطة والعسل والحبوب وكان هناك زقاق للحذائين وسوق للبرّازين ووصل الامر في هذه المدينة الى تخصيص اماكن للترفيه عن الناس تستخدم كمنتجع في شهور القيظ .

وكانت ترسل من مكة هدايا الى الملوك والحكام واشتهرت بانتاج الأدم وهي الجلود ، ويذكر لنا التاريخ ان قريش ارسلت الأدم الى النجاشي ملك الحبشة لاسترداد المسلمين الذين هاجروا الى الحبشة .

وتحولت مكة وخلال فترة قصيرة الى عاصمة للجزيرة العربية وتفوقت في تألقها وسمعتها على مملكة الحيرة وغسان ، واصبحت تنافس في زعامة العرب عاصمة اليمن صنعاء وبسبب هذا التنافس خشي ملوك اليمن على سلطتهم وبسببه قامت واقعة الفيل عندما قرر أبرهة القضاء على مكة واخضاعها

لسيطرته ، فخرج بجيش من الفيلة قاصداً مكة راغباً في تخريب البيت الحرام ، وما ان وصل الى مكان قريب حتى أرسل الله بجيش من الأبابيل أخذت ترميهم بحجارة من سجيل فجعلتهم كعصف مأكول كما ورد في القرآن الكريم .

وانتشر خبر الواقعة بين العرب وغير العرب وعظمت مكة مرة اخرى في اعين الناس اثر هزيمة أبرهة ، فقد تجلت امامهم عظمة هذه المدينة المقدسة وعظمة ما تحتضنه وهو بيت الله الحرام الذي قال عنه عبد المطلب يوم سأله أبرهة قال مختصراً : وان للبيت رب يحميه .

واصبح لمكة بعد تلك الواقعة قدسية لا حدود لها لدى العرب الذين أخذوا يؤرخون الاحداث من ذلك العام الذي سمي بعام الفيل وهو ايضا العام الذي ولد فيه سيدنا ونبينا محمد (ص) وهو عام (٥٧٠ للميلاد) ، لقد كانت هناك يدُ آلهية ترتب كل شيء وتضع كل شيء في مكانه المناسب ، فقد وصلت مكة بعد حادثة الفيل الى قمة الشهرة واخذ الناس يترقبون أخبارها وانبائها ويتحدثون عن كل صغير وكبير فيها واخذت تتلأأ فوق مسرح الاحداث ، واصبحت المدينة بمن فيها وبما فيها تموج بالاضواء الساطعة ، وكان في قلب كل عربي حنين قوي الى مكة ودافع قوي لان يزورها ويتصيد اخبارها .

وكانت هذه المقدمات هامة للغاية قبل بعثة الرسول (ص) فحيث لم تكون هناك أجهزة اتصال سريعة وكان من المفترض ان تصل أنباء الرسالة الى أبعد انسان في الجزيرة بل الى ابعد انسان في ذلك العالم ، وكان ذلك امر مستحيل لولا وجود عناصر الجذب التي كانت تدفع بالانسان العربي لان يترك بيته وعياله ويقطع المسافات الطويلة ويرتحل بين الفيافي والهضاب ليصل مكة بعد شهور وسنين من اجل ان يتعرف على تفاصيل خبر البعثة التي انتشرت في زمن قياسي في أرجاء وسبعة من جزيرة العرب .

ثانياً : الانجذاب الى العائلة الهاشمية :

اكتسبت مكة شرفها من المسجد الحرام وما احيط به من رعاية آلهية ثم زادها شرفاً من سكنها فأصبحت علماً من أعلام التاريخ ، فالذين سكنوا مكة هم ابناء ابراهيم واسماعيل بناء الكعبة وقد برز من اولئك الابناء والحفدة من استطاع ان يزيد مكة تألقاً على تألقها .

فما حصلت عليه مكة من قوة مغناطيسية جاء بفعل مشترك من مكانة البيت الحرام ومن مكانة البيت الهاشمي الذي اعاد للمدينة نظارتها واصبحت تباهي كبريات المدن في العالم يومذاك .

وكلما كان البيت الهاشمي يقترب من ولادة محمد كان يزداد تألقاً في سماء مكة وسماء الحجاز وكان يزداد سمعة وشرفاً وفضيلة بين مدن واحياء الجزيرة وقد تعقب العرب انباء هذا البيت منذ استطاع قصي بن كلاب أن يرسي دعائم دولة مصغرة في مكة بعد ان تغلب على خصومه ، فقبل قصي لم يعرف العرب التنظيم والادارة ووجدوا في احضان ذلك النظام الخير والصلاح فقد نمت تجارتهم وازدادت اموالهم وعظم شأنهم امام القبائل ، واخذ يعرف ذلك التجمع البشري من ذلك اليوم باسم قریش .

وقد ذكرنا جانباً من اصلاحات قصي بن كلاب ومنهجه في اقامة المدينة العصرية في ذلك العهد وبعد قصي ظهر الاختلاف بين ابنائه حول الزعامة في مكة ، واشتد النزاع بين بني عبد الدار وبني عبد مناف ، وانقسمت قریش الى فريقين ، فانضم بنو مخزوم وبنو سهم وبنو جمع وبنو عدي الى بني عبد الدار ، وعقدوا حلفاً عند الكعبة على ان لا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضاً فسموا بالأحلاف ، بينما انضم بنو اسد وبنو زهرة وبنو تميم وبنو الحارث الى بني عبد مناف وهم بدورهم تعاقدوا على ان لا يخذل بعضهم بعضاً واعدوا حفنة ملؤها

بالطيب ووضعوها عند الكعبة فغمس المعاقدون ايديهم فيها ثم مسحوا الكعبة بايديهم توكيداً على انفسهم بالتزام العهد فسموا بالمطيين .

وكاد يتحول النزاع بين الاحلاف والمطيين الى حرب ضروس ، واثناء ما كانوا يتهياون للقتال واذا بهم يعودوا الى رشدهم وينادوا بالصلح ، واما الزعامة على مكة فقد قسموها بين الطرفين فكانت السقاية والرفادة من حصة بني عبد مناف والحجابة واللواء والندوة لبني عبد الدار .

وقد زادت هذه الحادثة من عظمة البيت الهاشمي ، واصبح الناس وهم يرون شيئاً جديداً في هذا البيت الذي بلغ حد الخصام ثم عاد الى عقله وحلّ معضلة الزعامة بالمنطق والعقل ، ولاحظوا كيف يتحول الأبناء الى اعداء وكيف يتحول الاختلاف الى نزاع كاد ان ينقلب الى حرب ، وكيف تتحول الاوضاع المتشنجة فجأة الى سلام وأمن وكيف يصلوا في النهاية الى حل مقنع وكيف يرضى الجميع بذلك الحل خدمة للسلام والوثام ، فالقاعدة التي سارت عليها احداث الجزيرة العربية كانت تؤكد بأن مصير ذلك الاختلاف كان الى حرب ولا مجال للسلام بينهم لكن كان هناك بقية من العقل والحكمة في صحراء الجاهلية .

ثم تولى زعامة مكة هاشم بن عبد مناف وكان موسراً كريماً ذو شخصية مهابة فاستطاع بملكاته ان يجذب القبائل وان يصبح زعيمها الأوحد بالرغم من انه لم يمتلك منصب السقاية والرفادة حسب تقسيم الزعامة بين عبد مناف وعبد الدار كما مر ذكره .

لكن القيادة في ذلك الوسط وفي تلك البيئة كانت موهبة وليست ارثاً يرثها الشخص من آباءه فمن يمتلك القدرة والشخصية يصبح زعيماً بينما من فقد صفات القيادة لم يكن بوسعه أن يقود قومه وحتى لو ورثها عن أبيه من هنا فقد

برز اسم هاشم على أبناء عبد مناف وأبناء عبد الدار واصبح زعيماً لا يدانيه احد .

واشتهر هاشم بفرض ضريبة مالية على قریش وصرفها في مواسم الحج على الحجاج فكلما حضر الحج قام هاشم في قومه قائلاً يا معشر قریش انکم جيران الله واهل بيته وانه يأتيکم في هذا الموسم زوار الله وحجاج بيته وهم ضيف الله وأحق الضيف بالكرامة ضيفه فاجمعوا لهم ، ما تصنعون لهم به طعاماً اياهم هذه التي لا بد لهم من الاقامة بها فانه والله لو كان مالي يسع لذلك ما كلفتكموه فكان كل قرشي يخرج من ماله ما يستطيع ويرفد به لاقامة الطعام في مواسم الحج وفي احدى المراسم اصيبت قریش بالفاقة فلم يرغب هاشم ان يثقل من كاهلهم ويأخذ ما اعتاد عليه اخذه فقام بالمهمة بنفسه بارتحاله الى الشام بجميع ماله واشترى به كعكاً دقيقاً ثم جاء الموسم فهشم ذلك الكعك كله ودقه دقاً ثم صنع للحجاج طعاماً في موسم الجوع فعرف بعد ذلك هاشماً ، وهاشم هو الذي سن لقریش رحلة الشتاء والصيف فأينعت مكة في عهده وقدم اليها قوم كثيرون وأزدهرت فيها التجارة وتزوج هاشم من سلمى اثناء سفره الى المدينة وكان قومه قد منعوا زواجها من الرجال . لشرفها وعندما تقدم هاشم لم يجدوا افضل منه جاهاً وشرفاً وولدت له شيبة الذي كني بعبد المطلب وكان صغيراً عندما مات هاشم فانتقلت الزعامة الى مطلب عمه وبعده انتقلت الرفادة والسقاية إلى عبد المطلب الذي افرد لاسمه مساحة كبيرة في تاريخ العرب لم يستطع ان يحتله اباءه من قبل فقد احبه قومه وعظم شأنه عندهم .

وبدا اسم عبد المطلب يلمع بين العرب في حادثة حفر بئر زمزم وقد انتشر خبر الحادثة عند الناس وعلى لسان عبد المطلب بهذه الصورة ؛ اني لنائم في الحجر اذ اتاني آت فقال : احفر طيبة ، قال قلت : وما طيبة ، قال : ثم ذهب عني فلما كان الغد رجعت الى مضجعي فنمت فيه فجاءني ، فقال : احفر برة ،

قال : فقلت : وما برة ، قال : ثم ذهب عني فلما كان الغد رجعت الى مضجعي فنمت فيه فجاءني فقال : احفر المذنونة ، قال فقلت : وما المذنونة ، قال : ثم ذهب عني فلما كان الغد رجعت الى مضجعي فنمت فيه فجاءني فقال احفر زمزم ، قال قلت : وما زمزم ، قال : لا تنزف ولا تدم تسقي الحجاج الاعظم وهي بين الفرت والدم عند نقرة الغراب الاعصم عند قرية النمل .

وبدا يحفر ومعه ابنه الحارث على ضوء تلك العلامات وقد ارادت قريش ان تمنعه لان مكان الحفر من الاماكن المقدسة تقدم فيها القرابين بين الوثنيين اسا ونائلة الا ان هية عبد المطلب حالت دون منعهم له .

وبعد ان تم الحفر طمعت قريش بالماء الغزير الذي انعم الله به على عبد المطلب فأرادوا ان يشاركوها فيه قائلين له انها بئر ابينا اسماعيل فامتنع عبد المطلب ان يتنازل عند رغبتهم وعندما اشتدت المطالبة دعاهم الى التحكيم فقبلوا ان تكون كاهنة بني سعد حكماً بينهم وكان مقرها على مقربة من الشام فجهزوا انفسهم للسفر اليها في الطريق نفذ الماء في رحل عبد المطلب ومن معه فاستسقوا قومهم الذين خاصموهم على بئر زمزم فامتنعوا ان يقدموا لهم الماء وبلغ الأمر بعبد المطلب وجماعته ان اخذوا يودعون الدنيا وحفر كل واحد منهم قبراً ينتظر فيه هلاكه عطشاً وفجأة قام عبد المطلب وقال في قومه^(١) والله ان اللقاء بأيدينا هكذا للموت لا لنضرب في الارض ولا نبتغي لانفسنا العجز فعسى الله ان يرزقنا ماءً ببعض البلاد .

فتقدم عبد المطلب الى راحلته فركبها فلما انبعثت به انفجرت من تحت خفها عين ماء عذب وكبر عبد المطلب وكبر اصحابه ثم نزل فشرب وشرب

(١) سيرة ابن هشام: ج ١ ص ١٢٤ .

اصحابه واستقوا حتى ملأوا اسقيتهم ثم دعا القبائل من قريش فقال هلم الى الماء فقد سقانا الله فاشربوا واستقوا ثم قالوا : قد والله قضى علينا يا عبد المطلب والله لا نخاصمك في زمزم ابداً إن الذي سقاك هذا الماء بهذه الفلاة لهو الذي سقاك زمزم فارجع الى سقايتك راشداً فرجع ورجعوا معه ولم يصلوا الى الكاهنة وخلوا بينه وبينها فازداد حب الناس لعبد المطلب وزاد ايمانهم بمنزلته عند الله وشاع خبره في الآفاق واصبح اسمه علماً بين الناس .

ومضت الأعوام وعظم شأن مكة فكان ذلك باعثاً لغيرة ملك الحبشة أبرهة الذي قاد جيشاً من الفيلة ليهدم البيت الحرام وعندما وصل القائد الحبشي مقصده بعث رسول له سأل عن سيد هذا البلد فدلوه على عبد المطلب بن هشام فقال مقولة أبرهة : اني لم آت لحربكم انما جئت لهدم هذا البيت فان لم تتعرضوا دونه بحرب فلا حاجة لي بدمائكم فقال عبد المطلب والله ، نريد حربه وما لنا بذلك من طاقة هذا ، بيت الله الحرام وبيت خليله ابراهيم فان يمنعه عنه فهو بيته وحرمة ، وإن يخل بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه فقال الرسول فانطلق معي اليه قد أمرني ان آتيه لك .

وعندما قدم عبد المطلب تكلم احد اعوان أبرهة قائلاً : ايها الملك هذا سيد قريش ببابك يستأذن عليك وهو صاحب مكة وهو يطعم الناس في السهل والوحوش في رؤوس الجبال ، فأذن له عليك فيكلمك في حاجته فأذن له أبرهة وكان عبد المطلب أوسم الناس واجملهم واعظمهم فلما رآه أبرهة اجله واعظمه واكرمه وامتنع عن اجلاسه تحته وكره ان تراه الحبشة يجلس معه على سرير ملكه فنزل عن سريره فجلس على بساطه ، وأجلسه معه عليه الى جنبه ثم قال للمترجم : قل له حاجتك ، فقال له : حاجتي ان يرد عليّ الملك مائتي بعير اصابها لي ، فقال أبرهة للمترجم : قل له قد كنت أعجبتي حين رأيتك ثم قد زهدت فيك حين كلمتني . أتكلمني في مائتي بعير أصبحت لك وتترك بيتاً هو

دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلمني فيه ، فقال له عبد المطلب : اني انا رب الابل وان للبيت رباً سيحmie ، وكان ما كان من مصير ذلك الجيش العظيم وكانت رحمة الله لعباده وحمايته لبيته .

وقد زادت تلك الحادثة في عظمة البيت الهاشمي واقرنت بعظمة البيت الحرام وسلطت الضوء الساطع على اشياء ستحدث في هذا البيت في القريب وقيل القصائد الكثيرة في هذه الحادثة وقد اكتملت الحوادث المهمة في حياة عبد المطلب بقضية ولده عبدالله الذي امتاز عن بقية ابنائه بعدد من الوقائع فكانت حياته آخر ضوء يسطع من البيت الهاشمي ليكشف عن الشيء الذي أصبح يترقبه الجميع وهو ولادة المنقذ من هذا البيت المبارك . وقعت حوادث في حياة عبدالله شخصته عن بقية اخوته عند الله وعند الناس .

وأول حادثة وقعت له هو الحادث الدرامي الذي ذكره لنا التاريخ ، مضى وقت طويل على عبد المطلب وهو يحفر بئر زمزم وكان المعول يخر على الأرض في فترات طويلة تؤكد أن حامله هو شيخ كبير ، فعلاً كان شيخاً طاعناً في السن قد انهكته حياة الصحراء القاسية وأمور قيادة هذه المدينة الواسعة . ولم يكن معه في تنفيذ مهمة حفر بئر زمزم الا ولده الوحيد الحارث ، هناك تنفّس عبد المطلب نفساً طويلاً بين وجبات العمل ونظر الى ولده الحارث بعين الأمل .

. كم كنت سعيداً لو كان لي عددٌ من الأولاد يساعدونني في مهمتي ، وتحركت يده الى السماء وتوجّهت انظاره الى الكعبة فدمعت عيناه وتمتم لسانه طالباً من الله ان يرزقه عشرةً من الأولاد ثم أعاد بصره الى الكعبة ناذراً بأنه سيقدّم أحدهم قرباناً الى الله كما فعل ابراهيم بولده اسماعيل .

واكتمل العشرة وظل عبد المطلب على نذره وجاء اليوم الذي يجب عليه الإيفاء وهذا اليوم الذي يجب ان يودع فيه أحد ابنائه لكن طالما كان ذلك في

سبيل الله فلا بأس في ذلك .

لكن من الذي سيختاره لهذا الامر؟ .

لم يكن امامه الا ان يتوسل بالقرعة وهو ان يكتب اسم اولاده العشرة على عشرة اسهم ويقدر بها فمن خرج اسمه كان هو القربان وخشي عبد المطلب ان يأتي القدر على اسم عبدالله لانه كان احب اولاده اليه ، لكن يهون كل شيء اذا كان في سبيل الله .

ودخل عبد المطلب مع اولاده العشرة الكعبة وأجروا القداح فوقع على الاسم الذي كان يحبه .

وتذكر عبد المطلب في تلك اللحظة ابيه ابراهيم وهو حاملاً شفرته يريد ان يذبح ابنه اسماعيل فتأس به وشدت تلك الصورة التاريخية من عضده فأخذ بيد عبدالله وتقدم به خارج الكعبة والشفرة في يده فشاهده الناس والتفوا حوله وكلُّ يتأثر بالمنظر .

ماذا تريد يا عبد المطلب ؟ هل تريد ان تقتل ابنك فقص لهم الشيخ الطاعن الحكاية من البداية وما ان أتم الحكاية حتى انبرى احد الحاضرين ليقتترح الذهاب الى عرّافة في المدينة اسمها قطبة فقد وجدوا عندها حلاً لهذا المأزق .

وارتحل الاب الكبير ومعه ابنه عبد الله حتى وصلوا خيبر ودخلوا على قطبة فأنخبروها بأمرهم .

في اليوم الثاني كانت قطبة قد اعدت لهم الخطة وهي ان يقدحوا بين عبدالله وبين الابل في كل سهم عشرة ابل . .

ففعلوا عشرة مرات حتى خرج القداح على الابل ولكي يطمئن الشيخ

بالحكم امر ان يعيدوا القداح فاعادوه ثلاث مرات وكانت في جميعها تخرج على الابل . فنحر مائة ابل واجتمع الفقراء من كل مكان ليأكلوا من طعام عبد المطلب ويستعيدوا مع انفسهم حكاية عبدالله وما جرى له .

وشاع امره وعرف الصغير والكبير الرجل والمرأة بقصته وكانت نساء قريش يتودّذن اليه ويتمنون ان يكون عبدالله زوجاً لهن لعظمة شأنه ، وارتفاع مقامه ، لكنه ابى ان يتزوج الا عندما يأمره ابوه بذلك ، ذلك الاب الذي عانى من اجله وارهق نفسه عندما خرج السهم على اسمه فكان الولد المطيع لذلك الاب الكبير الذي كان يزداد حباً لعبدالله فأخذه الى المدينة ليؤوجه من افضل بناتها من آمنة . بنت وهب أبنه سيد بني زهرة . وتم ذلك اللقاء الذي كان يرتقه التاريخ والذي كان موضوعاً في حسابات هذا الكون واثمر اللقاء عن ذلك الوليد الذي لم يخلق الله له مثيلاً في هذا الكون والذي اشرق الارض بنوره وانعكس نوره على وجه آمنة الذي كان يتلأأ لبنىء الناس بان في رحمها جنين ليس كالأجنة وان كل شيء سيبدأ مع ولادة هذا الجنين .

ثالثاً: الانجذاب الى محمد (ص):

محمد (ص) كل خلية فيه كان فيها من القوى الروحية ما تستطيع ان تجذب كل البشر .

محمد (ص) هذا المولود الذي جاء الى الدنيا يتيماً ليشعر كل قرشي بحنين اليه . تعهده جده عبد المطلب وهو زعيم قريش ورعى تربيته لينشأ قوياً في تلك البيئة ارسله الى الصحراء لتتبرك بقدومه بني سعد وليشهد فضله كل من عرفه عن قريب وبعيد وكانت حياته ومواقفه خلال الأربعين عاماً قبل البعثة مناراً يشهدها جميع من في مكة ، فقد شاع عنه بأنه الأمين وانتشرت أنباء امانته آفاق الجزيرة العربية فجاء كل من يريد السفر او يريد حفظ امواله يثمنها عند

محمد (ص) يوم لم تكن اماكن لحفظ الاموال كالبنوك .

وفي صغره كانت تصرفاته وشخصيته تدل على الشأن الذي ينتظره وكان الكثير من الهاشميين يتعاملون مع يتيمهم من هذه النظرة العميقة في مستقبل هذا الطفل ، كان عبد المطلب قد تعود ان يستظل نهاراً بجدار الكعبة ، يجلس على فراش مرتفع وحوله اولاده واشراف قريش . ومن بعيد كانت تلوح ليتيم بني هاشم صور جده واعمامه فكان يتقدم اليهم فيثب على فراش جده فيأخذه اعمامه ليمنعونه عن ذلك فيأخذه عبد المطلب في حضنه ليقول لاولاده : دعوه ان لابني هذا لشأن ثم يجلسه معه على الفراش ويمسح ظهره بيده ويسره ما يراه يصنع . ونسأل من اين ادرك عبد المطلب سيكون لهذا الفتى الصغير شأنًا؟ .

هل هو الاحساس الوجداني الناشئ عن النظرة الواقعية للوضع في الجزيرة العربية فقد كانت الامور تدل على الحاجة الى التغيير وكان المجتمع المكي يعيش في حالة انتقالية وهي تؤكد ضرورة وجود رجل مصلح يستطيع ان يقود المجتمع الى الافضل ومن هو ذلك المصلح الذي يستطيع ان يواجه كل تلك التحديات ويتمكن من انقاذه امته .

لقد ادرك عبد المطلب بفطرته ان هذه المسؤولية بحاجة الى رجل عظيم وهو حتى في نفسه لم يجد تلك الكفاءة التي تستوجبها تلك المسؤولية على رغم مواقفه واصلاحاته في مكة .

وعندما كان يرفق عبد المطلب هذه الاحساسات بما شاهده من حفيده وبما امتاز هذا الصبي على جميع الفتيان من فطنة وشخصية وما تبعه من بركات عمّت كل من اتصل به سواء في بيته في مكة او في مكان رضاعته في حي بني سعد .

ادرك عبد المطلب بأن مصلح المستقبل لا يكون سوى حفيده محمد وقد

زاد من ترسيخ هذا المعتقد ما كان يسمع من الكهان والاحبار .

ويقول الرواة قدم عبد المطلب في وفد من قريش ومعه بعض الاشراف قدموا الى اليمن لتهنئة سيف بن ذي يزن على انتصاره وغلبته .

فأسر لعبد المطلب بسر الرسول الذي سبيته الله من قريش وانه سيولد في هذه القبيلة من يحمل هذه الصفات والذي سيكون الرسول المنتظر ولم يكن صعباً على عبد المطلب ان يعرف من العلامات التي اعطاها ذي يزن من سيكون هذا الرسول ولم يمر بخلد زعيم اليمن يوماً ان من يتحدث عنه قد ولد فعلاً وانه حفيد ضيفه عبد المطلب فأوصاه خيراً وحذّره من اليهود وغيرهم .

ولم يكن الامر بحاجة الى كتمان فشخص هذا الصبي وتصرفاته كانت تنبئ بمستقبل زاهر له ومن حوله .

لقد عاش عبد المطلب وهو يأمل ان يرى تحقيق نبوته لكن الموت لم يمهله فانتقلت كفالة محمد (ص) الى عمه ابي طالب وهو يومذاك ابن ثمان سنوات .

ولماذا وقع اختياره على ابي طالب؟ وله العشرات من الاولاد؟ ان ابي طالب رجل فقير وبين اولاده من هو مثل ابي طالب الذي قال عنه القرآن : ﴿ ما اغنى عنه ماله وما كسب ﴾ . ومن اولاده الاغنياء العباس الذي ذكر لنا التاريخ انه كان يشتغل في الربا قبل ان يحرمه الاسلام .

فما هو السر الذي جعل عبد المطلب يختار من بين جميع اولاده ابا طالب ليتكفل رعاية حفيده محمد (ص) وهو الذي تفرّس في مستقبله وعرف شأنه فهل وجد ابا طالب من اكثر ابنائه حباً ورعاية لمحمد؟ .

ام لانه اخو لعبدالله من ام واحده واب واحد؟ .

ام انه وجد شيئاً اخر في فراسته لمستقبل النبي العظيم وهو انه سيلقي الصعاب في طريقه وان ابا طالب وحده الذي سيكون نصيره والمدافع عنه؟ .

وهذا الذي كان ، فقد عاد بعض اولاده محمداً كأبي لهب الذي تفنن في محاربة الرسول (ص) بينما وقف على النقيض منه ابو طالب فكان اشد الناس رعاية وحماية لرسول الله وكان على استعداد لان يضحي بمنزلته لدى قومه من اجل ابن اخيه ومن أجل الدين الذي جاء به من عند الله .

وثمة حقيقة اخرى كان لا بد من مشاهدتها في سيرة النبي حول هذا الاختيار . فقد نشأ النبي في اقصى الظروف واحلكها كان يتيماً ثم ترعرع في الصحراء مات والدته وعمره ست سنوات ومات جده وعمره ثمانية اعوام فذاق رسول الله (ص) اليتيم ثلاث مرات والى جانب اليتيم تربى الرسول في بيئة محرومة فقيرة اذ كان ابو طالب افقر ابناء عبد المطلب لكنه عوضه بدل الحرمان العطف والحب كما ذكر ذلك مؤرخوا السيرة ومنه ما نقله ابن هشام في كتابه من حب ابي طالب لمحمد حيث كان يحبه اكثر من ابنائه علي وجعفر وعقيل^(١) . وكانت فاطمة بنت اسد تطعم محمداً قبل ان تطعم اولادها .

لكن وجود محمد (ص) بهذه الشخصية العالية في بيئة معدمة وترعرعها في احضان الفقر كان يزيد من عوامل الجذب اليه . ولان مفهوم العظمة ارتبطت عند الناس بالمال واذا برجل فقير يصبح عظيماً بشخصيته وبقدراته الذاتية واكثر ما كان الفقراء والمعدمون ينجذبون الى هذه الشخصية لملاكتها الذاتية وليس لعوامل خارجية .

ومع الايام كانت شهرة الرسول تزداد وتتألق تزيد من تألقها اقوال الرهبان وتوقعات العرافين .

(١) سيرة ابن هشام: ج ١ ص ١٧٩ .

فعندما اراد ابو طالب السفر الى الشام للتجارة تعلق به الرسول وكان عمره تسع سنوات . وبعد اسابيع من السير والتعب وصلت القافلة الى مدينة بصرى في الشام وتفاجأ الجميع عندما شاهدوا من يدعوهم لتناول الطعام عند راهب المدينة وزعيمها الروحي (بحيرى) فقد عرفوا عنه انه بخيل ولا يسعه ان يطعم احد من نجله .

فما الذي تغير في هذا الراهب .

وعلى عجل لبوا نداء بحيرى وتركوا احمالهم وتجارثهم عند اصغر من في القافلة وهو محمد (ص) الذي جلس ينتظر عودة عمه ورفاقه ليواصلوا سيرهم الى الشام بعد ان يمضوا فترة عند الراهب وتفاجأ ابو طالب عندما وجد بحيراً واقفاً بلهفة في باب الدير ينتظر وصولهم وينظر في وجوههم بدقة وكأنه يبحث عن شخص بينهم .

وعندما اكمل التحديق في الوجوه التفت الى الجميع قائلاً : يا معشر قريش لا يتخلفن احد منكم عن طعامي قالوا له : ما تخلف عنك احد يبتغي ان يأتيك إلا غلام وهو احدث القوم سنّاً متخلف في رحالهم .

فقال : ادعوه فليحضر هذا الطعام .

ولم تمضِ ثوان حتى كان محمد (ص) بين القوم حتى اذا فرغوا من الطعام وتفرقوا قام بحيرى واختلى برسول الله (ص) سائلاً اياه عن بعض حالاته في المنام واليقظة وكان الرسول يجيبه وكلما اجاب زاد يقين بحيرى بان هذا الغلام الصغير سيكون نبي هذا العصر ولم ينس اثناء توديعه للضيوف ان يوصي ابا طالب بأن يكون على حذر من اليهود قائلاً له : فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت يبغنه شراً فانه كائن له شأن عظيم^(١) .

(١) ابن الانير، الكامل في التاريخ : ج ٢ ص ٣٧ .

وشب رسول الله واخذ يتقدم في العمر وكلما زاد سنه زادت شخصيته سطوعاً في قومه وانتشر خبر امانته .

وكانت هناك امرأة ثرية وصلت اليها انباء كثيرة عن محمد فانجذبت اليه كأبي واحد ينجذب اليه عندما يسمع به وارادت ان تكتشف هذه الشخصية من خلال تجربة عملية .

فدعته الى المضاربة في احدى قوافلها التجارية الى الشام وارسلت معه من يستطيع ان يراقبه وينقل اليها اخباره بدقة .

وارتحل رسول الله (ص) وبصحبه ميسرة الذي كان يسجل كل ما يراه من رسول الله (ص) وعند عودته الى مكة كانت السيدة خديجة في لهفة لسماع ما سجلته ذاكرة ميسرة اكثر من لهفتها لسماع الارباح المضاعفة التي حصلت عليها في هذه التجارة .

وجلس ميسرة يحدثها عن كل ما شاهده واخذ يسطر لها المعاجز التي رآها في الطريق ويتحدث عن امانة رسول الله (ص) وحسن اخلاقه مع من معه فازدادت انجذاباً اليه . وعلى الفور نقلت تلك الصور الى ابن عمها ورقة بن نوفل وكان نصرانياً عالماً مطلعاً على الكتب فسردها عليها . .

لئن كان هذا حقاً يا خديجة ان محمداً لنبي هذه الامة . .

واستطرد ورقة وقد عرفت انه كائن لهذه الامة نبي ينتظر هذا زمانه .

واوصلت هذه الكلمات خديجة الى قناعة بأن عليها ان تحظى بمحمد فارسلت اليه وعلى جناح السرعة وبلا تردد قالت له :

يا ابن عمّ اني قد رغبت فيك . .

ولم يكن قد تعارف في المجتمع الجزيري ان تطلب المرأة الشريفة ذات

النسب والحسب الزواج من الرجل لكن قوة الجذب الكامنة عند رسول الله (ص) دفعت خديجة وهي المرأة العفيفة الشريفة في نسبها والعظيمة عند قومها الى اختيار زوجها بنفسها ولم تكن تبتغي شيئاً من هذا الزواج سوى القرب الى رسول الله (ص) فقد كانت كثيرة المال عظيمة النسب والحسب لا ينقصها شيء وهذه صورة ترسم لنا قوة الجذب التي كان يتحلى بها رسول الله (ص) والتي كانت قد اثرت بكل من عرفه او اتصل به .

ومشهد اخر نقله لنا التاريخ عن الصورة التي كانت في الأذهان عن محمد (ص) ، ففي احد الاعوام اشتدت فيه السيول وتهدمت الكعبة بفعلها واقامت قريش بإعادة بناء البيت المقدس حتى وصلت الى اخر مرحلة من البناء وهي وضع الحجر الاسود في محله . وساد الاختلاف بين القبائل فكل قبيلة ترغب بأن تكون هي صاحبة الحظ في وضع الحجر وتحاول ايضا ان تسلب هذا الفضل من غيرها من القبائل لان رفع الحجر ووضعه في مكانه شرف عظيم تتمناه كل قبيلة ، ودبّ النزاع بين القبائل وكاد ان ينقلب الى قتال لولا الرأي الحكيم الذي قدمه ابو امية بن المغيرة بن عبدالله المخزومي وكان يوم ذاك اكبرهم سناً فقد اشار عليهم ان يتولى وضع الحجر اول وافد من باب بني شيبه فرضوا بالحل وجلسوا ينتظرون . .

فلاحت لهم صورة انسان يدخل ففرحوا وازدادوا فرحاً عندما عرفوا ان ذلك الانسان هو محمد (ص) فتعالت الاصوات لقد جاءكم الصادق الأمين .

وجاء الصادق الأمين وعرض عليهم حلاً معقولاً وهو ان يوضع الحجر في ثوب وتأخذ كل قبيلة بطرف من هذا الثوب ليشارك الجميع في نقل الحجر الى مكانه ففعلوا ، فلما بلغوا به موضعه وضعه بيده ثم بُني عليه^(١) .

(١) ابن الاثير، الكامل في التاريخ: ج ٢ ص ٤٥ .

ولو اراد الرسول ان يقوم بالمهمة بنفسه دون مشاركة القبائل لكان له ما اراد ولكانت القبائل قد رضيت بالأمر .

لكن اقترح الرسول شدّ القبائل اليه وزاد من ثقته بحصافة رأيه وجعلها تعتقد بأن محمداً ينفعها في الصعاب وعند احتدام المشكلات جرت هذه الواقعة بعشر سنين قبل البعثة وظلت عالقة في الازهار ولم تنسها قريش وكيف تنسى ذلك اليوم الذي كاد ان يتحول الى حرب طاحنة وكيف تنسى الصادق الأمين الذي انقذها من تلك الازمة . وفي الخلاصة يمكن القول بأن الاحداث التي سجلتها ذاكرة الناس عن الرسول في أيام صباه وايام شبابه كانت من الكثرة بحيث اصبح اسم محمد معروفاً للجميع للقاصي والداني ولم يحظ اي فرد اخر ولد في قريش بهذه السمعة التي كسبها النبي (ص) والتي نقلته الى قلوب القبائل العربية التي عرفته بالصادق والأمين والحكيم والشجاع الذي يساعد الفقراء والمحتاجين .

وهكذا نجد ان جميع الأنظار تتوجه في النهاية الى الرسول وان اهتمامات الناس تنصب في مجرى يؤدي الى الرسول .

فالذين جذبهم مكة بسمعتها وشرفها وبيتها الحرام وجدوا انفسهم وهم منجذبون الى البيت الهاشمي والذي اتسم بالشرف والكرم والشجاعة والذي كان يقود المجتمع المكي في المرحلة الانتقالية ، ثم وجد هؤلاء انفسهم في النهاية ينجذبون الى سليل البيت الهاشمي والى محمد (ص) .

فمحمد (ص) اصبح مركز الجذب في دنيا الجزيرة العربية فإليه تشخصت الأنظار وباتجاهه انصب اهتمام الناس .

فاصبح محوراً للنبل والشهامة والصدق والامانة والشجاعة والكرم ومساعدة الآخرين وهي كلها صفات يتطلع اليها الانسان العربي ويحلم بها في

عالم المنام فإذا به يجدها في اليقظة في انسان يعيش بينهم يأكل من طعامهم وينام مثلهم ويعيش كواحد مثلهم .

ولا يمكن لنا ان ننس دور العلامات والتنبؤات والدلائل التي اوردتها الرسائل السماوية والتي بقيت محفوظة في ذاكرة الرهبان الذين احتكوا بالرسول (ص) اثناء فترة حياته الاولى قبل البعثة لا يمكن ان نتجاهل دور هذا العامل في انتشار اسم محمد (ص) في الأفاق وفي انجذاب كل من يسمع باسمه وصفاته ويسمع ما جرى عليه من حوادث ليست طبيعية ولم يصادف وقوعها لأحد من قبل .

بهذه الميزات وبذلك الشخصية المحبوبة بدأ الرسول (ص) يصدع بدعوته الى الاسلام ولم يكن صعبا على اصحاب القلوب النظيفة ان يدركوا صدق هذه الدعوة المباركة فالرسول هو الصادق الأمين الذي لم يعرف الكذب في حياته قط . . والناس بفطرتهم السليمة كانوا يتجاوبون مع نداء محمد (ص) لا اله الا الله لانه نداء مألوف في عالمهم الفطري . لكن ليس كل الناس يملكون الفطرة الصافية ويستطيعون ان يسمعوا وقع ذلك الصوت الالهي في اعماقهم فقد ران على قلوبهم وتكدست عليها اكوام من الشهوات فتعطل عمل الفطرة ونبتت الخرافات في عقولهم فتعطل عمل العقل فاصبحوا يحملون شحنا سالبة تتحرك بعكس الرسالة .

1. The first part of the paper is devoted to the study of the properties of the function $f(x)$ defined by the equation

$$f(x) = \int_0^x \frac{1}{1+t^2} dt$$

and to the study of the properties of the function $f(x)$ defined by the equation

$$f(x) = \int_0^x \frac{1}{1+t^2} dt$$

and to the study of the properties of the function $f(x)$ defined by the equation

$$f(x) = \int_0^x \frac{1}{1+t^2} dt$$

and to the study of the properties of the function $f(x)$ defined by the equation

$$f(x) = \int_0^x \frac{1}{1+t^2} dt$$

and to the study of the properties of the function $f(x)$ defined by the equation

$$f(x) = \int_0^x \frac{1}{1+t^2} dt$$

and to the study of the properties of the function $f(x)$ defined by the equation

$$f(x) = \int_0^x \frac{1}{1+t^2} dt$$

and to the study of the properties of the function $f(x)$ defined by the equation

$$f(x) = \int_0^x \frac{1}{1+t^2} dt$$

and to the study of the properties of the function $f(x)$ defined by the equation

$$f(x) = \int_0^x \frac{1}{1+t^2} dt$$

and to the study of the properties of the function $f(x)$ defined by the equation

$$f(x) = \int_0^x \frac{1}{1+t^2} dt$$

and to the study of the properties of the function $f(x)$ defined by the equation

$$f(x) = \int_0^x \frac{1}{1+t^2} dt$$

and to the study of the properties of the function $f(x)$ defined by the equation

$$f(x) = \int_0^x \frac{1}{1+t^2} dt$$

عشية البعثة

في العقود الثلاثة قبل الرسالة اي من وفاة عبد المطلب وحتى البعثة فقد المجتمع المكي بعض بريقه وترك المنطقة المضيفة للرسول (ص) الذي اصبح يتألق في وسط مجتمع يزداد عتمة .

فبعد وفاة عبد المطلب نشبت الفرقة في المجتمع المكي واشتد النزاع بين بني هاشم وبني امية وفقد هذا المجتمع القيادة المركزية التي كانت متمثلة بشخصية عبد المطلب فالكثير من المهابة التي امتلكتها قريش كانت مصدرها شخصية عبد المطلب . وبعد وفاته فقدت قريش الموجة فدبت النزاعات الفردية فتضاءلت بذلك المكانة السياسية لقريش . فاصبحت عرضة للعدوان من القبائل العربية الاخرى بعد ان كانت مهابة لا يجرأ احد على معارضتها . وحرب الفجار التي وقعت ورسول الله في عمر الشباب (خمسة عشرة عاماً) كانت الدليل على هوان قريش في اعين العرب حيث تعرضت الى هجمات متعاقبة لأربع سنوات من قبيلة هوازن .

وقد سارع احد ابناء عبد المطلب وهو الزبير الى ايقاف هذا التفكك فدعى الى نوع من التماسك بين ابناء المجتمع المكي فاجتمعت بنو هاشم وزهرة وتيم في دار عبدالله بن جدعان فصنع لهم طعاماً فتعاقدوا وتعاهدوا بالله المنتقم ليكونن مع المظلوم حتى يؤدي اليه حقه وقد جاء على لسان

الرسول الاكرم لقد حضرت في دار عبدالله بن جدعان حلفا ما يسرني به حمير
النعم ولو دعيت الى مثله لاجبت^(١) والى حد ما استطاع هذا الحلف ان يملأ
فراغ النظام في المجتمع المكي بعد غياب القيادات التاريخية . لكن هذا الفراغ
كان قائماً فانعدمت معه السيطرة التامة على كل ابناء المجتمع وكان لهذا الواقع
آثار ايجابية على بعض اجنحة المجتمع فقد ادى انهيار الهيمنة والسلطة
المركزية الى تحرر نسبي من القيود والعادات والتقاليد التي كانت تكبل
المجتمع وبدأ الناس يفكرون بحرية واصبح لليهود والنصارى نشاط بارز بعد ان
كانوا مقيدين بقوانين اجتماعية صارمة فكانوا في نظر قريش عبيداً وكانت
مساكنهم بعيدة عن بيت الله الحرام حسب التقسيم الاجتماعي .

حركة التمرد ضد الوثنية

ولقد ادى هذا التخلخل في النظام الى ظهور حركة تمرد على الوثنية
قادتها مجموعة من شباب مكة في طليعتهم زيد بن عمر الذي قرّ من زوجته ومن
عمه الخطاب وسافر الى الشام والعراق ثم عاد والتقى باليهودية والنصرانية لكنه
لم يدخل فيها وكان يستند الى الكعبة ويقول اللهم لو اني اعلم اي الوجوه احب
اليك لعبدتك به ، ولكني لا اعلم . وجاء عن اسماء بنت ابي بكر انها قالت رأيت
زيد بن عمرو قائماً قد أسند ظهره الى الكعبة وهو يقول يا معشر قريش والله ما
منكم على دين ابراهيم غيري وكان زيد يعيب على قريش قربانيتها للآلهة ويقول
الشاة خلقها الله وانزل لها الماء من السماء وانبت لها النبات وانتم تذبحونها لغير
الله ، وكان لزيد مواقف اصلاحية في قبال الانحراف الطاغوي فمن اعماله انه
كان يأتي لمن يريد قتل ابنته فيقول له انا اكفيك امرها ومؤنتها ويأخذها منه فاذا
ترعرعت قال لأبيها ان شئت دفعتها اليك وان شئت تركها لي اكفيك مؤنتها .

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى: ج ١ ص ٨٢.

ومن رواد حركة التمرد ضد الوثنية ورقة بن نوفل بن اسد بن عبد العزى وهو ابن عم خديجة بنت خويلد (رض) وقد تنكر للوثنية واخذ يدرس التوراة والانجيل واتصل بالنصارى وقيل انه اعتنق النصرانية ووجد في الانجيل ما يشير الى ظهور نبي الاسلام وكان اول من بشر بالنبوة عندما جاءته خديجة (عليها السلام) واخبرته بما شاهده وسمعه رسول الله (ص) في غار حراء فقال ورقة قدوس قدوس والذي نفس ورقة بيده ان كنت صدقتني يا خديجة لقد جاءه الناموس الاكبر الذي كان يأتي موسى بن عمران وانه لنبي هذه الامة ، قولي له ليثبت وبعد ايام من هذا الحادث التقى ورقة بن نوفل برسول الله (ص) وهو يطوف في الكعبة فسأله عما شاهده وسمعه فاخبره رسول الله (ص) بما رأى وسمع فقال له ورقة والذي نفسي بيده انك لنبي هذه الامة ولقد جاءك الناموس الاكبر الذي جاء لموسى . ثم اخبره بما سيلاقيه من قومه لكنه طمأنه بأنه سينصره وعندما يعلنون الحرب عليه قائلاً ولئن ادركت ذلك اليوم لأنصرون الله نصراً يعلمه ثم ادنى رأسه منه فقبل يافوخه وانصرف كل منهما الى منزله .

لكن لم يمهل القدر ورقة بن نوفل لكي يشاهد ذلك اليوم وبقي بوعدة الذي قطعه لرسول الله فقد جاء اجله قبل اعلان الدعوة الاسلامية بمدة وجيزة .

ومن الاسماء التي لمعت في فترة ما قبل البعثة والتي عرفت بتنصلها عن الوثنية ودعوتها للحنفية عبيدالله بن جحش الذي تمسك بشريعة ابراهيم عليه السلام وطال عمره حتى ظهور الاسلام فاسلم على يد رسول الله ثم هاجر الى الحبشة . وفي الحبشة ارتد عن الاسلام وتمسك بالنصرانية وترك زوجته ام حبيبة بنت ابي سفيان فتزوجها رسول الله اكراماً لاستقامتها ولانها كانت وحيدة بعد ارتداد زوجها عن الاسلام .

وكان عبيدالله بن جحش يقول لمن يلتقي من المسلمين فقحنا وصأصأتم اي بمعنى اهتدينا وانكم لا زلتم تبحثون عن الهدى .

وتكشف هذه التبدلات في حياة عبيد الله انه كان قلقاً مضطرباً لا يستقر عند رأي ولا يصبر على دين مثله مثل الكثير من أبناء جيل الشباب الذين اتصفت حياتهم بالاضطراب الدائم والتغير المستمر فهم لا يبحثون عن الحقيقة تصور ما يعبرون بانتماءاتهم المضطربة حالة عدم الاستقرار في حياتهم الفكرية والنفسية .

والشخصية الرابعة التي حملت راية التحنث في عصر ما قبل البعثة عثمان ابن الحويرث وهو ايضا من اقرباء خديجة زوجة رسول الله (ص) اضطرته افكاره المعادية للوثنية بان يترك الجزيرة العربية الى بلاد الروم فتنصّر فيها فقربه ملك الروم واحسن اكرامه وقيل انه اراد اقناع ملك الروم بضرورة احتلال مكة وهدم الوثنية فيها واحلال النصرانية محلها وان يكون هو عاملاً فيها من قبل القيصر وعندما احس المكيون بنواياه طردوه من بلادهم فاضطرّ الالتجاء الى بلاد الغساسنة وهناك لم يكف عثمان بن الحويرث الحاق الاذى بالمجتمع الوثني فحثّ ملك الغساسنة على قطع الطريق امام تجارة مكة وما ان احس المكيون بذلك حتى سارعوا في ارسال الهدايا الى ملك الغساسنة وتأمروا على حياة خصمهم بن الحويرث فقتلوه بالسّم ولم يذكر لنا التاريخ اسماء اخرى غير هؤلاء الاربعة الذين اعلنوا تحنثهم . وهناك طائفة من الاحداث والوقائع نقلها لنا المؤرخون عن اشخاص استهانوا بأصنامهم كحادثة امرؤ القيس عندما استقسم بالازلام ثلاث مرات عند صنم يعظّمه العرب (ذي الخصلة) وكانت تخرج عليه بالنهي عن الثأر لمقتل ابيه فغضب امرؤ القيس وجمع الاقداح وكسرها وضرب بها الصنم وسبه وسب من يعظّمه ثم غزا بني اسد فظفر بهم ولم يستقسم بعدها ابداً ، لكن مثل هذه الحوادث لا ترقى لمستوى حركة التمرد التي حمل رايتها اشخاص كزيد بن عمرو وغيره ممن ذكرناهم .

وحتى حركة زيد لم تكن بمستوى الحركة الاصلاحية التي يقول عليها

اصلاح الوضع المتخلف في الجزيرة العربية فقد اقتصرت هذه الحركة على انشطة فردية محصورة بفرد واحد لا تتجاوز حالة واحدة هذا أولاً ، وثانياً انها كانت تفتقر الى البعد الاجتماعي فهي كانت حركة فكرية لاصلاح العقيدة من الوثنية الى التوحيد ولم تكن حركة اجتماعية تبني اصلاح مظاهر التخلف الاخرى في المجتمع الجاهلي وثالثاً : ان هذه الحركة لم تجد في الجزيرة العربية مكاناً لها للمقاومة الضارية التي كانت تواجهها أية حركة تنوير في المجتمع الجاهلي فاضطر هؤلاء المتحشون ان يتركوا ارض الجزيرة العربية الى مكان اخرى اكثر تحراً واكثر تنوراً من الجزيرة العربية ويجدون فيه الحماية الكاملة وهذا مؤشر واضح على استحالة عملية الاصلاح في بيئة الجزيرة العربية لتصلب مجتمع الجزيرة على الجاهلية ومقاومتها لاية صيحة اصلاحية .

لقد اراد المستشرقون ان يقللوا من حجم العمل الجبار الذي قام به رسول الله (ص) عند تركيزهم على وجود هذه الحركة وكأن النبي (ص) قد اخذ مبادئه من هؤلاء .

ولدحض هذه الشبه كان لابد من اعطاء صورة واقعية لحركة التحنث التي ظهرت قبيل الاسلام فهي لم تكن ذات قوة او تأثير على المجتمع المكي ولم تستقر هذه الحركة عند نظرية واضحة في الحياة والموت والكون فهي حركة محصورة بعدد من الافراد ولم تستطع ان تصنع واقعاً سليماً في المجتمع لافتقارها للعنصر الاجتماعي . وخلاصة الامر ان بعض العرب عندما تعمقوا في دراسة الديانات لمسوا تفاهة الوثنية فقاموا ببندھا فاطلقوا العنان لفطرتهم السليمة التي قادتهم الى الحنيفية الابراهيمية فأين هذه الحركة الصغيرة من ذلك السيل الذي أنهمر على رؤوس المشركين فطهرهم من رجس الوثنية والجاهلية وجعلهم قادة الامم وزعماء التاريخ ؟ .

ان من الخبث مقايسة حركة الرسول (ص) بحركة جماعة صغيرة اندثرت

مع موت افرادها وظلت الرسالة الاسلامية خالدة خلود الزمن لانها رسالة خير واصلاح لكل البشر على مدى الزمن وعبر المسافات الشاسعة .

الانحلال الاجتماعي في جزيرة العرب :

لا يعرف التاريخ جاهلية ظلماء كنتلك التي سادت المجتمع العربي قبل الاسلام .

فبأستثناء بعض الخصائص الاجتماعية والثقافية التي اوجدتها حياة الصحراء او التي تعلقت ببقايا الديانات والموجات الاصلاحية التي حدثت في الجزيرة العربية فبأستثناء ذلك فان حياة الانسان العربي كانت حياة مشبعة بالتخلف متصفة بالانحطاط والهيوط .

فقد كانت الخرافة قد احتلت مواقعها في عقل الانسان في ذلك اليوم فسدت منافذ العلم والحكمة فلم يكن في الجزيرة العربية يومذاك من يعرف الكتابة والقراءة الا بعدد الاصابع وقد ادى ذلك الجهل الى انتشار الخرافات ففي ايام الجفاف وانقطاع المطر كانوا يربطون بعض الاعشاب والاغصان اليابسة الى ذيل بقرة ويشعلوا فيها النار ويأخذوا البقرة الى الجبل وهي طريقتهم في الاستسقاء معتقدين ان لهب النار يشبه وميض البرق وان وجود اللهب في اعالي الجبل سيسبب نزول المطر وعندما كانت تحل عليهم مصيبة كانوا يدخلون البيت من الباب الخلفي ارضاءً للارواح الشريرة التي يعتقدون بانها تدأب على ايداء الانسان بخلق المتاعب له وانها السبب ايضا في اصابة الانسان بالأمراض فكانوا يقومون بالعزائم لدفع الارواح الشريرة .

وكان العرب يتطيرون بحركة الطير فمتى ما اجتاز الطير من الشمال الى اليمين تفاءلوا بذلك وسموه بالسايح واذا اجتازتهم من اليمين الى الشمال تشاءموا وسموه بالبارح وعندما يموت منهم احد كانوا يربطون بقبره بعيراً يتركونه

لوحده دون ان يقدموا له الاكل فيجوع حتى الموت معتقدين ان ميتهم سوف يركب البعير يوم المحشر .

وفي مجتمع تتحكم فيه الجاهلية تصبح المرأة والبهيمة على حد سواء فقد كانت سلعة يتوارثها الابناء عن الاباء فيحق لهم التصرف بها كيفما شاؤوا ويتم استخدامهن في البغاء لكسب المال لأسيادهن وخصوصاً الاسيرات .

وكان يحق للرجال الاقوياء ان يقيموا ما يشاؤوا من العلاقات المَحَرمة مع النساء وحتى المتزوجات وكان الرجال يجيزون لزوجاتهم ان يتصلن بالآخرين وخصوصا الاشداء من الرجال من اجل تحسين الانجاب وكان يعرف هذا العمل بـ « الاستبزاء » .

وكان الرجال يجبرون الجواري على التعري والسير في الطرقات بصورة مستهجنة .

واصبح تعري المرأة امرأ عادياً غير مستهجننا حتى وهي تطوف حول البيت الحرام .

وكانت اذا ارادت ان تطوف ولم تجد ثوباً من الثياب الخاصة للعبادة فانها تطوف عارية واضعة يدها على فرجها وفي رواية انها تنزع جميع ثيابها الا درعا مفرجاً عليها وتطوف به . وقد طافت ضياعة بنت عامر بن صعصعة على تلك الحال وهي تنشده مخاطبة الرجال من حولها .

اليوم يبدو بعضه او كله وما بدا منه فلا احله

وتُجسّد عبارات ضياعة وسلوكها الوضع السائد للمرأة في الجاهلية وضياعة ليست بالمرأة الوضيعة فهي بنت الاشراف وقد ادعى بعض المؤرخين ان رسول الله (ص) اراد ان يتزوج بها فقبل له فيها كُبرة فتركها . وبالرغم من

كون الرواية تثير الشك لان ضياعة كانت معروفة لدى القاضي والداني فمن غير الممكن ان لا يعلم رسول الله (ص) بحالها واذا علم بحالها فمن غير الممكن ان يتقدم للزواج منها الا انها في الواقع تؤكد الواقع المزري الذي كانت تعيشه المرأة في الجاهلية .

وكان من العادات التي ينتقص من قيمتها انتشار ظاهرة وأد البنات فكان الاب يبقى بانتظار لحظة الولادة ﴿ فاذا بُشِّرَ بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ايمسكه على هون ام يدسه في التراب ﴾ فيمنع انتشار الخبر قبل ان يأخذها الى الصحراء ويحفر لها حفرة صغيرة فيدسها وهي حية ترفس بأيديها وارجلها وتستصرخ بعويل يذيب الصخر وفي بعض الحالات كان الزوج يجبر زوجته ان تقوم بنفسها بهذا العمل كبرياءً منه وعتواً وكانت المسكينة تأخذ فلذة كبدها لتضعها تحت التراب امثالاً لأوامر زوجها .

فأي شقاء كان اعظم من شقاء هذه الام المفجوعة . وأي قلب قاسي فارغ من الانسانية والمحبة كان يمتلكه هذا الزوج وهو لا يعبأ بمنظر الضحية ولا بمنظر الام الوالهة . لقد خلت القلوب من الشفقة والرحمة لانها كانت قلوباً مريضة بمرض الجاهلية وكانت بحاجة الى طبيب حاذق والى دواء سريع المفعول والاداء . ولم يكن ذلك الدواء الا الايمان . الذي كان له مفعولاً ساحراً في النفوس فمع اول جرعة من هذا الدواء كان كل شيء يستقيم في ذلك الانسان .

كانت الحياة تعود الى ذلك القلب المتحجر وكانت ومضة الفكر تشع في ذلك العقل المَعطل . وفي لحظة واحدة كان انساناً جديداً يُولد في هذا العالم من تلك الكتلة المتراكمة من الرذائل والخرافة والانحطاط وهذه هي معجزة الاسلام انه استطاع ان يصنع من الماء الأسن ماءً طهوراً وأن يوجد من وسط الجاهلية الظلماء من يحمل مشعل العلم للعالم .

العالم عشية البعثة :

كان العالم في القرن السادس الميلادي ينقسم الى اربع تقسيمات جغرافية وهي الهند والامبراطورية الايرانية والامبراطورية البيزنطية والجزيرة العربية وكانت الدول الاخرى مصر وسوريا وغيرها دولاً محتلة تابعة لاحدى هذه الامبراطوريات .

ولعل هناك اجماع من المؤرخين الغربيين والشرقيين المسلمين وغير المسلمين ان العالم كان يعيش ظلاماً سحيقاً في القرنين الخامس والسادس الميلادي وكانت البشرية تترقب بسبب المعاناة والمظالم والتفسخ الى من ينقذها من جحيم الجاهلية والتخلف .

وقد سبق وتحدثنا عن اوضاع المجتمع الجاهلي في الجزيرة العربية وبقي ان نتحدث بايجاز عن اوضاع المجتمعات في المناطق الاخرى .

١ - الهند :

* عانى المجتمع الهندي من ابشع انواع التفاوت الطبقي وكان مقسماً الى اربع طبقات لكل طبقة مكانة معينة ومركزاً محدداً فالبراهمة طبقة الكهنة ورجال الدين لهم امتياز خاص فالبراهمي لا يُعاقب عندما يذنب لان ذنوبه مغفورة ولا تجبى منه الضرائب وليس للطبقات الاخرى الحق في مجالسة البراهمي ولا يحق لهم ان يلمسوا يد البراهمي .

* سادت في الهند في القرن السادس حالة الفوضى واصبحت ساحة للتنافس والحروب دفعت الطبقات السفلى ضريبتها الباهظة .

* حطّ من قدر المرأة ، وكانت تباع وتشتري على مائدة القمار . وعندما يموت الزوج كانت الزوجة تبقى الى آخر عمرها بلا زوج وكانت العوائل

الارستقراطية تجبر الارامل على حرق انفسهن وفاءً للزوج الميت وهي عادة لا زالت باقية في الهند وتسمى بـ «ستي» .

* لفترات طويلة كانت الهند محتلة وكان للمحتلين امتيازاً اقتصادياً فهم يسنون الضرائب وتنقل اليهم ما تدره الارض من محاصيل وارباح وكان المحتلون يتقاسمون الاموال بينهم وبين طبقة البراهمة تاركين الغالبية العظمى من سكان الهند يتضوعون جوعاً ويتصببون عرقاً .

٢ - الامبراطورية الايرانية :

* كان ملوكهم يمارسون الحكم بالحق الالهي معتقدين انهم مفوضون من قبل الله وكانوا يعتبرون انفسهم اعلى من مستوى الانسان فيأخذون ويسلبون ويقتلون وينكحون ما شاؤوا من النساء دون ان يمنعهم مانع وكان على الناس الاذعان لهم وتقديسهم والقيام للملوك كما يقوم العبد امام ربه للصلاة . وكانت موارد البلاد كلها ملكاً لهؤلاء الملوك وغالوا في اكتناز الاموال وادخار الجواهر والكنوز وعاشوا عيشة بذخ وترف ويذكر لنا التاريخ ان يزدجر عندما هرب من المدائن مع دخول العراق في الاسلام اخذ معه الف طاهٍ والف مغنٍ والف قيمٍ للخمور والف قيمٍ للبزة هذا ما استطاع اخذه اما ما لم يستطع فهو اكثر .

* وكان الشعب يعاني من بؤس وشقاء ، يرهقونهم بالعمل الشاق في الزراعة او الصناعة ويحرمونهم من الاجر ولا يستطيعون حتى سد رمقهم وستر عورتهم . وكانوا يعيشون عيشة البهائم وفي الحروب وما اكثرها بين الدولة الساسانية والدولة البيزنطية كانوا هم الوقود لها يحترقون فيها من اجل غيرهم .

* تحولت ايران في القرنين الخامس والسادس الى حلبة لصراع المذاهب والافكار فبالاضافة الى الزرادشتية الديانة القديمة لبلاد فارس ظهر في القرن الثالث الميلادي من جدد هذه الديانة هو ماني وسمي مذهبه بالمانيّة . حرّم ماني

الزواج على اتباعه لايقاف النسل معتقداً ان انقطاع النسل سيؤدي الى انتصار النور على الظلمة لانه سيمنع امتزاج النور بالظلمة وهو مصدر شرور العالم .

وعلى نقيض ما جاء به ماني جاء مزدك في اوائل القرن الخامس الميلادي بمذهب يدعو الى اباحة النساء والاوال وجعل الناس شركاء فيها فانتهكت الاعراض وانتشرت اللصوصية واصبح الفرد وهو لا يأمن على امواله ونسائه . فكان الاقوياء يدخلون البيوت فينهبونها ويمتلكون النساء والمزارع والاراضي التي باتت خربة مقفرة في العهد المزدكي لان الملوك الجدد لم يكن لهم عهد بالزراعة .

٣ - الامبراطورية الرومانية :

* اعتبر الرومان أنفسهم اصحاب رسالة وانهم على دين عيسى (ع) لكنهم اوغلوا ايضا في تحريف المسيحية ومزجها بالوثنية فقد اقتبس المسيحيون طقوسهم الدينية من المجتمعات الوثنية فاصبحوا يألّهون ابطالهم ويصنعون التماثيل لهم واخذوا يعبدونهم معتقدين انهم حلقة وصل بين الله والانسان فهم لهذا يحملون صفة الالهية .

فاصبحوا لا يختلفون عن جاهلية الجزيرة العربية في عبادة الاصنام مع اختلاف ضعيف ان اولئك كانوا يعبدون شهداءهم وابطالهم بينما هؤلاء يعبدون هبل ويسوع .

ومن جانب اخر كانت حروب طاحنة تجري على قدم وساق بين نصارى الشام والعراق وبين نصارى مصر حول طبيعة المسيح فكان كل فريق يُكفّر الفريق الاخر .

* كان القياصرة يدعون انفسهم بأنهم آلهة وعلى الناس الاعتراف بذلك والسجود للقيصر وكانوا يستخدمون هذه الصفة في فرض الضرائب حتى اصبح

الناس يفضلون ان تحكمهم حكومة اجنبية بدلاً من حكومة القياصرة .

* حاول البعض من الغربيين وحتى المتغربين من بلاد الاسلام ان يصف المجتمع البيزنطي بأنه مجتمع ديمقراطي مستدلين بوجود مجلس للشيوخ يناقش فيه قرارات القيصر لكن في الحقيقة لم يكن وجود هذا المجلس الا وجوداً صورياً فليس بمقدوره مطلقاً معارضة القيصر الذي يعتبر نفسه الها . وقد كان الحكم في الامبراطورية الرومانية حكماً دكتاتورياً فردياً . عانى فيه المواطن اشد المعاناة فامتهنت كرامته وبالاخص من كان في مصر وسوريا يعيش تحت سيطرة الحكم الروماني حيث كان جهده وعرقه يذهب ثمناً لبقائه في الحياة .

* انتشرت في الامبراطورية الرومانية ظاهرة الالعب القاسي فانشأت ساحات الالعب الرياضية تتسع لجلوس الالاف من المتفرجين وكانت تجري فيها الالعاب المصارعة بين مصارعين او بين مصارع وأحد الحيوانات المفترسة . وكانت تنتهي هذه الالعب دائما الى مشاهد مأساوية يستلذ بها المتفرجون الذين باتوا يعشقون العنف والدماء والوحشية .

وهذه كانت التسلية المفضلة لأهل الروم .

وهكذا تكشف لنا النظرة العامة لاولضاع العالم في القرن السادس الميلادي ، ان العالم كان تائهاً بين المتناقضات حائزاً بين الدولتين المتصارعتين منتظراً لمن يستطيع انقاذه وقد مرت فترة طويلة من الزمن لم تلتق البشرية فيها بأي مصلح يؤدي دوراً انسانياً وسط ذلك التراكم من السلبه . فقد كانت تمزقها الخلافات وتأكلمها الحروب الطاحنة وتعصف بها رياح التخلف والجاهلية على رغم التقدم النسبي الذي شهدته الدولتان الساسانية والبيزنطية لكن حتى هذا التقدم الجزئي لم يكن له نتائج مؤثرة حيث تسحقه عجالات الدكتاتورية الفردية التي كانت تتحكم بمقاليد الزعامة في كلا الدولتين

ولم يعد الاصلاح ممكنا في اجواء التحكم والجهل وسيطرة مبدأ القوة .

فكان السبيل الوحيد لانقاذ البشرية هو ان تمتد اليد الالهية الى الارض من جديد وتبعث رسولاً جديداً وبرسالة جديدة تناسب المرحلة الزمنية .

من هنا كان ظهور الاسلام في ذلك الزمن يمثل اكثر من ضرورة لارساء قواعد جديدة لحياة الانسان تمكّنه من اعادة حياته وتضمن له السعادة في الدنيا والاخرة .

وكان لا بد من الاشارة هنا الى محاولات بعض المفكرين التقليل من شأن الرسالة الاسلامية بالادعاء الواهي بان الرسالة الاسلامية جاءت لتحقيق غاية محددة وانها اتت استجابة لوضع خاص كان يعيشه العالم في نهاية القرن السادس الميلادي . فهم يحصرون القيمة العملية للرسالة بذلك الزمن المحدد .

فالاسلام حمل راية وجاء لمعالجة مشكلات ذلك العهد والقرآن جاء يتحدث بلغة ذلك العصر .

اما اليوم فالبشرية تعيش عصراً اخر هو عصر العلم وعصر التقدم الفكري والتكنولوجيا فلم تعد هناك حاجة الى ذلك الدين الذي جاء قبل خمسة عشر قرناً .

ان هذه الشبهة وغيرها من الشبهات اضعف مما هي بحاجة الى رد لانها تحمل في ذاتها بذور التناقض ، ولا ريب فان المؤمنين بهذه الشبهة يقرون بصورة لا واعية بان الاسلام هو رسالة كل عصر لانهم يعترفون بحقيقة الدور الذي قام به الاسلام في بداية ظهوره .

والملاحظ ان مشاكل البشرية الرئيسية التي تصدى لها الاسلام هي نفسها

في كل زمان ومكان وهي مشاكل ترتبط بالعقيدة وبالعلاقات الاجتماعية
وبالعلاقات الاقتصادية شرور مصدرها الطغيان سواء كان طغيان الحاكم او
طغيان المال .

التنشئة الربانية والشخصية المتكاملة

لم تكن الظروف الاجتماعية والبيئة المتخلفة في الجزيرة العربية تسمح بنشأة رجل منقذ يتسامى على القيم القائمة في المجتمع ويصل الى الذروة الانسانية في الخلق والفضيلة والى قمة الاعتقاد والايمان ، ولم يكن وجود رجل كمحمد (ص) ممكناً في الجزيرة العربية لولا الرعاية الالهية التي حلت مع اللحظة الاولى في اللقاء الذي تم بين فتى بني هاشم وبين عروسة بني زهرة آمنة بنت وهب فقد كانت يد الرعاية الالهية تمس ذلك النبي العظيم وهو بعد لم يكن سوى نطفة في صلب عبدالله ثم جنين في احشاء آمنة ثم وليداً ، فقبل ان يرى الوليد النور توفى والده عبدالله اثناء رحلة له الى الشام لغرض التجارة .

وقد حَزَّ في نفس الزوجة الوفية ان يولد مولودها دون ان يرى لنفسه والدا يرعاه لكن كانت الرعاية الالهية مرافقة لمحمد (ص) ولربما كان هذا هو السر وراء موت عبد الله فقد ترك موته المجال أمام ارادة الله لان تحتضن محمد (ص) ولكي تصوغ فيه شخصية قوية قادرة على مواجهة اعباء الرسالة وهذا ما اشارت اليه الآية الكريمة ﴿الم يبعثك يتيماً فأوى ووجدك ضالاً فهدى﴾ .

لقد تجلت الرعاية الالهية منذ اليوم الاول من ولادته فقد قذف الله حب

محمد (ص) في قلب جده عبد المطلب الذي راح يختار له بين الاسماء اجملها فسماه محمداً على غير عادة العرب يومذاك وعندما اعترض عليه رجالات قريش هذه التسمية قال لهم اردت ان يكون محموداً في السماء لله وفي الارض لخلقه .

وراح عبد المطلب يقدم محمداً على اولاده ويضاعف من اهتمامه به فاخذ يترقب المرضعات على عادة اشراف قريش ولم يتوان في البحث عن مرضعة مناسبة لوليدته مستهيناً بتكاليف ذلك وما يحمله من اعباء مادية .

وجاءت المرضعات إلى مكة وانصرفن عن محمد لانهن كن يرتججن البر من الاءاء . فليس هناك ما يثير حماسهن لارضاع اليتيم إلا حليلة بنت ابي ذؤيب السعدية التي اعرضت عن محمد أول الامر فاضطرت ان تعود اليه لانها كانت ضعيفة الحال . وعند الانطلاق الى البادية التفتت آمنة الى زوجها الحارث قائلة له ؛ والله اني لأكره ان ارجع مع صواحيبي ولم آخذ رضيعاً والله لأذهبن الى ذلك اليتيم ولأأخذنه .

وجاءت بالطفل الى الصحراء ترافقها بركات من السماء منذ اللحظة الاولى من الحركة نحو البادية فقد سمت غنمها وزاد لبنها . وظل محمد في الصحراء حتى الخامسة من عمره وهي فترة حرجة من حياة الانسان لان في هذه الفترة تنشأ اللبنة الاولى في كيان الفرد فاذا كانت لبنات سليمة اصبح الفرد سليماً في جسمه وروحه وعقله .

لقد نهل محمد (ص) في السنين الخمسة الاولى من عمره من جو الصحراء الطلق نسيم الحرية واستنشق عبير الارادة القوية ووجد في هواء الصحراء وخشونة العيش ما يقوي عوده ويسرع في نموه ويزيد من تفتح عقله وفصاحة لسانه . لقد حمل محمد (ص) في هذه السنوات الخمس اجمل ذكريات الطفولة واصبح يتذكر تلك الايام كلما التقى بمرضعته حليلة فقد اكرمها

عندما انتشرت المجاعة في البادية فاقبلت حليلة الى محمد بعد زواجه من خديجة فاكرمها باربعين رأس من الغنم وبعير يحمل الماء وكانت الشيماء ابنتها واخته في الرضاعة بين من اسر مع بني هوازن بعد حصار الطائف فلما جيء بها الى محمد (ص) وعرفها اكرمها وردھا الى اهلها على رغبتها .

وبعد عودته من الصحراء كانت امه بانتظاره لتأخذه معها في اول رحلة له الى يثرب . وفي الطريق الى يثرب مرّت العائلة الكريمة بقبر عبدالله فكان اول لقاء بين الابن والوالد الراحل عن الحياة .

وكم كان هذا اللقاء مثيراً لاحزان آمنة التي اخذت تقص لولدها قصة ذلك الاب الذي كان مقررّاً ان يموت قبل ان يتزوج وقبل ان تنجب . . لكن شاءت ارادة الله ان يتأخر موعد رحيله من اجل ان يخرج من صلبه نبي عظيم .

لقد استحضر الفتى قصة والده من البداية حتى النهاية وهو يتلمّس تلك القوة الغيبية التي كانت وراء تكوينه والتي كانت معه طيلة السنوات التي قضاها في الصحراء وهي لا زالت معه ، والتي كانت معه ايضا عندما فقد والدته بعد اشهر من لقائه بقبر ابيه وعند العودة الى مكة وفي الطريق تمرض والدته وتدفن في الابواء ليواجه محمد (ص) يتماً اخر اشد من الاول لانه يتم شاهده بأم عينه وعلى خلاف المتعارف فقد زادت هذه المصيبة من تألق شخصية الفتى واصبح يسموا على الم الفراق بالتحلق الى السماء ويرنو بعينه الى رحمة الله الواسعة عليه وعلى غيره من العباد .

وتضاعف اليتيم مرة ثالثة بوفاة كفيه ومن كان يحنو على تربيته جده عبد المطلب فتكفله عمه ابو طالب الذي كان يكد طويلاً من اجل ان يوفر لابنائه الكثير من الحياة الكريمة ، كان ابو طالب يشتغل في التجارة وفي إحدى رحلاته الى الشام تعلق به محمد (ص) وهو حينذاك ابن اثني عشر عاماً ولم يفكر ابو طالب في اخذ ابن اخيه معه خوفاً عليه من متاعب السفر لكنه استجاب له عندما

وجد فيه الاصرار والرغبة الكبيرة .

وكانت هذه الرحلة تجربة عملية مع الحياة اكتسب فيها محمد (ص) وهو لا يزال فتى الكثير من الدروس فقد مرّ اثناء سفره بأثار الامم السالفة التي ذاق عذاب الله لانها اصررت على الطغيان والكفر .

لقد وفر جو الصحراء والسماء الصافية في الليل فرصاً للتأمل وتدبر الحقائق بالانحص في حياة تلك الامم التي اندثرت والتي لم يبق منها الا الاطلال التي تلوح تحت اشعة النجوم المتألقة في السماء .

وفي بصرى جنوب الشام تعرف محمد (ص) على اخبار الروم وتنصرهم وارتقابهم لنبي سيظهر بدين جديد وكان من اهم تلك الحوادث التي شاهدها او سمعها ما كان بينه وبين عمه ابو طالب وبينهما وبين الراهب بحيرى الذي شاهد على محمد (ص) امارات النبوة كما تدل عليه كتب النصرانية .

لقد كان محمد (ص) اثناء رحلته هذه في عمر يسمح له بالتأمل الطويل والتفكير المديد وقد ساعده رجحان عقله وعظمة روحه وذكاءه الحاد على التفكير في كل الذي رآه وسمعه ولم يكتف بمجرد الرؤية او السماع ، فكانت هذه الرحلة رحلة الى اعماق التاريخ غاص فيها محمد (ص) في اعماق الوجود مستخلصاً منها الحقيقة الخالدة .

وكانت هذه الفترة الهامة من عمره فترة اعداد وتكامل لعناصر بنائه النفسي والروحي وبعدها استطاع محمد (ص) ان يدخل الحياة بقلب مطمئن واردة مستقيمة لا يخاف على نفسه من التلوث من البيئة الجاهلية .

فقد قضى فترة شبابه وهو يسمع الكثير من الشعر والخطب والكلمات من اليهود والنصارى الذين كانوا يدعون الناس لدينهم وكان يشارك قومه في الخروج الى الاسواق كسوق عكاظ وسوق مجنة وسوق ذي المجاز وهو يستمع الى

المعلقات فيأخذ النافع منها ويعرض الرديء على بصيرته فتلفظ ما لا تسيع وفي هذا العمر ايضا شاهد محمد (ص) ما يفعله شباب مكة من فعال سيئة وكيف يقضون اوقات فراغهم في اللهو والغناء والجواري ، فلم تدن نفسه للانخراط معهم وهو شاب مثلهم ولم يكن ما يحول دون ذلك السبب الذي ذكره بعض المستشرقين الذين حاولوا الطعن في عفة محمد (ص) معللين عدم انخراطه مع الشباب بسبب ما يعانيه من فقر وفاقه .

لم يكن الفقر مانعاً عن المشاركة مع شباب مكة الذين كانوا ينظرون الى محمد (ص) نظرة تقدير واعجاب ويتمنون مشاركته لهم ، بل السبب هو النفسية العالية التي امتلكها محمد (ص) والتي جعلته ينصرف عن مثل هذه الملذات الى اللذة الحقيقية وهي لذة التأمل والتفكير في سر الحياة وسر الخليقة .

لقد وجد المجتمع المكي المتفسخ في محمد (ص) شاباً منصرفاً عن الملذات والاهواء الشاذة لكنه لم يكن منصرفاً عن الحياة الاجتماعية والحياة المعاشية .

فقد شارك محمد (ص) قومه في العديد من الفعاليات العسكرية والسياسية والاجتماعية فعلى صعيد المشاركة العسكرية حمل محمد (ص) السلاح الى جانب اعمامه في حرب الفجار وهو اذ ذاك ابن عشرين عاماً وقد نشبت هذه الحرب بين هوازن وقريش ويعود السبب في نشوبها ، ان النعمان بن المنذر كانت له تجارة في كل عام يرسلها من الحيرة الى سوق عكاظ وهي محملة بالمسك ويشترى بثمانها جلوداً وحبالاً واقمشة ثمينة مزركشة وكان يوكل احداً لقيادة القافلة ففي تلك السنة عرض البراض بن قيس الكناني نفسه عليه وعرض عروة الهوازني نفسه ايضا فاختر النعمان عروة فغضب البراض فوقع بغريمه فقتله واخذ منه القافلة فأثار ذلك حفيظة هوازن التي سارعت لمحاربة قريش وهي في عكاظ وقبل ان تدخل الحرم ، لكن قريش تراجعت ولاذت

بالحرم ، فأنذرتهم هوازن الحرب بعكاظ العام المقبل وظلت الحرب اربع سنوات انتهت بالصلح وسميت بحرب الفجار لانها وقعت في شهر رجب احدى اشهر الحرم وكان لرسول الله موقفاً هاماً في هذه المعركة دفاعاً عن المظلومين ففي رواية اليعقوبي ان قريشاً قالت لمحمد (ص) يا ابن مطعم الطير وساقى الحجيج لا تغب عنا فانا نرى بحضورك الغلبة والظفر .

فقال : اذا اجتنبتم الظلم والعدوان والقطيعة والبهتان فاني لا اغيب عنكم فعاهدوه على ذلك ويذكر ان رسول الله (ص) قد طعن ابا البراء (ملاعب الاسنة) فارداه عن فرسه .

وكان لرسول الله (ص) مشاركة فعالة في ميدان اخر من ميادين الانتصار للمظلومين هو في حلف الفضول الذي عقد نتيجة ما آل اليه الوضع الامني في مكة بعد حرب الفجار . فقد سلبت هذه الحرب الامن والاستقرار . فاستغل البعض تدهور الأوضاع الأمنية فأعتدوا على أموال الناس سيما الغرباء مما اثرت تأثيراً كبيراً على حركة التجارة والسوق في مكة وما حولها .

اذ ذاك دعا الزبير بن عبد المطلب ومعه ابو طالب القبائل القرشية الى الاجتماع فاجتمع بنو هاشم وزهرة وتيم في دار عبدالله بن جدعان فصُنع لهم طعاماً فتعاقدوا وتعاهدوا بالله المنتقم ليكونن مع المظلوم حتى يعود اليه حقه وقد حضر محمد (ص) هذا الحلف وكان يقول لقد حضرت في دار عبدالله بن جدعان حلفاً يسرني به حمر النعم ولو دُعيت الى مثله لأجبت .

وأستطاع هذا الحلف ان ينهي حالة الاعتداء على اموال واعراض الناس وان يوفر لمكة وضعا امنيا يناسب مكانتها الدينية والتجارية ، ومن بين الحوادث التي وقعت بعد عقد هذا الحلف حادثة الاعتداء على القتل ابنة خثعم احد الوافدين على مكة وكانت من اجمل نساء العرب فاختطفها نبيه بن الحجاج وغيبها عن ابيها فقال الخثعمي من يعديني على هذا الرجل فليل له عليك

بحلف الفضول فذهب الى اعضائه واستجار بهم فاجتمعوا على نبيه واجبروه على ارجاعها اليه قبل ان يمسيها .

لقد كان لرسول الله (ص) حضور فاعل ومؤثر في كل قضية فيها دفاع عن المظلوم وفيها استرداد لحقوق الغير .

واستطاع الرسول ان يكسب من خلال هذه المشاركة مكانة مرموقة لدى المجتمع المكي فاصبح رجلاً مهاباً محترماً لدى الجميع وسموه الامين لاستقامته وسمو روحه وعلو نفسه .

وربما لم تجد قريش كلمة تعبر عن شخصية محمد (ص) بافضل من هذه الكلمة التي تحمل معاني كبيرة في مجتمع جاهلي يتناول فيه الواحد على الاخر ولا يتحسس فيه الفرد نعمة الأمان والطمأنينة على ماله وعرضه ودمه .

فقد جسدت كلمة الأمين معالم شخصية الرسول (ص) قبل البعثة حسبما يراها افراد المجتمع المكي .

ولم تكن امانته لتقتصر على اموال الناس بل سموه الامين لاستقامته واتزانه لانهم لم يلاحظوا شططا في حياته ولم يشاهدوه يوماً من الايام في مكان غير لائق بمثله ولم يروه في حالة شاذة عن سيرة الصلحاء ، لقد أوجدت صفاته النبيلة قوة خارقة في جذب الناس . . فكان كل من اقترب اليه يزداد انجذاباً اليه فعليّ عليه الصلاة والسلام يتعلق بمحمد (ص) ويصبح كظله الذي يسير معه منذ ان التحق به وهو في السادسة او السابعة عندما هبت عاصفة المجاعة على مكة فتقاسم بنو عبد المطلب اولاد ابي طالب فوقع اختيار محمد على عليّ وهو صبي في السادسة او السابعة ومنذ ذلك العمر كان علي الى جانب ابن عمه ولم يعرف التاريخ حتى الآن علاقة رفاقية اقوى من تلك العلاقة التي كانت بين محمد وعلي وكانت تزدد قوة ومتانة في الملمات واثناء المواجهة الحاسمة مع

طغاة قريش ففي اللحظات الحرجة ليس هناك شيء أحوج إلى القائد من وجود رفيق مخلص يقف إلى جانبه ليزود بروحه عن قائده ، فلقد كان عليّ هو رفيق الدرب الذي ما ترك قائده لحظة من اللحظات .

والنموذج الآخر للعلاقة الاجتماعية في حياة محمد علاقته بزيد الذي اشترته خديجة من ماله ليكون عبداً لمحمد (ص) ولم يمكث زيد طويلاً كعبد فقد قرر محمد (ص) عتقه فما ان سمع والده بتحرر ابنه حتى سارع إلى محمد (ص) يطالب باعادة ولده اليه . ولم يسع لمحمد (ص) الذي يقدر للاب هذا الحق الا ان يعطى لزيد حق الاختيار بين البقاء او الذهاب مع والده لينعم بالحنان الابوي لكن لم يصدق الوالد اذنه عندما سمع ولده وهو يقرر البقاء مع محمد (ص) رافضاً عودته الى اسرته وابويه ، ان علماء التربية ليمرون على هذا الحادث بكثير من التأمل لانه يثير فيهم الاستغراب وتستثير فيهم تأملات لا حد لها فاية جاذبية كان يمتلكها محمد (ص) حتى اصبح الابن يفضل البقاء معه على البقاء مع والده . ان هذا النموذج وغيره من النماذج التاريخية الاخرى لتؤكد بان محمداً كان على قدر كبير من الجاذبية الي صنعته خلقته العالية وتعامله الانساني مع الافراد حتى قال عنه ربنا سبحانه وتعالى ﴿ وانك لعلى خلق عظيم ﴾ ، فقد تعلق به النفوس الطاهرة وتأثرت به حتى النفوس الملوثة فكانت هذه الجاذبية عوناً له في الدعوة الى الله .

ولم يعيش محمد (ص) كلاً على احد فمنذ نعومة اظفاره وهو يعمل فقد اشترك في الحياة الاقتصادية ليوفر لنفسه ما يحتاج اليه من مال ولتعطيه هذه الحياة المزيد من الخبرة والمزيد من القدرة على مواجهة الاعباء ، فقد ابتدأ حياته الاقتصادية راعياً للاغنام ومنحته هذه المهنة فرصة للتأمل واطالة النظر في الخلق وفي المخلوقات .

وبعد ان كبر اشتغل في التجارة وهي كالرعي لانها تقتضي التنقل من

مكان لآخر وفي التنقل يكسب المرء الكثير فالتنقل رياضة لتنمية الجسد . .
يعطي صاحبه صفة الخشونة لتنمية النفس وترويضها على الصعاب ويستثير في
الانسان التفكير ويخلق لديه الاستعداد للتأمل والغوص في اعماق الامور فياتي
تفكيره منطقياً متسلسلاً حتى يصل الى الحقائق وهو ايضا يمنح الانسان الكثير
من المعلومات عن حياة الامم وعن تاريخها وعن الحضارات التي قامت على
الارض ففوق كل شبر من الارض آثار لبني الانسان فقد سار على هذا الشبر
اناس كثيرون على مدى التاريخ وسكن فوقه اناس كثر .

ان التنقل يفتح العيون امام احداث وقعت يستطيع الانسان ان يتخيلها اذا
ما ملك القدرة على التخيل الواقعي .

لقد اختار الرسول مهنة الرعي في سنينه الاولى ومن ثم مهنة التجارة في
سنينه الاخيرة قبل البعثة لا لكي يستعين بهما لتوفير حاجاته المعاشية فقط بل
لكي يستفيد منهما في حاجاته الاخرى النفسية والروحية والعقلية فكان حريصاً
كل الحرص على كل عمل يقوم به حريصاً على الوقت من ان يذهب سدى وهو
في تلك الصحراء التي يضحي فيها الزمن لا معنى له .

وكانت خطوته الاولى في ميدان التجارة هي المقدمة لحياة جديدة فقد
ضم محمد (ص) الى حياته شريكاً جديداً ملأ فراغاً في حياته وتحمل جانباً من
اعباء الحياة ولم يكن زواجه الا ثمرة قوة جذبه عليه الصلاة والسلام . كانت
خديجة بنت خويلد افضل نساء القرشيين والمكيين في خلقها وخلقها وجميع
مواهبها والى جانب ذلك كانت ذات ثراء كبير فقد اصبحت السيدة الاولى في
مكة واذا عرفت ان هذه السيدة هي التي اختارت محمداً للزواج وهي التي
خططت لهذا الزواج فعند ذاك سندرك ما كان يحتله محمد من جاذبية وسمعة
طيبة في الجزيرة العربية وهي الجاذبية التي لم يحصل عليها النبي من مال او
اب فقد جاء الى الحياة يتيماً وعاش يتيم الاب والام ولم يمتلك قيراطاً واحداً

كان يفتقد لابسط مقومات النفوذ الاجتماعي بحسب الاعراف القائمة يومذاك لكن بشخصيته القوية وباخلاقه الفذة طرح قيما جديدة في التعامل الاجتماعي واصبح بتلك المقومات العالية التي يمتلكها افضل رجل في المجتمع المكي يعرفه الجميع ويحبه الجميع ويحترمه الصغير والكبير .

وعندما جرفت السيول الكعبة قررت قريش تجديد بنائها وكان محمد (ص) في مقدمة المشاركين في العمل وعندما بلغ البناء تمامه اختلفت القبائل حول من يضع الحجر الاسود في مكانه لما لهذا العمل من فضل وشرف لدى العرب وتخاصم القوم وكاد ان يقع بينهم القتال وتقوم بينهم الحروب التي لا يعلم منتهاها سوى الله فقربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دماً وتعاهدوا مع بني عدي على الموت وادخلوا ايديهم في ذلك الدم في تلك الجفنة .

وتطايير الشرر من عيون الجميع وفي لحظة من اللحظات تغلب على العصبية صوت العقل عندما سمعوا كبيرهم وهو ابو امية بن المغيرة بن عبد الله المخزومي وهو يشير اليهم ان يتولى وضع الحجر في مكانه اول وافد من باب شيبة فرضوا بهذا الحكم وكان اول الوافدين من ذلك الباب هو محمد بن عبد الله فلما رأوه استبشروا بقدومه وقالوا باجمعهم بصوت واحد جاء الصادق الامين وازدادوا اعجابا به لحصافة رأيه ، وحكمته في حل المشكلة فقد امرهم بان ياتوا بثوب كبير لتأخذ كل قبيلة بطرف منه فرفع الحجر ووضع فيه ثم التفت الى شيوخهم وقال لهم لتأخذ كل قبيلة بطرف منه ، فاستحسنوا ذلك منه ووجدوا فيه حلاً عادلاً يحفظ للجميع حقوقهم ولا يعطي لاحد امتياز على الاخرين .

لقد ارتسمت هذه الواقعة في اذهان القبائل العربية وظلت ذاكرتهم وهي تحمل صورة طيبة عن محمد (ص) ولم تكن السنوات الخمسة التي تفصل بين هذه الحادثة والبعثة بكثيرة اذ ظلت ذاكرة العربي تحتفظ بتلك الحادثة بكامل تفاصيلها .

فشجعت هذه الحادثة البعض على استيعاب حادثة البعثة بالتصديق القلبي الا ان الاكثرية كانوا يخشون على مصالحهم من الحركة التغييرية التي جاء بها النبي (ص) والتي قلبت موازين الحياة الاجتماعية لما هو ضد مصالح الطغاة والجبابرة من زعماء قريش الذين قاوموا الرسالة لا ايماناً بعدم صدقها بل قاوموها خوفاً على مصالحهم .

اخذ عمره الشريف يتجه نحو الأربعين فيزيده صفاءً في الفكر وضياءاً في الفعل فاصبح يتلمس حقائق الوجود ويزداد ابتعاداً عن المجتمع الجاهلي الذي كان يغط في جاهلية كثيفة ويسكب برذاذه الى كل من يعيش تلك البيئة . كان محمد يتأمل واقع مجتمعه وما يعاني من ترسبات وجاهلية ظلماء فيتحسس ما سيؤول اليه هذا المجتمع من مصير اسود اذا بقي على هذه الجاهلية فيثير فيه ذلك احساساً بالمسؤولية يدفعه الى التفكير بالمعالجة فكان يشعر بالحاجة الى الانفراد لوحده في اماكن بعيدة عن صخب الجاهلية ليجد فرصة للتفكير . فكان يخرج من مكة ويلتجأ الى جبالها وشعابها ووجد في غار حراء التي تبعد بمسافة طويلة عن مكة مكاناً ينشد فيها الوحدة والخلوة مع نفسه .

فكلما اقبل شهر رمضان شدّ رحاله واخذ القليل من الطعام وتوجّه الى موضع لقائه بربه طالباً الحقيقة .

وفي خلواته عند ربه كان همه الوحيد هو ان يجد السبيل لانقاذ مجتمعه الذي اصبح على وشك الغرق فكلمة واحدة قادرة لان تنشب بينهم الحروب لسنين طويلة والخرافة اصبحت تنشب بمخالبها المجتمع كله وبات المجتمع اسيراً للمنفعة والمال واصبح من لا يملك المال اسيراً للاغنياء الجميع يثنون تحت اقدام الوثنية . فلم يعد هناك من يستطيع انقاذهم فالأصنام التي تراكت حول بيت الله لم تصنع شيئاً ، لم تدفع الشر عن هذا المجتمع ولم تستطع ان توقف حالة التخبط التي يعيشها فهي اصنام خادمة صنعتها ايدي البشر فما

عساها ان تفعل وهي السبب في هذا التخلف .

اما المسيحية واليهودية فقد حُرّفتا واصبحتا بعيدتين كل البعد عن رسالة عيسى وموسى فلقد لعبت بهما اهواء الملوك واهواء القسس والكهان واصبحتا حركات جوفاء وعبادات شكلية لا تستطيع ان تصنع شيء لانسان على شفا الغرق .

وايضا وجد محمد (ص) في غار حراء بالاضافة الى فرصة التفكير فرصة العبادة والتوجه الى الله ، وصقل فؤاده بالايمان بالله فكان لا يبرح المكان حتى ينقضي شهر رمضان وعندما يعود الى اهله تستقبله زوجته بحفاوة وهي تشاهد على جسده اثار العبادة فقد اذبله الخشوع والقرب من الله وكان يزداد تواضعاً وصدقاً مع ابناء قومه عند ما يعود اليهم فيراهم على وضعهم يغطون في سُكر عميق ويمضون في الطريق نحو هاوية سحيفة فينالهم لحالهم ويتلوى لما يصيبهم بسبب اعمالهم وكم تمنى ان يجد السبيل لوقف هذا التردّي فكان ينتظر شهر رمضان القادم بفارغ الصبر علّه يصل الى ما يريد ويأتي شهر رمضان ويمضي محمد (ص) على عادته ايام الشهر في غار حراء ويزداد قلبه صفاءً وينعكس ذلك الصفاء باشعة مضيئة في منامه فيرى الرؤى ثم يرى تحقّقها في اليقظة فلقد تكشّفت له امور كثيرة وهو في غار حراء واصبح على أهبة الاستعداد لتلقي الاوامر بعد ان تكاملت شخصيته فبلغت درجة الكمال الروحي والنفسي والعقلي فاصبح شخصية متكاملة بكل ابعادها ، حينها جاءه الوحي من عند الله .

كلمات من السماء

استقبل رسول الله (ص) الوحي واستمع الى جبرائيل وهو يقرأ له كلمات من عند الله ولم يكن نزول الوحي على فرد في ذلك المجتمع شيئاً عادياً وما كان باستطاعة اي فرد في ذلك اليوم ان يتحمل آثار الوحي ان لم يكن ذو شخصية قوية وروح عالية وقلب قوي ورسول الله (ص) كان وحده في ذلك المجتمع وفي ذلك الزمن الذي تهيأ لاستلام الوحي ولو لم يعرف في مجتمعه بالصدق لاتهمه الناس بالجنون وفعلاً اتهمه البعض بانه ساحر ومجنون .

لقد هيأ الله رسوله (ص) لتلقي الرسالة فقبل ان ينزل الوحي كان رسول الله (ص) يرى الرؤى ثم يرى تحققها في عالم اليقظة مما اوجد الارضية النفسية لتلقي الرسالة فهذه الحالة اوجدت لدى رسول الله (ص) ثقة عالية بما يرى وما يسمع وهيأته لرؤية جبرائيل ولسماع كلام الله ومن طرف آخر هيأت مجتمعه وبالأخص الاقربين الذين لهم اطلاع على حاله ان يتربوا امرأ مهماً في حياة محمد (ص) .

لقد بدأ الوحي اول ما بدأ بدا بالرسول (ص) .

فاول خطوة على طريق الدعوة هو ان يعتقد الداعية بما يقول وان يطمان

بسلامة ايمانه ومعتقداته . فلفترة من الزمن كان جبرائيل يقول لمحمد انك رسول الله وكان يكرر هذه العبارة لكي يطمئن الرسول بصدق الكلام الذي يسمعه ولكي يستعد لتبليغ الرسالة .

ومن ناحية اخرى ابتداء الوحي بكلمة اقرأ ليكون محمد (ص) على يقين بان ما يسمع هو وحي من الله لانه كان امياً لا يقرأ ولا يكتب مما سيزيل الشك من حوله فهو قد جاء بكلمات يعجز عنها العرب وهو الامي الذي لا يقرأ ولا يكتب .

اقرأ ...

ماذا يقرأ وهو الامي؟

ويرد الرسول (ص) ماذا اقرأ؟ وماذا عساه ان يقرأ وهو لا يعرف القراءة في الثانية يتكرر الامر وفي الثالثة ينطلق الوحي ويتواصل كالسيل ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الانسان من علق ﴾ ويردد محمد (ص) هذه الكلمات مع جبرائيل ، اذن ما يسمع ليس همسات في داخله بل هو صوت يسمعه على لسان جبرائيل وهو يطلب منه ان يقرأ كلاماً لم يسمعه قط في حياته ولم يسمع العرب في تاريخهم وعلى رغم التهيئة التي كان عليها النبي (ص) اثناء نزول الوحي فانه فزع مما سمع ومما شاهد فخرج من الغار هائماً على وجهه واخذ يهرول بين الجبال عله يجد ما يطمئن به قلبه .

وبيناهو في الوادي اذ سمع صوتاً مدوياً بين الجبال يقول يا محمد انت رسول الله وانا جبرائيل فرفع الرسول رأسه الى السماء فاذا برجل حاف القدمين في افق السماء وهو يردد عبارة يا محمد انت رسول الله فوق النبي لينظر مدهوشاً وجعل يصرف بوجهه عنه ويتجه ببصره صوب زاوية اخرى فاذا به شاخص امامه وكانت خديجة قد ارسلت الرسل في طلبه بعد ان تأخر كثيراً

وبحث الرسل عن محمد (ص) في كل مكان وصعدوا الجبل لكنهم لم يشاهدوه فعادوا الى خديجة ليزيدوها قلقاً .

ولم تمكث خديجة طويلاً حتى شاهدت النبي وهو يعود بصورة اخرى فقالت يا ابا قاسم اين كنت فوالله لقد بعثت رسلي في طلبك حتى بلغوا اعلى مكة ورجعوا فحدثها بما شاهده وما سمع .

فلم تتردد في تصديقه لانها كانت بانتظار مثل هذا الحدث فقال أبشر يا بن العم واثبت فوالذي نفس خديجة بيده اني لارجو ان تكون نبي هذه الامة ولكي تتضح الصورة وتتجلى الحقيقة قامت خديجة مسرعة الى ابن عمها ورقة بن نوفل وكان قد قرأ كتباً كثيرة في الاديان وسمع من اهل التوراة والانجيل فاخبرته بما اخبرها به رسول الله وبما رأى وسمع فقال ورقة قدوس قدوس والذي نفس ورقة بيده ان كنت صدقتيني يا خديجة لقد جاءه الناموس الاكبر الذي كان يأتي موسى ابن عمران وانه نبي هذه الامة قولي له فليثبت فرجعت خديجة الى رسول الله (ص) واخبرته بقول ورقة .

الخلية الاولى :

وبعد ذلك اللقاء الرهيب الذي تم في اعماق جبل ثور تواصل الوحي وهو يحمل لرسول الاوامر بالصدع بالرسالة .

فاخذ الرسول (ص) يرسي بناء المجتمع الاسلامي في وسط المتاهة الجاهلية بدأ بعزم كبير وارادة لم تستسلم للظروف القاهرة .

كان يرى عبر حجب المستقبل ما سيلاقيه من متاعب وما تصادفه من مشكلات ومصاعب فهو يعرف مجتمعه وانه ليس من السهل ان يتسجيب للحق .

كان رسول الله (ص) على إدراك كامل بانه سيسير عكس التيار الذي

يجرف المجتمع الى جاهلية اشد ظلاماً واكثر ارتكاساً ، فكان عليه ان يعد العدة وان يبدأ بداية حكيمة وان يحسن الاختيار وان يحكم خطته حتى يكون مصيرها النجاح وليس الفشل .

فأول ما بدأ بأهله لان الاهل هم اعرف الناس بصدقه فهم اقرب الناس اليه وادراهم بحاله .

فبدأ بعلي وهو غلام لا يتجاوز الثانية عشرة لكنه كان فتى قوياً عاقلاً متزناً حكيماً في تصرفاته حتى اصبح من الصعب عليك ان تعتقد انه ابن الثانية عشرة والكثير من الرواة عدّوه في عمر اكبر من هذا .

وكان رسول الله (ص) يرى في عليّ الكثير من الآمال فكل قائد بحاجة الى من يساعده ليكون معه في اوقاته والى جانبه في كل حالاته في الشدة والرخاء .

وكل مصلح بحاجة الى رفيق يطمئن اليه يستشعره في اللحظات الحاسمة ويتكل عليه في الساعات الحرجة ويقف الى جانبه حينما يبتعد عنه الآخرون فذاك موسى (ع) عندما بُعث بالرسالة وامره الله بان يذهب الى فرعون انه طغى كان من بين مطالبه وهو في اول الطريق الى التحرك ان يتقبل الله اختياره لاختيه عوناً ووزيراً .

﴿ واجعل لي وزيراً من اهلي هارون اخي اشدد به ازري واشركه في امري ﴾ .

كان اختيار النبي (ص) لعلي اختياراً صائباً ، فعلي يتدفق ايماناً فهو يحمل قلباً طاهراً لم تلوثه عبادة الاصنام وهو من جانب آخر ابن عم النبي وربيه واقرب الناس اليه فحرى بهذا القلب المتدفق بالوحدانية والاخلاص ان يصبح اول ارض تستقبل بذرة الاسلام .

وبعد ان آمن علي امتلك رسول الله (ص) مفتاح التحرك نحو المجتمع وضمن مستقبلاً رحباً لرسالته واطمأناً على سلامة تحركه وانه حقق الخطوة الأولى نحو بناء الصرح الاسلامي وبعد اسلام علي حانت مرحلة الدعوة فاخذ رسول الله يدعو الاقرب بالاقرب من اهله فدعا خديجة ممثلة بالمرأة التي رفع الاسلام شأنها واوصلها الى مدارج رفيعة والمرأة هي نصف المجتمع واسلام خديجة هو الخطوة الثانية نحو تكامل النواة الاولى التي سينفلق منها المجتمع الرسالي سيما لو أضيف لهذه النواة زيد بن حارثة ربيب رسول الله (ص) ولده بالتبني الذي اسلم فكان ثالث ثلاثة .

وبهذه العائلة الكريمة رسول الله وزوجته وولده بالتربية وولده بالتبني بدأ عهد الاسلام وبنيت القاعدة الاولى التي ستقوم عليها دعائم الرسالة الاسلامية ، فان وجود عائلة واحدة مؤمنة بالاسلام يعني ان هناك امكانية لانتشاره وان الطريق اصبح مفتوحاً امام الدعوة الاسلامية وان الاسلام قد ترسخ على الارض حتى لو كان عدد المؤمنين به هو ثلاثة انفار وكان ذلك يعني ان النبتة قد تفتحت وخرجت من تحت الارض لقد بدأ رسول الله (ص) يصدع بالرسالة بهذا النفر القليل لانه كان واثقاً من النصر مطمئناً من المستقبل .

1. The first step is to identify the problem or question that needs to be addressed. This involves understanding the context and the specific requirements of the task.

2. Next, it is important to gather relevant information and data. This can be done through research, consultation with experts, or by analyzing existing resources.

3. Once the information is gathered, the next step is to develop a plan or strategy. This involves breaking down the problem into smaller, manageable parts and determining the best approach to solve each part.

4. After the plan is developed, the next step is to implement the solution. This involves putting the plan into action and monitoring the progress to ensure that the solution is effective.

5. Finally, it is important to evaluate the results of the solution. This involves comparing the actual outcomes with the expected results and identifying any areas for improvement.

1. What is the purpose of the study?
 The purpose of the study is to investigate the effect of the use of a mobile learning application on the learning outcomes of students in a mathematics course.

مهمات البناء

بعد ان خطا الرسول الخطوة الاولى في طريق البناء وهي تكوين الخلية الاسلامية الاولى مضى في طريقه نحو تكميل الاشواط الاخرى فكانت امامه مرحلتان في البناء ، الاولى بناء التجمع الرسالي والثانية بناء المجتمع الاسلامي .

مرحلة التجمع الطليعي

بدا كل عضو في الخلية الاولى يتحرك لتوسيع القاعدة الاسلامية عبر الاتصال الشخصي المكثف بالاقرباء ، واتسم التحرك الاسلامي في هذه الفترة الهامة من فترات الدعوة بسمات خاصة كان لها الاثر الفاعل في تنشئة الكيان الاسلامي واقامته قوياً منيعاً مقاوماً للعواصف الجاهلية التي هبت بعنف مقررة اجتياح ذلك الكيان الناشئ .

مبادئ التحرك في المرحلة السرية

الظروف الخاصة التي حدثت بتحرك النبي (ص) وهو في اول انطلاقة المباركة ادت الى اختيار اساليب خاصة في التحرك تضمن استمرارية الدعوة

وانتشارها داخل المجتمع الجاهلي وقد كونت تلك الاساليب سمات المرحلة الحساسة من التاريخ الاسلامي وهذه السمات هي -

أولاً : حسن الاختيار فقد كانت هناك اعتبارات محددة في اختيار الافراد تفرضها المرحلة المهمة التي كانت تمر بها الحركة الرسالية ، فقريش تتأهب لقمع هذه الحركة وتصفية اعضائها فكان السبيل لمنع ذلك هو التدقيق في اختيار الافراد الذين يراد ضمهم الى التجمع الاسلامي اختيار الاقوياء في نفوسهم الاشداء في المحن الذين يصرون في المواجهة ، اختيار ذوي القدرات العالية في المقاومة الذين لا يلوون ذراعاً للعدو ولا ينكسرون في الشدة ، الذين لا يجد الضعف والوهن الى نفوسهم طريقاً والذين لا يترددون لحظة واحدة في التصريح بمواقفهم الصلبة - من ناحية اخرى كان رسول الله (ص) يختار من يجد في اسلامه حياة جديدة تفصله تماما عن حياته السابقة وما يحف بها من جاهلية ظلماء فكان يختار العبيد والمضطهدين الذين يجدون في الاسلام المنقذ والمخلص والذين يكشفون انفسهم في الاسلام .

اما اصحاب الاموال وارباب الزعامات فان المانع الذي يمنعهم من التسليم للدين هو المصالح والعادات الموروثة والادوار الاجتماعية التي يمثلها كل فرد منهم في المجتمع الجاهلي ، فكانت كل هذه الاعتبارات تنهاى مع دخول الفرد الى الاسلام .

من هنا فذوي المصالح وذوي المكانات الاجتماعية المرموقة هم ابعد الناس عن الاسلام وعلى العكس كان الفقراء والمطمورون في المجتمع والمنسيون هم اقرب الى الاسلام لانهم لا يجدوا ما يمنعهم عن التسليم لله بل يجدون ما يجذبهم الى الدين وهو رغبتهم في الحرية وفي الحياة التي يطمح اليها كل انسان حتى العبيد .

فالعبد لم يخلق عبداً بل خلق انساناً يملك الطموح وفيه الرغبة الى الحياة .

وكان النبي (ص) يختار من يقدر على إداء دورٍ ما في نشر الرسالة كقدرة على البيان والاقتناع ومن اسس الاختيار التنوع القبلي والغاية من التنوع هو مد جذور الرسالة الى كل القبائل لابعاد التجمع عن الصراعات القبلية وخلق حالة الموازنة بين كل العشائر وهي حالة مطلوبة في تلك الفترة من العصر القبلي .

فأختار الرسول (ص) من كل قبيلة اثنيْن وثلاثة ليعتقوا الاسلام . . من بني هاشم ومن عبد شمس ومن نوفل وتيم واسد بن عبد العزى وعدي وامية وزهرة وعبد الدار ومخزوم وعامر والحارث بن فهر وجمح وسهم بالاضافة الى العبيد الذين آمنوا .

ومن اسس الاختيار التنوع الجغرافي وذلك بهدف ايصال الرسالة الى مناطق اوسع من مكة حتى لا يمكن لأحد فرض الحصار على الدعوة ، فلو كان الاسلام محصوراً في مكة لاستطاعت قريش من تصفيته خلال فترة وجيزة ، لكن انتشاره في مناطق عديدة من جزيرة العرب مكّن المسلمين من الهجرة ومن الانتشار في اطراف الجزيرة العربية ، وكان موسم الحج افضل فترة لنشر الدعوة ومد نفوذها الى بقاع الجزيرة العربية فكان اسلام ابي ذر واسلام عدد من الاوس والخزرج خير دليل على رغبة القيادة في فك الحصار الذي كانت تضربه قريش ضد الدعوة بالتغلغل الى مناطق اخرى من جزيرة العرب .

ومن اسس الاختيار التنوع السني . . فالاسلام هو حركة يجب ان تمتد عبر الزمن كما وانها يجب ان تمتد عبر المكان ايضا فكما ان التنوع الجغرافي يحقق الامتداد على الارض فان اختيار صنف الشباب ما دون العشرين سيحقق الامتداد على مستوى الزمن . . لكن لا يعني ذلك اقتصار الدعوة على صنف

الشباب فقط كان بين المسلمين من هو في عمر الكهولة لان العرب يوقرون الكبار فوجودهم بين المسلمين كان يشكل عاملاً مهماً في اقتناع الآخرين ، لكن كانت الكفة الراجحة هي كفة الشباب الذين كانوا يشكلون النسبة العظمى من المسلمين .

ويذكر لنا التاريخ ان رسول الله (ص) كان يكلف الامام علي (ع) بالتردد في الاماكن العامة التي يتواجد فيها المسافرين القادمون على مكة لاختيار الافراد الصالحين وقصة ايمان ابي ذر كما ورد في الاستيعاب توضح لنا ذلك^(١) . . . قدم ابوذر الى مكة فأتى المسجد حتى ادركه الليل فاضطجع فراه علي بن ابي طالب فقال؛ كأن الرجل غريب قال نعم قال انطلق الى المنزل فانطلق معه لا يسأله عن شيء وفي الغد رجع الى المسجد وبقي حتى المساء وسار الى مضجعه فمر به علي فقال له اما آن للرجل ان يعرف منزله وتكرر ذلك ثلاثة ايام وفي اليوم الثالث وبعد ان تأكد علي من حسن اختياره لابي ذر اخذه الى النبي (ص) .

ثانياً مبدأ سرية التحرك :

اعتمد رسول الله (ص) السرية كاسلوب موقت لصرف انظار طواغيت قريش الذين اتصفوا بالشدة لكل من يحاول المساس بعقائدهم ومصالحهم ، وعقائدهم هي جزء من مصالحهم لانها وسيلة من وسائل تحقيقها .

واعتمدت الرسالة مبدأ السرية بالاضافة الى الهدف الدفاعي اغراضاً ترتبط ببناء الكيان الاسلامي ، فالسرية هي وسيلة لتمكين القيادة من الاشراف لتوجيه المسلمين الجدد وبنائهم بناءً دقيقاً واعدادهم للظروف الصعبة التي

(١) الاستيعاب: ج ٤ ص ١٦٥٣ .

تتظنهم فقد منحت سرية العمل فرصة كبيرة للقيادة للتفرغ في شؤون البناء التنظيمي للأفراد اذ في حالة المجابهة العلنية ما كانت القيادة لتجد الفرصة الى ذلك ولما كان الافراد يملكون الوقت الكافي لتعلم مبادئ الاسلام .

ومن نماذج التحرك السري في فترة الدعوة هو تحرك الإمام علي (ع) اثناء سيره الى النبي الاكرم ومعه ابي ذر الغفاري رضوان الله عليه قال لابي ذر ، اني ذاهب اليه (الى النبي «ص») فاتبع اثري فاني ان رايت ما اخاف عليك اعتللت بالقيام كاني اريق الماء وان لم ارَ احدا فاتبع اثري حتى تدخل^(١) .

والنموذج يكشف لنا عن طبيعة التحرك وطبيعة الالتزامات الامنية التي كانت تفرضها الظروف السياسية في تلك الفترة . ويكشف لنا عن مستوى الوعي الامني لدى الحركة الاسلامية وهي في بداية عهدها فالخوف الذي كان يسيطر على الامام لم يكن الخوف على شخصه بل خوفه على الدعوة التي كانت في بداية انطلاقتها وقد تتعرض للحصار من قبل قريش وكان الامام يخشى انكشاف التحرك من خلال معرفة مكان تواجد المسلمين ومعرفة الاعضاء الجدد الذين ينضمون الى الرسالة . فتحركه السري كان يدل على انه لم يكن يرغب ان تُعرف صلته بابي ذر فطلب منه ان يسير بعيداً عنه . فطلب منه ان يسير بعيداً عنه .

وعندما يصلان الى المكان الذي يتواجد فيه رسول الله (ص) فان كان المكان تحت المراقبة او ان احدا من المشركين قريب من المكان فانه يُخبر ابي ذر بتلك الحركة الرمزية وذلك لكي لا يعرف المكان المخصص لتجمع المسلمين .

وكتب التاريخ زهيدة في نقل مثل هذه الصور لكن هذه الحركة من الامام

(١) معروف الحسني ، سيرة المصطفى : ص ١٣٩ وكذلك الاستيعاب : ج ٤ ص ١٦٥٤ .

علي (ع) تدل بصورة واضحة ان التحرك السري لم يكن اجتهاداً شخصياً من الامام بل كان استراتيجية ثابتة في تحرك كل المسلمين لان افشاء التحرك من قبل اي فرد في الجماعة كان من الممكن ان يؤدي الى اضرار وخيمة .

فالصورة التي كانت في اذهان قريش عن رسول الله (ص) بانه يريد ان يحصل بتلك الدعوة الزعامة او المال وان البعض كان يعتقد بانه كغيره ممن ظهر في مكة بمظهر الاصلاح والذين لم يحققوا غاياتهم فلادوا بعد الفشل بالصمت . فكانوا يقابلون الدعوة الاسلامية باللامبالاة ، وما كان ذلك التوهم ليتحقق الا بفضل السرية التي اتسمت بها تحركات المسلمين فلم يعرف عددهم ولا قوتهم . فمبدأ السرية كان من اجل التستر على العدد وعلى العدة كي لا يعرف حجم المسلمين ولا تعرف طبيعة تحركهم حتى لا يمكن افشاله بالوسائل التي تمتلكها قريش . وعلى الرغم من ذلك فقد فشى أمر الدعوة واصبح كل فرد في مكة وخارج مكة يحمل صورة مجملة عن دعوة رسول الله (ص) واهدافه ونتيجة هذه المعلومات القليلة انجذب البعض الى الاسلام دون ان يكون هناك أي اتصال بينهم وبين المسلمين وتشير الروايات التاريخية ان أنباء الحركة الاسلامية وصلت الى مناطق بعيدة فقليل عن اسلام طلحة انه كان في بصرى فسمع بخبر خروج نبي اسمه احمد من راهب فلما قدم مكة سمع الناس يقولون تنبىء محمد بن عبدالله فاتى الى أبي بكر فسأله فاخبره ثم ادخله على رسول الله فاسلم^(١) وعين ذلك ذكره بعض الرواة عن ايمان ابي ذر فهو أيضا سمع بخبر الدين الجديد فارسل اخيه الى مكة ليتأكد من ذلك .

ثالثاً مبدأ الاتصال المنظم

فكثير من المسلمين الاوائل اسلموا عن طريق الاتصال المباشر اما من

(١) مستدرک الحاكم : ج ٢ ص ٣٦٩ .

قبل رسول الله (ص) او عبر الطليعة الاولى من المسلمين .

فعن طريق الاتصال اسلم معظم من آمن في بداية الدعوة وفي بعض الاحيان كان رسول الله (ص) يحدد اللقاء بمن يريد دعوته الى الاسلام .

وفي بعض الاحيان يتقصد اللقاء بمن يريد من اجل دعوته الى الاسلام .
ويروي المدائني عن عمرو بن عثمان ان عثمان قال دخلت على خالتي أروى بنت عبد المطلب اعودها ، فدخل رسول الله (ص) فجعل ينظر اليّ فقال ما لك يا عثمان؟ قلت اعجبت منك ومن مكانك فينا وما يقال عليك قال عثمان فقال لا اله الا الله فالله يعلم لقد اقشعررت ثم قال ؛ ﴿ وفي السماء رزقكم وما توعدون ﴾ فو رب السماء والارض انه لحق مثل ما انكم تنطقون ثم قال ؛ فخرج فخرجت خلفه وادركته فاسلمت^(١) .

ولم يكن الامر لينتهي عند اعلان الاسلام فبعد ان يسلم المرء يوكل امره الى احد المرشدين ليقوم بتثقيفه الثقافة الاسلامية ويصبح هذا الكادر هو صلة الوصل بينه وبين النبي (ص) في بعض الاحيان ، فكلما نزلت آية قرآنية سارعت الكوادر والتقت بافراد خليتها وقرأت ما انزل الله على رسوله من الآيات ولنا في حكاية عمر بن الخطاب صورة نموذجية عن طبيعة الاتصالات التنظيمية التي كانت تقوم عليها اوصال الحركة الاسلامية في عهد رسول الله .

فقد اندفع عمر بن الخطاب لقتل رسول الله (ص)^(٢) بعد ان عرف مكان تواجده فلقيه في الطريق نعيم بن عبدالله وعرف امره فاخبره ان الدين الجديد استشرى حتى الى بيت اخته فاطمة مما اثار غضبه فانصرف عن نيته السابقة واتجه صوب دار سعيد بن زيد زوج اخته ودخل البيت عليهما فاذا عندهما من

(١) الاستيعاب: ج ٤ ص ١٧٧٩ .

(٢) ابن الاثير، الكامل في التاريخ: ج ٢ ص ٨٥ .

يقرأ عليهما القرآن فلما احسوا دخول رجل غريب عليهم ، اختفى قارئ القرآن وأخفت فاطمة الصحيفة وسأل عمر ما هذه الهيمنة التي سمعت فلما انكرا صاح بهما لقد علمت انكما تابعتما محمداً على دينه وبطش بسعيد فقامت الزوجة فضربها فشجها فهاج اذ ذاك هائج الزوجين فصاحا به نعم اسلمنا فاقض ما أنت قاض . فخرج القارئ من مخبئه وهو الخباب بن الارت فقرأ عليه بعض الآيات من القرآن الكريم فلان قلب عمر للاسلام .

نستنتج من هذه الحكاية امرين الاول السرية الكاملة التي كانت تحيط التحرك الاسلامي بحيث لم يكن عمر على علم باسلام اخته وزوج اخته وهما قريبان اليه بالرغم من ان قريش في ذلك الوقت كانت قد وكلت ووزعت عيونها لرصد كل اشارة او علامة وعلى رغم هذه المراقبة فان شدة التزام المسلمين بمبدأ السرية كان يبعد عنهم انظار اقرب الناس اليهم فهناك امهات لم تعرف خبر اسلام ابنائها الا بعد فترة وبعد تفشي الخبر كأم مصعب بن عمير .

والامر الثاني الذي نستنتج من الحكاية هو وجود مخطط تنظيمي يجمع اجزاء الكيان الاسلامي في هيكل تنظيمي واحد . فهناك عصب رسالي يمتد الى كل خلية من خلايا الجسد الاسلامي ممثلاً بالدعاة والمبلغين الذين يتحملون مسؤولية تثقيف ابناء الحركة فالسابقون الى الاسلام والذين تشربوا من الدين الجديد وتعلموا مبادئه ممن سبقهم يصبحون فيما بعد مرشدين لمن آمن حديثاً فيقومون بارشادهم وتعليمهم وهذا النمط التنظيمي يشكل السمة العامة للعلاقة البنائية التي كانت قائمة بين ابناء الكيان الاسلامي الأول . فالرسالة لا تكتفي من الفرد بان يعلن اسلامه ويقوم بالعبادات فقط فبالإضافة الى هذه الواجبات الدينية هناك مسؤوليته كمسلم نحو التجمع الرسالي وهي جزء من مسؤوليته الاسلامية . فهؤلاء المسلمون يتحولون بحكم اسبقيتهم للدين الى مرشدين لمن يأتي من بعدهم .

وقد جاء القرآن الكريم ليصف لنا هذا الواقع .

﴿والذين تبوءوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما اوتوا ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون﴾^(١) .

ونموذج آخر يرسم لنا الصورة التي كانت عليها الجماعة المسلمة عندما آمن طُليب بن عُمير جاء الى امه أروى بنت عبد المطلب فقال لها قد اسلمت وتبعت محمداً (ص) فقالت امه ان احق من آزرت وعضدت ابن خالك والله لو كنا نقدر على ما يقدر عليه الرجال لمنعناه وذبنا عنه فقلت يا ام فما يمنعك ان تسلمي وتتبعيه فقد اسلم اخوك حمزة؟ فقالت انتظر ما يصنع اخواتي ثم اكون احداهن^(٢) وظل يرغبها للاسلام قائلاً اني اسألك بالله الا اتيتي وسلّمت عليه وصدقته وشهدت ان لا الله الا الله . واخيراً قالت فاني اشهد ان لا اله الا الله واشهد ان محمداً رسول الله .

فدخول الفرد في الجماعة الاسلامية كان بداية لتحمله المسؤولية فبعد ان يعلن اسلامه ، عليه أن يُقنع الآخرين بالاسلام وكل من اغترف من هذا العين عليه أن يروي ظمأ الآخرين .

وكان حول رسول الله (ص) افرادٌ يعتمد عليهم في توجيهه من يعتنق الإسلام حديثاً ، وكان على رأس هؤلاء الموجهين علي بن أبي طالب (ع) ، فكان يقوم بدور المسؤول لعدد من الصحابة واعتاد النبي (ص) على ربط بعض العناصر الجديدة بعلي بن أبي طالب (ع) . عندما جاءه أبو سفيان بن الحارث يريد الإسلام التفت الى علي وقال له :

(١) سورة الحشر الآية ٩ .

(٢) الطبقات الكبرى: ج ٤ ص ١٥٧ . الاستيعاب: ج ٤ ص ١٧٧٩ .

عَلَّمَ ابن عمك الوضوء والسَّنة ورُح به اليّ .

ومع تزايد المرتبطين بالإمام علي (ع) بدئى وكأنه كيان متميّز وقد حظي برعاية رسول الله (ص) فكان يهتف بعلي ورفاقه أمام الملأ يا علي أنت وشيعتك على منابر من نور مبيضة وجوهكم حولي في الجنة وهذه شهادة توثيق لتلك الجماعة المنتظمة في سلك الإسلام الصحيح والمنفزة عن الآخرين الذين يشوبهم الضعف والوهن .

إن وجود هذه الجماعة المؤمنة بخط الرسالة هي الضمانة لديمومية الإسلام وامتداد تعاليم النبي (ص) بعد غيابه وهي أيضاً السبيل للتحصن ضد الانحراف في غياب القائد . وظلت تلك المجموعة العين الحارسة على الاسلام والمدافعة عن مبادئه أمام التيارات المعادية والموجات الانحرافية المتسللة اليّ داخل الصف الاسلامي .

أستراتيجية التربية

أصعب ما تواجهه الحركات البنائية في مراحلها الأولى هو كيفية السيطرة على أبنائها أثناء حضورهم الدائم في البيئة المتخلفة . فالفرد هو ابن المجتمع ومن الصعب تجريده عنه وعزله إلا بقوة ذاتية جبارة تحل في نفسه وتقف بمرور الزمن أمام سطوة البيئة الاجتماعية المتخلفة .

والاسلام نشأ في المجتمع الجاهلي وكانت مهمته الأولى هي بناء مجتمع صالح يتحلّى بالفضيلة والخلق ومصدر هذا البناء هو أفراد نفس هذا المجتمع المتفسخ وكان لا بُدَّ لهؤلاء الذين آمنوا أن يبقوا ليؤثروا في الآخرين ويحولوا مجتمعهم المتخلف بالتدريج إلى مجتمع اسلامي رصين .

فكانت القيادة أمام مسؤوليتين ، الأولى تستوجب عزل الطليعة الاسلامية عن المجتمع الجاهلي كي لا تتأثر بسلبياته وانحرافاته والمسؤولية الثانية هي حث هذه الطليعة للتجذر في أوصال المجتمع والتداخل مع أفرادهِ .

وعلى هذه الاستراتيجية كان للمسلم وقتين وقتٌ يقضيها في المجتمع أما بالعمل او الدعوة ووقت آخر ينزلون فيه في شعاب الجبال يعبدون الله فيها ، فهي فرصتهم الذهبية للتأمل في الكون والخلق وخالق الأرض والسماء وما أنعمه

الله عليهم وما أصاب القوم من تكلس في الفكر فتمسكوا بالخرافة وتشبثوا بعبادة الأصنام . وفي تلك التأملات يكتشفون الفوارق الكبيرة بين عبادتهم لله الخالق وعبادة أولئك للأصنام .

يقول البلاذري ؛ إن النبي (ص) وأصحابه كانوا إذا جاء وقت العصر تفرقوا في الشعاب فصلوا فرادى ومثنى ، فبينما رجلان من المسلمين يصليان في إحدى شعاب مكة اذ هم عليهما رجلان من المشركين (كانا فاحشين) فناقشوهما ورموهما بالجارة ساعة حتى خرجا وانصرفا^(١) .

ويذكر ابن هشام في سيرته مواجهة أخرى في تلك الفترة من الدعوة وهي التي وقعت بين مسلمين كانوا يعبدون الله في شعاب مكة وفيهم سعد بن أبي وقاص فإذا بجماعة من المشركين يظهرون عليهم وهم يصلون فاستنكروا عملهم وعابوا عليهم ما يصنعون وما لبث الطرفان أن دخلا في شجار عنيف واضطر سعد يومئذ أن يجرح رجلاً من المشركين^(٢) .

وخشي الرسول (ص) أن تتطور هذه المواجهة إلى ما لا يحمد عقباه إذ كانت المرحلة تقتضي التخفي على المشركين والعمل بهدوء وسرية حتى تكتمل الطليعة فرأى من الأفضل أن تتم برامج التربية الايمانية داخل البيوت ثم بعد ذلك اتخذ بيتاً فوق الصفا وتفرغ بصورة كاملة لبناء الأفراد الذين آمنوا .

(١) الأنساب: ج ١ ص ٦١٧ .

(٢) تاريخ الطبري: ج ٢ ص ٣١٨ .

دار الأرقم مركز الدعوة

مع التوسع في الدائرة البشرية كانت الحاجة تتزايد لاتخاذ مقر- ثابت للدعوة، ينطلق منها المسلمون في تحركهم وتقام فيها دروس في العقائد ويتلقى فيها المسلمون الجدد التربية وقد ذكر اتخاذ دار الأرقم أغلب من كتب عن السيرة النبوية ، لكن بعض مؤرخي الشيعة لم يأتوا على ذكره إلا إن كتاب أعيان الشيعة للسيد محسن الأمين جاء على ذكر دار الأرقم في المجلد الثامن صفحة ٣٧٢ وسماه بدار الإسلام .

وكان لدار الأرقم عدة وظائف :

أولها :

التستر على التحرك الاسلامي وابعاد الأنظار عما يجري من نشاط في ميدان الدعوة الإسلامية . فقد اختفى رسول الله (ص) في دار الأرقم ولم يخرج منها الا بعد أن قوي المسلمون وازداد عددهم أربعين رجلاً .

فقد كان لاختفاء النبي (ص) في تلك الفترة أمراً هاماً بعد تفاقم الأحداث وبعد أن بدأت قريش تلمس وجود تحرك معادي لها والى جانب ذلك كان

احتجاب العناصر الجديدة عن الأنظار مسألة ضرورية في تلك الظروف التي أخذت فيها بعض القبائل القرشية تضيق الخناق على أبنائها الذين أسلموا .

وكانت الاتصالات مع النبي (ص) تتم بصعوبة قبل دخوله (ص) لدار الأرقم لكن بعد اتخاذ المقر السري أصبح الاتصال أمراً ممكناً في أي وقت ودون خشية من العيون .

ثانيها :

مضى على بعثة رسول الله (ص) ثلاث سنوات لم يؤمن فيها الا ثلاثين نفرأ بسبب سرية التحرك والدعوة وكان لا بد من تجاوز هذه المرحلة والاعلان عن الرسالة وللوصول الى هذه المرحلة كان على رسول الله (ص) أن يعد صحابته إعداداً كاملاً حتى يتمكنوا من مواجهة أخطار المرحلة العلنية من الدعوة واستدعى ذلك ، التفرغ الكامل والأقامة مع المسلمين في مكان واحد لتوجيههم والاشراف على تربيتهم وإعدادهم إعداداً نفسياً وحركياً للفترة القادمة .

فكان دار الأرقم ، المكان المناسب لصقل النفوس وتهذيب الأخلاق بسبب احتجاز الأفراد عن البيئة الفاسدة ولتواجدهم حول قائدهم ومُربيهم في كل الأوقات ومعاشتهم له في الليل والنهار في النوم واليقظة ، في الأكل والشرب . فقد منحتهم هذه المعاشة فرصة الانصهار والالتصاق بقائدهم والاستلهام من أخلاقه الفاضلة فقد وفرت أجواء الدار والبرامج التي كانت تنفذ فيها السبيل الى التأثير بشخصية رسول الله (ص) وتجذر الايمان في أعماق نفوسهم ثم صياغة شخصياتهم في قالب اسلامي .

ويختلف المؤرخون في طول الفترة التي مكث فيها رسول الله في دار الأرقم بين شهر وأربع سنوات وقيل إن الرسول (ص) دخل دار الأرقم عدة مرات

ومكث فيها مدداً مختلفة . المهم ان الرسول (ص) لم يخرج من دار الأرقم إلا بعد أن أعدّ العدة وأكمل مهمات المواجهة التي كانت تنتظره لا محالة .

ثالثها :

نقطة اتصال : فقد شاع خبر الإسلام أرجاء الجزيرة العربية وكان هناك من يأتي الى الحجاز ليتعرف على الدين الجديد يُرسل الى هذه الدار ليجد رسول الله جالساً مع أصحابه يعلمهم الإسلام فيتعلم بدوره منه . فمع انتشار أخبار الدعوة كان لا بد من اقامة مركز سري لاستقبال العناصر حديثة العهد بالإسلام . واستقر في الدار عددٌ من المسلمين وهناك عددٌ آخر كانوا يقومون بمهام الاتصال الخارجي ، يخرجون لتنفيذ المهام ثم يلتقون في نهاية الأمر في تلك الدار التي اتخذت مركزاً لإدارة نشر الدعوة الاسلامية .

the first of these is the fact that the
the second is the fact that the
the third is the fact that the

the fourth is the fact that the
the fifth is the fact that the
the sixth is the fact that the
the seventh is the fact that the
the eighth is the fact that the
the ninth is the fact that the
the tenth is the fact that the

the eleventh is the fact that the
the twelfth is the fact that the
the thirteenth is the fact that the
the fourteenth is the fact that the
the fifteenth is the fact that the
the sixteenth is the fact that the
the seventeenth is the fact that the
the eighteenth is the fact that the
the nineteenth is the fact that the
the twentieth is the fact that the

the twenty-first is the fact that the
the twenty-second is the fact that the
the twenty-third is the fact that the
the twenty-fourth is the fact that the
the twenty-fifth is the fact that the
the twenty-sixth is the fact that the
the twenty-seventh is the fact that the
the twenty-eighth is the fact that the
the twenty-ninth is the fact that the
the thirtieth is the fact that the

الاعلان

كان من المحتّم أن تقفز حركة الرسول (ص) يوماً من العمل السري لتنتقل في أفق أوسع . فالعمل السري إذا طال سيحرم الحركة الكثير من المكتسبات أهمها الانتشار الأفقي . لكن وجود فترة من العمل السري أمر لا بد منه تحتّمه الضرورات الأمنية والتربوية ولم يك من السهل طوى هذه المرحلة والقفز عليها إلّا بايعاز إلهي .

وتجلت الحكمة في تحديد موعد اعلان الدعوة . إذ لم يكن التصريح بالرسالة مسألة زمن بل هي مسألة اكتمال الاستعدادات في الحركة وتمكين رجالها من خوض الصراع المرير والتهيؤ لمرحلة صعبة من المواجهة . فمن كل الأبعاد كانت الحركة الإسلامية مهياً لخوض غمار الفترة الحرجة . فعلى البعد السياسي كانت الهمسات تتطاير بين القبائل وهي تحمل أنباء الرسالة الجديدة وكانت الأوضاع في الجزيرة من نواحي عديدة على استعداد لتقبل نهضة حضارية رسالية .

فالصراعات القبلية وخصوصاً في يثرب وصراع الديانات كاليهودية والنصرانية وبينها وبين الوثنية وتوعدات اليهود لعرب يثرب بظهور الرسول وانهم

سيتغلبوا على خصومهم .

ومن جانب آخر كانت استعدادات الفئة المؤمنة إذانً بانتهاء المرحلة السرية . فالعدد كان يبدو كافياً لتأمين مستوى جيد من الانتشار ، والمستوى الروحي الذي بلغته الجماعة المسلمة كان مؤهلاً لمواجهة التحديات التي تفرضها المرحلة العلنية .

وقد أنضمَّ إلى الجماعة الإسلامية عناصر ذات ثقل كبير في المجتمع القرشي كحمزة بن عبد المطلب مما منح الحركة مقداراً من الحصانة والمناعة . إذ كان التصعيد في المواجهة من قبل قريش يصطدم بالحدود التي يشكلها الثقل المعنوي لتلك العناصر في المجتمع . ومن ناحية أخرى كان انتشار الدعوة بين عدد كبير من القبائل يُشكل عائقاً أمام المجتمع الوثني إذا رغب في اعلان الحرب الشاملة . إذ ان وجود الاعتبارات القبلية كان يفرض نمطاً محدوداً من المواجهة . فكان يتلقَى اعلان الحرب من قبل قريش بمثابة اعلان حرب شاملة ضد كل القبائل العربية التي كان لها ممثلين في الصف الاسلامي . لهذا كان القسط الأوفر من التعذيب قدنال المستضعفين من المسلمين ضد العبيد ومن ليست لهم عشيرة تدافع عنهم كبلال وحياب وصهيب وآل ياسر .

فمن هنا جاء اقتران نزول الآية ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ (الشعراء ٢١٤) . مع بلوغ الاستعدادات مرحلة التكامل، وبها دشّن المسلمون المرحلة العلنية من الدعوة .

وقامت استراتيجية المرحلة العلنية على دعوة أقرباء النبي (ص) لعدة ضرورات هامة .

الأولى : العمل على رص البناء الداخلي أول الأمر والانطلاق منه في توسيع الدائرة . فالاصلاح يجب أن يبدأ أولاً من الداخل حتى يأتي البناء قوياً منيعاً .

الثانية : كانت عشيرة الرسول (ص) تضم عناصر جيدة مستعدة للانخراط في صفوف الحركة اذا ما وجدت الفرصة المناسبة . وقد آمن معظم من دعاهم الرسول (ص) الى ذلك الاجتماع الهام ولو بصورة تدريجية متباطئة بالرغم من عدم انضمامهم للمسلمين في ذلك الاجتماع للأجواء المتشنجة التي سيطرت على المباحثات مما دفعت بالكثير من الحاضرين الى الاقتناع عن تأييد النبي (ص) ما عدا القلة .

الثالثة : كانت المواجهة مع قريش قضية حتمية . وكان هاجس الرسول في تلك الفترة هو تعبئة قواه كافة والاستفادة من الظروف في اقتحام أسوار المواجهة المحتملة .

فاذا ما قامت المعركة فإن عشيرته ستتحمل قسطاً من أعبائها حسب العرف القبلي الذي كان سائداً يومذاك .

فقد رأى النبي (ص) أن يضع أقرباءه وأبناء عشيرته وهم أقرب الناس اليه في الصورة قبل أن يحدث شيء حتى تأتي حمايتهم له على أساس من الوعي وليس على أساس العصبية القبلية .

وتتضح هذه المعاني عند مراجعة مفردات ذلك الاجتماع كما جاء في كتب السير .

كما نزلت آية الانذار دعا رسول الله (ص) علياً (ع) فأمره أن يصنع طعاماً ويدعوه له بني عبد المطلب ليكلّمهم ويبلغهم ما أمر به . فصنع علي (ع) صاعاً من طعام وجعل عليه رجل شاة وملاً عساً من لبن ثم دعاهم وهم يومئذ أربعون رجلاً يزيدون رجلاً او ينقصونه فيهم أعمامه أبو طالب وحمزة والعباس وأبي لهب فأكلوا قال علي (ع) فأكل القوم حتى ما لهم بشيء من حاجة وما أرى الا موضع أيديهم ، وأيم الله الذي نفس على يده وإن كان الرجل الواحد منهم

ليأكل ما قدمت لجميعهم ثم قال :

أسق القوم؛ فجثتهم بذلك العس ، فشربوا منه حتى رووا منه جميعاً ، أيم الله إن كان الرجل الواحد منهم ليشرب مثله فلما أراد رسول الله (ص) ان يكلمهم بادره أبو لهب فقال : لقد سحركم صاحبكم ، فتفرق القوم ولم يكلمهم الرسول (ص) فأمر علياً في اليوم الثاني أن يفعل كما فعل آنفاً وبعد أن أكلوا وشربوا قال لهم رسول الله (ص) يا بني عبد المطلب إنني والله ما أعلم شاباً في العرب جاء قومه أفضل مما قد جثتكم به ، إنني قد جثتكم بخير الدنيا والآخرة ، وقد أمرني الله تعالى أن أدعوكم اليه فأيكم يؤازرنني على هذا الأمر على ان يكون أخي ووصي وخليفتي فيكم ، قال فأحجم القوم عنها جميعاً وقال علي : أنا يا نبي الله أكون وزيرك عليه ، فأخذ برقبتي ثم قال : ان هذا أخي ووصي وخليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعوا قال : فقام القوم يضحكون ويقولون لأبي طالب قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع^(١) .

وجاء في بعض التواريخ ، لما رأى أبو طالب موقف أبي لهب وكيف كان يحاول إفشال الاجتماع وانهاؤه بلا نتيجة توجه اليه قائلاً «يا عورة والله لتنصرنه ثم لنعيننه . ثم ألثفت الي رسول الله (ص) قائلاً له يا ابن أخي إذا أردت أن تدعو الي ربك فاعلمنا ، حتى نخرج معك بالسلاح»^(٢) ومقولة أبي طالب تبين طبيعة وأهداف الاجتماع الهاشمي فقد كانت الغاية بالاضافة الي دعوة بني هاشم الي الإسلام هي الحصول على تعهد من أبناء العشيرة للوقوف الي جانبه عند وقوع المواجهة بينه وبين قريش .

(١) ذكر هذا النص الطبري في تاريخه: ج ٢ ص ٦٣ . ومختصر تاريخ أبي الفداء: ج ٢ ص ١٤ . وشواهد التنزيل: ج ١ ص ٣٧٢ الكامل لابن الاثير: ج ٢ ص ٦٢- ٦٣ السيرة الحلبية: ج ١ ص ٢٨٦ . ومسند أحمد: ج ١ ص ١٥٩ . وكثير من كتب التاريخ .

(٢) تاريخ اليعقوبي: ج ٢ ص ٢٧ .

وكان للاجتماع أثر كبير على بني هاشم ، فعلى رغم محاولات أبي لهب لافشال الاجتماع فقد أدى غرضه من الانعقاد فأغلب الذين شاركوا وحضروا فيه تأثروا بكلام النبي (ص) واتخذوا مواقف مشرفة عندما وقع الصدام بين النبي (ص) وقريش على رغم كفرهم وهذا خلاف ما حاول البعض ان يُظهر الاجتماع وكأنه فاشل بالمرة وكان من نتائج الاجتماع انتشار خبر الدعوة ، فأقبل أصحاب القلوب والعقول النيرة من كل حذب وصوب وشهروا إيمانهم . أما المعاندين فازدادوا غيظاً على غيظهم فشرعوا حرباً لا هوادة فيها مستخدمين كل السبل المتاحة لتضعيف الشلال المتدفق . وفي مثل هذه الأجواء تنضج الشائعات وتضطرب الدعايات المغرضة فكان لا بُدَّ من موقفٍ فجاء الأمر الألهي باعلان الدعوة .

﴿ فاصدع بما تؤمر واعرض عن المشركين انا كفيناك المستهزئين ﴾
(الحجر ٩٤/٩٥) . فالآية حددت مهمات المرحلة :

الاسراع في ابلاغ الدعوة . وخطوط عامة للمرحلة الجديدة .

الاعراض عن المشركين وغض الطرف عنهم .

أما المستهزؤون مثيروا الدعايات المضللة . فأن لهم ربهم بالمرصاد فهو سيكفل الرد عليهم فلا بأس على الدعوة . فامضى يا رسول الله (ص) فإن الطريق سالك وإن لا خوف من أحد طالما كان الله معك .

ذهب رسول الله (ص) بقلب راسخ ونفس مطمئنة بوعد الله وبروح عالية بالاصرار والعزيمة وقام على الصفا ونادى قريشاً من كل ناحية ، فجاءوا يتزاحمون لسماع مقالته فقال لهم : أريكم لو أخبرتكم أن خيلاً في سفح هذا الجبل قد طلعت عليكم ، أكنتم مصدقي فقالوا بأجمعهم : نعم أنت عندنا غير متهم وما جربنا عليك كذباً قط ، قال : اني نذير لكم من عذابٍ شديد ، يا بني

عبد المطلب ويا بني عبد مناف ويا بني زُهرة ويا بني تميم ، ويا بني مخزوم وأسد ومضى يعدد أسماء القبائل ثم قال : إن الله أمرني أن أنذركم من عقابه واني لا أملك لكم من الدنيا منفعة ولا من الآخرة نصيباً الا أن تقولوا لا اله الا الله فنهض أبو لهب وكان رجلاً بديناً سريع الغضب وصاح به تباً لك سائر اليوم ألهذا جمعت الناس فنزلت في حقه سورة ﴿ تبت يدا أبي لهب وتب ﴾ .

وبذلك الاعلان حسم رسول الله (ص) الأمر بينه وبين قريش . فقد اتضح أمر الدين الجديد لأهل مكة وعرف القاضي والداني ما جاء به محمد بن عبد الله ليس من قبيل ما كانوا يسمعون رداً من الزمن على لسان نوفل بن عمرو وعثمان ابن الحويرث ، ادركوا بعد البيان الذي أدلى به رسول الله إنهم أمام دين جديد مناهض للوثنية يدعو الى نبذ العصبية القبلية ، يدعو العبيد الى الانفكاك من قيود العبودية . ويدعو الى المساواة بين السيد والعبد وبين الرجل والمرأة .

وأخذت آيات القرآن الكريم تتلى في العلن بعد أن كانت تقرأ همساً . .
ومنها عرف الجميع ماذا يقول الدين الجديد . .

﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط . . لا تكلف نفساً الا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون ﴾ .

فكشفت هذه الآيات لأهل مكة معالم الدين الاسلامي فهو دين لا يرضى بعبادة الأصنام ويعتبر ذلك شرك ويدعو الى احترام الوالدين والاحسان اليهم ويحرم قتل الأطفال بسبب الفقر ويحرم التعدي على الآخرين . وهو دين يعمل

على اصلاح الإنسان من الداخل فإذا صلح الانسان وزكّي عمله أصبح عنصراً نافعاً في المجتمع يحترم أموال اليتامى ويوفي الكيل والميزان ويدعو الى التمسك بالعدل والانصاف في كل مناحي الحياة وحتى في حديثه يجب عليه أن يصدق في القول ويعتبر ما تقدم من إلتزامات ميثاقاً بينه وبين ربه قبل أن يكون ميثاقاً بين الفرد والفرد الآخر فعليه أن يفي بعهد الله .

ففي هذه المرحلة لم يترك رسول الله (ص) شيئاً مبهماً بعد أن أوضح كل ما يتعلق برسالته وبات كل فرد في قريش وهو يعرف ما كان يجهله بالأمس عن الدين الجديد فلا حجة بعد ذلك إذا ما أبطأ في الاستجابة ولا حجة لمن وضع نفسه قبال الرسالة بعد أن عرف أهدافها الانسانية .

لقد حذق رسول الله (ص) الى المستقبل بعين واعية فوجد إن المواجهة بينه وبين اسياذ قريش مسألة حتمية ، فكان عليه أن يوقظ الناس ويدلي لهم بمعالم الرسالة حتى اذا ما أعلنت قريش حربها سيعرف الجميع خلفياتها . ولم يبق شيئاً مخفياً فهذا هو الإسلام وهذه مبادؤه وتلك أهدافه . فلم يتوان البعض أن يسرع الى رسول الله (ص) ليعلن عن أسلامه بقلب مطمئن بالايمان والأخلاص وكذلك لم يتخلف البعض الآخر عن اظهار ضغائن قلبه بضرب الرسالة في الصميم وهي في المهد بعد أن أدلى النبي (ص) بكل شيء ولم يخفي موقفه من الوثنية والمتعبدين بها .

وهنا بدأ فصلٌ جديد من معركة الإسلام مع الشرك الجاهلي .

المواجهة

أدرك قادة الشرك في مكة مخاطر الدين الجديد على عباداتهم وعلى مكانتهم الدينية في الجزيرة العربية والذي سيكون له عواقب وخيمة على مركزهم التجاري بين القبائل .

ورسم هذا الهاجس خريطة العلاقة المتوترة بين قادة الشرك والرسول الأكرم (ص) .

ففي بداية الأمر أخذت المواجهة النمط السلمي ، إذ لم يكن هيناً على سادة قريش أن يقوموا بتصفية الحركة تصفية جسدية لانحدار المسلمين من أصلاب عشائرية مختلفة ومراعاة للمواقف المحتملة التي ستقفه عشيرة النبي (ص) .

وبسبب هذه المحاذير فضّل قادة قريش المواجهة السياسية على المواجهة الساخنة في بداية الصراع الذي نشب بينهم وبين رسول الله فكان أول ما قاموا به هو تشكيل وفدٍ للتفاوض مع رسول الله عبر عمه أبي طالب . اشترك في الوفد عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو البخثري بن هشام والأسود بن المطلب والوليد بن

المغيرة وأبو جهل بن هشام والعاص بن وائل ونبيه ومنبه ابنا الحجاج ، جاؤوا الى ابي طالب قائلين له : يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا فانك على مثل ما نحن عليه من خلافه فقال لهم أبو طالب قولاً جميلاً وردهم رداً رقيقاً فانصرفوا عنه .

وفي رواية انهم قالوا له إن لك سناً وشرفاً وأنا قد أستهيئك أو (استهيئك) ان تنهي ابن أخيك فلم تفعل وإنما والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه آرائنا وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك حتى يهلك أحد الفريقين . فقال لهم أبو طالب قولاً جميلاً وردهم^(١) .

وواصل النبي طريقه واتسع نشاطه وامتد جمعه وانضمت اليه عناصر جديدة وتوتر الوضع من جديد فعادوا مرة أخرى الى أبي طالب بصفقة مغرية هي تنصيبه ملكاً عليهم ومشاركته أموالهم ويُقدموا له ما يشاء إذا تراجع عن دينه . فجاءه أبو طالب وحدثه بعروض القوم ثم قال له : إبق علي وعلى نفسك ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق .

فأجابه الرسول بذلك الجواب الذي ظلَّ خالدًا في التاريخ والذي نمَّ عن صمود واستقامة لا مثيل لها .

قال النبي (ص) رداً على عروض قريش . .

« يا عماء والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ما تركته » ثم بكى رسول الله (ص) وقام من مجلس عمه .

فتأثر عمه من هذا الموقف فناداه قائلاً له :

(١) الكامل : ج ٢ ص ٦٣ .

ادن يا بن أخي مني ، فأقبل عليه رسول الله قال له :

اذهب يا ابن أخي وقل ما شئت فوالله لا أسلمك لشيء أبداً وأنشد :

والله لن يصلوا اليك بجمعهم حتى أوسد في التراب دفينا^(١)

وبهذا الموقف أحبط النبي (ص) خطط قادة الشرك ولم يترك أمامهم طريقاً للتفاوض بعد أن رفض كل العروض المغرية التي قدموها .

وعند ذاك فكروا بأن يرسلوا أحدهم ليتفاوض مباشرة مع النبي (ص) دون واسطة بعد الذي سمعوه من ابي طالب .

فأرسلوا عتبة بن ربيعة وكان سيداً من سادات قريش فقال لقريش وقد رأى النبي (ص) جالساً في جوار البيت وحده : يا معشر قريش ، ألا أقوم لمحمد وأعرض عليه أموراً لعله يقبل ببعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا قالوا بلى قم إليه يا أبا الوليد ، فقام إليه عتبة وجلس إلى جنبه وقال له : يا ابن أخي انك منا حيث قد علمت من البسطة في العشيرة والمكان في النسب وانك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفهت أحلامهم وعبت آلهتهم ودينهم وكفرت من مضى من آبائهم ، فاسمع مني أعرض عليك أموراً ننظر فيها لعلك تقبل منها .

يا ابن أخي ان كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت تريد شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الأمر الذي يأتيك رثياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه . ومضى عتبة بن ربيعة

(١) الحسنی : سيرة المصطفى : ص ١٤٩ .

يتحدث إلى النبي بأسلوب هادئ لين محاولاً بذلك اغراءه واقتناعه بالعدول والتراجع عن دعوته ، والنبي (ص) يستمع إليه ، فلما انتهى من حديثه ، قال له النبي : أفرغت يا أبا الوليد؟ قال نعم : قال اسمع مني فأصغى إليه وهو يطمع أن يجد عنده ما يرضي قريشاً وأطماعها وكبريائها ، فقال :

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم حم تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون ، وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه ﴾ ومضى رسول يتلو عليه ما بقي من السورة حتى انتهى من السجدة فخر الله ساجداً ورفع رأسه واتجه إلى عتبة وقال أسمعت يا أبا الوليد فلم يدرى بما يجيب ، وقام عنه ورجع إلى أصحابه مأخوذاً بجمال ما رأى وما سمع مدهوشاً بعظمة هذا الرجل وسحر بيانه . فأدرك ان محمداً رجلاً من نوع آخر من الرجال الذين عرفتهم مكة وعرفهم العالم . لكن قريش لم تهدأ وهي ترى سرعة انتشار الإسلام وأنضمام شبابهم الى تجمع المسلمين ففكروا بأن يعودوا الى ابي طالب ويغروه بعروضهم السخية بعد أن فشلوا في أقناع النبي بتلك العروض . جاؤوا الى ابي طالب للمرة الثالثة ومعهم عمارة بن الوليد أخو خالد بن الوليد فقالوا له هذا عمارة بن الوليد فتى قريش وأشعرهم وأجملهم فخذهُ فلَكَ عقله ونصرتة واتخذهُ ولداً وأسلم لنا ابن أخيك هذا الذي سفّه أحلامنا وخالف دينك ودين آبائك وفرق جماعة قومك نقتله فانما رجل برجل فأجاب أبو طالب .

والله لبش ما ستموني اتعطوني ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابني لتقتلوه ، هذا والله لا يكون أبداً .

فقال أحد الجالسين وهو المُطعم بن عدي بن نوفل .

والله لقد أنصفك قومك وما أراك تُريد أن تقبل منهم فقال أبو طالب والله ما

أنصفوني ولكنك قد أجمعت خذلاني ومظاهرة القوم علي فاصنع ما بدا لك وامتعضت قريش من هذا الفشل فرأت أن تُشكّل وفدًا من زعمائها للتفاوض مع النبي (ص) بصورة مباشرة عله تأخذه هيبتهم ويتأثر لكلامهم فيستجيب لهم .

فانطلق أبو جهل وأبو سفيان بن حرب والأسود بن المطلب والعاص بن وائل إلى النبي وقالوا له يا محمد فان كنت غير قابل منا شيئاً مما عرضناه عليك فانك تعلم إنه ليس من الناس أحد أضيّق منا بلداً ولا أقلّ ماء ولا أشدّ عيشاً فسل ربك الذي يفتيك بما تدعيه ليكشف عنا هذه الجبال التي ضيقت علينا وليبسط لنا بلادنا وليفجر لنا فيها انهاراً كأنهار الشام والعراق . وليبعث لنا من مضى من آبائنا وليكن فيمن يبعثه قصي بن كلاب فانه رجل صدق فنسألهم عما تقول أحق هو أم باطل فإن صدقوك وصنعت ما سألناك صدقناك وعرفنا به منزلتك من الله وإنك رسوله كما تقول .

وربما اعتقدوا ان النبي (ص) سيضعف في الرد عليهم وانه سيترك دينه إذا ما عجز عن الايتان بتلك الأمور . وان المسلمين سيضعفوا أيضاً في إيمانهم بأحقية الرسالة وانهم سيزدادون قوة ومنعة بعد ارغام خصمهم للاعتراف بالعجز .

لكن رسول الله (ص) المطمئن من رسالته والواثق بأنه على الحق لم يتردد لحظة واحدة في الرد عليهم قائلاً لهم :

ما بهذا بعثت اليكم ، إنما جئتكم من الله بما بعثني به وقد بلغتكم ما أرسلت به اليكم فإن قبلتموه فهو حظكم في الدنيا والآخرة وإن تردوه علي أصبر لأمر الله تعالى حتى يحكم الله بيني وبينكم بالحق وهو خير الحاكمين .

وجاء الوحي ليؤكد على هذا الموقف .

﴿ قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب

لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا الا نذير وبشير لقوم يؤمنون ﴿١﴾ .

وفشلت خطة قريش في بعث الوهن في نفس القائد كما كانت حصيلة المحاولات السابقة . لكن قريش مصممة على مواجهة المد العقائدي الذي أخذ يسرى الى أبناء التجار وعبيدهم .

فكيف السبيل وقد فشلت كل المفاوضات المباشرة وغير المباشرة .

خطط جديدة لضرب الرسالة :

فكرت قريش بحلول أخرى لضرب الرسالة بعد أن فشل أسلوب التفاوض . فشهروا سلاح الحرب النفسية فأوعزوا الى شعرائهم بأن يهجموا النبي (ص) فشرع فريق منهم فيهم أبو سفيان بن الحارث وعمرو بن العاص وعبدالله الزبيري بنظم القصائد والنيل من النبي (ص) وفي المقابل قام فريق من الشعراء المسلمين بالرد عليهم .

ثم سارعوا أيضاً بالضغط على اصهار النبي (ص) عتبة وعتيبة ابنا أبي لهب لتطبيق زوجاتهم وهن أم كلثوم ورقية وزينب تنكياً برسول الله (ص) فعدن بنات محمد (ص) الى بيت الأب وهن يلعن ذلك المجتمع القاسي الذي حرمن من أزواجهن ، ولم يك سهلاً على النبي (ص) أن يشاهد بناته وهن مطلقات تركهن أزواجهن بسبه . . لكن ما الذي يستطيع أن يفعله إذا كان المجتمع الجاهلي قاسياً بتلك الدرجة . لكن ما كان بمقدور هذا العمل الدنيء أن يضعف من عضده ويوهن من عزيمته على مواصلة الدعوة حتى شوطها الأخير .

لم تكتف قريش بهذا القدر من التنكيل فقد أوعزت الى الحاقدين من

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٨٨ .

ابنائها بالاستخفاف بالنبي (ص) وعلى رأسهم ابي لهب وزوجته أم جميل فكانا من أشد المشركين عليه . كان أبو لهب يطرح القذرة والتن على باب النبي (ص) إذ كان بيته بجوار بيته .

وممن استخدم سلاح الحرب النفسية ضد النبي (ص) الأسود بن عبد يغوث وهو ابن خال النبي (ص) وكان إذا رأى فقراء المسلمين قال لأصحابه : هؤلاء ملوك الأرض الذين يرثون مُلك كسرى .

وكان يقف قبال رسول الله (ص) ويقول بطريقة ساخرة .

أما كلمت اليوم من السماء يا محمد .

ومن أعضاء فريق الحرب النفسية الحارث بن قيس بن عدي السهمي وكان يقول :

قد غرَّ محمدٌ أصحابه ووعدهم ان يحيوا بعد الموت ، وكان الحارث يأخذ حجراً فيعبده فإذا رأى أحسن منه ترك الأول وعبد الثاني ، حتى نزلت فيه .

﴿ أفرايت من اتخذ إلهه هواه ﴾ .

ومن أعضاء هذا الفريق الوليد بن المغيرة وهو الذي جمع قريشاً وقال إن الناس يأتونكم أيام الحج فيسألونكم عن محمد فتختلف أقوالكم فيه فيقول هذا ساحر ويقول هذا كاهن ويقول هذا شاعر ويقول هذا مجنون وليس يشبه واحداً مما يقولون ، ولكن أصلح ما قيل فيه ساحر لأنه يفرق بين المرء وأخيه وزوجته . ومنهم أبي بن خلف ومن نشاطاته في الحرب النفسية أنه أخذ عظم فخذ

(١) ابن الاثير، الكامل: ج ٢ - ص ٧٠.

بالِ ففتته في يده وقال للنبي (ص) وهو في جمعٍ من أصحابه :

زعمت ان ربك يُحيي هذا العظم فنزلت . .

﴿ قال من يحيي العظام وهي رميم ﴾ .

ومنهـم العاصـ بن وائل السهـمي والد عمرو بن العاص وهو الذي كان يشيع على النبي (ص) إن محمداً أبتر ولا يعيش له ولد ذكر وذلك بعد أن مات القاسم فنزلت في حقه .

﴿ ان شانتك هو الأبتر ﴾ .

ومنهـم ايضاً النضر بن الحارث بن علقمة الذي كان يعقد الحلقات بجوار اجتماعات النبي (ص) ويتحدث عن قصص الفرس والروم لجذب الأنظار اليه وكان يشيع بني الناس إن ما يأتي به النبي (ص) ما هو الا أساطير الأولين .

ومن أعضاء هذا الفريق نُبـيه ومنبـه ابنا الحجاج السهميان فكانا يلقيان النبي فيقولان له أما وجد الله من يبعثه غيرك! إن ها هنا من هو أحسن منك وايسر .

ومنهـم عقبـة بن أبي مُعيط فكان يأخذ العذرة ويضعها على باب بيت النبي (ص) ومنهـم الأسود بن المطلب وكان يتغامز بالنبي (ص) ومعه أصحابه فيقول جاءكم ملوك الأرض ومن يغلب على كنوز كسرى وقيصر فيصفر أصحابه ويصفقون .

حفلات التعذيب

وتزامناً مع شن الحرب النفسية ضد شخص النبي (ص) قامت قريش بحرب شعواء ضد المستضعفين من المؤمنين بالرسالة . فانقصنت على ابنائها وعبيدها مستخدمة ابشع أساليب القمع والتعذيب من أجل إبعادهم عن النبي (ص) .

تحولت قريش الى وحش كاسر وغمدت مخالبتها القوية في الأجساد الضعيفة التي هزلتها العبادة ولم يعترها أدنى خجل أو حياء بما فعلته بأولئك الضعاف الذين لا حول لهم ولا قوة .

فتلك عائلة ياسر كانت آمنة في بيتها ، فرحة مسرورة باتباعها الدين الجديد الذي أنار قلبها للحق وفتح عقلها للعالم ولما يجرى فيه من ظلم واستحقار للقيم والمثل الانسانية .

أعضاء العائلة ياسر الأب ، سمية الأم عمار الابن كانوا في البيت عندما داهمتهم عصابة من قريش تعمل لمصلحة أبي جهل . دخلوا البيت بقوة أضرموا فيه النار وأخرجوا الثلاثة مقيدتين بالأغلال وساقوهم بأسنة الرماح ورؤوس الحراب حتى وصلوا بطحاء مكة فرموهم أرضاً وأخذوا يضربونهم من كل مكان

حتى سالت الدماء من أجسادهم . . عندما تعبوا من الضرب سلطوا النيران على صدورهم وأيديهم وأرجلهم ثم جاؤوا بالأحجار الثقيلة ووضعوها على صدورهم فأشيع خبر تعذيبهم فجاءت قريش لتتفرج . . وجاء رسول الله (ص) فأطل بعينه ليشاهد ثمار رسالته وهي يانعة على شجرة الصمود والاستقامة .

فهؤلاء آل ياسر تتفجر من تحت السياط أصوات الرفض والمقاومة .

ما اروعهم من موقف .

موقف الصمود . . وموقف القائد وهو يرى ثمار جهوده في أولئك الصابرون تحت السياط وكيف أصبحوا يتحملون النار المستعرة وكيف يواجهوا السباب والشتم بروح عالية ملؤها الصمود والتضحية والكبرياء تلك الروح التي صنعتها الرسالة وأوجدتها التربية والرعاية المباشرة لقد ازداد رسول الله ثقة برسالته وبأصحابه وهو أمام مشهد حي من مشاهد الايمان العظيم فأزداد يقيناً بأن المستقبل سيكون لهذا الدين وكيف لا وإن لهذا الدين رجالاً لا يتوانون في طريق الحق ولا يترددون في أهدافهم ولا يستسلمون للضعف ولا يذعنون للضغط مهما كبرت .

وفي لحظات التأمل لا يسع القائد إلا أن يوصل صوته الى المعذبين ليشد على جراحهم ضمادة من الكلمات الدافئة .

صبراً آل ياسر . .

فاستيقظ المعذبون من غفوة التعذيب ورفعت سمية بصرها فوجدت النبي (ص) بين الجموع فانتهزتها فرصة ذهبية لاطلاق صوتها الشائر لعلها تستطيع ان تحرك الضمائر الميتة أو تستثير العقول المغروسة في الجهل المتصدأة بالخرافة .

أومأت بجفون ثقيلة من التعذيب ورفعت صوتها وسط الجموع وخرجت

نبرات من وسط العذاب وأشارت بأصابع ممزقة الى رسول الله (ص) قائلة - ؛
أشهد انك رسول الله وإن وعدك حق .

ما أعظمها من كلمات وما أروع هذا الصمود . . وما أجمل هذا الحب
وهذا الولاء الصادق .

لقد قالت تلك الكلمات لتكشف للعالم انها غير مترجمة وانها غير نادمة
على متابعتها للنبي (ص) وبسرعة البرق نالت سمية ثمن تلك الكلمات ، فقد
انقض عليها الجلادون من كل حذب وصوب يُشبعون منها ساديتهم فغشي عليها
فلما أفاقت دنا منها أبو جهل وصاح بها :

لتذكرن وآلهته بخير ومحمداً بسوء أو لتموتن؟

فماذا سيكون جوابها؟ وهي متأكدة ان مصيرها سيتحدد باجابتها .

ما أصعب الموقف لكن ما أسهل الكلمات التي نطقتها سمية جواباً على
أبي جهل .
بؤساً لك ولآلهتك .

وبوحشية يندى لها جبين البشر أخذ يطعننها بحربة ويكرر الضربات حتى
قضى عليها فذهبت الى خالقها أول شهيدة في الإسلام .

ولم يكتف الطغاة بهذا القدر من السادية فقد قرروا أن يواصلوا حفلة
التعذيب على أجساد بقية الضحايا جاؤا الى ياسر وهو مكبل بالحديد عاري في
وهج الشمس تلفحه حرارتها المحرقة فضربوه حتى ألحقوه بزوجه .

ولم يبق من حفلة التعذيب إلا الفصل الثالث فتجمعوا حول عمار فأهالوا
عليه بالسياط والرماح والحرايب وهم يُخيرونه بين الموت وبين ذكر آلهتهم بخير
ويذكر محمداً بما يريدون فاضطر اليها فأطلقوا سراحه وسارع الى النبي باكياً

متألماً لما صدر منه وهو يقول لم أترك يا رسول الله وقد أكرهوني حتى نلت منك وذكر آلهتهم بخير .

فقال له النبي كيف تجد قلبك يا عمار .

أجابه انه مطمئن بالايمان يا رسول الله .

فقال فما عليك . . فان عادوا اليك فعد لما يريدون فقد أنزل الله فيك .
﴿ إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ﴾ .

ومشهد آخر من مشاهد التعذيب في تلك الصحراء المقفرة ذات الرمال الساخنة ، كان هناك عبدٌ أسود نحيف الجسم مفرط في الطول كث الشعر خفيف العارضين ملقاً على الحصى وحوله عدد من الجلادين فيهم أمية بن خلف كانوا يواصلون ضربه تتعب أجسامهم وهو لا يتعب من ترديد أنشودة الصمود والمقاومة . . . أحد . . أحد . . أحد . .

فذاك بلال الذي أصبح رمزاً للمقاومة يعدل ألف سيد وهو عبد .

لقد استطاع النبي (ص) بفكره الوقاد ان يحوّل هذا الجسد النحيل الى عملاق في الصمود والى ثورة بوجه الأعراف الجاهلية .

فقد حولت قريش جسده الى مختبر جربت فوقه كل ما لديها من حقد وكراهية وتجبر وتكبر .

وحين يصابون بالكلل يأتون بحجر مستعرة ينقله من مكانه بضعة رجال ويلقون به فوق جسده وظهره . . وهم في هذه الحال يطلبون منه أمراً واحداً وهو أن يذكر آلهتهم بخير حتى لو يقولها بلسانه فكان يُجيبهم [إن لساني لا يُحسنه] .

لقد أبى أن ينطق باسم اللات والعزى لانه اعتقد ان مجرد النطق بهذه

العبارات هو تنازل بحد ذاته وهو يرفض أن يقدم أقل تنازل واكتفى بجواب واحد هو أحد . . أحد . . أحد وبين الفينة والأخرى كانوا يستبدلون طريقة التعذيب ، فجعلوا في عنقه حبلاً ثم أمروا أطفالهم أن يسخروا منه ويطوفوا به في شوارع مكة حتى يشاهده الناس فيصبح مثلاً للآخرين .

وعبثاً كان الأطفال يحاولون بضجيجهم أن يخمدوا صوت بلال وهو يرتل نشيد المقاومة أحد . . أحد . .

فكانت كل القلوب وكل الحناجر وكل العبيد يتضامنون مع تلك النبرات .

لقد شاهد حفلة التعذيب الكثير . . من مؤيد ومن معاند . فرأوا في بلال عظمة الدين وعظمة القائد الذي صنع هذه الملحمة .

وربما تساءل حتى الأعداء ما الذي يدفع بهذا العبد لأن يقف هذا الموقف ولا يرضى أن يعطي أسياده حتى نصف كلمة .

ومشهد ثالث من حفلة التعذيب بطله هذه المرة خباب بن الارت ، ذلك السيف الذي كان يصنع السيوف ويبيعها في أسواق مكة ، فقد هدئ الله قلبه للايمان فدفع ثمن إيمانه غالياً . كانوا يأتونه الى داره ويأخذون الحديد الذي يستخدمه في صنع السيوف ويحمونه حتى الاحمرار ثم يربطون به رجله ويده .

وفي مرات أخرى كانوا يعرونه ويلصقون ظهره بالرمضاء ثم يضعون الحجارة المحمأة تحت ظهره حتى ذهب لحمه .

وأم أغار وهي سيدة خباب قبل أن يصبح حراً كانت تشترك في بعض الأوقات في حفلة التعذيب فكانت تأخذ الحديد الحارة وتضعها على رأسه طالبة منه أن يترك دينه ويعبد الأصنام .

وكان رسول الله (ص) يمر على تلك المشاهد لكي يعطي المعذبين

شحنات من الصمود حتى يواصلوا مقاومتهم لمسلسل التعذيب لأن كل ما بناه كان يتوقف على صمودهم وتضحياتهم .

مرّ رسول الله (ص) يوماً على خباب وهو في حالة يُرثى لها الحديد الساخن يشوي رأسه وهو عارٍ في الرمضاء تحت لهيب الشمس المحرقة فدعا له .

« اللهم أنصر خباباً » .

ولم يمض طويل على دعاء الرسول (ص) حتى أُصيبت أم اغار بمرضٍ غريب فكانت تعوي كالكلب فأخبروها ان علاجها أن يُكوى رأسها بالنار . فقد قدر الله لها أن تتألم بمثلما كان يتألم خباب وان تنال ما كانت تفعله به .

لقد مرت فترة من المحنة هي أشد ما عرفها التاريخ الإسلامي وتاريخ الثورات من روعة في الصمود وتألّق في سماء المقاومة والتحدي ويعود الفضل في تلك المشاهد الرائعة الى رسول الله (ص) الذي كان رمزاً للمقاومة فمنه أخذ أصحابه درس المقاومة والتحدي فكانت لقاءاتهم مع طغاة قريش هي صورة مصغرة عن مواقف رسول الله (ص) مع هؤلاء الطغاة .

في تلك اللحظة العصبية لم يهدأ رسول الله (ص) في تقوية معنويات أصحابه وبعث الصمود في نفوس أولئك الذين سيواجهوا حفلات التعذيب في كل يوم وليلة .

فكان ينتقل من مشهد الى آخر يصب زيت الارادة في النفوس الكبيرة لتشتعل بالثورة ضد الوثنية وكان يزرع الأمل في النفوس إذ الأمل هو بلمسم للجراح المعذبة . فقد اتفق عددٌ من الصحابة الذين كانوا ينالون التعذيب بالتقيط اليومي مع خباب بن الارت فجاؤوا الى رسول الله (ص) طالبين منه أن يدعو الله ليضع حداً لمعاناتهم . . قالوا للنبي :

يا رسول الله .. ألا تستنصر لنا؟؟

فاحمر وجه رسول الله فقال لهم .. قد كان من قبلكم يُؤخذ منهم الرجل ، فيحفر له في الأرض ، ثم يُجاء بالمنشار ، فيجعل فوق رأسه ، ما يصرفه ذلك عن دينه . ويُمشط بأمشاط الحديد ما بين لحمه وعظمه ما يصرفه ذلك عن دينه .

وليتمنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخشى إلا الله عزَّ وجلَّ والذئب على غنمه . ولكنكم تعجلون .

إذن لا شيء ما يلاقونه في قبال أولئك الذين كانوا يقطعون بالمناشير وتمشط لحومهم من عظامهم بأمشاط الحديد .
لا شيء ما يلاقونه في قبال ما سيحصلون عليه .

فان ما يجري عليهم لا يدوم .. وأن قريش لا يمكن أن تستمر إلى الأبد في ممارستها الشوفينية فما هي إلا أيام أو أسابيع أو أشهر وبعده سيأتي الخير حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخشى أحداً إلا الله .

لقد وعدهم الله إنه سينصر دينه وأن يوماً ليس ببعيد سيأتي ليحكم هذا الدين الربوع كلها وسيأتي اليوم الذي ستمرغ فيه أنوف أسياذ قريش وطواغيتها .
فاذن ما هي الا ايام .. فالصبر والمقاومة .

وبهذه الروح واصل الأباة طريق المقاومة مستهينين بالعذاب غير مُبالين بالضغط بهذه الروح استطاع المسلمون ان يمرغوا انوف الطغاة وأن يدفعوهم إلى الاستسلام والاذعان لارادة الله .

فمسلسل الإضطهاد يصهر النفوس ويصنع منها قالباً إيمانياً واحداً ، والمسلمون كانوا بأمس الحاجة لأن يجتازوا تلك المحنة ويتذوقوا طعم الشدائد

ليخرجوا من مدرسة المقاومة رجالاً أقوياء ولتعدهم إعداداً جيداً للمستقبل ولشدائده وأهواله .

إن مصير الأسلام أصبح مرهوناً بصمود تلك الجماعة القليلة الملتفة حول النبي (ص) ، وأن أهوال المستقبل أشدّ وأعنف وإن مواجهتها بحاجة الى اعداد . وأجواء مكة في تلك الفترة كانت الميدان الأفضل لاعداد الطليعة المؤمنة .

فلولا تلك المحن وذاك الاضطهاد الذي لقيه المسلمون لما كان سينتصر الاسلام في بدر والخندق وخيبر ، ولما كان يجرأ أحدهم ليقف ذلك الموقف الذي وقفه عبدالله بن حذافة أمام كسرى ملك الفرس .

إن الأمم الخالدة تبدأ من نطفة . . وكلما كانت النطفة قوية كانت الأمة قوية. أيضاً . وهذا هو الذي اراده رسول الله (ص) فقد بذل كل جهدٍ من أجل هذه النطفة الخيرة فقد رعاها بكل ما يملك ومنحها كل اهتمامه حتى أصبحت نواة النطفة المباركة لولادة خير أمة أخرجت للناس .

والأمة لا تتسلق المجد إلا بالتعب والنصب . ولا تصبح قوية إلا بالشدائد والمحن ، فهي في الشدائد تزداد ثقة بالنفس وتتضاعف علائقها بقائدها ويزداد تشبُّها بأهدافها ، وهذه هي سمات الأمة الخالدة .

ثقة واعية بالنفس .

وثقة عالية بالقيادة .

وانشداد نحو الأهداف .

لكن لم يكن سهلاً على رسول الله (ص) أن يرى اصحابه ورفاق دربه وهم مرميين فوق الرمال الحارة وفوق صدورهم الصخور الحامية وهم يتعرضون

الى التنكيل والتعذيب بأقصى صورة .

كيف يتمكن ذلك القلب العطوف الذي يرتجف لألم هرة أن يشاهد أصحابه وأعزته ومن سارع فأمن به وهم يثنون تحت سياط الشياطين ويتألمون تحت حراب الطغاة .

والى متى يستطيع المسلمون أن يتحملوا كل هذا العذاب وعلى ما يبدو إن قریش غیر منفکة عن ارواء حقدھا الدفین من جسد المستضعفین .

فما الحيلة والقوم يزدادون حقدًا على الرسالة .

ويتضاعفون في شراستهم وتنكيلهم . .

صوب الحبشة :

لم يك هناك مفر سوى الخروج عن مكة . .

فمع مجيء شهر رجب من السنة الخامسة من البعثة أمر رسول الله (ص) أصحابه أن يتوجهوا صوب الحبشة سراً . لوضع حد لعمليات التصفية التي شملت بعض الصحابة كياسر وسمية ولايجاد قاعدة جديدة للانطلاق .

لكن لماذا الحبشة؟

لأن بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد ولبعدها عن مكة ثانياً فالمسافة الطويلة ستحول دون ممارسة قریش لطغيانها وثالثاً لضعف النفوذ المكي على السلطة الحاكمة في الحبشة بخلاف المناطق الأخرى التي يحظى فيها المكيون بنفوذ واسع .

وفي غسق الليل ، انطلق خمسة عشر من المسلمين فيهم أربع نساء هم الوجبة الأولى من المهاجرين الى الحبشة (الذين ناهزوا الاثنين والثمانين نفر)

فسارعوا للوصول إلى جدة حيث كانت السفن الراسية بانتظارهم .

وبنصف دينار عن كل راكب استطاع المسلمون أن يَطْوُوا صفحة من حياتهم ويبدأوا حياة جديدة على أرض أخرى . . لكن هل سيكونوا بمنجا من أولئك الطغاة الذين أدمنوا على تعذيب المستضعفين .

واستيقظت قريش على أنباء مزعجة تهددهم في الصميم لأن الهجرة إلى الحبشة كانت تعني خروج الإسلام من قبضتها الحديدية .

فتحت طائل الخوف من انتشار الإسلام سارع المكيون إلى إرسال وفد رفيع المستوى إلى النجاشي ملك الحبشة وحملوه هدايا كثيرة للملك واستطاع الوفد أن ينفذ إلى بطارقة الملك ويقنعهم بضرورة مساعدتهم على استرداد المسلمين . . لكن أبى الملك ذلك إلا بعد أن يسمع رأي المسلمين بالتهمة الموجهة إليهم بأنهم ابتدعوا ديناً جديداً لهم .

وتم اللقاء ، وكان لقاءً تاريخياً ، حيث استطاع المسلمون أن يقبلوا حسابات الوفد المكي . فقد انبرى جعفر بن أبي طالب ليُجيب على سؤال الملك حول ماهية الدين الجديد بكلمة رائعة ذكرها كل المؤرخين .

فزلت كلمات جعفر كالصاعقة على رؤوس الوفد الذي لم تسعه الهدايا ولم تنفعه العلاقات السابقة فقد انهزموا أمام أولئك القلة الذين كانوا موضع سخريه لهم . ولم يتصوروا يوماً من الأيام أنهم يقفون هذا الموقف الضعيف الذليل أمام من اعتبروهم عبداً وأفراداً من الدرجة السفلى .

ولم يمر ببالهم أن يصبح للمسلمين هذا المنطق وهذه القوة في الحجة والبيان وهم الذين كانوا إلى الأمس حفاة فقراء فما الذي صنع بهم ذلك؟

وهنا تبرز أمامنا القيمة الحقيقية للفترة الهامة التي قضّاها رسول الله (ص) في إعداد هؤلاء الكوادر الذين امتازوا بقدرة فائقة على المواجهة السياسية

والاعلامية . فإذا كان هناك فضل في مثل هذه المواقف فالفضل كله يعود الى الخطة الحكيمة التي اتبعها رسول الله في بناء تلك العناصر القيادية ورعايته المستمرة لها حتى أصبحت بمستوى المواجهة من حيث المنطق والشجاعة النفسية والجرأة الأدبية .

وكانت خيبة أمل للوفد ان يخرج من قصر الملك بدون نتيجة ، فماذا سيقولون لقريش وماذا سيجيبونهم وهم ينتظرون منهم النتيجة ليحتفلوا باعادة المسلمين قهراً الى مكة ماذا سيكون جوابهم لأولئك الذين أرسلوا معهم الهدايا وكلهم ثقة بقدرة الوفد على التأثير في الملك ثم على استرداد المسلمين .

وهكذا لم يرتض الوفد العودة الى مكة دون أن يكسب المعركة فسارع الى التفكير بدسياسة أخرى وفي الغد جاء الى الملك ليقولوا له إن المسلمين ليقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً فأرسل اليهم فسلهم عما يقولون فيه واعتقدوا بأنهم سيربحوا هذه الجولة لأن المسلمين لا يسعهم الجواب ومهما كانت اجاباتهم فانها ستغضب الملك .

وعلى الفور طلب الملك من حاشيته أن يدعوا جعفر فطلب منهم الاجابة على ذلك السؤال وبلا تردد قال جعفر نقول فيه الذي جاء به نبينا يقول هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها الى مريم العذراء البتول . فأخذ النجاشي عوداً وخط به على الأرض وقال ليس بين دينكم وديننا أكثر من هذا الخط ثم قال للمسلمين .

اذهبوا فأنتم آمنون .

وصعق الوفد لهذه النتيجة غير المنتظرة ولتلك الاجابة البليغة التي تنم عن نضج وتكامل في الشخصية .

فعادوا الى مكة بأيدي خالية وظل المسلمون في الحبشة بعد أن ربحوا

الجمولة ووجدوا هناك مأماً مناسباً للعيش وللدعوة . وجاء في بعض التواريخ ان النجاشي قد أسلم بعد أن أدرك سلامة الدين الاسلامي . واذا أُريد وضع هذه التجربة في دائرة التقييم فانها تعتبر من التجارب الناجحة التي خاضها المسلمون في فترة التحرك المكي . وهي تكشف عن مدى ما بلغه المسلمون من حنكة سياسية وقدرة على المناورة للتخلص من الأعداء . وبالإضافة الى هدف تأمين الجانب الأمني للمسلمين هناك هدف آخر هو عقد علاقات سياسية مع زعيم أقرب دولة الى مكة بعد أن يتقن المسلمون من سلامة السلطة وسلامة نهج ملكها وجودة البيئة كمحطة للبناء والانتشار .

ولم يقع الاختيار على الحبشة كماوى لبعض المسلمين إلا بعد أن قدّر رسول الله (ص) الموقف بكل حذافيره ودرس الوضع العام الاجتماعي والديني . فاستنتج ان وجود المسلمين في تلك البقعة سيشكل عامل ضغط قوي على المشركين وسيعطي للحركة بُعداً سياسياً هاماً وخصوصاً إذا ما استطاع المسلمون من التأثير على السلطة الحاكمة وهذا الذي تحقق فعلاً . فقد آمن النجاشي بالاسلام ولم يرغب في الاعلان عن ذلك خوف انقلاب الوضع عليه . وقيل إن الحركة العvisانية التي وقعت في الحبشة كانت بسبب تمايله للإسلام ، وهذا ما يُبرز الدور الفاعل للمسلمين فهم لم يتحولوا الى عملاء للسلطة هناك بل على العكس من ذلك تمكنوا أن يقنعوا ملك تلك الدولة باعتناق دينهم . ويعود السبب في نجاح هذه التجربة الى عاملين اثنين .

الأول : الخطة الحكيمة التي تم على أساسها سفر المهاجرين الى الحبشة من التوسل بالكتمان ودقة في التنظيم . العامل الثاني هو حسن اختيار العناصر القيادية في المجموعة فاخيار جعفر ببلاغته وحنكته السياسية كمسؤول عن المجموعة عامل هام في نجاح التجربة . فلولا الوقفة الباسلة التي وقفها جعفر أمام الملك لما كان المسلمون بقادرين على احراز هذه المكتسبات في الحبشة .

القبضة الحديدية

أصبح التخوف من انتشار الدين يدفع بزعماء الشرك في مكة إلى تصعيد نهجهم في ضرب مواقع المسلمين بلا رحمة ولا شفقة بمختلف السبل . فقد واصلوا هجومهم على المسلمين بلا كلل ولا تعب فثمة دوافع عديدة أوجدت الحالة العدائية ، فلم تقتصر تلك الدوافع على المعوقات الاقتصادية التي ستطراً نتيجة انتشار الإسلام وبالإضافة إلى ذلك هناك العالم العقائدي الذي سَعَر من نيران المواجهة وأجج الحقد والكراهية في نفوس المشركين فحصر المواجهة بين المشركين والمسلمين بالعامل الاقتصادي فقط هو محاولة لتفسير الصراع المبدئي الذي خاضه المسلمون بالمادية الجدلية وهو التفسير المشوه الذي يحاول الماركسيون الصاقه بالتاريخ الإسلامي .

ومن يتأمل طبيعة المواجهة يدرك إنه لم يك صراعاً اقتصادياً . فقد عرضوا على النبي (ص) عروضاً مادية مغرية لكي ينفك عن دعوته ويتوقف عن مواجهة الآلهة .

ثم إن استمرار قريش في المعركة بلا انقطاع عرض الكثير من مصالحها الاقتصادية إلى الخطر وجعلها مشغولة بحرب رسول الله بدلاً من التفكير في

تنمية مواردها التجارية فبسبب البليلة التي أحدثتها معركتها المستمرة مع المسلمين خسرت الكثير من اسواقها .

ومن جانب آخر كان المسلمون على الطرف الآخر من الصراع رجال عقيدة ومبدأ لم يشغلهم شيء من حطام الدنيا في مواصلة درب النضال من أجل العقيدة الإسلامية فهم قد تحملوا الأذى والصعاب وتحملوا الجوع من أجل العقيدة ، وهذا برهان على خطأ التصور المادي في تفسير الصراع الإسلامي الجاهلي ولعل اروع نموذج ضربه المسلمون في التجرد عن ملذات الدنيا هو استعدادهم لتقبل الحرمان الكامل في شعب ابي طالب زهاء ثلاث سنوات .

لقد كانت السنين التي أعقبت الاعلان عن الرسالة سنين مواجهة لم تهدأ لحظة واحدة ، وإذا ما هدأت معركة تفجرت أخرى في موقع آخر .

فقد خيم بعض الهدوء على مكة في أعقاب هجرة بعض المسلمين إلى الحبشة وبعث فريق من رجالات قريش للتفاوض مع ملك الحبشة من أجل استردادهم . فقد كانت قريش بانتظار ما ستسفر عنه محاولة وفدها إلى الحبشة فخلدت إلى الهدوء ومما أجبرها على اتخاذ هذا الموقف ما وقع بين حمزة بن عبد المطلب وأبي جهل والذي توج باسلام حمزة فقد وقع ذلك كالصاعقة على قريش وأحس المسلمون بقوة اضافية تسرب إلى سواعدهم . لكن لم يك هدوء قريش إلا مؤقتاً إذ عادت إلى ممارسة نهجها العدواني بأشجع ما يمكن بعد عودة الوفد وهو يحمل الفشل الذريع .

ولفترة قصيرة من الهدوء فكّر بعض المهاجرين بالعودة عندما تسربت أنباء مفادها ان هدنة غير معلنة قامت بين النبي (ص) والمشرّكين ، لكن ما أن وصل البعض منهم حدود مكة حتى سمعوا بتغير الموقف إلى ما هو أسوأ إذا أعلنت قريش مقاطعة كاملة اقتصادية واجتماعية ضد المسلمين وضد من يقف إلى

جانبيهم وفي طليعتهم بني هاشم . إذ كان للعلاقات العائلية والقبلية التي لم يمسه الإسلام بسوء ذات أثر هام في التأريخ الإسلامي . واستثمر الرسول (ص) في بداية أمره هذه الخصلة الحميدة في المجتمع المكي عندما دعى عشيرته إلى مائدة الطعام كما سبق ذكره وأول ثمرة برزت من ذلك الاجتماع هو موقف العائلة من مسألة الحصار . وقد حدث فعلاً بعض الوقائع التي كان للعائلة موقف مشرف .

ففي إحدى المرات افتقد أبو طالب محمداً فلم يجده فاستولى عليه الخوف مما قد سيحدث لابن أخيه فسارع إلى جمع الشباب من بني هاشم وقال لهم ليأخذ كل واحد منكم حديدة صارعة واتبعوني فإذا دخلت المسجد فليجلس كل واحد منكم إلى جانب عظيم من عظمائهم وليقتله إذا كان محمداً قد قُتل ففعلوا ما أمرهم به وقبل أن يبدأ بتنفيذ الخطة جاء زيد بن حارثة فأخبره بسلامة النبي (ص) وفي الصباح جاء أبو طالب ومعه النبي (ص) فأخذ بيده ووقف قبال زعماء قريش وهم في أنديتهم وحوله فتيان بني هاشم فأخبرهم بما كان يريد أن يفعله لو أنهم أصابوا محمداً (ص) بسوء وأراهم السلاح الذي أعده لهذه الغاية فانكسر القوم وكان أكثرهم انكساراً أبو جهل .

فوقوف بني هاشم إلى جانب النبي (ص) أفضل مخططات قريش للنيل منه وأقضى مضاجعها خصوصاً موقف أبي طالب الذي كانت له حظوة ومكانة عند القبائل .

من هنا قامت محاولات جادة للفصل بين النبي (ص) وبين بني هاشم بهدف استفراده فيمكنهم تصفيته حينذاك . وما إعلان المقاطعة الاقتصادية والاجتماعية إلا محاولة دنيئة لتعريض المسلمين إلى نوع جديد من الضغوط عليهم يتركوا دينهم ، فكتبوا كتاباً يتعاقدوا فيه على أن لا ينكحوا بني هاشم وبني المطلب ولا ينكحوا اليهم ولا يبيعوهم ولا يتتبعوا منهم شيئاً ، ووقع على

الصحيفة أربعين نفرًا من زعماء قريش ثم علقوها في جوف الكعبة ، وجاءت نتائج هذه المحاولة كسابقتها فقد انحاز بنو هاشم وبنو المطلب إلى رسول الله وفضلوا الانتقال إلى مكان أكثر أمنًا فاخترأوا شعب إحدى الجبال فتخذقوا فيه ، وقام جمع من قريش بمراقبة مداخل الشعب لئلا يدخل إليه أحد ، فكانت الموءن تصل إلى منطقة الحصار بصورة سرية بواسطة أفراد معينين . ولعبت أموال خديجة (من الطعام) دوراً هاماً في تغطية حاجات المحاصرين ، لكن امتداد الحصار لثلاث سنوات في بعض الروايات أدى إلى نفاذ الامكانات المادية للمسلمين واضطروهم إلى تناول ورق الشجر لسد الرمق كما ورد في الأخبار .

وكان أبو طالب (ع) يباشر بنفسه حراسة النبي (ص) في أغلب الأوقات أو يوكل المهمة إلى أحد أبناءه في حالة غيابه إذ كانت انباءاً قد تسربت عن وجود مؤامرة لاغتيال النبي (ص) في نفس الوقت كان هناك جمعٌ من قريش يتواجدون طول الوقت خلف الشعب يترصدون التحركات ويتصيدون الأخبار داخل الشعب وإيغالاً في الحصار كان بعض التجار يشترون السلع بأثمان باهظة حتى لا تصل بأيدي المسلمين .

أما المحاصرون فكانوا يقضون طول الوقت في الشعب إلا في فترات العمرة والحج حيث كانوا يخرجون ليعودوا بسرعة .

وللأسف فالأخبار التي ذكرها المؤرخون عن الفترة التي قضاها رسول الله في الشعب قليلة للغاية مع أهميتها . ويُرجح إن رسول الله (ص) قد استثمر وجوده بين أصحابه وأقربائه في انماء الحس الايماني وفي الثقيف والبناء ، وهذا ما يمكن ملاحظته بعد خروجه من الحصار فقد انطلق بخطة عمل جديدة وبأساليب وطرق جديدة في التحرك سنأتي على ذكرها انشاء الله ومما ساعده على تطبيق هذه الخطة الطريقة الفذة التي تم بها فك الحصار .

فهنالك صورتان ذكرهما المؤرخون في كتبهم عن فك الحصار .

الصورة الاولى كما وردت في أمهات كتب التاريخ؛ إن هشام بن عمرو ابن الحارث كان ممن يقوم بتأمين بعض الحاجيات الأساسية ولم يذكر التاريخ عنه شيئاً سوى إنه أخ لأحد المحاصرين .

لما رأى هشام ما ألمّ بالمحاصرين مشى الى زهير ابن أبي أمية بن المغيرة المخزومي ، أخي أم سلمة ، وكان شديد الغيرة على النبي ، صلى الله عليه وسلم ، والمسلمين ، وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب ، فقال : يا زهير أَرْضِيَتْ أَنْ تَأْكُلَ الطَّعَامَ وَتَلْبَسَ الثِّيَابَ وَتَنْكَحَ النِّسَاءَ وَأَخْوَالَكَ حَيْثُ عَلِمْتَ؟ أَمَا إِنِّي أَحْلَفُ بِاللَّهِ لَوْ كَانُوا أَحْوَالُ أَبِي الْحَكَمِ ، يَعْنِي أَبَا جَهْلٍ ، ثُمَّ دَعَوْتَهُ إِلَى مِثْلِ مَا دَعَاكَ إِلَيْهِ مَا أَجَابَكَ أَبَدًا . فقال : فماذا أصنع؟ وإِنَّمَا أَنَا رَجُلٌ وَاحِدٌ . والله لو كان معي رجل آخر لنقضتها . فقال : قد وجدت رجلاً . قال : وَمَنْ هُوَ؟ قال : أَنَا . قال زُهَيْرٌ : ابْغِنَا ثَانِيًا ، فَذَهَبَ إِلَى الْمُطْعَمِ بْنِ عَدِيٍّ بْنِ نُوْفَلٍ بْنِ عَبْدِ مَنْفٍ فَقَالَ لَهُ : أَرْضِيَتْ أَنْ يَهْلِكَ بَطْنَانُ مِنْ بَنِي عَدِيٍّ ابْنِ عَبْدِ مَنْفٍ وَأَنْتَ شَاهِدُ ذَلِكَ مُوَافِقٌ فِيهِ؟ أَمَّا وَاللَّهِ لَشَنْ أَمَكْتَمُوهُمْ مِنْ هَذِهِ لَتَجِدُنَّهُمْ إِلَيْهَا مِنْكُمْ سَرَاعًا . قال : مَا أَصْنَعُ؟ إِنَّمَا أَنَا رَجُلٌ وَاحِدٌ . قال : قد وجدت ثَانِيًا . قال : مَنْ هُوَ؟ قال : أَنَا . قال : ابْغِنَا ثَالِثًا . قال قد فعلتُ . قال : مَنْ هُوَ؟ قال : زُهَيْرُ بْنُ أَبِي أُمِيَّةٍ . قال : ابْغِنَا رَابِعًا . فَذَهَبَ إِلَى أَبِي الْبَخْتَرِيِّ بْنِ هِشَامٍ وَقَالَ لَهُ نَحْوًا مِمَّا قَالَ لِلْمُطْعَمِ ، قَالَ : وَهَلْ مِنْ أَحَدٍ يُعِينُ عَلَيَّ هَذَا؟ قَالَ : نَعَمْ . قال : مَنْ هُوَ؟ قَالَ : أَنَا وَزُهَيْرُ وَالْمُطْعَمِ . قال : ابْغِنَا خَامِسًا . فَذَهَبَ إِلَى زَمْعَةَ بْنِ الْأَسْوَدِ بْنِ الْمُطَّلَبِ بْنِ أَسَدٍ ، فَكَلَّمَهُ وَذَكَرَ لَهُ قَرَابَتَهُمْ ، قَالَ : وَهَلْ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ مَعِينٌ؟ قَالَ : نَعَمْ ، وَسَمَى لَهُ الْقَوْمَ ، فَاتَّعَدُوا خَطْمَ الْحَجَّونِ الَّذِي بِأَعْلَى مَكَّةَ ، فَاجْتَمَعُوا هُنَالِكَ وَتَعَاهَدُوا عَلَى الْقِيَامِ فِي نَقْضِ الصَّحِيفَةِ . فقال زهير : أَنَا أَبْدَأُكُمْ .

فلَمَّا أصبحوا غدوا إلى أُنديتهم ، وغدا زهير فطاف بالبيت ثم أقبل على الناس فقال : يا أهل مَكَّة أتناكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكني لا يتعاونون ولا يُبتاع منهم؟ والله لا أقعد حتَّى تُشَقَّ هذه الصحيفة القاطعة الظالمة . قال أبو جهل : كذبت والله لا تُشَقَّ . قال زَمْعَةُ بن الأسود : أنت والله أكذب ، ما رضينا بها حين كُتِبَتْ . قال أبو البُخْتَرِيّ : صدق زَمْعَةُ ، لا نرضى ما كُتِبَ فيها : قال المُطْعَم بن عديّ : صدقتما وكذب من قال غير ذلك . وقال هشام بن عمرو نحواً من ذلك . قال أبو جهل : هذا أمر قُضِيَ بليل وأبو طالب في ناحية المسجد .

فقام المُطْعَم إلى الصحيفة ليشقّها فوجد الأرضة قد أكلتها إلّا ما كان : باسمك اللهم ، كانت تفتتح بها كتبها ، وكان كاتب الصحيفة منصور بن عَكْرَمَة ، فشلت يده .

أما الصورة الأخرى لخروجهم من الشعب فقد ذكرت في جميع كتب السير بهذه الصيغة .

أرسل الله الأرضة فأكلت ما في الصحيفة من ظلم وقطيعة رحم وتركت ما فيها من أسماء الله تعالى فأخبر جبرائيل النبي (ص) بذلك وهو بدوره أخبر عمه أبي طالب الذي سارع وتوجّه إلى الحرم فاجتمع بزعماء قريش وقال لهم إن ابن أخي أخبرني إن الله أرسل على صحيفتكم الأرضة فأكلت ما فيها من قطيعة رحم وظلم وتركت اسم الله تعالى فأحضروها فإن كان صادقاً علمتهم انكم ظالمون لنا قاطعون لأرحامنا ، وإن كان كاذباً علمنا انكم على حق وأنا على باطل فقاموا سراعاً وأحضروها فوجدوا الأمر كما قال رسول الله (ص) فهلّل وجه أبي طالب ورفع صوته عالياً ، قد تبين لكم انكم أولى بالظلم والقطيعة .

فنكسوا رؤوسهم حياءً وخجلًا لما حلّ بهم .

والمرجح ان الصورتين قد وقعتا في آن واحد فعمل خطير كفك الحصار
كان بحاجة الى خطة حكيمة والى رعاية آلهية تقف الى جانب نبيه فاولئك النفر
الذين تحركوا بتلك الصورة ضد المقاطعة استطاعوا بعملهم المنظم أن يكونوا
رأياً عاماً مُضاداً للمقاطعة ، لكن هذا - الرأي العام - لم يك كافياً لنقض قرار
المقاطعة إذ مثل هذه المهمة بحاجة الى عمل أكبر قد لا يتسنّ لأنسان القيام
به . وهنا يأتي دور المعجزة في زحزحة الوضع القائم وإيجاد منفذ لتغيير
القرار . فالمؤكد ان كبرياء أولئك الطغاة لم يسمح لهم بالاستسلام الا بعد أن
افتضح أمرهم وكشفت المعجزة عن بطلانهم . فأصبحوا عاجزين عن الكلام إلّا
أن يهمس الواحد منهم في أذن الآخر انه سحرٌ وبهتان .

لقد أنقلب الأمر عليهم وفسح المجال أمام رسول الله (ص) لان يتحرك
بحرية أوسع وبمساحة أكبر من الرقعة البشرية في مكة .

the first of these is the fact that the
the second is the fact that the
the third is the fact that the

the fourth is the fact that the
the fifth is the fact that the
the sixth is the fact that the

the seventh is the fact that the
the eighth is the fact that the
the ninth is the fact that the

the tenth is the fact that the
the eleventh is the fact that the
the twelfth is the fact that the

the thirteenth is the fact that the
the fourteenth is the fact that the
the fifteenth is the fact that the

the sixteenth is the fact that the
the seventeenth is the fact that the
the eighteenth is the fact that the

the nineteenth is the fact that the
the twentieth is the fact that the
the twenty-first is the fact that the

the twenty-second is the fact that the
the twenty-third is the fact that the
the twenty-fourth is the fact that the

the twenty-fifth is the fact that the
the twenty-sixth is the fact that the
the twenty-seventh is the fact that the

مهمات ما بعد الحصار

خرج رسول الله (ص) من حصار قريش باستراتيجية جديدة هي توسيع نطاق المجموعة التي آمنت به لتتحول إلى كتلة بشرية قادرة على الحركة بحرية كافية .

كانت استراتيجية الرسول (ص) تقوم على تحويل المسلمين من دور الطليعة إلى دور المجتمع وذلك .

١ - التحرك على قطاع واسع من القبائل والعشائر في انحاء الجزيرة العربية والخروج بالدعوة من نطاق مكة لاضافة مجاميع أخرى إلى الكيان الإسلامي .

٢ - البحث عن مكان مناسب لأقامة أول تجربة في بناء المجتمع الرسالي الذي تسوده قيم التوحيد والعدل وتحكم به مبادئ الإسلام الحنيف . فقد خرج رسول الله (ص) من حصار الشعب وهو مؤمن بأن مكة لم تعد في الوقت الحاضر مكاناً مناسباً لتوطين المجتمع الذي يطمح إليه لأنه مهما توسع في القاعدة البشرية فهو يظل محاصراً من قبل زعماء قريش فكان لا بد من البحث عن مكان آخر يستطيع فيه المسلمون أن يجدوا فيه الحرية الكافية لممارسة

طقوسهم الدينية ولاقامة نظام العدالة التي جاء بها النبي (ص) والذي سيجد فيه المناخ المناسب لتربية المجتمع الإسلامي على أسس جديدة وقواعد رصينة .

وكان الوحي يواكب نمو وتطور المسيرة الإسلامية في تلك الفترة خطوة فخطوة . ففي مرحلة البناء تركزت اشارات الوحي نحو ترسيخ عقيدة التوحيد أما في فترة العمل العلني فقد انصبت نحو كيفية المواجهة ومعالم الصراع وأصبحت الآيات تمدُّ المسلمين بالزاد الذي يحتاجونه في هذا الطريق اللاهب بالعذاب والآلام ، كما جاءت الآيات لتضيف الى خبرة المسلمين أساليب وطرق جديدة في النضال السياسي .

* ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ .

* ﴿ وأخفض جناحك لمن تبعد من المؤمنين ﴾ .

* ﴿ فإن عصوك فقل اني بريء مما يعملون ﴾ .

* ﴿ يا أيها المدثر قم فأنذر وثيابك فطهر ... ﴾ .

* ﴿ وأصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين .

* ﴿ إنا كفيناك المستهزئين ﴾ .

ويمكننا ملاحظة التعليمات الضرورية في تلك المرحلة . خفض الجناح ، الأعراض عن المشركين . الظهور بالمظهر اللائق . ثم يمكن ملاحظة ما يريد به الله أن يُثبت فيه الرسول في هذه المواجهة ﴿ إنا كفيناك المستهزئين ﴾ .

وبعد أن توسعت الدائرة البشرية للكيان الإسلامي كان لا بد لهذا الكيان من أن يتحول الى مجتمع قوي متراس ثم ليصبح أمة على امتداد القبائل وكان الوحي يواكب هذه المرحلة أيضاً أولاً بأول كما سنلاحظ .

عام الإحزان :

كانت السنة العاشرة من البعثة التي خرج فيها النبي (ص) من الحصار سنة المهمات الصعبة حيث لم يهدأ لحظة واحدة مستمراً كل وقته في التحرك والنشاط حتى وقع الحادث الجلل الذي بدأ يغيّر مجرى المسيرة الإسلامية فقد ارتحل إلى الآخرة اثنان من أشدّ المساندين هما أبو طالب وخديجة ، فقد كان أبو طالب بموقعه الاجتماعي وباصراره العنيد في الدفاع عن النبي (ص) وتأثيره القوي على البيت الهاشمي سنداً معنوياً وسياسياً للحركة الإسلامية فقد كانت قريش تهاب أيّ تحرك يفضي إلى المواجهة مع أبي طالب لذلك النفوذ الواسع الذي كان يمتلكه ، ليس في مكة وحسب بل حتى خارج مكة أما خديجة فقد كانت بموقعها الهام في نفس النبي (ص) ولدورها المؤثر في البذل والعطاء سنداً منيعاً يضيف على المسيرة القدرة على مقاومة الضغوط .

لقد فقد النبي (ص) في ثلاثة أيام ركنين من أركان الدعوة الإسلامية فسمى ذلك العام بعام الحزن فهناك أشياء كثيرة افتقدتها بفقد أبي طالب على رأسها الغطاء الأمني والحماية السياسية التي وفرها وجوده .

فالיום من سيحmie من أذى المشركين ومن سيدفع عنه كيدهم وأين يجد ذلك المدافع الذي لم يبخل بالدفاع عنه وهو حتى في فراش الموت حيث أحس أبو طالب بدنو أجله وأخذ يفكر بما سيجري على ابن أخيه من بعده وانهم سيتناولون عليه متى ما عرفوا بموته .

وجاءه زعماء قريش لعيادته فوجدها فرصة ذهبية كان عليه استثمارها . .
التفت إليهم وهم من حوله ؛ لن تزالوا بخير ما سمعتم من محمد واتبعتم أمره فأطيعوه تنالوا السعادة في دنياكم وآخرتكم^(١) .

(١) الحسني ، سيرة المصطفى : ص ٢٠١ .

وأحسنَ زعماء قريش بدنو أجل أبي طالب فعادوا اليه عليه يتوسط بينهم وبين النبي (ص) فلعل النبي (ص) قد لأن قليلاً بعد الذي لاقاه في الشعب وإنه بدأ يُفكر بصورة واقعية وهو يشاهد دنو أجل عمه وما سيلاقيه من بعده فهي اذن فرصة ثمينة ومن المحتمل أن يكون دافعاً آخر في قبول عروضهم .

جاءوا في اليوم الثاني وصادف وجود النبي (ص) بجوار عمه يخفف عنه آلام المرض .

فقالوا له : يا أبا طالب ، انك منا حيث قد علمت وقد حضرك ما ترى ، فضع حداً للخصام بيننا وبين ابن أخيك فخذ له منا ، وخذ لنا منه ليكف عنا ونكف عنه ، ويدعنا وديننا وندعه ودينه .

عرضٌ سخى يسيل له لعاب كل سياسي يُفكر بمنظار المصلحة الموقته ويُفكر بوضع حد للمضايقات والضغط التي تواجهه وربما جال في خلد أصحاب العرض إن محمداً سيوافق على مقترحهم لا محالة لأنهم قد أبدوا له كل تنازل بأن يتركوه وشأنه ويتركهم لشأنهم وهذا يعني اعلان الهدنة بصورة رسمية بين الطرفين لكن وعلى غير ما كانوا يتوقعون أخذ النبي (ص) بأطراف الحديث ووجه كلامه لزعماء قريش قائلاً لهم :

أعطوني كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم .
فتململ جمعهم وامتدت الأعناق لهذا العرض السخي وهو أسخى مما عرضوا عليه .

التفت أبو جهل ووجهه يبصره الى النبي (ص) قائلاً وعلامات الدهشة والفرح بادية على محياه ونعم وأبيك وعشر كلمات لا كلمة واحدة!!

لكن لم يدم فرح أبي جهل عندما أستمع لبقية كلام الرسول (ص) .

قال لهم النبي (ص) :

تقولوا لا اله إلا الله وتخلعون ما تعبدون من دونه .

ومن هول الصدمة أجابوه أتريد أن تجعل الآلهة إلهاً واحداً . . وقاموا من المجلس وبعضهم يهمس في أذن البعض والله إن هذا الرجل لا يعطيكم شيئاً مما تريدون .

وأرتحل أبو طالب قرير العين بعد أن وضع كل ما لديه في سبيل الرسالة . أرتحل ونفسه راضية بأنه دافع عن ابن أخيه وعن رسالته حتى آخر لحظة ولم يألُ جهداً في توفير الحماية الكافية للكيان الإسلامي الناشئ .

ومع موته أحست قريش بالانفراج وإنها الآن أصبحت قادرة على النيل من النبي (ص) بعد رفضه كل تلك العروض ، فأعدت نفسها لجولة جديدة من الاستحقار والظلم فجاءه أحدهم ورمى رأسه الشريف بالتراب فأسرع إلى البيت والتراب لا زال على رأسه فقامت إليه عزيزته فاطمة وجعلت تغسل عنه التراب ودموعها تهطل من مآقيها . . لم يك سهلاً على الوالد أن يشاهد أعز بناته وهي تبكي ودموعها تقطر فوق خديها . . لقد تعذب أهل هذا البيت كثيراً ونالوا خلال عشر سنوات ألوان المحن والآلام . . أما آن لهذا العذاب أن ينقطع . . لقد تفردوه عندما وجدوه وحيداً بعد أن غاب عنه المعين أبو طالب .

وما بالهم . . أيدعوهم إلى الحرية وإلى الحياة السعيدة وهم يمسون حراهم بوجهه .

يُريد خيرهم فيجيبونه بالتراب والحجارة . . فما أغلظ قلب الانسان عندما تنطفئ فيه شعلة الضمير . . وما أتعسه عندما يفقد احساسه فيصبح لا يميز بين ما ينفعه وما يضره .

أرادوا اذلاله بتلك الأساليب الدنيئة لكنه أبى الذل ووقف شامخاً متحملاً

كل تلك الصعاب وما أصعبها من لحظات مرت على تلك الفتاة التي فقدت أمها
بالأمس واليوم وهي ترى أباهما يطرق عليها الباب بتلك الصورة المفجعة .

أما كان من حقها أن تذرف تلك الدموع الساخنة . . فبالأمس كانت
خديجة واليوم فاطمة . . فاطمة هي المسؤولة عن راحة أبيها . . لكنها لم
تستطع ضبط مشاعرها الجياشة وهي تستقبل أباهما وهو ترب الرأس .

وأدرك الأب ما في قلب أبنته وماذا يجول في خاطرها . .

أراد أن يخفف عنها وقد آلمه بكاءها . .

لا تبكي يا بني . .

فإن الله مانع أباك . .

وكأنما وضع بتلك الكلمات البلسم على جراح فاطمة . .

فالله قد وعد رسوله بالنصر . . فلا يهم ما يلاقيه في هذا الطريق إذا كان
بعين الله وبعين التاريخ الذي سجل هذا الموقف بأروع صورة للصمود والصبر .

البحث عن موقع أفضل

ادرك الرسول (ص) إن قريش غير تاركة إياه وهي ساعية للقضاء على حركته مهما كلفها ذلك من ثمن ، ولم يعد وجوده في مكة بعيداً عن الخطر بعد أن غاب المعين (أبو طالب) .

والمشكلة لم تعد محصورة فيه وحده ، فقد كان وجوده هو وأصحابه في مكة يحول دون الانطلاق الى أفق أوسع فكان عليه أن يبحث عن مكان يستطيع فيه ترسيخ دعوته ، ثم ينطلق بها الى أماكن أخرى . فوقع اختياره للوهلة الأولى على الطائف ، وهي مدينة جبلية تقع على السفوح الشرقية لسراة الحجاز لا تبعد عن مكة كثيراً وهي ترتفع عن سطح البحر (١٦٣٠ متراً) مما جعلها ذات مناخ معتدل صيفاً وشتاءً وتحيط بها أودية تخزن كميات كبيرة من الماء هي وادي العقيق ووادي المحرم ووادي لية . وقد منحتها هذه الخصائص الجغرافية مكانة مرموقة في التاريخ فكانت تنتج التمور والحبوب والرمان والعنب وتنتج بمنتجاتها مع تجار مكة ، أضف الى الانتاج الزراعي كانت الطائف تعتبر من أفضل المصايف لأهالي مكة حيث كانوا يقضون فيها فترات الصيف الحارة وكان البعض من أغنياء قريش يستثمرون أموالهم في الزراعة في هذه المدينة بحثاً عن الربح

ولهذين السبيين أصبح الطائف مكاناً يتردد عليه الأغنياء والتجار من قريش .

وأصبحت العلاقة بين ثقيف القبيلة العربية التي سكنت الطائف وقريش من أوثق ما عليها العلاقات القبلية في الجزيرة العربية في وقت كانت فيها القبائل تتطاحن فيما بينها ولهذا السبب بالذات لم يلق رسول الله (ص) التجاوب من زعماء هذه المدينة . فقد مكث في المدينة عشرة أيام يعقد اللقاءات مع زعماء ثقيف لعله يجد أذنًا صاغية لكن ما سمعه منهم ليس بأفضل مما سمعه من زعماء قريش وكأن ما بينهم وبين قريش من علاقات قد جعلتهم على نمط واحد من التفكير والعقلية ولون واحد من التعامل مع الإسلام .

قال أحدهم ساخراً :

انني أمزق ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك .

وأخر قال له :

أما وجد الله أحداً يرسله غيرك .

ومقولة أخرى تلقاها من نفر ثالث :

والله لا أكلمك أبداً . لئن كنت رسولاً من الله كما تقول لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام ، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك .

فتركهم النبي (ص) بعد أن يش منكم وطلب منهم أن يكتموا أمره ولا يشيعوا خبر اتصاله بهم . . لكنهم لم يكتفوا بإذاعة الخبر بل دفعوا بصبيانهم وسفهاثهم بأن يرموه بالحجارة من كل جانب فلم يكن يرفع قدماً ولا يضع أخرى إلا على حجارة فالتجأ إلى بستان لعتبة وشيبة ابني ربيعة وقد صادف وجودهما هناك وهما يتفقدان مزرعتهما . . فأخذ منه التعب والاعياء فوقف على قدمين تنزفان دماً فلم يستطع الوقوف طويلاً فاتكأ إلى شجرة كانت في البستان .

فيا لها من لحظات عصيبة في حياة القادة الذين يبذلون راحتهم ويضحون بوقتهم الثمين من أجل الآخرين لكن في لحظات يجدون أن أتعابهم ذهبت أدراج الرياح ما بال أولئك الغلاظ الذين نسوا كل القيم وداسوا على أعرافهم في إكرام الضيف ، ما بالهم يعاملوا رسول الله بهذه الصورة .

وماذا يريد منهم غير النجاة والصلاح .

أما كان الأفضل لهم أن يمنحوا أنفسهم لحظة واحدة لسماع ما يقوله هذا الزائر الذي ظل ولعشرة أيام وهو يتكلم معهم . أما يكفهم هذا العناد حتى أمروا عبيدهم أن يصرخوا بوجهه | وأمروا أطفالهم أن يسبوه ويرموه بالحجارة .

هي لحظات رهيبة سجلها التاريخ بكثير من الشموخ . .

وقف رسول الله متكئاً على شجرة رافعاً يد التضرع الى السماء غير نادٍ على الطريق الذي سلكه وغير متأثر لما لحق به من اهانه وتعذيب . في تلك اللحظات التي يتخلل فيها الصديق والقريب وتتراكم على الدعاة المشكلات والمصائب كغيوم الشتاء الكاملة في تلك اللحظات لن يجد الداعية مؤناً سوى ذكر الله ولن يجد شيئاً ألد من التوجه الى الله فهو النصير بعد خذلان الآخرين وهو المدافع عندما ينزوي الآخرون فليس للقلب المتألم في تلك الساعة ما يخفف أوجاعه ويضمد جراحه غير السفر إلى الله ليبتّ شجونه الى خالقه ثم ليستمد منه القوة والصلابة .

وهكذا فعل رسول الله (ص) وهكذا كان دأبه في الملمات . .

أدار طرفه ونبس من القلب . . .

اللهم اليك أشكو ضعف قوتي .

وقلة حيلتي .

وهواني على الناس ..

يا أرحم الراحمين .. أنت رب المستضعفين .

وأنت ربي .

الذى من تكلنى الى بعيد يتجهمنى ؤم الى عدو ملكته أمرى؟ إن لم يكن بك غضب على فلا أبالى ولكن عافيتك هي أوسع لى . أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تنزل بى غضبك أو يحل على سخطك .

لك العتبى حتى ترضى .. ولا حول ولا قوة إلا بك .

فأذاب بتلك العبارات حتى الصخر الأصم وتململ اثنان من اعدائه كانا يجلسان الى جواره ، فأخذتهما الرأفة لحاله .. وهما عتبة وشيبة ابنا ربيعة .. والأول هو السفير الذى بعثته قريش للتفاوض معه إذ عاد من مهمته فاشلاً أمام اصرار النبي (ص) فى رفض أى عرض من عروض قريش فى مقابل التنازل عن مبادئه .

فتحت تأثير ذلك الموقف أرسل عتبة بعبده عداس ومعه قدح فيه قليلاً من العنب .

وسارع عداس واقترب من النبي (ص) واضعاً القدح بين يديه . وأخذ يُراقب كل سكتة وحركة تبدر من هذا الرجل الغريب الذى ملأ أسمه وخبره الأفاق .

مَد رسول الله يده الى العنب قائلاً بسم الله .. فكانت أول ملاحظة يسجلها هذا الغلام الفطن ، بسم الله لم يسمعها من قبل فى هذه البلاد .

وعلى طبق العنب جرى هذا الحوار بين النبي والنصراني ..

* نصراني ، من أهل نينوى .

- من قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟

وبدهشة أجاب الغلام .

- وما يدريك ما يونس بن متى؟ .

* ذاك أخي . . كان نبياً وأنا نبي .

وتوالى الملاحظات في ذهن الغلام وتسارعت الأدلة لتجتمع في محطة واحدة لتكشف على عظمة هذا الرجل الذي يجلس قبالة وتيقن بأنه نبي مُرسل وإنه لا يختلف عن عيسى ويونس وكل الأنبياء .

فأكبَّ على الرسول (ص) يوسعه لثماً وتقبيلاً ولم تنفع تحذيرات سيده في الابتعاد عنه .

40. *Staphylococcus aureus*

Staphylococcus aureus is a common cause of skin infections, such as abscesses, boils, and impetigo. It is also a common cause of food poisoning and other systemic infections.

Staphylococcus aureus

Staphylococcus aureus is a common cause of skin infections, such as abscesses, boils, and impetigo.

Staphylococcus aureus is a common cause of skin infections, such as abscesses, boils, and impetigo.

Staphylococcus aureus is a common cause of skin infections, such as abscesses, boils, and impetigo.

Staphylococcus aureus

Staphylococcus aureus is a common cause of skin infections, such as abscesses, boils, and impetigo.

Staphylococcus aureus

Staphylococcus aureus is a common cause of skin infections, such as abscesses, boils, and impetigo.

Staphylococcus aureus is a common cause of skin infections, such as abscesses, boils, and impetigo.

Staphylococcus aureus is a common cause of skin infections, such as abscesses, boils, and impetigo.

Staphylococcus aureus is a common cause of skin infections, such as abscesses, boils, and impetigo.

Staphylococcus aureus is a common cause of skin infections, such as abscesses, boils, and impetigo.

Staphylococcus aureus is a common cause of skin infections, such as abscesses, boils, and impetigo.

Staphylococcus aureus is a common cause of skin infections, such as abscesses, boils, and impetigo.

Staphylococcus aureus is a common cause of skin infections, such as abscesses, boils, and impetigo.

Staphylococcus aureus is a common cause of skin infections, such as abscesses, boils, and impetigo.

Staphylococcus aureus is a common cause of skin infections, such as abscesses, boils, and impetigo.

Staphylococcus aureus is a common cause of skin infections, such as abscesses, boils, and impetigo.

في ضيافة الله

حامت حول الاسراء والمعراج جدال حمل وسقيم ودارت حوله الاختلافات والمناقشات حول كل فقرة من فقرات هذا الحدث العظيم وكإد هذا الجدل العقيم أن يمحي الصورة الرائعة التي تجلّت في هذه السّياحة التي قام بها الرسول (ص) إلى عالم الملكوت وكادت هذه الاختلافات أن تشطب على الغاية السامية لهذه الرحلة الإلهية .

وليس مهماً متى وكيف وأين وقع الحادث وليس من الضروري التأكيد على صحة هذا الرأي وسقم الرأي الآخر أو ترجيح أحد الرأيين . . المهم أن ندرك تلك المعاني المُشرقة التي تجلّت في حادثة الاسراء والمعراج والتي جعلتها من أهم الأحداث التي وقعت في التاريخ الإسلامي .

ومهما اختلف المؤرخون في تأريخ هذه الحادثة فانهم يجمعون إنها كانت عقب هجرة النبي إلى الطائف وقبل هجرته إلى المدينة .

وهاتان النقطتان الزميتان ترسمان لنا معالم هذه الحادثة العظيمة فما لقيه النبي (ص) في الطائف وما سوف يعد نفسه للمستقبل هي التي تُبين لنا موقعية الاسراء والمعراج بين الحدثين .

فالكشف عن دور الأسراء والمعراج يقتضي بنا دراسة وضع الحركة في تلك الفترة العvisية ودراسة الضرورات المرحلية التي تفرزها طبيعة التحولات في تلك الفترة الزمنية ولعل أهم هذه الضرورات هي . .

١ - تكريم القائد الذي عان طوال السنوات الماضية من الآلام والمصائب وقاسى ألوان المحن وأنواع الاهانات كان آخرها ما لقيه في الطائف .

٢ - إشعار المسلمين بأنهم ليسوا إلا حلقة من حلقات حركة التوحيد التي جاء بها الأنبياء وانهم يتصلون بأولئك الأنبياء العظام بخط واحد هو خط التوحيد .

٣ - اقرار أصحاب الديانات السماوية بسلامة وصحة الدين الجديد وإن الإسلام هو الدين الذي يجب أن يعتقدوا به لأنه امتداد للديانات السماوية الأخرى فكان صلاة الأنبياء خلف الرسول (ص) يحمل هذا المعنى الكبير .

٤ - ضرورة استزادة المسلمين في إيمانهم وثقتهم بالرسالة وبالرسول قبل أن يخوضوا غمار المرحلة القادمة وما فيها من صعوبات جمّة .

٥ - كان لا بدّ من تشخيص المتذبذبين وأصحاب الايمان الضعيف الذي يهتز مع أقل ريح . كان لابد من تصفية العناصر الضعيفة المتزلزلة وتطهير التجمع الرسالي منهم لأنه يتأهب لخوض صراع مرير .

تحسيس المشركين بأخطائهم وانهم لا حجة لهم بعد اليوم في محاربة الإسلام بعد أن تأكّد لهم صحة الدين الجديد وإنه من الله العلي القدير .

فجاءت حادثة الاسراء والمعراج لتحقيق حاجات تلك المرحلة الحاسمة من تأريخ الدعوة الإسلامية . فالحادثة في جوهرها ضيافة إلهية لتكريم الرسول (ص) ولتثبيت قلبه بعد كل الذي لقيه من أعداء الرسالة .

فقد جاءت هذه الضيافة مباشرة بعد تلك العبارات الموجهة التي قالها رسول الله ، إن لم يكن بك غضبٌ علي فلا أبال . . فقد دعاه الله إلى السفر إلى أعماق ملكوته ليُظهر حبه وتكرمه لرسوله وليريه ما لم يشاهده في حياته وما لا سيشاهده أحدٌ من الأحياء ولنقل إليه أسرار الخليفة ويُريه مصير الانسان الصالح والانسان الطالح .

فقد كانت سياحة إلى عالم يشاق لرؤيته كل إنسان وهي فضل من الله لم يتفضل به على أحد إلا على حبيبه ورسوله محمد (ص) الذي بذل كل شيء من أجل الله فضحى بأعز الناس إليه عمه وزجته وواصل طريقه غير عابئ بالمعاندين والسفهاء والجهلاء . وتجلت في الحادثة العلاقة بين الإسلام والديانات السماوية الأخرى واتضح للمسلمين من خلال هذه الحادثة إن رسالة نبيهم ورسالة الأنبياء الآخرين تستلهم من معين واحد وإن على المسلمين أن يتحملوا كما تحمل الأوائل في عهد إبراهيم وموسى وعيسى .

وفي استقبال عيسى وموسى وإبراهيم ويحيى للنبي الأكرم دلائل واضحة لأصحاب الديانات بأن محمد بن عبدالله على خط أولئك الأنبياء العظام وإن عليهم ان يتبعوه كما تبعه أنبيائهم فلا حجة لهم بعد ذلك في رفض الرسالة الإسلامية .

وكان الاسراء ابتلاءً صعباً لأصحاب النفوس الضعيفة التي صعقت عند سماعها بالخبر فعادت إلى الكفر وكان تطهيرهم من هؤلاء أمرٌ ضروري للتجمع الذي يستقبل مرحلة جديدة فكان لا بُد من تمييز العناصر الضعيفة ثم نبذها بتلك الصورة . أما المؤمنون الذين ازدادوا إيماناً بعد سماعهم أخبار الأسراء والمعراج وازدادوا يقيناً بأحقية الرسالة كانوا بحاجة إلى المزيد من العلاقة الروحية مع القائد ليستطيع أن يتحرك بهم إلى مرحلة جديدة ومهام جديدة فقد سلطت الحادثة الضوء على عظمة القائد وعلى قدرته الخارقة في الاتيان بما لا يتمكن

عليه أحد وهذا ما يزيدهم صلابة في انتمائهم وقوة في ولائهم للقائد . وبعد أن جاء رسول الله (ص) وأعطى الأدلة الكافية على صدق الاسراء والمعراج وتأكد المشركون من سلامة تلك الأدلة العينية التي شاهدها النبي (ص) في طريق عودته فلم يكن أمامهم سوى الاعتقاد الجازم بصدق ما يقوله النبي (ص) وما جاء به من عند الله وانهم لا يمتلكون اية حجة بعد اليوم في مواصلة عنادهم .

استراتيجية جديدة في التحرك :

بدأ الرسول (ص) بخطة جديدة بعد أن قفل راجعاً من الطائف فوجد مكة نائرة ضده سافرة عن كل ما تكنه من حقد وضغينة فكان عليه أما أن يعدل عن قرار العودة الى مكة أو أن يحتمي بأحد الوجوه المعروفة والقادرة على توفير الحماية اللازمة له . فعرض الأمر على جمع من الشخصيات المكية فيهم الأخنس وسهيل بن عمرو فرفضوا طلبه متعللين بحجج واهية وكانت الأمور في مكة قد تفاقمت بصورة لم تدع لأحد الجرأة في إجارة النبي (ص) إلا مطعم بن علي حيث كان حوله جمعٌ من أهل بيته يحملون السلاح وقد تمنطقوا بأسلحتهم وخرجوا الى قريش معلنين عن قرارهم في إجارة النبي (ص) فوجدوها النبي (ص) فرصة ذهبية لمواصلة تنفيذ بنود استراتيجية توسيع الدائرة البشرية للكيان الإسلامي للحصول على الموقع المناسب لإقامة أول دولة إسلامية .

فعلى صعيد توسيع نطاق الدائرة البشرية قام رسول الله (ص) بحركة واسعة لعرض الإسلام على القبائل فأجتمع بسادة قبيلة كندة في منازلهم فدعاهم الى الله وعرض عليهم دعوته فأبوا ثم ذهب الى فرع من قبيلة كلب هم بني عبدالله فقال لهم إن الله عز وجل قد أحسن أسم أبيكم وقد اخترتكم على سواكم فعرض عليهم أن يسلموا فلم يقبلوا منه ثم ذهب الى بني حنيفة فردوه بصورة بشعة ثم أتى قبيلة بني عامر بن صعصعة وتم اللقاء في مكة وفي موسم الحج

فعرض عليهم الإسلام فأبدوا بعض التجاوب إذ قال رجلٌ منهم يُدعى بحيرة بن فراس والله لو اني أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب ثم التفت إلى الرسول (ص) وقال له أريت إن نحن تابعتك فأظهرك الله على من خالفك أ يكون لنا الأمر من بعدك؟

فأجابهم النبي (ص) بلسان لا يعرف المساومة .ولم يرد انتهاز الفرصة على حساب المبدأ قال لهم الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء .

فقال له بتأسف : أفنهدف نحورنا للعرب دونك فإذا ظفرت كان الأمر لغيرنا ، لا حاجة لنا بأمرك^(١) .

وعند عودة أفراد القبيلة والتفافهم حول شيخهم الذي لم يتمكن الاشتراك معهم في رحلة الحج ، سألهم الشيخ عما شاهدوه في الموسم فقالوا جاءنا فتى من قريش من بني عبد المطلب يزعم إنه نبي ودعانا لأن نمنعه ونقوم معه وتخرج به إلى بلادنا . فوضع الشيخ يديه على رأسه ثم قال : يا بني عامر هل لها من تلاف . والذي نفسي بيده ما تقولها اسماعيلي قط وإنها لحق ، وأين كان رأيكم عنه .

وظل رسول الله يعرض الإسلام على القبائل قبيلة إثر قبيلة فسار إلى بني محارب وفزارة وغسان ومرة وسليم وعبس وبني نصر والحارث بن كعب وعذرة والحضارمة دون أن يستجيب منهم أحد وكان يرافقه في تلك المهام الشاقة والمملوءة بالمخاطر بن عمه علي بن أبي طالب وفي بعض المرات زيد بن حارثة .

وبعد فترة من الزمن انتهى النبي (ص) بنتيجة هي ؛ إن وجود قريش بتحالفاتها وروابطها وهيمنتها على مكة وما حولها هو السبب في أمتناع القبائل

(١) ابن الاثير، الكامل في التاريخ : ج ٢ ص ٩٣.

وعدم قبولها لدعوته .

فقرش تفرض هيمنتها على معظم القبائل في جزيرة العرب وكانت تتبادل معها المصالح الاقتصادية في نطاق نظام الايلاف بالإضافة الى الهيمنة الدينية التي كانت تفرضها على سكان الجزيرة فكان على كل صاحب دعوة ان يحطم هذا الحاجز لكسر قيود الهيمنة القرشية على القبائل ونظرة فاحصة الى القبائل التي قابلها النبي (ص) ودعاها الى الاسلام نجد انها كانت تنتمي في الغالب الى شبكة العلاقات الاقتصادية التي صنعتها قرش لتأمين خطوطها التجارية في جزيرة العرب واستعملت قرش كل وسائلها لعرقلة تحرك النبي (ص) نحو القبائل وبالأخص تلك التي كانت تأتي الى مكة في مواسم الحج وكان أشد ما كان يربعها هو امتداد الدعوة خارج مكة مما سيعرض كيانهم الوثني الى خطر حقيقي . فاجتمع الزعماء وتشاوروا فيما بينهم عما سيواجهونه من مواقف صعبة وهذه أيام الحج باتت قريبة منهم .

اقترح بعضهم أن يصفونه بالكهانة فرفض الوليد بن المغيرة ذلك وكان الاجتماع قد تم بدعوة منه .

وقال آخرون نقول عنه إنه مجنون لكن الوليد ظل لا يقبل بجميع تلك المقترحات وأقترح عليهم أخيراً أن يقولوا إنه ساحر في بيانه يُفرق بين المرء وزوجه وبين الانسان وأخيه وكان من أشد المحاربين له حرباً نفسية عمه أبولهب فكان يدور بين القبائل ليقول لها إن محمداً كذابٌ وإنه عمه يشهد على كذبه لكن عزم النبي (ص) على مواصلة نشاطه ، ثم اعجاب القبائل بكلامه ورغبتها في الاستماع اليه وهي الكلمات التي جاء بها من عند الله والتي لم يسمعوا بها في حياتهم فهي ليست بسحر ولا يمكن أن يتهم من يقول هذه الكلمات من الله بكاذب فهم قد سمعوا كلام البشر هم أهل البلاغة والفصاحة وليس صعباً عليهم أن يميزوا بين كلام يقوله البشر وكلام آخر يعجزون عنه واستاءت قرش

لأنها فشلت في استخدام سلاح الدعاية فوجهت أنظارها إلى النضر بن الحارث القصاص الذي يمتلك القدرة الكبيرة في جذب السامعين فأخذ النضر ينتهز كل فرصة يكون فيها محمد (ص) بين قومه يدعو إلى الإسلام ، كان هو أيضاً يجلس ليقص عليهم حكايات الفرس وعباداتهم ثم يقول للمسلمين بماذا يكون محمد أحسن حديثاً مني أليس محمد يتلوا من أساطير الأولين ما أتلو . ثم أخذوا يشيعون إن غلاماً نصرانياً اسمه جبر هو الذي يعلم محمداً أكثر ما يأتي به . وكان رسول الله (ص) يكثر من الجلوس عند المروة وكان في العادة يتزامن جلوسه هناك مع وجود هذا الغلام الذي يبيع بضاعته في المروة .

وعلى رغم الاخفاقات فقد واصل النبي (ص) دعوته لكل من يتوسم فيه الخير في مواسم الحج وصادف في تلك الأعوام توتر في الأجواء السياسية في يثرب بين قبيلتي الخزرج والأوس بتدبير من اليهود فشهدت مكة وفوداً من القبيلتين جاءت لاجراء بعض التحالفات لتعزيز مواقفها في قبال خصومها فكان أن قدم وفد من خزرج بزعامة أبو الحيسر أنس بن رافع ومعه بعض من بني عبد الأشهل وكان الهدف من زيارتهم هو التحالف مع قريش^(١) لكسب ميزان القوة إلى جانبهم وقبل أن يُجروا إتصالاتهم التقى بهم النبي بعد أن عرف الغاية من سفرهم وقال لهم ؛ أنا رسول الله بعثني إلى العباد ادعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يُشركوا به شيئاً وأنزل علي الكتاب . . ثم واصل النبي الحديث معهم عن تعاليم الإسلام تالياً عليهم بعض آيات القرآن فتأثر أحد أعضاء الوفد لحديث النبي وهو اياس بن معاذ وكان شاباً صغيراً فقال لأصحابه :

اي قوم هذا والله خير مما جئتم له فأخذ انس بن رافع حفنة من التراب وضرب بها وجه اياس وقال دعنا منك فلعمري لقد جئنا لغير هذا .

(١) ابن الاثير، الكامل في التاريخ : ج ٢ ص ٩٥.

وما أن عادوا الى يثرب حتى وقعت حرب بُعث بين الأوس والخزرج .

النفوذ الى يثرب :

وجّه النبي (ص) اهتمامه صوب يثرب لتصبح قاعدة إسلامية قوية حيث كانت مقسمة على نفسها تفتك بها الحروب ، فأصبح يترقب مواسم الحج للالتقاء بعناصر يثربية وجرى لقاء آخر وآخر وفي إحدى اللقاءات حالف النبي (ص) الحظ بالتقائه بجماعة من بني عفراء فسألهم الى أي القبائل ينسبون فقالوا له من الخزرج .

فقال لهم امن موالي يهود أنتم فأجابوا نعم . فجلس معهم وعرض عليهم الإسلام ودعاهم الى الله عزّ وجلّ وتلا عليهم شيئاً من القرآن فوجد في عيونهم التجاوب وفي قلوبهم اللهفة لسماع المزيد من الآيات .

وكان بين اليهود وبين هذه القبيلة مواقف متشنجة وحديث مرير ووعد ووعيد . وكلما كانت تتفجر بينهم المشاكل كان اليهود يسارعون لاطلاق تهديداتهم بالنبي الذي ينتظرون قدومه وكانوا يقولون لهم ان نبياً قد بُعث الآن وقد أطل زمانه وستبعه ونقتلكم قتل عادٍ وارم^(١) .

وقد تركت هذه الخلفية أثر كبير على موقف القبيلة من دعوة الرسول (ص) وقد تأكدوا من حديث محمد (ص) إنه هو النبي الذي يقصده اليهود فأخذوا يتهامون بينهم قائلين إنه والله النبي الذي كان يتعدونكم به ، فلا يسبقنكم اليه . فاعلنوا في الحال موافقتهم وقالوا للنبي (ص) « انا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر مثل ما بينهم وعسى الله أن يجمعهم بك وسنقدم عليهم وندعوهم الى أمرك والى الدين الذي أجبناك عليه » ثم مضوا الى مدينتهم وكانوا

(١) نفس المصدر السابق ونفس الجزء والصفحة .

سنة أنفار شرعوا يتحدثون عما شاهدوه وسمعوه في مكة حول الرسالة داعين الآخرين من أبناء عشيرتهم إلى الاقتتال لهذه الدعوة ولم يمض وقت طويل حتى ازداد عددهم وتسارعت الأيام وجاء موسم آخر للحج فوجدوها فرصة ذهبية للالتقاء بالنبي (ص) فقدم اثنا عشر من الرجال والتقوا به سراً في العقبة ، فأخذ النبي منهم البيعة على أن لا يشركوا بالله شيئاً ولا يسرقون ولا يزنون ولا يقتلون أولادهم ولا يأتون البهتان واستنتج رسول الله (ص) من اللقاء بأن يثرب هي المكان المناسب لانتشار الدعوة الالهية . فقد كانوا في العام الماضي ستة أنفار فازدادوا خلال سنة واحدة إلى الضعف بفعل تحركهم الذاتي برغم غياب العنصر الخارجي .

والتبليغ كالزراعة والمبلغ كالمزارع يبذر البذرة فاذا نمت إلى نبتة فسيعرف بأن هذه البيئة صالحة للزراعة .

فعندما لاحظ النبي (ص) تزايد عدد المسلمين الأنصار وشاهد بنفسه المعنويات العالية التي يحملونها أخذ يوجّه كل خططه ونشاطاته نحو إيجاد قاعدة متقدمة من المسلمين في يثرب فأرسل مصعب بن عمير مع الوفد عند عودتهم إلى وطنهم .

مهمة خارج الحدود :

استبشر النبي (ص) بالانجاز الذي حققه في يثرب والذي شكل تطوراً محسوساً على مسيرة الدعوة . فكان عليه أن يستثمر الواقع الجديد في دفع حركة الإسلام المتصاعد وانتهى موسم الحج وها هم الذين آمنوا من أهالي يثرب يعودون إلى وطنهم فكان لا بد من ارسال من ينظم شؤونهم . فمن سيختار لهذه المهمة . فالقادر على النهوض بهذه المهمة يجب أن يتحلّى بخصال ومزايا تمكنه من الاستمرار في العمل في مكان بعيد عن مكة لا يتأثر بأجواء الشرك

التي كانت تسيطر على المدينة ولا يضعف عندما يتعد قليلاً عن الأجواء الإسلامية الساخنة بالمعنويات العالية ، ولا تنهار قواه عندما يجد نفسه وحيداً في ساحة كبيرة غريبة عنه .

فمن لهذه المهمة؟؟ .

لم يكن اختيار الرجل المناسب أمراً صعباً على النبي (ص) الذي عرف أصحابه حق المعرفة ومثلما اختار بالأمس رجلاً مناسباً لإدارة شؤون المسلمين في الحبشة وللتفاوض مع زعامتها فهو اليوم يختار من تنطبق مواصفاته على شروط المهمة التي ستوكل اليه ، وما ذلك سوى مصعب بن عمير الذي أصبح أمثلة تُضرب ، عندما شاهده رسول الله وهو يرثدي جلباباً ممزقاً ومرقعاً أسرع شفتاه . . لقد رأيت مصعباً هذا وما بمكة فتى أنعم عند أبويه منه . . ثم ترك ذلك كله حباً لله ورسوله . ويوم شهادته وقف رسول الله (ص) ليتلو على رأسه هذه الآية الكريمة .

﴿ من المؤمنين رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه . . . ﴾ . ثم ها أنت ذا أشعث الرأس يا بُردة لقد وجد رسول الله في مصعب رجل المهمات الصعبة يتكيف مع كل الظروف القاسية ويستصغر المشكلات وحتى لو كانت كبيرة ، ويستطيع أن يجالّد في المواقف الحرجة ليصنع من الهزيمة انتصار .

جاءه أسيد بن خُضير شيخ بني عبد الأشهل وعينه تستعران بالغضب ويداه قابضتان على حربة مشرعة لتقتحم صدر بن عمير ومضيفه أسعد بن زرارة .

وتفجّر أسيد وعروقه متوتبة ما جاء بكما إلينا؟ أتسفهان ضعفاءنا اعتزلانا إن كانت لكما في نفسيكما حاجة . . فابتسم مصعب في وجهه وقال بهدوء ورزانة .

أو تجلس فتسمع فإن رضيت أمراً قبلته وإن كرهت فكف عنا .

فضعف أسيد أمام هذا المنطق فركز حربته في الأرض وجلس ليستمع إلى مصعب وهو يقرأ له القرآن ويشرح له مبادئ الإسلام ولم تمض هنيئة من الوقت حتى هتف أسيد من أعماقه كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين فأجاب مصعب :

تغتسل فتظهر ثوبك ثم تشهد أن لا اله إلا الله وأن محمداً رسول الله فأسرع أسيد لينطق بالشهادة ثم أردف « إن ورائي رجلاً [وهو يشير إلى سعد بن معاذ] ان أتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه وسأرسله اليكما الآن » .

وما لبث ان جاء سعد بن معاذ وفي نفسه من الثورة والغضب مثلما كان في نفس صاحبه أسيد ومرة أخرى تتجلى حكمة مصعب ورزاقته وقدرته الفائقة على تغيير النفوس الطائشة الغاضبة إلى نفوس مؤمنة فعلى رغم صغر سنه فقد كان خبيراً بالنفوس عارفاً بأمراضها وكيفية علاجها ولهذا السبب وقع اختيار النبي (ص) عليه ليصبح أول سفير لرسول الله خارج الحدود ومكث مصعب فترة من الزمن في المدينة يدعو الناس إلى الإسلام فلبى دعوته جمع كثير من أهل يثرب ومع قدوم موسم الحج وجد المسلمون في يثرب فرصة اللقاء بالنبي (ص) والطلب منه بالمجيء إلى مدينتهم . فاختاروا من بينهم وفداً من خمس وسبعين نفرأ بينهم اثنان من النساء التقوا بالنبي (ص) ثم حددوا موعداً للقاء آخر موسم في أواسط أيام التشريق . وتم اللقاء دون علم أحد وحتى دون علم المسلمين في مكة إلا من اشترك مع النبي (ص) وما أن مضى من الليل ثلثه ونام الناس خرج المسلمون من أخبيتهم يتسللون تسلل القطا حتى لا يحس بهم أحد واجتمعوا في الشعب ينتظرون رسول الله فجاء ومعه بعض أهل بيته فبدأ الاجتماع وتكلم القوم ثم تحدث رسول الله (ص) فتلا شيئاً من القرآن ثم دعا إلى الله وقال أبابعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وابناءكم فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال والذي بعثك بالحق نبياً لنمنعك مما نمنع أزرنا

فبايعنا يا رسول الله فنحن أبناء الحروب وأهل الحلقة ورثناها كابراً عن كابر .

ثم تحدث أبو الهيثم بن التيهان فقال يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال حباً وإنا قاطعوها ، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع الى قومك وتدعنا فتبسم رسول الله ثم قال :

الدم الدم والهدم الهدم (أي إن كل ما يجري عليكم يجري عليّ) انا منكم وأنتم مني احارب من حاربتم وأسالم من أسالتم .

وبعد أن تيقن من وفائهم وصدق انتمائهم طلب منهم أن يختاروا منهم اثني عشر نقيباً يتولون المسؤولية والأشراف على الجماعة الإسلامية ويصبحون حلقة الوصل بينهم وبين رسول الله (ص) فاختاروا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس .

وبعد أن تم الانتخاب لم يبق من الاجتماع إلا فقرة أخيرة هي المبايعة فقبل أن يمدوا أيديهم انبرى العباس بن عباد وهو أحد النقباء وتحدث قائلاً : يا معشر الخزرج هل تدرون على مَ تباعون هذا الرجل : قالوا نعم ، قال انكم تباعون على حرب الأحمر والأسود من الناس فإن كنتم ترون انكم إذا أنهكت أموالكم مصيبة واشرافكم قُتل أسلمتموه فمن الآن فدعوه فهو والله خزي الدنيا والآخرة إن فعلتم ، وإن كنتم ترون انكم وافون له بما دعوتموه اليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة .

فأجابوه بأجمعهم انا نأخذك على مصيبة الأموال وقتل الأشراف ثم التفتوا الى رسول الله متسائلين . .

فما لنا بذلك يا رسول الله ان نحن وفينا بذلك .

قال : الجنة . .

فقالوا : أبسط يدك فبسط يده فأخذوا يتسابقون إلى البيعة بقلوب يغمرها
الفرح والسرور واثقين من المصير عالمين بما سيجرى عليهم . وانقضى
الاجتماع بسلام دون أية مشكلة وخرج رسول الله مزهواً بما شاهده وسمعه
وازداد طمأنينة على مستقبل الدعوة وتضاعف يقينه ان يثرب هي المكان الأنسب
لإقامة الدولة .

...the ... of ...
...the ... of ...
...the ... of ...
...the ... of ...

الهجرة حوب يثرب

لم يكُ هناك خيار أمام الرسول (ص) إلا أن ينقل مكان الدعوة الى يثرب . فقد توفرت على أرض يثرب كل المقومات الضرورية لاقامة الكيان الإسلامي ، فهي أرض ذات موقع استراتيجي منيع يحصنه ضد أعداءه في مكة . فهي تبعد عنها بالقدر الذي يحول دون توجيه ضربة مفاجأة للكيان الإسلامي النامي لكنها في نفس الوقت ليست بعيدة بذلك البعد الذي يجعلها منفصلة عن محيط القضايا المكية وما يدور فيها من أحداث .

الخصائص البشرية والجغرافية والاقتصادية ليثرب :

تقع يثرب على الطريق الاستراتيجي الذي يوصل الشرايين الاقتصادية بالمركز التجاري القائم في مكة . وبهذا الموقع الممتاز أصبحت قادرة على فرض الحصار الاقتصادي على مكة دون أن تمتلك مكة هذا الامتياز .

أما الطبيعة الجغرافية فيمنحها حصانة عسكرية ضد أي عدوان خارجي ، فالموانع الطبيعية تحيط بها من ثلاث جهات ، ففي جهة الغرب تحيط بها حرة الوبرة وهي أرض وعرة تتكون من الحجارة النخرة المحترقة التي يصعب على

الأنسان والابل السير عليها ، أما من جهة الشرق فتحيط بها حرّة واقم ، أما الجهات الأخرى فتحيط بها اشجار النخيل الكثيفة التي تكوّن حائل دون اجتياز الجيوش عبر هذه النقطة نحو يثرب . وقد أشار النبي (ص) إلى هذه الخواص الاستراتيجية عندما أخبر أصحابه قائلاً لهم : « اني رايت دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين وهما الحرثان .

ويُضاف إلى الخصائص الجغرافية الميزات الحضارية التي تمتلكها يثرب فأرضها أرض زراعية غنية بالمحاصيل ، ويمكن اقامة نظام اقتصادي فريد مرتكز على سياسة الاكتفاء الذاتي على العكس من ذلك مكة حيث تفتقر للمرتكزات الانتاجية بسبب وعورة الأرض وجفاف المناخ فيها .

ومن ناحية أخرى كان التماسك الاجتماعي في المجتمع اليثربي ضعيفاً بالمقارنة إلى المجتمع المكي حيث كانت قبيلتان عربيتان تعيشان على أرض يثرب في تطاحن وتقاتل . ويعيش إلى جانب القبيلتين قبائل يهودية كانت في نزاعٍ دائم مع العرب . وقد منح هذا التفكك الاجتماعي للدين الجديد فرصة الانتشار والتوسع دون أية مقاومة ضارية كالتى حصلت في مكة .

ويختلف عمق الاعتقاد الوثني في يثرب عما هو قائم في مكة . فالوثنية في مكة أرتبطت بشبكة الأواصر الاقتصادية أصبح من العسير الفصل بينهما إذ أصبحت العقيدة الوثنية لأهل مكة موقف حياتي بالنسبة إلى الزعامة . بينما لا نجد هذا الارتباط بين العقيدة الوثنية والاقتصاد اليثربي . إذ لا يشكّل تجاوز هذه العقيدة أي خطر يهدد الحياة الاقتصادية لهذه المدينة . ومفارقة أخرى تكمن بين الشريحتين هي طبيعة الاستجابة والمناعة نحو الأفكار والتيارات الدينية القادمة . فقد كان المجتمع المكي محصن ضد الديانات مما حدّ من انتشارها بينما لا نجد ذلك في يثرب إذ انتشرت المسيحية واليهودية ، وأحدث وجود هاتين الديانتين إلى جانب الوثنية نضوجاً فكرياً في المجتمع اليثربي أكثر من المجتمع

المكي جعله قادراً على المقارنة بين الأديان باختيار الدين الأفضل . لهذه الأسباب نجحت تجربة التوسع الإسلامي في يثرب وطرحت أمام الرسول (ص) حقيقة ناصعة حول امكانية إقامة الكيان الإسلامي على هذه الأرض .

ومما زاد في اصرار الرسول (ص) على اختيار يثرب هو نجاح تجربة النفوذ داخل المجتمع اليثربي والنمو المطرد الذي شهدته الجماعة المسلمة ، واستعداد هذه الجماعة للتضحية والفداء مما يمكن الاعتماد عليها كقاعدة قوية لإقامة الكيان الإسلامي فوقه .

وكلما اشتد أذى قريش ازداد رسول الله (ص) تصميماً على الخروج من الحصار المضروب عليه في مكة وسط المجتمع الجاهلي . فهو لم يستسلم للوضع الشاذ ولم يضع يده اليمنى على اليسرى ويجلس القرفصاء بانتظار الفرج . بل شمر عن ساعد الجد واستخدم فكره في البحث عن الطريق الأفضل للخلاص من الحصار المضروب .

فالرسول (ص) لم يتوقف بل تحرك .. لم يئأس بل حاول .. وحاول حتى وجد الطريق الى يثرب . وبالطبع لم تكن محاولاته بعيدة عن الرعاية الالهية التي كانت تمده في كل لحظة بالرأي السديد وبالخطة الحكيمة . واتخذ قرار الهجرة بصورة مؤكدة بعد نزول الاذن الالهي ، حينذاك أمر رسول الله أصحابه بالهجرة لكن بصورة سرية ودقيقة حتى لا تفسد الخطة التي أعدها في انتقال كافة المسلمين القادرين على الهجرة ، فحرص رسول الله (ص) أن لا يصل قريش اصداء هذا التحرك الجديد حتى تتم العملية بسلام فكانوا يخرجون متفرقين يتسللون ليلاً والناس نيام . وفرغت مكة من المسلمين فلفت أنظار المشركين وكشف عما يخططه النبي (ص) في نقل دعوته الى يثرب فكانت الطامة الكبرى فسعت الى مقاومته بكل ما أوتيت من قوة فلحقت بمن تبقى في الطريق من المهاجرين مستخدمة أساليب التعذيب والاغراء لاعادتهم الى مكة .

وكانت قريش حريصة أشد الحرص على أن تبقى مكة منطقة يسودها الهدوء وهذا ما جعلها تخشى عواقب قتل المهاجرين الرافضين للعودة لأن قتلهم سيسبب في نشوب حرب داخلية في مكة يدفعون ثمنها غالباً على صعيد موقعهم التجاري ومكانتهم الدينية .

وعادت قريش خائبة غير قادرة على إيقاف حركة الهجرة . . لكنها لم تحفل بما حدث طالما كان محمد (ص) في قبضتها فهو لا يزال في مكة . . لكن عليها أن تسرع قبل أن يفلت هو الآخر من أيديها فتكون المصيبة أعظم .

اجتمع زعماء قريش في دار الندوة وتباحثوا حول أساليب التخلص من محمد (ص) وبرز من بين الآراء ، رأي يدعو إلى تقييده بالحديد ووضعه في السجن حتى يأتيه الموت ورأي آخر يرى الطرد من مكة فتفرض قريش يدها منه ، استبعد المجتمعون هذين الرأيين واتفقا على رأي أبي جهل بن هشام الذي يدعو على اختيار كل قبيلة فتى من فتيانها الأشداء ويُعطى كل واحد منهم سيفاً ماضياً فيعمدون إليه بأجمعهم فيضربونه ضربة واحدة . فاذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل كلها ولم يعد باستطاعة أحد من بني هاشم المطالبة بدمه فيضطرون إلى اختيار الدية على القتل واتفقوا أيضاً على الليلة التي سيتم فيها تنفيذ المؤامرة . وأبلغ الله رسوله بالدسيسة وأمره بالهجرة في تلك الليلة العصبية وفي ثلث الليل خرج النبي (ص) من الدار بعد أن ترك ابن عمه علي بن ابي طالب (ع) في فراشه ليوهم الأعداء بأنه لا يزال في البيت .

وكم كانت خيبة أعداء الله عندما تفاجأوا في الصباح الباكر بأن النائم في فراش النبي (ص) لم يكن سوى علي بن ابي طالب (ع) . وكم كانت فرحة علي (ع) كبيرة عندما نجحت الخطة واستطاع أن يكسب رسول الله الزمن الكافي للخروج من مكة وتمكن أيضاً أن يُعيد الأمانات التي كانت عند رسول الله (ص) إلى أهلها .

وهنا تتجلى خلقية الحركة الإسلامية فلم ينس رسول الله تلك الأمانات وحتى وهو في أشد ضيق فقد استعد لأن يضحي بابن أخيه وأقرب الناس إليه من أجل استرداد هذه الأمانات فعلى صغر هذا الأمر في أعين بعض الناس سيما إذا كانت حالتهم كحالة رسول الله (ص) في تلك اللحظة التي كان يهاجر فيها وطنه . لكن رسول الله (ص) معلم الأخلاق لم يكن لتفوته هذه الأمور على صغرها فهو قد حسب لكل شيء حساباً وأعد لكل هدف خطة .

وفي الصباح كان علي (ع) يطرق أبواب الناس ليعيد اليهم أماناتهم حتى تبقى أواصر الثقة على حالها لا تزعزحها المواقف الصعبة وكانت هذه الثقة هي الوسيلة الأقوى إلى قلوب الناس . وقد انتشر الإسلام في أول الأمر عن هذا الطريق .

ومضى رسول الله (ص) مستفيداً من الظلام في اقتحام أسوار المستحيل راسماً للمسلمين تاريخاً جديداً يبدأ من هذه النقطة .

فمن هذا التحرك صوب يثرب بدأ التاريخ يدور دورة جديدة .

والتاريخ يبدأ من الفعل . . من الحركة . . فالجمود لا يصنع التاريخ . . لأن التاريخ هو حشد كبير من الأحداث . . والحدث فعل وحركة .

والهجرة هي أبرز مقطع في مسيرة الحركة الإسلامية ، فقد تجلى فيها الفداء بأعظم أشكاله وأبهى صوره وتجلت فيها الشجاعة بأعظم ألوانها ، فلقد كانت لحظات عصبية حقاً عندما واجه علي (ع) أولئك الفتية الذين جاؤا إلى قتل الرسول ، فأى شيء بمقدور الإنسان أن يفعله في تلك اللحظة الرهيبة غير التوسل بالشجاعة والصلابة .

ولحظات عصبية مرة أخرى عندما تابعت قريش خطوات النبي (ص) ومعها أهل الخبرة بالقيافة حتى بلغوا الغار الذي يختبئ فيه رسول الله (ص)

فانقطع الأثر عند باب الغار ولم يكن بينهم وبين المطلوب سوى شبر واحد ، فكم كانت لحظة حرجة على النبي (ص) وهولائذ في ذلك الغار .
ومرة ثالثة يحل فصل آخر من فصول اللحظات الحرجة عندما هبّ سراقه ابن مالك ليتعقب النبي (ص) عله يفوز بمائة ناقة بالجائزة التي وضعتها قریش لكل من يأتي بالرسول حياً أو ميتاً .

امتطى سراقه صهوة فرسه وانطلق يبحث عن الهدف وقد وصلته أخبار خاصة عن الطريق السري الذي سلكه النبي (ص) نحو يثرب . وقبل أن يلوح له الهدف كبا فرسه ثم كبا ثانية فنهض من جديد من فوق الأرض غير مبالٍ بما حصل بالرغم من ان الذي حصل لم يكن طبيعياً .

ولربما كان سراقه بحاجة الى دليل ثالث كي يقتنع بأن الذي يطارده هو رجلٌ عظيم وإن يداً قوية تحرص على حياته وتمنع النيل منه . . . أخذ سهمه من الجراب عندما لاح له النبي (ص) من بعيد ووضع السهم في كبد القوس واستعد للرمي وفجأة يكبو الفرس ثم تغوص قوائمه في الرمل هذه المرة حتى لم يعد بمقدوره التحرك من مكانه . . . فلاح له الحقيقة وتيقن ان خلاصه لا يكون الا على يد من أراد قتله . فلم ير طريقاً للنجاة سوى مناشدة النبي (ص) لانتقاده من هذه الورطة قبل أن يموت عطشاً في قعر الرمال . فنادى بأعلى صوته يا محمد ادع الله أن يطلق فرسي وارجع عنك وارد من ورائي . فدعا له النبي (ص) ووفى سراقه بوعده عندما عاد الى القوم ليقول لهم ؛ ارجعوا فقد استبرأت لكم خبره فلم أجد له أثر فرجعوا وهكذا أنقذ الله رسوله من الأخطار فواصل سيره حتى وصل الى المدينة في استقبال بهيج لم تر يثرب مثيلاً له .

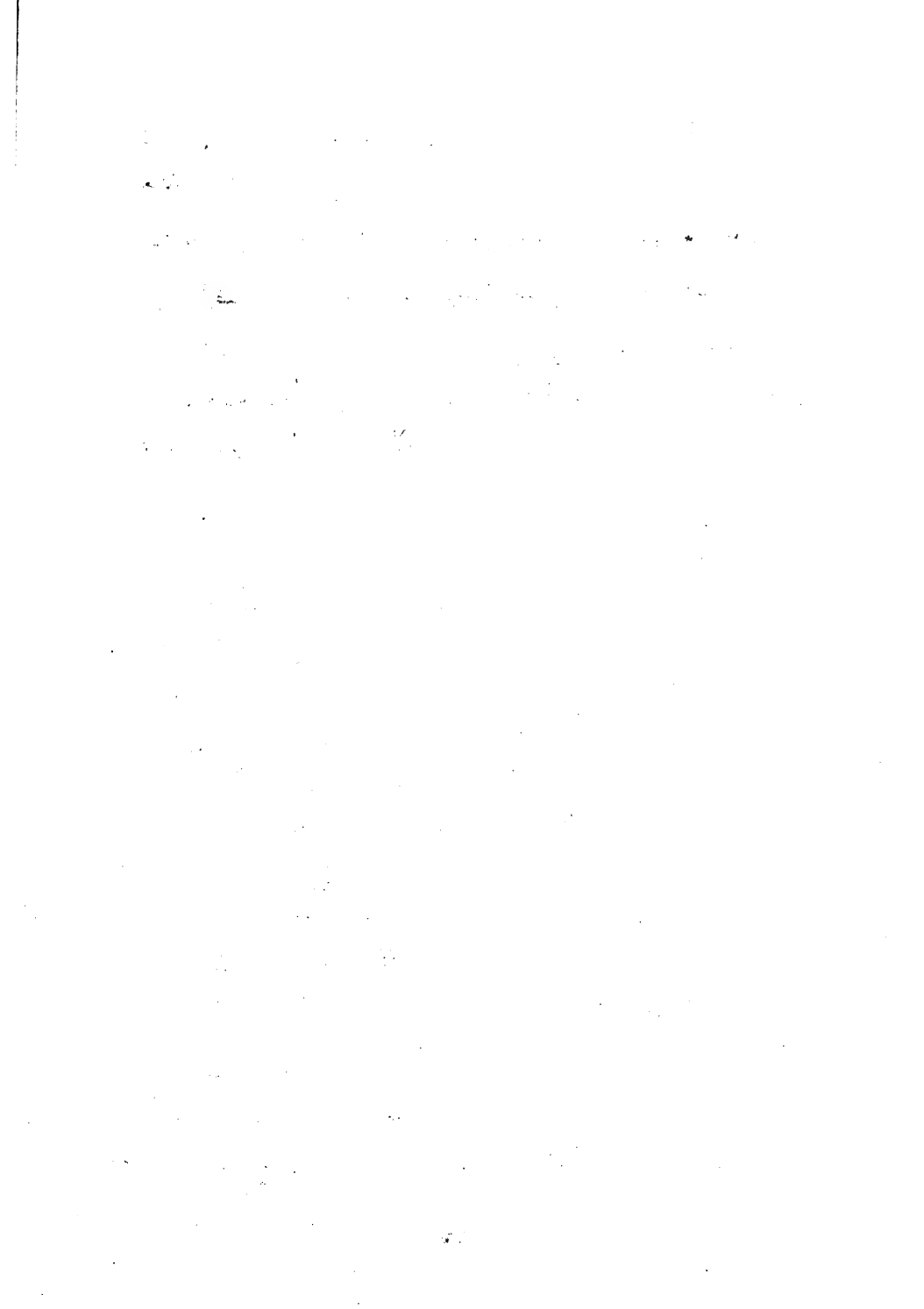
وهكذا خطى رسول الله (ص) هذه الخطوة مسجلاً نجاحاً آخر بفضل الخطة الحكيمة والسرية التامة التي اتبعها في كل خطواته . فكانت الهجرة بحق

الحدث الهام في التاريخ الإسلامي إذ توقف على هذا الحدث كل المراحل التي تعاقبت فيما بعد .

فالهجرة هي انتقال الحالة الإسلامية من وضع ضعيف الى وضع أقوى . .

وهي أيضاً انتقال المسلمين من مرحلة العذاب الى مرحلة السعادة .

وهي أيضاً سجلت انتقال المسلمين من مرحلة كانوا فيها محكومين بقوانين المجتمع الجاهلي وأعرافه الى مرحلة أصبحوا فيها حاكمين على أوضاعهم مسيطرين على مقاليد الأمور .



الدولة

منذ ان وصل النبي (ص) المدينة شرع بوضع اللبنة الاولى للدولة الاسلامية فقد كانت الرسالة الاسلامية بحاجة الى سور لحمايتها من الاخطار الجسيمة، كما ان المسلمين الذين ذاقوا العذاب في مكة كانوا بحاجة الى جدار صلب يدافع عنهم ويضع حداً للاخطار الخارجية .

وبالنظر لجهل العرب بالتنظيم الجديد فقد شرع الرسول (ص) في تأسيس الدولة بصورة تدريجية وبصورة متجانسة مع تكاثر احتياجات المسلمين ، ومع تحوّل الجماعة الاسلامية من مستوى الطليعة الى مستوى المجتمع الاسلامي .

فقد قام خط الدولة متوازياً مع خط المجتمع الإسلامي اذ ان الدولة ليست الا الاطار الهيكلي لتنظيم امور المجتمع فمع تزايد المسلمين وتعدّد الحياة الاجتماعية كانت الحاجة تزايد لتنظيم امور الافراد وهذا ما كانت تتولاه الدولة .

من هنا فالدولة الاسلامية بدأت بصورة بسيطة متناغمة مع صغر المجتمع الاسلامي ومحدوديته يومذاك لكنها اخذت في التطور والنمو مع توسع هذا المجتمع وهذا ما دفع ببعض المفكرين الى نفي وجود دولة بمعنى الكلمة ايام

الرسول مخدوعين بما قرأوه في التاريخ من بساطة في إقلونات الدولة الإسلامية .
فالحقيقة ان الرسول (ص) ومنذ ان وطأت قدماه ارض المدينة اخذ يخطو
خطوة فخطوة نحو تأسيس الدولة الإسلامية حتى تكاملت في السنين الاخيرة من
حياته وتوفرت في دولته كل العناصر التي يجب توفرها في الدولة المثالية .
فالامة المتفاعلة مع القيادة المنطلقة من حاجة الامة والسيادة القائمة اولا
على القلوب قبل ان تقوم على الارض هي من خصائص الدولة الإسلامية .
المهام الاولى :

لم يعرف العرب قبل الاسلام الدولة كمؤسسة لتنظيم شؤون الجماعة على
غرار التنظيم الاسلامي للدولة فقد كان العرب منقسمين الى سكان البدو الذين
ينتظمون في اطار نظام متخلف هو التنظيم القبلي والنصف الثاني من العرب هم
سكان الحضر الذين انتقلوا من البداوة الى المدن واشتغلوا بالزراعة والصناعة
والتجارة ففرضت عليهم ضرورات الحياة اقامة بعض اشكال التنظيم لتمشية
امورهم الحياتية لكنها لم ترق الى مستوى الدولة فقد احتفظ سكان الحضر
بانتماؤاتهم القبلية وظل النظام القبلي هو السائد أيضا في المدن اذ كان لكل
قبيلة اعراف وقيم تميزها عن القبائل الأخرى وكذلك كان لها رئيس ونظام خاص
بها تنفرد به لوجودها ولرئيس القبيلة السيادة المطلقة على افراد قبيلته فقط وكان
كل فرد تابع لقبيلته وحتى لو كان في مدينة فيها عدد من القبائل كما هو الحال
في يثرب قبل قدوم الإسلام .

وفي العادة كانت هذه القبائل تتنافس فيما بينها ويؤدي هذا التنافس الى
التقاتل في اغلب الاحوال كما حدث للأوس والخزرج .

ولم تكن عملية تغيير هذا النظام واستبداله بنظام الدولة امرً هين فقد
واجهت الرسول مهمة شاقة في استبدال هذا النظام المتخلف بنظام تقدمي .

وهي المهمة التي بدأها منذ اللحظة الاولى التي صدع بالرسالة عندما اعتزم على تغيير الواقع الفكري والاجتماعي للانسان فقد أرسى رسول الله (ص) قواعد بناء المجتمع الاسلامي مبتدئاً بالانسان فهو حجر الاساس في المجتمع واذا تغير الانسان تغير كل شيء واستمر في اعادة بناء الانسان مدة ثلاثة عشر عاماً وفرّ خلالها الارضية الكافية لاقامة المجتمع الاسلامي بعد هدم الاسس التي قام عليها مجتمع الجزيرة العربية .

ومع دخول النبي (ص) مرحلة المدينه كان المناخ مؤاتياً لايجاد انعطافة في تركيبة النظام القبلي وذلك بتحويل هذا النظام الى نظام الدولة دون ان يمس القبيلة بسوء .

فالرسول (ص) لم يصف القبيلة بل صفى النظام القبلي الذي كان يقوم على رابطة الدم واستبدله بنظام الدولة الذي اصبح يقوم على رابطة العقيدة .

وحدثت عملية التغيير هذه بصورة تدريجية وكان شيئاً لم يحدث قط . وهنا تتجلى مرة اخرى عظمة الرسول الذي كان الطبيب الحاذق الذي يضع الدواء في جوف المريض دون ان يشعره بمرارته . فقد كانت لمساته الرقيقة على كتف المجتمع قد تمت بصورة محكمة ودقيقة ومع كل لمسة كان هذا المجتمع يتحول ويتغير باتجاه المجتمع الاسلامي .

ولكي يتحول النظام القبلي الى نظام الدولة كان بحاجة الى ثلاث لمسات متدرجة .

اللمسة الاولى بايجاد مركز عام لكل المسلمين من جميع القبائل لتنتهي الى الأبد المركزية القبلية وليصبح المجتمع الجديد تابعاً لمركز واحد ولمصدر قرار واحد وهو ليس رئيس العشيرة بل رئيس الدولة المتمثل شخصاً بالنبي (ص) والمتمثل مكاناً بالمسجد .

اللمسة الثانية باستبدال الرابطة القبلية بالاخوة الایمانية حتى يصبح ارتباط المسلمين اجمعهم بعصب واحد مشدود في كل طرف وتنتهى كل الاطراف بالمركز وهو القائد ومكان القيادة هو المسجد فشرع رسول الله باعلان التآخي بين المسلمين من المهاجرين والانصار للتأكيد على الرابطة الجديدة التي يقتضيها التنظيم الجديد واستطاع الرسول بهاتين اللمتين ان يوجد المناخ المناسب للمجتمع لاستيعاب نظام الدولة واستبداله بنظام القبيلة .

وقد مرت الدولة الاسلامية في عهد رسول الله بثلاث مراحل هي :

١ - مرحلة تثبيت القواعد .

٢ - مرحلة البناء .

٣ - مرحلة الانتشار .

أولاً . مرحلة تثبيت القواعد

وصل رسول الله (ص) يثرب وهي خاوية على عروشها فالصراع القبلي بين الخزرج والاوس قد بلغ ذروته بتشجيع من الجماعات اليهودية القاطنة في احياء يثرب وربما خمدت بعض المشاكل في السنين الاربعة قبل الهجرة وبعد جولة من الحروب الطاحنة في بغاث وربما عادت القبيلتان الى العقل وقررتا ان تعيشا بسلام واختارتا ملكاً عليها هو عبدالله بن ابي لكن كانت الاوضاع تنذر بالانفجار من جديد فقد كانت الاحقاد تتوارى خلف غطاء كثيف من الرماد وهي تتأهب في اية لحظة للاشتعال .

ومن ناحية اخرى كانت الجماعات اليهودية تتجبن الفرص للدس بين القبيلتين وكانت الغالبية من اليهود تعيش على الربا باستغلال اتعاب المزارعين من القبيلتين ومن اليهود الفقراء العاملين في الزراعة .

وللوهلة الاولى كان من غير الممكن اقامة نظام مركزي واقامة نظام اقتصادي وقضائي واداري موحد في مثل تلك الظروف التي كانت تعيشها يثرب .

الا ان المنهج الذي وضعه الرسول (ص) لتشييد الدولة على ارض يثرب

مكنه من تنفيذ غرضه من دون صعوبات كثيرة .

وتتجلى قدرة النبي في مواجهة صعوبات المهمة باختيار المداخل الى اقامة الدولة الاسلامية وهي :

اولاً : انشاء المسجد .

ثانياً : اعلان التآخي بين المسلمين .

ثالثاً : ترسيم السياسة الداخلية والخارجية من خلال الصحيفة .

اولا بناء المسجد كقاعدة للسلطة ورمز للمركزية ووحدة الصف :

وصل النبي (ص) الى يثرب بعد ثمانية ايام من الجهد والعناء في رحلة شاقة بين كثبان ورمال تهامة وصخورها القاسية وتحت رحمة اشعة الشمس الحارقة التي كانت تلسع الوجوه فتحيلها جمرة من النار المستعرة وخف الالم على الرسول (ص) وهو يشاهد اهل يثرب وقد خرجوا عن بكرة ابيهم لاستقباله ، ودارت الجموع من حوله تكاثرت الاصوات وكل يريد ان يفتخر بضيافته وتوالت الدعوات من وجهاء المدينة وعامتهم . واستشعر النبي (ص) للموقف الحرج الذي وقع فيه . لكن هداه الله الى طريقة حكيمة للخروج من المأزق .

فقد القى بخطام ناقته على غاربها وتركها تسير باختيارها قائلاً لمن حوله انها مأمورة فبركت الناقة على مريد لسهل وسهيل ابن عمرو فاشتراه ليني المسجد عليه فشرعوا بالبناء بهمة وشوق وكان رسول الله (ص) كأحدهم في تحمل مسؤولية البناء فكان يعمل كأحدهم وعندما رأى المسلمون تفاني النبي في العمل نشطوا هم ايضا واخذوا ينشدون .

لئن قعدنا والرسول يعمل لذاك منا العمل المضلل

لا عيش الا عيش الآخرة اللهم ارحم الانصار والمهاجرة
فيجيهم النبي (ص) :

لا عيش الا عيش الآخرة اللهم ارحم المهاجرين والانصار
وبدأوا ببناء المسجد بتنظيف المكان من الماء الاسن واقتلاع ما في الباحة
من النخيل وشرعوا ببناء الاساس بطول ثلاثة اذرع ثم اقيم اللبن فوقها فكان
مربع الشكل ، طوله وعرضه مائة ذراع اما السقف فقد اقيم من الجريد لانجاز
العمل بسرعة واقامت القبلة جهة بيت المقدس وجعل للمسجد ثلاثة ابواب كما
وانشأ حول المسجد حجرات استخدمت فيها جذوع النخل وذلك لتكون محل
لسكن الرسول واهله وقد خصصت احدى نواحي المسجد لايواء الفقراء الذين
لم يكونوا يمتلكون سكنا . وكان يُضاء المسجد في الليل ساعة صلاة العشاء اذ
كانت توقد فيه انوار القش وبعد سنوات كانت القناديل تشد في جذوع النخيل
التي كانت تحمل سقف المسجد وحتى اكتمال بناء المسجد كان
رسول الله (ص) في دار ابي ايوب الانصاري حيث لمس عن قرب طبيعة العلاقة
والحب الذي يكنه الانصار نحوه .

فكان ابو ايوب يؤثر النبي (ص) على نفسه واهله في اختيار المكان
والطعام وكان حريصاً على توفير اقصى درجات الراحة للنبي (ص) خلال فترة
اقامته . ولم تكن بينه وبين النبي (ص) سابق معرفة الا الاسلام الذي ربط بين
جميع من آمن بالدين الجديد فصاغهم الاسلام صياغة جديدة فأصبحوا يؤثرون
على انفسهم بعد ان كانوا يتسمون بالانانية وحب الذات .

وبعد ان اكتمل بناء المسجد جلس رسول الله (ص) يفكر بالمراحل
الآخري التي تنتظره وكيف استطاع ان يصل الى هذه المرحلة بتوفيق الله ورعايته
وكيف كان حاله في مكة مطارداً محاصراً في كل مكان لا يستطيع ان يبلغ رسالته

الا بشق الانفس وكيف اصبح حاله الان حيث ارتفع بانيان هذا الدين واصبح المسلمون آمنين على اموالهم وانفسهم يستطيعون ان يؤدوا العبادات بحرية ودون وجل وتمكنوا ان يبلغوا رسالتهم دون تردد .

وهذا الدين ينتشر في يثرب بفضل الله ورعايته فلم يبق بيت لم يصله نداء الإسلام الا بعض بيوت الأوس .

وهذا المسجد اصبح رمزاً لقوة الإسلام وعظمته فكان على المسلمين ان يستثمروا هذا المكان المقدس اقصى الاستثمار .

فالمسجد هو مكان تجمع المسلمين . اذ كل امة بحاجة الى مكان تلتقي فيه ويجتمع فيها ابناءؤها لحل مشكلاتهم ولتدارس اوضاعهم . .
والمسجد هو مدرسة يتعلم فيها المسلمون الكثير .

يتعلمون وحدة الصف عندما يقفوا صفوفاً منتظمة خلف رسول الله (ص) ليؤدوا الفريضة ويتعلمون ايضا معالم دينهم ويسمعون فيه آيات القرآن كلما نزلت على النبي (ص) فقد شهدت باحات المسجد حلقات الدرس وحلقات تلاوة القرآن الكريم .

كما وان المسجد تحول الى مؤسسة اجتماعية لايواء الضعفاء والمساكين الذين لا سكن لهم من اهل الصفة واصبح كل من يحتاج مالاً او طعاماً يلتقي بأهل الخير في باحة المسجد لسد حاجاته الحياتية .

كما واصبح مكاناً لاجراء صفقات البيع والشراء واقامة المناسبات المختلفة ، وبالإضافة الى جميع تلك المهام التي كان يقوم بها المسجد تحول ايضا الى مكان للتعبئة العسكرية ومحل للتدريب على القتال بالسيف والرمح .
فقد اصبح المسجد الرئة التي يتنفس من خلالها المجتمع الاسلامي والذي يجد

فيه الفرد المسلم متنفساً لقضاء احتياجاته الدينية والدنيوية فقد كان لهذا المكان ابعاد سياسية واجتماعية واقتصادية وثقافية وعسكرية .

والاهم من كل ذلك كان وجود المسجد يوحى للمسلمين بالكثير من المعاني ويرسخ لديهم افكاراً عن ضرورة القيادة المركزية والنظام ووحدة الصف الواحد .

وعلى اساس هذه الافكار المترسخة في الوجدان قامت دعائم الدولة الاسلامية فأصبح المسلمون يتعاملون مع القائد بصورة مختلفة عما كانوا يتعاملون مع رئيس العشيرة .

فقائدهم اليوم ليس فقط زعيماً لجماعة يجب اطاعته والتسليم له بل هو ايضا نبي مبعوث ورسول من عند الله تعالى فطاعته ليست مجردة بل تحمل في طياتها مسحة من الايمان والاعتقاد والاندفاع الذاتي . والمسلمون على استعداد كاف لان يتنظموا في نظام الدولة بعد ان كانوا ينتظمون في نطاق القبيلة .

من هنا فقد كان المسجد نقطة التغيير الاولى باتجاه تنظيم المسلمين في الاطار الجديد اطار الدولة الاسلامية .

اما نقطة التغيير الثانية فقط كانت المؤاخاة بين الانصار والمهاجرين .

٢ - المؤاخاة :

آن لاهل ليثرب ان يستريحوا من الخصام . .

وآن ليثرب وهي تستقبل قائدها ان تسدل الستار على الحروب والمعارك التي اثكلت النساء واورثت الكآبة والحزن على شفاء الاطفال .

آن ليثرب ان تنسَ عهد الاختلاف والفرقة وان تبدأ عهداً جديداً في ظل الرسالة .

آن لها ان تطوي صفحة الماضي وان تبدأ بصفحة جديدة من حياتها مملوءة بالامل والتفاؤل . وكان على القائد ان يقلب تلك الصفحة المظلمة من الشقاق والفرقة التي عاشها اهل يثرب كان عليه ان يبدأ بخطة حكيمة لاقامة امة اسلامية من هؤلاء الذين كانوا في صراع دائم .

كان عليه ان يباشر العمل على عجل لان الاعداء يتربصون وسيحاولون توجيه الضربة المناسبة للكيان الاسلامي عندما يجدون الفرصة . واقوى سلاح يُوجه الى الصف الاسلامي هو سلاح التفرقة .

كان على القائد أن يبدأ العمل الطويل من خطوة اولى ما اعظمها وما ادقها وما احكمها .

فقد اعلن المؤاخاة بين المسلمين قائلاً (تآخوا في الله اخوين اخوين) فأرسى وعبر هذه الاخوة اساساً لبناء الامة المتراصة التي ظلت على متانتها رداً من الزمن .

وقام على تلك القاعدة اعظم بناء لامة لم يعرف لها التاريخ مثيلاً في وحدتها وتلاحمها وتفانيها .

لقد زرع رسول الله (ص) بالمؤاخاة عنصر البقاء في الامة فقد ازال بهذه الاخوة ما تبقى في النفوس من اناية وحب للذات فاصبح المسلم لا يرى فرقاً بينه وبين اخيه المسلم وان لايخيه المسلم سهماً في ملكه وأمواله .

وهذا هو اعلى ذروة يبلغها المجتمع في تلاحمه وتقارب ابنائه ، ولم يعرف التاريخ مجتمعاً بلغت فيه الاواصر بتلك القوة التي بلغها المجتمع الاسلامي في مرحلة التكوين .

فقد كان الانصار يتسابقون على تقسيم اموالهم على المهاجرين وعندما يتكاثرون على مسلم مهاجر يريدون ابرام عقد الاخوة معه كانوا يضطرون

لاستخدام القرعة .

كان الانصاري يأتي للمهاجر ليَقْدَم له نصف امواله وبلغ التفاني باحد الانصار وهو سعد بن الربيع انه قال لاختيه المهاجر وهو عبد الرحمن بن عوف اني اكثر الانصار مالاً فاقسم مالي نصفين ولي امرأتان فانظر اعجبها اليك فسمها لي اطلقها فاذا انقضت عدتها فتزوجها .

وحتى بعد ان تحسنت اوضاع المهاجرين ظل الانصار على وفائهم وتفانيهم فبعد حصول المسلمين على اموال بني النضير وقبل ان توزع تلك الاموال التفت النبي (ص) الى الانصار قائلاً لهم .

ان احببتُم قسمت بينكم وبين المهاجرين مما افاء الله عليّ من بني النضير وكان المهاجرون على ما هم عليه من السكنى في منازلكم واموالكم وان احببتُم اعطيتمهم وخرجوا من دوركم فاجابه الاوس والخزرج . يا رسول الله بل تُقسّمه للمهاجرين ويكونون في دورنا كما كانوا ونادت الانصار رضينا وسلمنا يا رسول الله^(١) .

لم يعهد تاريخ البشر هذا النمط من التفاني وهذا اللون من الاخلاص في الاخوة وفي محيط جاهلي كمحيط القبائل العربية اذ توارت بعض الصفات الجيدة للقبائل عندما انتقلت من البداوة الى الحضر وعندما اخذت تشتغل بالانشطة الاقتصادية المختلفة فنمت عندها النزعة الفردية وطغت الانانيات لتحل محل الصفات الخيرة .

ولم يكن امراً هيناً اعادة الانسان العربي الى فطرته اذ كانت تقتضي هذه العملية ازالة تراكمات ما كدسته المدنية المادية لعقود كثيرة اصبحت فيها هذه

(١) المغازي، الواقدي: ج ١ ص ٣٧٩.

التراكمات عائقاً عن تحول الانسان وبالتالي حالت دون بلوغه مستوى الفاعلية والغت دوره النافع في المجتمع وتأثرت العلاقات الاجتماعية بهذه الحالة السلبية واخذت القيم المادية تغزو هذه العلاقات فكان لا بد من اعادة صياغة المجتمع على اساس جديد حتى تغدو العلاقات على نمط آخر غير النمط الذي تعارف عليه المجتمع .

فكان اعلان الاخوة هو السبيل القويم الى ذلك .

واصبح لهذا الاعلان ابعاد اربعة يمكن رصدھا عبر النتائج التي خلصت اليھا الاخوة الاسلامية :

البعد السياسي للمؤاخاة :

كان المسلمون على اعتاب تأسيس الدولة الاسلامية وما من دولة تتقدم الا على اساس وحدة فصائل شعبھا . فكان لا بد من اذابة الفروقات والحساسيات بين ابناء الشعب الواحد ليصبح هذا الشعب نسيجاً مترابطاً واحداً لان الامة الموحدة هي القادرة على الوقوف على اقدامھا . فالوحدة هي عنوان قوة وصحة لكل امة . وبالنسج المتكامل تستطيع الامة ان تخطو خطوات منتظمة الى بناء حضارتھا وتقدمھا .

فبالوحدة تصبح الامة جسداً واحداً فيسهل على السلطات تنفيذ برامجھا وتطبيق خططھا لأنها ستجد من يطيعھا ويتفاعل معها . وباليك الوحدة تصبح الامة رجلاً واحداً يتحرك ويقاوم . بينما التصدع يشكل عائقاً امام الامة الناهضة ويصبح معوقاً رئيسياً في طريق بناء الدولة القوية .

فمستقبل الدولة الاسلامية كان يحمل احتمالات المواجهة الشرسة مع الفئات المضادة فالاعداء لن يكفوا ايديهم عن الدين الجديد فكان لا بد من ترتيب البيت الداخلي قبل ان يتعرض لمداھمة على ايدي الاعداء وكانت

الخطوة الهامة في ترتيب البيت الداخلي هي ايجاد حالة التجانس بين ابناء الامة الواحدة حتى تصبح هذه الامة قطعة نسيج واحد تتحرك وفق المطلوب وبسرعة يمكن حسابها ويمكن التخطيط للمستقبل على اساسها .

وكان الرسول (ص) يرى المستقبل كما يرى الحاضر فوجد ان السبيل لبناء حضارة رسالية مشرقة هو بناء امة متماسكة تصبح قادرة بتماسكها ان تشق طريقها في الحياة نحو سلم الرقي برغم الصعاب والاهوال .

البعد الاجتماعي :

كان المجتمع الثريبي قبل ان يقدم رسول الله يتأكل من الحقد والكراهية هذا ابسط ما تركه الحرب من مخلفات ويعود ذلك الى وسوس اليهود وحيلهم في تمزيق الصف فكان على رسول الله (ص) ان يعالج هذا الموقف الاجتماعي الخطير كان عليه ان يستبدل الكراهية بالمحبة والتباغض بالتقارب والالفة حتى يعاد صياغة المجتمع على اساس الحب وليس الكراهية .

والمجتمع الذي يُبنى على قاعدة الحب هو مجتمع فاضل تنقطر الفضيلة من كل جوانحه وجوانبه .

وعلى قاعدة الحب تأخذ العلاقات الاجتماعية شكلاً آخرأ فيعم التعاون والخير فيصبح مجتمعاً قوياً قادراً على الحركة بفاعلية كبيرة .

والمجتمع الذي يحب ابناءؤه بعضهم بعضها هو مجتمع ينعم بالتكامل فكل فرد فيه هو مسؤول عن الاخرين . فاذا ظلم يسارع لرد الظلم عنه واذا احتاج يسارع لسد حاجته واذا انحرف يسارع لتقويمه .

المجتمع المتحاب هو مجتمع الامر بالمعروف والنهي عن المنكر . هو مجتمع الكرم والتآخي كل عضو فيه عنصر ايجابي .

لقد قلب رسول الله (ص) موازين العلاقات الاجتماعية عندما آخى بين المسلمين ووضع حجر الاساس لمجتمع قويم متكافل متعاون ومتكامل كل فرد فيه يعمل بما تسعه طاقته من اجل الآخرين .

فقد كان رسول الله (ص) يُهيأ المناخ لتحويل الطليعة الإسلامية الى مجتمع اسلامي وكانت اول دفعة باتجاه تكوين هذا المجتمع هو ارساء الارضية القوية لهذا البناء الشامخ فكانت المؤاخاة هي السبيل لتدفق مشاعر الحب والثقة بين ابناء المجتمع الواحد .

البعد الاقتصادي :

لاستيعاب الجانب الاقتصادي من المؤاخاة يقتضي التنويه الى الظروف الاقتصادية التي كانت تعيشها المدينة يوم قدم اليها رسول الله (ص) .

تمتاز الاراضي في المدينة بخصوبتها الكبيرة لانها في الاصل اراضٍ بركانية وتنعم بمياه وفيرة فهي تفيض بمياه السيول والعيون التي تكثر في الوديان واشهر وديانها وادي العقيق الذي كان قد تحول الى منتجع فاره لاهل المدينة وامتاز اهل المدينة بشغفهم نحو الزراعة وبالاخص زراعة النخيل حيث كانوا يستفيدون من ثمرها كمصدر للطعام ويستخدمون سعفها في البناء والوقود وبالإضافة الى النخيل كانت المدينة تنتج انواعاً عديدة من الحبوب والبقول كالشعير والحنطة وتكثر فيها الخضروات أيضا .

اما مصادر الحياة الاخرى كالسمن والعسل والعنبر والعطور وبعض المنسوجات فقد كانت تستورد من الخارج وكان اليهود يحتكرون معظم التجارة في المدينة وصنف منهم كانوا يعملون في الزراعة كيهود خيبر وصنف اخر كانوا يعملون في صياغة الذهب وهم يهود بني قينقاع وكانوا يمتازون على إلاوس

والخزرج بالغنى وامتلاك الاموال والعقارات وكانوا يستثمرون اموالهم في الربا.

اما العرب المزارعون فكانوا يشتغلون وينفقون كل ما يحصلون عليه . فهم اهل ضيافة وكرم فما كان ليبقى لديهم ما يدخرونه وعندما كانوا يحتاجون الى المال كانوا يأخذونها بالربا من اليهود .

فغالبية اليهود كانوا يعيشون على عرق المزارعين الفقراء الذين كانوا يدفعون بحصيلة عرقهم لجيوب المرابين والدلالين الذين كانوا يتاجرون بالكماليات كالمصنوعات الذهبية والمنسوجات القطنية والحريرية والنمارق والصور والعطور والمسك .

وعندما قدم المسلمون الى يثرب لم يكونوا يملكون شيئاً فقد تركوا اموالهم ومنازلهم ولم يأخذوا معهم الى المدينة الا الشيء اليسير وكان اغلبهم من الفقراء والعبيد الذين لا خبرة لهم في شؤون الانتاج وخصوصاً الزراعة اذ لم تكن ارض مكة صالحة لكن كان فيهم من كان غنياً وصاحب خبرة في التجارة وكانت المشكلة الاولى التي واجهت النبي (ص) اعالة هؤلاء الذين وردوا المدينة وبين عشية وضحاها دون ان تكون لهم مصادر للعيش في مواطنهم الجديدة .

فماذا كان سيفعله الرسول (ص)؟

هل كان يترك الوضع على حاله ليبقى المهاجرون يذوقون مرارة الغربة والجوع معاً .

ام ان عليه ان يخطو بخطوة لحل هذه المعضلة سيما وانه يتهيأ لبناء مجتمع سعيد ينعم بالازدهار والخيرات .

لم يكن امام الرسول (ص) الا ان يختار اسلوب دمج المهاجرين بالانصار

ليصنع منهم قوة اقتصادية واحدة .

وهذا الذي فعله عندما أعلن المؤاخاة بين أهل المدينة وضيوفهم واستطاع بهذه المؤاخاة أن يضع حجر الأساس لثورة اقتصادية كبرى دلت على عظمة الفكر الرسالي وعظمة الخطة التي اتبعتها النبي (ص) المعالجة المشكلة .

فالخزرج والاوز كانوا أناساً منتجين وكان اليهود تجاراً في الغالب يعيشون على إنتاج القبيلتين .

والذي نتج عن المؤاخاة هو ربط الإنتاج بالتجارة وجعلهما يتحركان في حلقة واحدة .

فالخزرجي أو الأوسي كان يزرع والمهاجر كان يبيع أو يعمل في الأرض بالايجار وكان معنى ذلك إلغاء الدور الاقتصادي الذي كان يضطلع به اليهود وهذا يفسر لنا سبب انقلاب اليهود على النبي (ص) بعد ذلك الاستقبال الحار الذي استقبلوه يوم وروده المدينة .

وعلى أساس الصياغة الجديدة للعملية الاقتصادية فقد ازدهر الإنتاج وتضاعف اضعافاً مضاعفة إذ كانت جسور الثقة بين الأنصار والمهاجرين وتصفية الربا هي إحدى دعائم التطور الانتاجي في المدينة .

وهكذا حول رسول الله (ص) العنصر الذي ورد المدينة من عالية ومجموعة استهلاكية إلى دم جديد تدفق في عروق الاقتصاد المدني فأصبح عامل ازدهار ونمو وتطور في الإنتاج .

وهكذا استطاع رسول الله (ص) أن يوظف هذا العنصر الذي كان من المحتمل أن يتحول إلى معوق اقتصادي إلى أداة لآحداث أكبر تحول في اقتصاد المدينة وهو بذلك أرسى القاعدة الأساسية للاقتصاد الإسلامي القائم على التعاون والتكافل والتفاعل بين العناصر المشتركة في العملية الاقتصادية .

البعد الحركي :

مع اتساع رقعة المسلمين كانت الحاجة ماسة الى اعادة تنظيم المجموعة في اطار جديد يستوعب التطورات الجديدة فكانت المؤاخاة هي الاسلوب الامثل لاعادة ترسيخ الجسور التنظيمية على اسس قويمه .

فالمهاجر الذي استوعب الرسالة وفهمها والذي خرج من وطنه بتجربة ثرية في المقاومة كان عليه ان يؤدي دوراً هاماً في المكان الجديد هو تعليم من لم يستوعب بعد مفاهيم الرسالة بصورة كاملة .

فقد عملت المؤاخاة على نقل التجربة الايمانية من المهاجرين الى الانصار فالاندماج بين عنصر مكة وما يحمله من روح مقاومة وصمود واستقامة وعنصر المدينة الذي لم يكسب حتى الان التجربة الحركية امراً غاية في الاهمية لان هذا الاندماج سيرسي ارضية جديدة تجعل من المجتمع الاسلامي مجتمعاً قوياً قادراً على الصمود لا تهزه الرياح ولا يعصف به الاعداء مهما كانت قوتهم المادية وهذا الذي حدث فعلاً فقد تحول المجتمع الاسلامي في المدينة على اثر المؤاخاة الى مجتمع مقاوم كان يعده الرسول (ص) للمراحل القادمة من العمل الرسالي حيث المواجهة الصعبة مع قوى الشرك في مكة وغيرها . لقد آخى رسول الله (ص) نفسه مع علي بن ابي طالب (ع) وآخى بين مصعب بن عمير وابي ايوب الانصاري خالد بن زيد ، وبين حذيفة بن عتبة وعباد بن بشر ، وعمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان ، سلمان الفارسي وابي الدرداء ، بلال وابي رويحة ، ابي ذر الغفاري والمنذر بن عمرو ، حاطب بن ابي بلتعه وعويم بن ساعده ابي بكر وخارجة بن زهير ، عمر بن الخطاب وعتبة بن مالك ، ابي عبيدة بن الجراح وسعد بن معاذ وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع ، وزبير بن العوام ومسلمة بن سلامة وعثمان بن عفان واوس بن ثابت ، طلحة بن عبيدالله

وكعب بن مالك وبين سعيد بن زيد وأبي بن كعب .

وكان اختصاص الامام علي بن ابي طالب (ع) بأخوة الرسول (ص) ذا معنى واضح في الدور الهام الذي كان يقوم به الامام علي (ع) في تنظيم شؤون المسلمين فقد كان الامام علي هو حلقة الوصل بين النبي (ص) وبين مجموعة من المسلمين كان يقوم بتعليمهم مبادئ الإسلام واعدادهم اعداداً جيداً للمهام المستقبلية .

فبالإضافة الى ما تحمله هذه المؤاخاة من معاني الصلة القوية بين الاثنين تعطي ايضا صورة واضحة عن الموقع الهام الذي كان يحتله الامام علي (ع) في قيادة الطليعة الاسلامية جنباً الى جنب مع رسول الله (ص) .

ثالثاً الصحيفة :

بعد ان وطد رسول الله (ص) دعائم وحدة الكيان الاسلامي وجّه نظاره نحو من تبقى من سكان المدينة فقد كان همه الاول هو ان يوصل المدينة الى وحدة سياسية تكفل الارضية القوية لاقامة الدولة الاسلامية بانظمتها واجهزتها المتشعبة .

وكان في المدينة عدد من القبائل اليهودية اشهرها ثلاث هي بني النضير وبني القينقاع وبني قريظة وقد استقبلت النبي (ص) خير استقبال طمعاً في استيعابه وجماعته الاسلامية والاستفادة من هذا الوجود في مراميها السياسية والاقتصادية .

وقد ابدى النبي (ص) في بداية الامر نوايا حسنة تلقى المعاملة الحسنة من اليهود بمثابة التجاوب مع التطور الجديد . فسارع لابرام اتفاقية شاملة وضعت الخطوط العريضة لاسلوب التعامل مع الجماعات غير الإسلامية بما فيها اليهود .

وفي الوهلة الاولى امتنعت القبائل اليهودية الكبرى من التوقيع على المعاهدة لانها لا تحقق الغاية التي سعوا من اجلها وهي ضم النبي (ص) تحت السيادة اليهودية واذا برسول الله يطلع عليهم بهذه المبادرة التي عكست الأمر تماماً اذ منحت المعاهدة السلمية امتيازاً أوسع للمسلمين وجعلت اليهود على الهامش لكنها احتفظت بجميع حقوقهم الدينية والحياتية . . واضطرت هذه القبائل الى ابرام معاهدات ثنائية تحت ضغط النفوذ الواسع لرسول الله الذي أخذ ينمو بصورة مطردة .

وقد نصت المعاهدة على ما يلي^(١) :

بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب من محمد (ص) بين المؤمنين والسلمين من قريش ويثرب ، ومن تبعهم ، فلحق بهم ، وجاهد معهم ، انهم أمة واحدة من دون الناس ، المهاجرون من قريش على ربتهم يتعاقلون بينهم ، وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو عوف على ربتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، كل طائفة تُفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين وبنو ساعدة على ربتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تُفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين وبنو الحارث على ربتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تُفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو جُشم على ربتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة منهم تُفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو النجار على ربتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة منهم تُفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو عمرو بن عوف على ربتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تُفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين وبنو النبيت على اربعتهم يتعاقلون

(١) ابن هشام : ص ٥٠٢ - ٥٠٣ . وسيرة المصطفى : ص ٢٧٧ .

معاقلهم الأولى وكل طائفة تُفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو الأوس على ريعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تُفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين لا يتركون مفرحاً بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل . وأن لا يحالف مؤمنٌ مولى مؤمنٍ دونه ، وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم ، أو ابتغى دسيعة ظلم أو اثم أو عدوان ، أو فساد بين المؤمنين . وإن أيديهم عليه جميعاً ، ولو كان ولد أحدهم ولا يُقتل مؤمنٌ مؤمناً في كافر ، ولا ينصر كافراً على مؤمن ، وإن ذمة الله واحدة يُجير عليهم أديانهم ، وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس . وانه من تبعنا من يهود فان له النصر والأسوة ، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم ، وإن سلم المؤمنين واحدة ، يسلم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله ، إلا على سواء وعدل بينهم ، وإن كل غازية غزت معنا يُعقب بعضها بعضاً ، وإن المؤمنين يُبىء بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله ، وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه ، وإنه لا يُجير مشرك مאלً لقريش ولا نفساً ، ولا يحول دونه على مؤمن : وإنه من أعتبط مؤمناً قتلاً عن بينه فانه قوادٌ به الا أن يرُضي ولي المقتول وإن المؤمنين عليه كافة ، ولا يحل لهم الاقتتال عليه ، وانه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر ان ينصر محدثاً ولا يؤويه ، وإن من نصره أو آواه فان عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل ، وانكم مما اختلقتم فيه من شيء فان مرده الى الله والى محمد ، وان اليهود يتفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وإن يهود بني عوف امة مع المؤمنين لليهود دينهم وللمسلمين دينهم . ومواليهم وانفسهم إلا من ظلم أو اثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته وإن لليهود بني النجار ويهود بني الحارث ، ويهود بني ساعدة ، ويهود بني جشم ، ويهود بني الأوس ، ويهود بني ثعلبة كأنفسهم ، وأن بطانة يهود كأنفسهم ، وانه لا يخرج منهم أحد إلا باذن محمد (ص) وانه لا يتحجر على نائر جرح ، وانه من فتك فبنفسه وأهل بيته

إلا من ظلم ، وان الله على ابر هذا وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم ، وان بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وان بينهم النصح والنصيحة والبر دون الاثم ، وإنه لم يَأْثَمَ امرؤٌ بحليفه ، وان النصر للمظلوم ، وان اليهود يتفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وان يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة ، وان الجر كالنفس غير مضار ولا آثم ، وانه لا تجار حرمة الا باذن أهلها ، وانه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث او شجار يخاف فساده فإن مرده الى الله والى محمد رسول الله (ص) وان الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره ، وانه لا تجار قریش ولا من نصرها وان بينهم النصر على من دهم يثرب ، إذ دعوا الى صلح يصلحون ويلبسونه ، فإنهم يصلحون ويلبسونه ، وانهم اذا دعوا الى مثل ذلك فإن لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين على كل ناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم ، وان الأوس مواليتهم وانفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من هذه الصحيفة وان البر دون الاثم لا يكسب كاسب إلا على نفسه ، وإن الله أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره ، وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم او وإن من خرج آمن ، ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم أو آثم ، وإن الله لمن بر واتقى .

ونستنتج من هذه المعاهدة الافكار التالية :

١ - كان السعي الحثيث لرسول الله (ص) هو بناء دولة عصرية قائمة على اسس ونظام وقواعد وهو اسلوب جديد في ادارة شؤون الناس لم يتعارف عليه في جزيرة العرب حيث كان نظام القبيلة هو النظام الحاكم على الافراد .

بينما كان هم الرسول هو تحويل ادارة الحكم الى مؤسسة قائمة على اصول وضوابط وبالتالي تحويل الكيان المشتت الى مؤسسة منتظمة الاجزاء هي الدولة .

وقد رعى الرسول (ص) حاجة الدولة الى الدستور فسنّ في الصحيفة

الخطوط العريضة الضرورية لاقامة الدستور فهي في الواقع مشروع دستوري هدفه الاول تهيئة المجتمع المدني بكل تجمعاته الاسلامية وغيرها لتقبل الدستور والضوابط فالصحيفة منحت اتجاهها للمجتمع ينتهي حتما الى اقامة المؤسسة الدستورية الشاملة والكاملة .

٢ - طرحت الصحيفة نمط التجمع الاسلامي في المدينة على أساس أنه امة - وهي بداية اشعرت كل مسلم بأنه اء بح ينتمي الى امة بعد ان كان ينتمي الى تجمع مصغر من المؤمنين .

وقد اقترن اصدار الوثيقة بتوسع القاعدة الطليعية للتجمع الاسلامي وتحولها الى امة فقد ورد في مقدمة المعاهدة «انهم امة واحدة من دون الناس» .
انهم امة متميزون عن الاخرين بخصائص معينة بالتزامهم الديني وتمسكهم بالفضائل وبالصفات الحميدة .

وقد جرت مساعي النبي (ص) لاعطاء الجماعة الاسلامية شخصية متميزة عن الاخرين يمكن بسهولة معرفتهم بها وتمييزهم عن ارباب الديانات الاخرى وهذه خطوة هامة نحو استبدال الشعور القبلي بالشعور الاوسع الذي يشمل كل اخوة الايمان .

فعلى طريق بناء الكيان الاسلامي كان لا بد من ترسيخ مشاعر الولاء للامة فستشدها هذه المشاعر نحو الجماعة الاسلامية وتجعلها عنصراً متفاعلاً مع كل قضية تهم هذه الامة .

٣ - الابقاء على الفرز القبلي والاحتفاظ بشخصية كل قبيلة على حالها فقد ذكر النبي (ص) اسماء القبائل واحدة بعد اخرى واكد مع اسم كل قبيلة الحفاظ على شخصيتها «بنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الاولى وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين» .

ولكل قبيلة شخصيتها التاريخية ولا بد من الحفاظ عليها وهي لهذا تتحمل بنفسها مسؤولية التكامل الاجتماعي . وبهذا الأسلوب استطاع رسول الله أن يشارك كل قبيلة في تحمل بعض اعباء الدولة فكل قبيلة عليها أن تدفع الدية عن ابنائها وتفدي فقيرها كما كانت عليها قبل الاسلام .

ويظهر هذا الأسلوب رغبة النبي (ص) في رفع بعض الكاهل عن الدولة وذلك بإشراك التنظيمات الاجتماعية لتحمل بعض المسؤوليات الاجتماعية وكان أبرز مظاهر المؤسسة الاجتماعية هي القبيلة فبعد أن كانت كل قبيلة تحكم نفسها بنفسها أصبحت الآن ومعها كل القبائل تحت سيادة حكومة مركزية لكنها ظلت تمارس دورها الاجتماعي وهذا هو السبب الذي جعل النبي (ص) ينصرف عن الغاء القبائل كظاهرة اجتماعية .

وربما احتار البعض في تفسير ذلك وبدى وكأن هناك تناقضاً بين السياستين اللتين انتهجهما النبي (ص) .

لكن عند التأمل تبدد الحيرة وتوضح الصورة تماما .

فالنبي (ص) لم يبلغ الجانب الايجابي من خصائص القبيلة وهي التعاون بين ابنائها والتكافل الاجتماعي فهناك جانب من القبيلة وهي الولاءات والتنظيمات والاعراف فقد عمل رسول الله (ص) على صهرها في بوتقة الإسلام ليحل محلها نظام مركزي واحد يشمل على كل القبائل وهو الدولة اما الخصائص الاخرى فقد عمل على الاحتفاظ بها واعطاها دوراً اوسع في تنمية الحركة الاجتماعية .

٤ - توسيع دائرة الامة لتشمل بالإضافة الى المسلمين اليهود ايضا وكل من تبع المسلمين فقد كان هدف الرسول هو اقامة دولة اسلامية يعيش فيها المسلم جنبا الى جنب مع غيره وهذا يقتضي اقامة تنظيم اجتماعي اشمل من تنظيم

الامة الاسلامية لنظم شؤون رعايا الدولة الاسلامية حتى لا يبقى غير المسلم منفصلاً عن التنظيم الاول الذي يعتبر النواة والمحور في الدولة الاسلامية .

فالدولة بحاجة الى قاعدة اجتماعية منظمة تشمل كل الذين قبلوا بهذا النظام فقد ورد في الصحيفة وان يهود بني عوف امة مع المؤمنين وهم يرتبطون بالنظام سياسياً فهناك من يرتبط بالنظام عقائدياً وسياسياً وهناك من يرتبط به سياسياً فقط .

فالدولة الاسلامية لا تحصر نفسها بطبقة دون اخرى او بجماعة دون اخرى فكل من وافق ان يعيش في ظل النظام الاسلامي هو من رعايا هذه الدولة يجب عليها ان تدافع عنه كما تدافع عن مواطنيها الاصليين .

وخلاف ذلك ، نشاهده في انظمة الحكم الراهنة سيما الدول الاسلامية التي حصرت نفسها باطارات اجتماعية ضيقة فاصبحت وكأنها وسيلة لاسعاد تلك الطبقة الاجتماعية او للترفيه عن تلك المدينة او تلك القرية اما بقية الرعية فليس لهم احد الا الله .

ان قلب الاسلام يستوعب حتى غير المسلم ويساوي بينهم وبين المسلمين فقد ورد في الصحيفة «وان من تبعنا من يهود فان له النصر والاسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم» .

٥ - تضمنين حرية العقيدة في الدولة الاسلامية ، فقد ورد في الصحيفة وان لليهود دينهم وللمسلمين دينهم . فعلى عكس ما كان متعارفاً في الجزيرة العربية حيث لا يسمح اصحاب عقيدة ما لغيرهم اظهار عقائدهم بحرية تامة فقد لقي المسلمون صنوف العذاب على ايدي قريش عندما أخذوا يصدعون بالاسلام . وعندما جاء النبي (ص) الى يثرب لم يشأ ان يكرر ما فعلوا به فينسف العقائد الاخرى مثلما فعلوا على رغم سلامة العقيدة الاسلامية وانحراف العقائد

الآخري . فلاول مرة في تاريخ الجزيرة العربية تقرّ حرية العقيدة بصورة قانونية من قبل دولة قائمة على عقيدة .

لقد اراد النبي (ص) ان يبني دولة نموذجية في كل شيء لتصبح سنة جارية في التاريخ وفعلاً اقام دولته المباركة التي تقدمت حتى على الدولتين المتحضرتين الساسانية والبيزنطية .

والحرية هي حجر الاساس في كل دولة فعلى اساسها تستمد بقية الحقوق معانيها الحقيقية فبدون الحرية لا معنى لحقوق الانسان فحرية الرأي وحرية العمل والحق في المشاركة السياسية والحق في التجمع كلها منوطة بحرية العقيدة وكان الرسول (ص) ومن خلال الوثيقة يريد ارساء لائحة حقوق الانسان في السماح بحرية العقيدة في الدولة الاسلامية فالمسلمون ضاقوا مرارة الاستبداد والتحجر الفكري في الفترة التي قضوها في مكة وكان عليهم ان ياخذوا العبرة ويحسبوا حساب من يريد ان يعيش كما عاشوا في مكة فكان عليهم ان يمنحوهم الحرية الكافية ويوفروا لهم الاجواء المناسبة لممارسة هذا الحق .

٦ - ترسيخ دعائم الاستقرار الامني فورد في الصحيفة وان يثرب حرام جوفها لاهل هذه الصحيفة فتوطيد الامن والاستقرار هو السبيل الى التقدم والرفي فمع الاستقرار الامني يزدهر الاقتصاد وتنمو مشاعر الاخوة الصادقة وتتوطد اعمدة النظام في الدولة .

فعلى نقيض ما تعارف عليه العرب الذين لم يعرفوا للاستقرار معنى فكانوا دائما في حالة حرب أو استعداد للحرب ولهذا السبب لم تتطور البنية الاقتصادية في الجزيرة العربية الا في مكة فقد ازدهرت فيها الحركة التجارية عندما قرر اهله العمل على استتباب الاوضاع ونبذ المشاكل وتصفية النزاعات وقد ساعد

هذا القرار المسلمين كثيراً على تثبيت دعائم الدعوة الإسلامية على رغم ارادة زعماء قريش الذين اضطروا الى الإمتناع عن فتح جبهة عريضة في مكة لان ذلك سيهدد مصالحهم التجارية المتنامية .

واليوم يريد المسلمون في المدينة ان يبدأوا حياة جديدة وان يبنوا اقتصاداً متيناً ومجتمعاً قوياً تنعدم فيه الجريمة وما كان ذلك ليتحقق الا باستتباب الأمن واشاعة روح الاستقرار والطمأنينة في النفوس وقلع جذور الفساد والجريمة فقد ورد هذا النص وان لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وامن بالله واليوم الآخر ان ينصر محدثاً ولا يؤويه ، وان من نصره او آواه عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة .

٧ - اشاعة روح التعاون بين رعايا الدولة الإسلامية فوردت نصوص عديدة في الصحيفة تؤكد على ضرورة التعاون في المجالات الضرورية منها مجال التناصح وان بينهم النصح والنصيحة والبر دون الاثم والتعاون على تصفية الفقر وتلبية حاجات كل صاحب حاجة وان المؤمنين لا يتركون مفرحاً (المثقل بالدين والعيال) بينهم يعطوه في فداء او عقل .

والتعاون على دفع الضرر الخارجي وان بينهم النصر على من حارب اهل هذه الصحيفة وفي مجال الدفاع المشترك يجب حتى على اليهود التعاون في هذا المجال لانهم انما يدافعون عن الاستقرار وعن نظام قبلوه عن طيب خاطر فلكي يستطيع هذا النظام ان يوفر لهم الأمن والرفي كان عليهم ان يشتركوا في الدفاع عنه لان الدفاع عنه دفاع عن مصالحهم ايضاً والتعاون هو القاعدة الرئيسية في بناء المجتمع والدولة وفي ايجاد جسور التفاعل بين اجزاء هذا المجتمع فالتعاون هو السبيل لدفع الجريمة والانحراف وتجنب النظام المخاطر الداخلية والتعاون هو سبيل لدفع الأخطار الخارجية التي تهدد النظام .

والتعاون هو السبيل لازدهار الحياة الاقتصادية .

والتعاون هو السبيل لسيادة المحبة والتراحم .

والتعاون اخيراً هو اساس العلاقة بين الشعب والدولة فدولة الاسلام هي دولة جماهيرية تقوم على مبدأ المشاركة الشعبية والتعاون هو اساس هذه المشاركة .

٨ - الاقرار بسيادة الدولة وذلك بارجاع الامور المتنازع عليها الى الدولة فهي التي ستفصل في القضايا المختلف عليها . فقد اعتاد العربي الى اخذ حقه بيمينه دون التوسل بسلطة الا اللهم سلطة القبيلة وجاء الاسلام ليضع حدا لهذه الفردية التي تثير الفوضى وعدم الاستقرار فكان على جميع رعايا هذه الدولة حتى من غير المسلمين ان يقرؤا بوجود مرجع له السيادة على الجميع وان عليهم ان يعودوا اليه عند النزاعات .

فوردت عدة نصوص تحمل هذا المعنى .

وانه ما كان بين اهل هذه الصحيفة من حدث او شجار يخاف فسادة فان مرده الى الله والى محمد رسول الله وفي مكان اخر وانكم مهما اختلفتم فيه من شيء فان مرده الى الله والى محمد .

ويشمل ذلك حتى اليهود الذين عليهم الاقرار بسيادة الدولة الاسلامية وانه لا يخرج منهم احد (اليهود) الا باذن محمد فكان على الجميع ان يقرؤا بان هناك رئيس لهذه الدولة وانه من واجبه ان يراجعوه في مواطن الضرورة وليس من حقهم ان يتصرفوا تصرفاً فردياً كما كانوا في السابق .

هذا هو اهم ما ورد في الصحيفة من معايير الحكم والدولة ومن اسس يقام عليها المجتمع الاسلامي وقد تمكن الرسول (ص) ان يرسي بتلك الاسس

قواعد بناء الدولة وان يضع نواة الامة الاسلامية التي اخذت تتوسع وتنتشر بمرور الزمن . وتظهر قيمة هذا العمل من تأمل الاوضاع العامة في جزيرة العرب حيث النزعة الفردية والفوضى واللاقانون هي السائدة يومذاك . وفي قلب هذا المجتمع بدأ رسول الله يقيم مجتمعاً جديداً يقوم على النظام واخذ يرسى دعائم دولة تقوم على سيادة القانون وليس سيادة اهواء زعيم القبيلة او ما شابه .

ثانيا مرحلة بناء الدولة

بعد ارساء القواعد اخذ الرسول (ص) يَهَيِّء السبل للمواجهة لانها هي قدره الذي لا يمكنه تجاوزه بأي حال من الاحوال . فالمواجهة مع اعداء الاسلام قضية حتمية كان لا بد من الاستعداد لها وتهيئة الظروف القادرة على التصدي لها .

ولان المواجهة مع الاعداء مواجهة شاملة فقد اخذت الاستعدادات في مختلف المناحي حتى تصبح الارضية شاملة ايضا .

فقد عمد رسول الله (ص) على تركيز القدرة في شرايين الجسد الاسلامي في مختلف اجزاء هذا الجسد .

فعلى صعيد المجتمع قام ببناء مجتمع قوي قادر على الصمود بوجه الأعاصير واما على صعيد الاقتصاد ارسى الرسول دعائم اقتصاد قادر على تحمل اعباء المواجهة واما على الصعيد العسكري اخذ المسلمون بالتدريب على استخدام السلاح واما على صعيد العلاقات اخذ الرسول (ص) يعرض نفسه على القبائل واخذت ترسل اليه الوفود واما على صعيد الدولة فقد عمل على ترسيخ نظام الدولة من خلال التشريعات التي سنت لتنظيم الشؤون المختلفة .

اولا بناء المجتمع المتراص ظلت قضية البناء تحظى بأولوية في منهاج الرسول الكريم (ص) عقب وصوله المدينة المنورة فبوصوله اليها كان على الحركة ان تتخطى مرحلة بناء الانسان الى بناء المجتمع ثم تجذير عوامل القوة والبقاء في هذا المجتمع . وقد استمر الرسول (ص) في هذه المهمة حتى في مرحلة المواجهة بل ان المواجهة هي التي اصقلت المجتمع وعمقت فيه معاني الايمان والصمود . لكن قبل ان تحدث المواجهة كان لا بد لهذا المجتمع ان يشرع في تكوين ذاته وتنظيم شؤوناته حتى يستطيع الوقوف قبال التحديات .

فالمجتمع القوي المتراص هو الذي يفرز جيشاً قوياً متراصاً وهو المعين الذي لا ينضب في التضحية والفداء .

والمجتمع الاسلامي المتماسك لا يسمح بوجود الثغرات في داخله ويواجه التحديات الداخلية بنفس الروح التي يواجه بها التحديات الخارجية .

أولاً: سد الثغرات :

تركب المجتمع الجاهلي على اسس مغايرة للعقل والمنطق فطغت عليه السلبيات وتراكت عليه الامراض من كل صوب وكانت هناك امراضاً مزمنة علاجها بحاجة الى وقت طويل وجهد كبير ومن هذه الامراض التي تصدى لها رسول الله (ص) وكافحها اشد مكافحة .

١ - النزعة الفردية ، نشأت النزعة الفردية نتيجة انتقال المجتمع الجاهلي من حالة البداوة الى حالة الحضرة فنمت مع ازدهار الحالة الاقتصادية الانانية والنزعة الفردية وقويت هذه النزعة مع التطور الكبير الذي شهدته تجارة الايلاف التي ربطت مجموعة من القبائل العربية الواقعة على خط سير القوافل بمصالح مشتركة مع المجتمع المكي .

وكان اخطر ما واجهه الرسول أثناء بناء المجتمع الاسلامي هو التخلص

من هذه النزعة وتصفيتها تصفية شاملة لانها تنذر دائما بعودة الحالة الجاهلية فقد حث النبي (ص) على تنمية المشاعر الجماعية وتركيزها مكان النزعة الفردية فقال عمن هو مصاب بهذا الداء . ما آمن بي من بات شبعاناً وجاره طارٍ وما آمن بي من بات كاسياً وجاره عاري^(١) وقال لابي ذر ، يا ابا ذر اياك وهجران اخيك فان العمل لا يستقبل مع الهجران^(٢) وذكر عنه صلوات الله عليه وآله وسلم من اصبح لا يهتم بأمور المسلمين فليس منهم ومن سمع رجلاً ينادي يا للمسلمين فلم يجبه فليس بمسلم^(٣) .

وعن العلاقة مع الجار حرمة الجار على الانسان كحرمة امه^(٤) وقال ايضا لا يؤمن عبد حتى يأمن جاره بوائقه^(٥) .

وخاطب المسلمين يوماً جاءني جبرائيل فقال لي يا احمد الاسلام عشرة اسهم وقد خاب من لا سهم له فيها ، اولها شهادة ان لا اله الا الله والكلمة . . والتاسعة الجماعة وهي الالفة^(٦) .

وحثهم الرسول (ص) لاداء الصلاة في المسجد قائلاً لا صلاة لمن لم يصل في المسجد مع المسلمين الا من يلبه^(٧) .

وكان المجتمع الذي انغمس لفترة طويلة في الانانية وحب الذات بحاجة الى اعادة بناء من جديد وذلك من خلال الممارسة العملية فبالعمل يمكن ان

(١) الكافي: ج ٢ ص ١٠ .

(٢) مكارم الاخلاق: ص ٥٥٤ .

(٣) الكافي: ج ٢ ص ١٦٤ .

(٤) مكارم الاخلاق: ص ١٤٣ .

(٥) مكارم الاخلاق: ص ١٤٣ .

(٦) الوسائل: ج ١ ص ١٤ .

(٧) الوسائل: ج ٥ ص ٣٧٧ .

تزال الترسبات فبالاندماج مع المجتمع يمكن معالجة الانانية وحب الذات ،
فالكلام وحده لا ينفع في علاج بعض الامراض الاجتماعية لكن الكلام يصبح
نافعاً عندما ترافقه الاجواء السليمة فعبّر تلك الاجواء استطاع رسول الله (ص) ان
ينيب تلك النوازع الشيطانية التي لا زالت تعتمل في بعض النفوس حتى يصبح
المجتمع طاهراً معافاً من كل مرض .

٢ -الرق، تعود نشأة الرق الى فترة الحروب التي كانت تدور رحاها في
الجزيرة العربية وفي المناطق المجاورة لها فالذين كانوا يولدون في الاسر
يباعون ويشترون كعبيد هكذا كان حال زيد بن حارثة وصهيب وغيرهما ومع
ظهور عهد الرخاء الاقتصادي في مكة برز الرق كظاهرة اجتماعية خطيرة تهدد
المجتمع بتوارث الحقد والكراهية . ولم يكن من السهل على النبي (ص)
تصفية هذه الظاهرة بصورة سريعة فتجذرها في الحياة الاجتماعية كان يتطلب
زمناً اطول وبرنامجاً شاملاً يعمل على مواجهة هذه الظاهرة من نواحٍ عديدة .

فقد دعى القرآن الكريم المسلمين الى عتق العبيد «فك رقبة» كما وان
رسول الله ما انفك يوماً وهو يعتق العبيد الذين ارتبطوا به اما بالهدية او نتيجة
الحرب واول من اعتقه هو زيد بن حارثة وهو هدية من زوجته خديجة فقد ظل
متعلقاً برسول الله اشد علقه وحتى بعد ان وجده ابوه فضل البقاء مع النبي (ص)
على الالتحاق بأسرته وتمكن الرسول وعبر هذا المنهج ان يحدّ من انتشار هذه
الظاهرة اذ لم يكن من السهل تصفيتها وبصورة نهائية لان ذلك مدعاة لمشاكل
اجتماعية اخرى .

لمواجهة ظاهرة الرق في المجتمع الاسلامي حظر رسول الله على
المسلمين استرقاق المسلم تأكيداً على مفهوم الامة الاسلامية التي يتساوى
ابناؤها ولا فضل لمسلم على اخر الا بالتقوى .

لقد استطاع رسول الله (ص) ان يصفى هذه الظاهرة من الوسط الاسلامي وان ينقذ المجتمع الاسلامي من آثارها الوخيمة اما الرق كظاهرة انسانية فقد عمل الرسول بمثابة لقطع دابرها من خلال الدعوة المكررة الى تحرير العبيد .

٣- الانتقام . . اتسمت العلاقات الخارجية بين القبائل بحالة التوتر الدائم وكان الانتقام يلعب دوراً كبيراً في رسم خريطة العلاقات السياسية في الجزيرة العربية واغلب الحروب الطاحنة التي اندلعت بين القبائل كانت بسبب الانتقام .

وابرز حادثة تذكر في هذا الصدد معركة البسوس التي دامت أربعين عاماً بين قبيلتي تغلب وبكر وكان وراء هذه الحرب الطاحنة حادثة انتقام لمقتل ناقة . فقد كانت هذه الناقة لاحد ابناء جرم يقال لها سراب وقد سكن الجرمي بجوار البسوس بنت منقذ وهي خالة جساس صاحب الابل الكثيرة وكانت سراب ترعى مع ابل جساس وهي في نفس المكان كانت ترعى مع ابل كليب وهو زوج جليلة اخت جساس .

ففي احد الايام كان كليب يتفقد ابله فشاهد ناقة لم يعدها من قبل فسأل عنها ف قيل له انها ناقة جارنا الجرمي فاغتاز كليب وطلب ان لا تعود الناقة مرة اخرى الى هذا المكان . وتجاهل جساس فقال كليب ولم يعد لها اية اهمية فعاد كليب ليهدد هذه المرة بقتل الناقة قائلاً لاضعن سهمي في ضرعها فرد عليه جساس ، لئن وضعت سهمك في ضرعها لاضعن سنان رمحي في لبنك .

واطلعت زوجته بالذي جرى فعملت ما بوسعها لتحاشي الفتنة لكن لم يهدأ غيظ كليب فخرج الى الحمى وجعل يتفقد الابل فرأى الناقة المشؤومة فرمى ضرعها فقتلها فصرخ صاحبها بالذل وسمعت بسوس خالة جساس صراخ جارها فخرجت لترى الناقة ممددة على الارض فوضعت يدها على رأسها ثم

صاحت واذلاه وجساس يراها ويسمع فسارع جساس نحو كليب ليفي بوعده فيرمي كليب برمح فيسقطه من على فرسه ميتاً .

وتقام المآتم على كليب وكانت جلييلة اخت جساس القاتل وزوجة كليب المقتول في المآتم عندما طلب منها ان تغادر المكان لانها اخت القاتل وعادت جلييلة الى بيت ابيها مرة كثيية حزينة وكانت حاملاً بهرجس من كليب .

وكان مَرَّة والد جلييلة وجساس يتحلى بقدر من الحكمة وعلى عادة العشائر القريبة التي بينها صلة رحم تلتقي فيما بينها للفصل فكانت شروط عشيرة كليب صعبة المنال فقد وضعوا مرة امام احد اربعة خيارات اما ان يقتلوا جساس او يقتلوا اخاه هماما او يقتلوه هو او ان يعيد الى الحياة قتيلهم فاجابهم بان جساس قد فرّ وانه لا يمنع من القصاص منه واما همام فانه ابو عشرة وان اصدقائه لن يسلموه بسهولة في قبال جرم لم يرتكبه واما هو فانه يريد ان يقتل في الحرب ولن يتعجل الموت . وعوضاً عن هذه الشروط قدم لهم عرضين الاول ان يأخذوا احد ابنائهم ليقتلوه في قبال قتيلهم او ان يدفع اليهم ألف ناقة . فاستاء القوم من هذا العرض فقالوا له اسأت ببذل هؤلاء وتسومنا اللبن من دم كليب؟ فنشبت الحرب واستمرت اربعين عاماً دمرت القبيلتان تدميراً ولم تخف الا بمقتل جساس ولقته قصة ظريفة تعكس ايضاً حالة العرب قبل الاسلام وكيف كانوا يقدسون الانتقام ويضعوه في الاولوية على كل شيء .

فيواصل المؤرخون تتبع الحادثة الاليمة فعندما تعود جلييلة وهي حامل الى عشيرتها يقوم جساس برعايتها وعندما تلد مولودها يعتبر هذا المولود ولده فيرعى شؤونه ويعامله افضل من معاملة الاب لابنه حتى اذا كبر يزوجه ابنته وينشأ هرجس وهو لا يعرف ابا له غير جساس الى ان اكتشف الحقيقة في حادثة خصام مع رجل من بكر فعيه بابيه فدخل على امه كئيباً فلم ترض ان تخبره شيئاً وحاول ان يعرف الحقيقة من زوجته فانكرت معرفتها بالحادث فحدثت اباها بما ألم

بزوجها . وفي اليوم التالي طلب جساس صهره هرجس واراد ان يطمنه قائلاً له
انما انت ولدي وانت مني بالمكان الذي تعلم وزوجتك ابنتي وقد كانت الحرب
في ابيك زماناً طويلاً وقد اصطلحنا وتحاجزنا وقد رأيت ان تدخل في ما دخل فيه
الناس من الصلح وان تنطلق معي حتى تأخذ عليك مثل ما اخذ علينا فاضطر
هرجس موافقته على ما قاله خاله لكنه كان قد بيت مؤامرة قتله فانتهر فرصة عقد
المصالحة فطعن خاله وهرب الى قومه مضحياً بحياة رغيدة الى جانب زوجته
وامه .

ويمضي مسلسل القتل والانتقام فالطرف الآخر يزال مصراً على الانتقام
وهو لم يكتف بكل تلك الدماء التي سفكت خلال الاعوام الاربعين اذ لا زال
يطالب بالثأر لكليب الذي نخرت عظامه وبلت خلال هذه الاعوام المديدة .
وبعد مقتل جساس كادت الاوضاع ان تهدأ ويعود الصلح والصفاء بين القبيلتين
سيما وان رجلاً حكيماً من بكر قرر ان يضحى باحد اولاده من اجل انتهاء مسلسل
القتل فارسل بابنه بجير الى المهلهل وارسل معه رسالة قال فيها انك قد اسرفت
في القتل وادركت ثأرك سوى ما قتلت من بكر وقد ارسلت ابني اليك فاما قتلت
بأخيك واصلحت بين الحيين واما اطلقته واصلحت ذات البين . فقد مضى ،
من الحيين في هذه الحروب من كان بقاءه خيراً لنا ولكم . فلما وصل بجيرا الى
المهلهل قتله وهو يقول بُؤيشع نعل كليب فسمع الاب بمقتل ابنه فتألم لموت
ولده لكنه فرح بأن السلام والوئام سيعودان الى القبيلتين لكنه عندما سمع بما
قاله المهلهل عندما ساوى بين ابنه وشسع نعل كليب غضب وتفجرت في عروقه
العصية القبلية فنأدى بفرسه وعادت الحرب من جديد ولم تنته الفتنة الا بعد ان
قرر المهلهل مغادرة الوطن الى مكان اخر هو اليمن .

ذكرنا هذه الحادثة بكل تفاصيلها لكي نتبين اولا حالة العرب في الجاهلية
وكيف كانوا يعيشون مغرمين بسفك الدماء لاسبط حادث وكم كان عملاً عظيماً

ما قام به رسول الله (ص) اذ قلب هذا المجتمع على رأسه ليقف على قدميه مع طلوع فجر الاسلام اما الامر الثاني فهو للتدليل على ما كان يكنّه العرب من قدسية للانتقام وكيف كانوا لا يكتفون حتى بأنهار الدم ثمناً. وكيف كانوا يضحون بمصالحهم وعلاقاتهم من اجل تحقيق غاية الانتقام لأنها اقدم عمل يقومون به وثالثاً لكشف مواطن الضعف نتيجة غياب السلطة السياسية فكان على رسول الله (ص) ان يقلع هذه النظرة من نفوس المجتمع الذي دعاه الى الاسلام وان يضع حدا لهذه الظاهرة الخطرة على تماسك المجتمع ووحدته فوضع قانوناً بدل الانتقام هو القصاص في حالة قتل العمد والدية في غير ذلك واستطاع وخلال فترة قصيرة ان يعبد الطريق امام قيم الاخوة الاسلامية وقيم القانون لتحل محل هذه القيمة الجاهلية ، واذا بمعركة بدر الفاصلة اصبح فيها الابن المسلم يقف في جبهة وفي مقابله كان يقف ابوه او عمه وكثير من المسلمين شهدوا مقتل ابائهم كأبي حذيفة الذي شهد مقتل ابيه عتبة ومقتل عمه شيبه ومقتل اخيه الوليد ولم يطرأ في نفسه شيء على قاتلهم وعندما وقف رسول الله (ص) على الحفر التي ووري فيها قتلى قريش اخذ يعدهم باسمائهم يا عتبة يا شيبه يا امية بن خلف هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً؟ فاني وجدت ما وعدني ربي حقاً فلاحت منه التفاتة فرأى تغيراً قد طرأ على وجه أبي حذيفة وكان واقفاً مع المسلمين فقال له لعلك قد دخلك من شأن ابيك شيء فاجابه ابو حذيفة لا والله يا رسول الله ما شككت في ابي وفي مصرعه ولكنه كان له عقل وحلم وفضل وكنت ارجو له الاسلام فلما رأيت ما مات عليه من الكفر احزنني ذلك .

هكذا تحول المجتمع العربي من حرب البسوس الى المستوى الذي اصبح فيه الرجل يشارك في قتل ابيه او اخيه او ابنه فاي تحول عظيم طرأ على هذا المجتمع وأية قوة كانت قادرة على احداث هذا التغيير غير قوة العقيدة والايمان الصادق .

٤ - تحرير المرأة :

لم تكن المرأة في الجاهلية اكثر من سلعة للمتعة واشباع الحاجات الشهوانية وتقديم الخدمة الرخيصة الا بعض النساء اللواتي برزن في التجارة والشعر والادب . فقد شاعت ظاهرة تعدد الازواج وكذلك تعدد الزوجات مما حد له ولا حصر وكان الرجل يجيز لزوجته الاتصال بالرجال الاخرين جنسياً من اجل انجاب الاولاد . وكانوا ينظرون اليها كمتاع تورث كما تورث تركة الميت فكان من حق الوارث التصرف بها كيفما يشاء فمن حقه الزواج منها او تقديمها الى من يشاء وكانت عادة وأد البنات امرأ شائعاً بين العوائل الثرية والفقيرة فكانت النظرة الى المولودة نظرة ازدراء واحتقار فاذا ما بشر احدهم بالانثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ايمسكه على هون ام يدسه في التراب فكان الاب يتقدم بنفسه ليحفر لفلذة كبده حفرة ويلقي بها بيديه الاثنتين ويهيل عليها ركاماً من التراب وهي حية .

وكان في بعض الحالات يتعين على الام ان تقوم بهذا العمل تنفيذاً لاوامر الزوج . وهذه العادة لوحدها تعطي معلما واضحا على الطبيعة الهمجية للمجتمع الجاهلي وعلى النظرة القاتمة التي كان يرى المرأة من خلالها . ويمكننا القول ان المجتمع الجاهلي الذي حدد للمرأة هذه المكانة المنحطة ليس فقط يتسم بالعجز حيث نصفه مشلول عن الحركة . فوجود المرأة عمليا له اثر فاعل على حركة المجتمع . المنتظمة .

والوضع المأساوي الذي كانت تعيشه المرأة في الجزيرة العربية كان احد أسباب فقدان ذلك المجتمع لحالة التوازن فهو لم يكن مجتمعا طبيعيا كالجسم الذي يفقد لأحد أجزائه .

من هنا فان اعادة المرأة الى مكانتها ليس فقط لمصلحة المرأة بل

لمصلحة المجتمع ايضا إذ سيعود اليه التوازن وتتكامل فيه الاجزاء وهذا ما قام به الاسلام عندما اعاد للمرأة كرامتها وعزتها وجلالها ووضعها في مكانها المناسب . .

فقد صرح القرآن ﴿ ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف ﴾ .

وخاطب رسول الله المسلمين قائلاً لهم « خيركم خيركم لنسائه » وكان أول ما قَدِّم لهذا الكائن هو مساواته بالرجل فجاء في القرآن ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ﴾ مساواة في القيمة والمنزلة ومساواة في المسؤولية والجزاء قال الله تعالى . .

﴿ فاستجاب لهم ربهم اني لا اضيع عمل عامل منكم من ذكر او انثى . . . ﴾ .

لقد انتشل رسول الله المرأة من الحضيض الذي كانت فيه وكان بسلوكه اول من يترجم النظرية الاسلامية في المرأة من خلال علاقاته بزوجاته وبناته ، فقد كان يقبل يد ابنته فاطمة تكريماً لها واجلالاً واحتراماً^(١) بعد ان كان العرب يدسون ببناتهم في الرمال ويدفنونها وهي حية . . واهتمام الاسلام بالمرأة نابع من اهتمامه بالمجتمع فالمرأة الصالحة تبني مجتمعاً صالحاً ولم تكن أية خطة في اصلاح المجتمع مجدية ان لم تبدأ بأصلاح الخلية الاجتماعية وذلك باعادة المرأة الى مركزها الطبيعي كأم وزوجة وابنة .

(١) رواه الحاكم في المستدرک عن عائشة، وذكره صاحب أعيان الشيعة، في المجلد الاول: ص ٣٠٧.

وقد أوجد هذا المنعطف تحولاً كبيراً في وضع المرأة فأصبحت ذات مكانة وقوة يحسد عليها بعض الرجال وقد شهد التاريخ الاسلامي نماذج رائعة من النساء اللواتي ضرين ارواح الأمثلة في الشجاعة والجرأة وفي العلم والتربية وفي الايثار والتضحية وفي الاستقامة والصبر ولم يكن ليحدث هذا التحول الكبير لولا تلك التغييرات الفكرية التي انجزها الاسلام والتي نقلت المرأة من القاع الى القمة .

٥ - ارساء دعائم نظام الأسرة . .

قام نظام الأسرة في بعض مناطق جزيرة العرب سيما في المدينة على قاعدة الانتساب الى الأم فكثيراً ما يحدثنا التاريخ عن أشخاص ينتسبون الى امهاتهم ويعود السبب في وجود النظام الأمي الى مفاهيم المجتمع الجاهلي نحو الزواج والطلاق فقد كان هذا المجتمع يجيز للمرأة الاتصال بعدة رجال في آن واحد فكان يصعب على الولد معرفة والده الحقيقي فجرت العادة أن يحمل نسب أمه او ان تختار الأم نسباً من بين ازواجها المتعددين . . وتنشأ المشكلة ايضا في حالة الزواج من شخص آخر فتلد مولوداً لا تعرف بالضبط لمن هو هذا المولود للزوج الأول او الثاني .

وقد الغى الاسلام النظام الأمي بصورة آلية عندما وضع حدوداً وضوابط للزواج والطلاق . . فالمرأة لا يحق لها ان تتزوج اكثر من رجل واحد في وقت واحد وعندما تطلق لا يحل لها الزواج الا بعد ان تقضي فترة العدة وهي فترة وضعت لتقصي ذبول الزواج الأول فيتبين خلال هذه الفترة الكافية لتشخيص وضع المرأة حامل كانت او لا وبذلك قلب الاسلام نظام الاسرة من النظام الأمي الى النظام الأبوي وهو نظام كان قائماً قبل الاسلام في بعض مناطق الجزيرة العربية .

ومع هذا التحول الذي شهده نظام الأسرة اخذت الاسرة كمؤسسة اجتماعية تنمو نمواً طبيعياً فأصبح توزيع الوظائف والمسؤوليات داخل هذه المؤسسة يجري بصورة طبيعية .

فقد منح الاسلام قيمومة الأسرة بيد الرجل فأصبح المسؤول عن رعاية هذه المؤسسة من الناحية الاقتصادية والفكرية والتربوية ومن ناحية أخرى أصبح مسؤولاً عن أمن الأسرة وبذلك ضمن الإسلام وعبر هذا التغيير وحدة هذه المؤسسة الاجتماعية وعدم تصدعها وتفاعلها في بحر المجتمع الكبير ، وضمن الحفاظ عليها وتوفير الحماية لأفرادها .

وبذلك استطاع الاسلام أن يُرسي على أسس قوية اللبنة الرئيسية في المجتمع وبقدر ما كانت هذه اللبنة سليمة وقوية ومنيعه من الانحراف كان المجتمع سليماً وقوياً ومنيعاً ايضاً .

وللحفاظ على سلامة هذه المؤسسة وضع الإسلام موانع في طريق العلاقات الزوجية المنحرفة فمنع الزواج من بنت الأخ وبنت الأخت ومنع الجمع بين الأختين وكذلك منع الأبناء من الزواج من زيجات آبائهم بعد وفاتهم وهي انواع من العلاقات الزوجية كانت معروفة ومتداولة في جزيرة العرب .

اما تعدد الزوجات فقد أقرت لمواجهة المشاكل الاجتماعية والاقتصادية التي كانت تسببها الحروب . . فهو اسلوب أقره القرآن الكريم لمواجهة حالة الصراع الدائم بين الإسلام والكفر الذي يستنزف اعداداً مستمرة من الرجال . . وكان من الطبيعي ان تظهر مشكلة اجتماعية عقب الزواج وتركه لزوجته ، فلم يكن سبيلاً لحل هذه المشكلة سوى تعدد الزوجات ولا عجب ان تنزل الآية ﴿ وان خفتم الا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، فان خفتم الا تعدلوا فواحدة ﴾ بعد معركة أحد التي خلفت

سبعين شهيداً من بين المسلمين .

فقد كان رسول الله (ص) يعد المجتمع للمواجهة المستمرة فكان لا بد من التخطيط السليم لمعالجة آثار هذه المواجهة على الأسر التي تفقد معيها واغلب زوجات النبي (ص) وبقية الصحابة هنّ من تلك النساء اللواتي فقدن أزواجهن في المعارك . . وقد اشترط القرآن العدالة في حالة التعدد لكي تبقى العلاقة الزوجية محتفظة بمقوماتها الأساسية ومتجهة نحو أهدافها الحقيقية .

واذا شعر الرجل بأدنى عجز في توفير العدالة فانه لا يسمح له بتعدد الزوجات .

٦ - توطيد السلام . .

تتجلى دقة المنهاج الاجتماعي للرسالة الاسلامية انها غيرت معادلات المجتمع التي كانت تؤدي به الى التطاحن والفوضى الى معادلات اصبحت تتحكم بأجزاء المجتمع لتؤدي به الى حصيلة نهائية هي السلام .

وكأننا أمام صيدلاني يخلط المواد الكيماوية بنسب متفاوتة ليصنع منها الدواء الشافي وهذا بالضبط ما فعله رسول الله (ص) عندما باشر بتغيير سمات المجتمع الذي كان سائداً بحذف بعض الصفات وزرع القيم مكانها وترسيخ الفضائل وتحريم بعض الممارسات والتأكيد على بعض الأفعال وادار عملية التغيير هذه بصورة دقيقة وبتتابع رائع كانت حصيلتها هو السلام وهو ما كان يهدف اليه من التخطيط وقد استخدم الرسول (ص) كل أدوات التغيير لاجداث التحول الاجتماعي من مستوى الفوضى الى درجة التجانس والتكامل فاستخدم النصيحة الكلامية وكان القدوة لأبناء المجتمع في ترسيخ الفضائل والصفات الحميدة ونبذ الصفات الرذيلة ولم يتغافل عن تأمين حد معقول من الدخل لكل عائلة كل هذه الوسائل كانت تفعل فعلها في المجتمع الذي كان يتحول تدريجياً

الى مجتمع السلام وهو القمة الذي تتكامل فيه أجزاء هذا المجتمع فيعم أرجاءه السلام والمحبة والصدق والاخلاص .

وهي الوسائل التي تبعث الحياة في المجتمع فتدفعه الى الحركة وتضع اتجاهها لهذه الحركة وهو تحقيق السلام والاستقرار .

على هذه القواعد أقام الرسول (ص) مجتمعاً اسلامياً منيعاً واستطاع عبرها ان يزيل تراكمات الجاهلية وان يستبدل الرذائل بالفضائل .

وبذلك استطاع الرسول (ص) ان يؤدي الانجاز الكبير الذي تحقق في المدينة وهو تحويل الطليعة الاسلامية الى أمة اسلامية مترابطة على أساس الايمان .

أمة متكونة من أفراد يتربطون اجتماعياً فيما بينهم برابط الاخوة ويتربطون فكرياً على الاستلهام الموحد من معين القرآن الكريم .

ويتربطون عمودياً بقمة الهرم برابط الأسوة الحسنة المتمثلة بكتل الفضائل المتمركزة في شخصية النبي (ص) .

ثانياً . . تنمية الثروة الاقتصادية :

شرع رسول الله (ص) ببناء الدولة الاسلامية في المدينة ومعضلة المهاجرين ترمي بثقلها على عاتق القيادة .

فهؤلاء المهاجرون قد تركوا أموالهم ومنازلهم وحلوا ضيوفاً على اهل المدينة ولم يكن من المعقول ان يظلوا عالة على الأنصار لفترة أطول اكثر من فترة الضيافة المعهودة، فأول ما فكر به الرسول هو ايجاد حل لهذه المعضلة قبل ان يشرع بارساء دعائم النهضة الاقتصادية . . اذ لم يكن من الممكن بناء مجتمع سعيد وفيه هذا التفاوت أناس يملكون البساتين والمزارع هم الأنصار وآخرون

معدومون لا يملكون شيئاً ولحل هذه المشكلة توسل الرسول (ص) كما مرّ سلفاً بأسلوب ذكي هو اعلان المؤاخاة بين الانصار والمهاجرين وكانت اخوة حقيقية تشمل حتى الارث .

والناظر الى المجتمع المدني يومذاك يلاحظ ان هناك فائضاً في الثروة بسبب التقدم الزراعي الذي شهدته المدينة في فترة السلم . . وفي نفس الوقت يلاحظ العوز والاحتياج في الجانب الآخر فكان على الرسول ان ينقل هذا الفائض الى الفقراء حتى لا يبقى محتاج في المجتمع . . وكانت هذه هي الخطوة الثانية في السياسة الاقتصادية التي انتهجها الرسول لاعادة بناء الاقتصاد المدني في ظل تواجد المهاجرين فقد صرح قائلاً (من كان عنده فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له)^(١) .

ومن كان عنده زاد فليعد به على من لا زاد له^(٢) .

والفضل كل شيء زائد من المال او المتاع او الطعام . . .

وبعض المسلمين ممن كان له عدة زوجات قرر ترك احدى زوجاته لمن لا زوجة له من المهاجرين فهو قد اعتبر اكثر من زوجة واحدة فضل .

وكانت تلك الخطوة الاولى على طريق التكامل الاجتماعي .

ولم يكتف رسول الله (ص) بتوجيه الأنصار نحو العطاء والكرم لأن وجود هذا العطاء هو حل مؤقت بينما الهدف هو بناء اقتصاد متين قائم على ركائز قوية . . ففي الطرف الآخر دعى رسول الله (ص) المهاجرين الى النزول

(١) عن ابي سعيد الخدري ، معالجة الاسلام لمشكلات الاقتصاد، ابراهيم الغويل: ص ٤٨ .

(٢) نفس المصدر السابق .

الى ميادين العمل وحاول ان يحوّل الطاقة العاطلة عن العمل المتمثلة بالمهاجرين الى طاقة انتاجية تؤدي بازديادها مع القدرات الاقتصادية المتاحة للأنصار الى قيام نهضة اقتصادية .

فقد جاء عنه (ص) (من كانت له أرض فليزرعها فان لم يزرعها فليمنحها أخاه) . . نقله جابر بن عبدالله الأنصاري .

وجاء على لسانه عبارات شبيهة (من كانت له أرض فليزرعها ، فان لم يستطع ان يزرعها وعجز عنها ، فليمنحها اخاه المسلم ولا يؤجرها اياه) .

وبهذه المقولة وضع رسول الله (ص) حجر الأساس للخطوة الثالثة للسياسة الاقتصادية وهي احياء الأرض الموات .

فالأرض للانتاج وعلى الانسان ان يعمل عليها فاذا فضل قسم من الأرض لم يستطع العمل عليها يمنحها لمسلم آخر ليقوم هو بالعمل عليها .

وقد مهدت هذه السياسة الطريق لاستثمار كافة الاراضي الصالحة للزراعة في المدينة المنورة .

ومن طرف آخر منع استيجار الارض لأن من يريد العمل عليها لم يكن ليملك ما يدفع به ثمن الايجار وقد شجعت هذه الخطوة الحكيمة فئات كثيرة من المهاجرين على الانخراط في الانتاج الزراعي وقد شهدت المدينة خلال فترة وجيزة نهضة زراعية كبرى كما ورد في كتب السير والتأريخ كل ذلك بفضل المنهاج القويم الذي سلكه النبي (ص) في ارساء دعائم البناء الاقتصادي . . ونجد ايضا هذا الحث في الخطب الاولى التي توج بها رسول الله (ص) بناء المجتمع الاسلامي :

« اما بعد أيها الناس فقدموا لأنفسكم تعلمن ، والله ليصعقن احدكم ثم

ليدعن غنمه ليس لها راع ، ثم ليقولن له ربه ألم يأتك رسولي فبلغك وأنتك مالا وأفضلت عليك فما قدمت لنفسك فليظنن يمينا وشمالا فلا يرى شيئا ثم لينظرن قدامه فلا يرى غير جهنم ، فمن استطاع أن يقي وجهه من النار- ولو بشق تمره - فليفعل ومن لم يجد فبكلمة طيبة فانها تجزي الحسنة عشرة أمثالها الى سبعمائة ضعف ..»^(١) .

فقد وضع النبي (ص) في المدينة الخطوط العامة للنظام الاقتصادي الذي أخذ يتشعب بمرور الزمن وبازدياد الحاجات الحياتية ونلمح من هذه البادرة التي قام بها الرسول (ص) ضوابط عديدة استهدفت تنظيم مصادر الثروة بحيث تصبح الثروة أداة محرّكة للاقتصاد والاتجاه الذي يكفل سعادة أبناء المجتمع .

فالاقتصاد الاسلامي يوصل المجتمع الى العدالة في مختلف ميادين الحياة على عكس ذلك الاقتصاد الذي كان سائداً في الجزيرة قبل الاسلام فقد كان يركز على تثبيت مراكز اصحاب الاموال من ارباب التجارة والعقار والذي كان يؤدي بهذا المجتمع في نهاية المطاف الى الاحتكار والربا وتحكم المظاهر السلبية بتلابيب المجتمع .

وعند تقصي معالم الاقتصاد الاسلامي في العهد المدني نجد انفسنا امام عدة ضوابط اقامها الاسلام كسد منيع أمام تبذير الثروة منها تحريم الربا ، فقد حدد الاسلام طرقا مشروعة لكسب الثروة وعلى رأسها العمل ورفض الاعتراف بالطرق الاخرى التي كانت سائدة في المجتمع ومنها الربا لأن الربا كسب سهل ليس عن طريق عمل مؤثر في الحياة الاقتصادية وهو ما يريده الاسلام .

واذا عرفنا ان معظم الأرباح الناجمة عن الربا تذهب لجيوب غير المسلمين وهم اليهود عندك سندرك المغزى السياسي والاقتصاد لتحرير الربا مع

(٢) المصدر، اقتصادنا: ص ٣٠٤ .

اول حركة لتنظيم الهيكل الاقتصادي فقد نزلت هذه الآية الكريمة :

﴿ فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم ، بصددهم عن سبيل الله كثيراً واخذهم الربا وقد نهوا عنه ﴾ . . وقد أدى الغاء الربا الى خروج زمام الاقتصاد في المدينة من ايدي اليهود الى أيدي المسلمين الأمر الذي منحهم فرصة إعادة تنظيم الحياة الاقتصادية على أسس اسلامية بعيدة عن مركز القوة الاقتصادية اليهودية ، فقد دفع الاسلام الحياة الاقتصادية بعيداً عن الربا أو المقومات التي تنتهي الى الربا معتبراً الربا مرضاً يصيب الجسد الاقتصادي لأية أمة فقد ورد في القرآن الكريم ﴿ يحقق الله الربا ﴾ فليس للربا اي مردود اقتصادي نافع وكان قد تفشى في جسد المجتمع الجاهلي بحيث اصبح له اشكالا وصوراً مختلفة وذا تفرعات عديدة لا تشمل فقط المال بل الارض والسلع الانتاجية ايضا .

وقد روى عبدالله بن مسعود عن النبي (ص) الربا ثلاثة وسبعون باباً أيسرها . . مثل ان ينكح الرجل أمه وان اربى الربا من الرجل المسلم ، والحديث ينوه عن الآثار الاجتماعية العظيمة التي تظهر نتيجة انتشار الربا .

واوقف الرسول (ص) التعامل بالمخاطرة التي كانت رائجة في عهد قبل الاسلام وقد جاء عن زيد بن ثابت . . نهى رسول الله (ص) عن المخاطرة قلت : وما المخاطرة؟ قال : ان تأخذ الارض بنصف او ثلث او ربيع فالاسلام يريد للزارع ان يهنأ بمحصوله وان يصبح مالكاً للارض التي أحيها فهذا هو السبيل لربط الانسان بالأرض ودفعه للعمل عليها ، اما العمل على قاعدة المخاطرة او العقود الملغاة الشبيهة بها كالعينة واللامسة والمزابنة والمحاولة فهي لا تشجع على ايجاد هذه العلاقة وبالتالي لا تزيد من الانتاج بل تعرقل مسيرة الانتاج من هنا سارع الرسول الى الغائها .

وحرم على المسلمين شرب الخمر وتعود أسباب تحريم الخمر الى عوامل

اجتماعية فهو يُوقع العداوة والبغضاء بين الناس ، كما جاء في الآية الكريمة بينما يريد الاسلام ان يبني مجتمعاً نظيفاً خالياً من العقد والعداوات ومن ناحية اخرى هناك ابعاد اقتصادية لتحريم الخمر فهو شراب كان يستورد من الشام والعراق وتكلف تجارته مبالغ طائلة حتى يصل الى أيدي المستهلك في المدينة ومكة كما وان الربح من هذه التجارة هو التاجر الوثني الذي يقوم بعملية الاستيراد .

فجاء تحريم الخمر ضربة اقتصادية موجعة لهؤلاء التجار بالاضافة الى انه وفر الكثير من الاموال التي كانت تُبذر على هذه المادة .

وبعد اقامة السدود المنيعه منح رسول الله (ص) الحياة الاقتصادية دفعة قوية من خلال ربطه للحلقتين الاقتصاديتين الانتاج والبيع فقال (ص) (عمل الرجل بيده وكل بيع مبرور) وذلك عندما سؤل (ص) اي كسب اطيب .

فكلما بذل المسلم من عرقه وجهده هو اقرب الى الايمان والاسلام وأطيب شيء يتناوله الانسان هو ان يأكل ما انتجته يده وبنفس هذا الاحساس يبيع ناتجه لا لكي ينتفع بالربح بل لكي يسدي لبني جنسه اجل خدمة .

فالاقتصاد في خدمة المجتمع هذا هو المبدأ الذي سعى لتطبيقه رسول الله (ص) بعد ان كان المجتمع في خدمة الاقتصاد في بعض حواضر جزيرة العرب . . فهو يندفع نحو العمل من اجل رخاء المجتمع وليس اسعاد نفسه فقط ، فقد كانت اقواله (ص) تستثير فيهم الهمم . . طلب الحلال فريضة على كل مسلم ومسلمة . . ومن أكل من كد يده نظر الله اليه بالرحمة ثم لا يعذبه أبداً . . ومن اكل من كد يده حلالاً فتح له ابواب الخير يدخل من ايها يشاء . . وجاء في الروايات ان الرسول (ص) رفع يوماً يد عامل مكدود فقبلها تقديراً للعمل .

واخذ رسول الله (ص) بعد ان ازال التراكمات يوجّه نظاره نحو تنظيم الحياة الاقتصادية بصورة تكفل حركة المجتمع نحو الرقي والتقدم ، فوضع قاعدة للتبادل على أساس عملة موحدة بعد ان كان التعامل الاقتصادي يتم على اساس تبادل بضاعة بأخرى .

فقد روى ابو سعيد الخدري ان رسول الله (ص) استعمل رجلاً على خبير فجاءه بتمر جنيب فقال رسول الله (ص) أكل تمر خبير هكذا فقال لا والله يا رسول الله انا لنأخذ الصاع من هذا بالصاعين والصاعين بالثلاثة فقال رسول الله (ص) لا تفعل بع الجمع بالدرهم ثم ابتع بالدرهم جنياً .

فيفهم من هذا الحديث ان تبادل البضاعة كان شائعاً فمنعه رسول الله ووضع عوضاً عنه اسلوب جديد في التعامل هو العملة . . وفي بعض الأحيان كان يتم التبادل بين البضاعة الواحدة في مستويات مختلفة من الجودة .

فعن ابي سعيد الخدري ايضا ان بلالاً جاء الى النبي (ص) بتمر فقال النبي من اين هذا؟ قال بلال كان عندنا تمر رديء منه صاعين بصاع .

فقال له النبي (ص) أو عين الربا لا تفعل ، ولكن اذا اردت ان تشتري ضع التمر ببيع آخر ثم اشتر به وبهذه الخطوة حرر رسول الله (ص) الحياة الاقتصادية من قيود كثيرة وبعث النشاط في شرايين التجارة الداخلية فأصبح لا يقلق على بضاعته لأنه سيبيعها في مقابل ثمن وليس في مقابل بضاعة يحتاجها و لا يجد فيها حاجته ، لقد احدثت هذه الخطوة فقرة نوعية في النظام الاقتصادي في المدينة المنورة وجعلته يسير بحركة ثابتة وقوية نحو تكميل الحلقات الأخرى للعملية الاقتصادية .

ومن الخطوات الأخرى في تنظيم الحياة الاقتصادية اقرار رسول الله (ص) المكيال لأهل المدينة كما وانه أقر الميزان لأهل مكة وتتجلى الحكمة في هذا

القرار ان اهل المدينة ينتجون الحبوب والتمور وهي تحتل مساحة واسعة من نشاطهم الاقتصادي بينما تعتمد الحياة الاقتصادية في مكة على المنتجات المستوردة من الخارج وهي توزن بميزان فقال رسول الله الميزان ميزان اهل مكة والمكيال مكيال اهل المدينة^(١) .

الخزينة . .

وقد جرت العادة في الجزيرة العربية ان يقبض رئيس العشيرة ربع ارباع عشيرته وجاء الاسلام ليلغي هذه الضريبة التي لم يكن ليستفيد منها سوى شخص واحد ، وُسِّنَ نظاماً للضرائب يكفل اقامة خزينة الدولة .

فالدولة التي لها خزينة مملوءة بالأموال أقدر على تنفيذ برنامجها على صعيد اسعاد البشر . . وقد اولى رسول الله (ص) اهمية كبيرة لانشاء خزينة مالية للدولة تستطيع ان توفر الاحتياجات المستمرة ، وشرع رسول الله (ص) في توفير السيولة المالية بالدعوة الى الانفاق وقد حث القرآن الكريم المسلمين على الانفاق في آيات كثيرة .

﴿ وما تنفقوا من خير يوف اليكم وانتم لا تظلمون ﴾^(٢) .

﴿ وما لكم الا تنفقوا في سبيل الله ﴾ .

﴿ فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير ﴾^(٣) .

﴿ قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ﴾^(٤) .

(١) رواه جمع من المحدثين، رواه ابو داود، والنعماني، والدارقطني، وغيرهم . .

(٢) سورة البقرة، الآية : ٢٧٢ .

(٣) سورة الحديد، الآية : ١٠ .

(٤) سورة الحديد، الآية .

فهناك بالاضافة الى ما تقدم عشرات الآيات القرآنية التي ورد فيها الحث على الاتفاق بهذا اللفظ وبألفاظ أخرى .

ومن جانب آخر منع الاسلام اكتناز الاموال ﴿والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعباب أليم﴾^(١) فالفائض يجب ان ينفق في سبيل الله .

وقد وعد القرآن الكريم المنفقين اجراً كبيراً ﴿ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون واديا الا كتب لهم ...﴾ .

ومع نمو الثروة وزيادة الانتاج شرع الاسلام ضريبة الزكاة على الارض وعلى النقود وعلى الثروة الحيوانية وشرع الخمس على الارباح وبها وضع الاسلام اسس الخزينة المالية التي اصبحت الممول الأول لمشاريع وبرامج الدولة بالاضافة الى سد العجز في دخل الافراد الفقراء فقد كان رسول الله يدفع من بيت المال الدية عمن لا يمتلك الاموال اللازمة .

واخذ النظام الاقتصادي يتطور مع تشعب النشاط الاقتصادي وبالاتجاه المتجانس مع تطور الاوضاع ليحفظ لهذا المجتمع العدالة والمساواة فقد جاء عن الرسول (ص) ما جاء فقير الا بما متع غني فقد اقام رسول الله (ص) اروع نظام اقتصادي يقوم على اساس معالجة مشكلة الفقر اما بالتحريض على العمل او بحل المعضلات الاجتماعية المانعة عن العمل او ما شابه .

لقد بنى رسول الله (ص) مجتمع الغنى عندما رفع مستوى الفقير الى مستوى الغني فهو القائل :

نعم العون على تقوى الله الغنى ، بعكس النظام الاشتراكي الذي يعمل

(١) سورة ابراهيم، الآية : ٣١ .

على ازالة الفوارق بين الفقير والغني بجعل الغني فقيراً وتكون النتيجة هو المجتمع الفقير لا الغني ، وبذلك استطاع الاسلام ان يوجد قوة ذاتية في هذا المجتمع يمكنه من اداء مسؤوليته التاريخية بين الأمم ، فالاقتصاد القوي يمكن المسلمين من مواصلة العمل لاجتثاث جذور الوثنية والشرك ليس في جزيرة العرب وحسب بل في العالم بأسره .

ثالثاً . . الاستعداد العسكري :

لم يك بدا من الصراع فالاسلام دين التحرر والثورة على القيم والاعراف الجاهلية وكان من الطبيعي ان يقف الكفر كله في مواجهة الاسلام حاملاً الدعاية والسلاح والقوة .

كان المستقبل واضحاً امام رسول الله فالكفر سوف لا يتهاون مع الرسالة الاسلامية واذا استطاع الاسلام ان يخرج من مكة سالماً بالاساليب الحكيمة واذا تمكن رسول الله (ص) ان ينجو من ايدي المشركين بالمعجزة فان هذا الوضع سوف لا يستمر الى الابد اذا لم يستعد المسلمون الاستعداد الكافي كان على المسلمين ان يحسبوا حساب ذلك اليوم الذي ستقدم فيه قريش للقضاء على الاسلام فالايام القادمة ايام عصبية وهي تحمل في طياتها مفاجآت كثيرة واحتمالات عديدة كان لا بد من الاستعداد لها والا فان مصير هذا الكيان مهدد بالخطر فلقد شاءت ارادة الله ان تجري الامور بأسبابها وكان بمقدور هذه الارادة ان تؤمن الحماية الكافية للمسلمين وان تتحمل عنهم اعباء الدفاع والمواجهة مثلما حدث ذلك في مواقع كثيرة حيث تدخلت فيها ارادة الله لحسم الموقف لصالح الاسلام . . لكن شاءت ارادة الله ان تصبح هذه الجماعة قدوة لأية جماعة اخرى وتأخذ على عاتقها مسؤولية الرسالة وتتقدم لحمل الراية فكان على هذه الحركة ان تمضي في طريقها بصورة طبيعية لتخزن في اعماقها تجربة رائدة

تبقى آثارها لآخر الزمن .

كان على الجماعة ان تنهياً للصراع المرير مثلها مثل النبتة التي تشق طريقها بعنت بين الحصى والتراب من اجل ان تخرج من باطن الارض الى السماء فالنبتة التي لا تقاوم التربة تقبر حتى النهاية ولا يرى لها من أثر .

ومنذ ان شعر رسول الله (ص) باستحالة البقاء في مكة أخذ يخطط لمرحلة المواجهة المنتظرة فاختره ليثرب مكاناً لاقامة الدولة كان يحمل مؤشراً بأن صراعاً مريراً ينتظر الدولة فالمقومات الجغرافية للمدينة تمنحها القدرة والمقاومة وتحصنها ضد الهجمات الخارجية .

وبعد تعيين الارض كان لا بد من تأسيس العلاقة بين افراد الجماعة على مبدأ المواجهة والصراع وكان ذلك بداية لارساء القوة العسكرية للكيان الاسلامي .

بيعة على الجهاد

اذا ما تتبعنا تطور نشوء الجماعة الاسلامية في المدينة للاحظنا تزايد عدد المسلمين في فترة البيعة الأولى فعمل رسول الله (ص) على تغيير اسلوب البيعة في العقبة الثانية فطلب من المسلمين ان يمنعونه بما يمنعون به نساءهم وابناءهم ، فمدّ البراء بن معرور يده الى رسول الله (ص) قائلاً . . بايعنا يا رسول الله فنحن والله ابناء الحروب واهل الحلقة ورثناها كابرا عن كابر .

ووقف العباس بن عباد ليقول . .

يا معشر الخزرج اتعلمون علام تباعون هذا الرجل؟ انكم تباعونه على حرب الاحمر والاسود من الناس فان كنتم ترون انتم اذا نهكت اموالكم مصيبة واشرافكم قتلاً اسلمتموه فمن الآن فدعوه فهو والله ان فعلتم خزي الدنيا والآخرة وان كنتم ترون انكم وافون له ما دعوتموه اليه على نهكة الاموال وقتل الاشراف

فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة .

فأجاب القوم : انا نأخذه على مصيبة الاموال وقتل الاشراف فما لنا يا رسول الله ان نحن وفينا بذلك؟ فردّ عليهم النبي (ص) قائلاً : الجنة^(١) فبايعوه بأجمعهم على ذلك .

وكانت تلك بداية التهيئة لفصل جديد من تاريخ الحركة الاسلامية وظهرت نتيجة هذا الاستعداد سريعاً . . فعندما احس المسلمون المجتمعون الى رسول الله (ص) انهم مراقبين من قبل الاعداء وقف العباس بن عباد ليقول لرسول الله (ص) والله الذي بعثك بالحق ان شئت لنميلنّ على اهل منى غدا بأسيفنا فقال لهم لم نؤمر بذلك ولكن ارجعوا الى رجالكم فرجعوا الى مضاجعهم .

وبهذه البيعة وضع رسول الله (ص) حجر الأساس لبناء قوة مقاتلة مهمتها حماية الدين في قبال ثمن باهظ هو الجنة . . ويتجلى في هذه الخطوة البعد السياسي والروحي فالمرحلة القادمة هي مرحلة مواجهة حقيقية بحاجة الى اناس على استعداد لتحمل اعباء المسؤولية القتالية وهو الاسلوب الافضل لاقامة كيان سياسي للأمة الإسلامية ولردع من يحاول النيل من هذا الكيان اذ سيصبح لهذا الكيان ثقلًا سياسياً بما يمتلك من قوة عسكرية اما في مقابل ما يبيده المسلمون من جهاد وتحمل للمسؤولية فانهم سينالون الجنة . . من هنا فان حمل السلاح في الاسلام هو لتحقيق غايات نبيلة وليس لتحقيق اهداف شخصية او مصلحة قبلية او منفعة قومية .

الهدف من الجهاد هو الخير وهو السبيل الى الجنة فبقدر ما تتضمن خطوة

(١) هيكل، حياة محمد: ص ٢٠٥ .

البيعة من توجيه سياسي تتضمن ايضاً توجيهاً روحياً يشد من عزيمة المسلمين ويعضد من اصرارهم على المواجهة طالما كان الثمن الذي سيقبضونه هو الجنة .

٢ - تحالف سياسي على مواجهة الأعداء :

وقد جاء دستور المدينة الذي ابرمه الرسول (ص) مع القبائل العربية واليهودية ليرسم معالم التحالف السياسي الذي يستهدف بالدرجة الأولى اهل المدينة بكافة قبائلهم وأديانهم في مواجهة اي عدوان خارجي فجاء في الصحيفة وان بينهم النصر على من حارب اهل هذه الصحيفة والمقصود بهم اليهود والمسلمين معاً .

فقد كانت من اولويات المواجهة تحديد هوية الصراع فالمعركة الفاصلة هي مع الوثنية المكية التي اعتدت على المسلمين وسلبت منهم اموالهم فكان على المسلمين ان يقيموا وهم يتأهبون للمواجهة التحالف مع الجماعات الاخرى او على الاقل تحييدها ووضعها خارج خارطة الصراع عند وقوع المواجهة فكانت هناك قوى غير اسلامية ليس بالضرورة وضعها في خانة الأعداء طالما كانت هناك امكانية التحالف معها او تحييدها على الاقل ، كاليهود مثلاً .

فكانت الصحيفة بما تضمنته من دعوة للتحالف العسكري والسياسي مع اليهود خطوة رائدة نحو توظيف الاهتمام بالعدو المباشر والرئيسي وهو الوثنية المكية ، وبغض النظر عن الجماعات الاخرى التي لا تشكل خطراً على الجماعة الاسلامية او حتى التعاون مع هذه الجماعات وعقد الاتفاقية معها .

وانتهج الرسول (ص) هذه السياسة في كافة مراحل الصراع فقد كانت دائماً هناك قوى مضادة مائة بالمائة وقوى تختلف في عداثها فلم يكن الرسول يعاملها بصورة مساوية بل كان يعمل على تجميد خلافاته مع بعض الجماعات

المضادة له من اجل التفرغ للعدو الرئيسي . . نلاحظ هذه السياسة في الاسلوب الذي انتهجه النبي (ص) مع العدو الداخلي المنافقين وتجميده الصراع مع المكين في صلح الحديبية لرد كيد المعتدين اليهود الذين اوغلوا في خيانتهم للعهود والمواثيق فكان صلح الحديبية مقدمة لفتح خيبر . . ففي وقت ما جمد الرسول (ص) الصراع مع اليهود ليصرف اهتمامه في المواجهة مع الوثنيين المكين وبعد عشر سنوات نجد المعادلة المعكوسة حيث جمد النبي (ص) صراعه مع الوثنيين ليتوجه لحرب اليهود .

وهذا يؤكد لنا ان الاسلام كان يواجه في كل فترة قوى متباينة في عداؤها واهدافها المبيتة ضد الاسلام وعلى أساس هذه النوايا كانت تتحدد مواقع هذه الفئات في خارطة الصراع السياسي والعسكري .

٣ - التسليح والتدريب :

وجد المسلمون في المدينة فرصة لتطوير كفاءتهم العسكرية مستجيبين للقرآن الكريم ﴿ واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ﴾ فالاستعداد يقتضي توفير الامكانيات العسكرية من السيوف والرماح والسهام ويقتضي ايضا التدريب على انواع الاسلحة وبالأخص التدريب على الرمي .

فقد جاء في الاخبار ان رسول الله (ص) ارسل الى اليمن من يشترى الاسلحة وكان بين المسلمين من هو متخصص في صناعة السيوف والرماح هو خباب بن الارت والشرط الاهم من توفير الاسلحة هو استخدامها والتدريب عليها فقد وجه الرسول (ص) جل اهتمامه منذ وصوله المدينة على تدريب أتباعه على فنون القتال فكان يشجع المسلمين على هذا العمل فكان ينادي بين صفوف المتدربين واعدوا لهم ما استطعتم من قوة الا ان القوة الرمي ، الا ان القوة الرمي ، الا ان القوة الرمي ، وكان يشجع المسلمين على الفروسية قائلاً :

الخيـل معقود في نواصيها الخير الى يوم القيامة .

وكان ايضا يدفع المسلمين الى التخصص في رمي السهام قائلاً « من رمى بسهم في سبيل الله فهو عدل رقبة محررة » .

وتشجيعا لصناعة الاسلحة وحمل النبل على المقاتلين قال (ص) ان الله عزّ وجلّ ليدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة ، صانع يحتسبه في عمل الخير والرامي به ومنبله . .

ولم يكتف الرسول بتشجيع القتال البري بل ايضا شجع على ممارسة التدريب والقتال في البحر ايضا فقال (ص) « غزوة في البحر خير من عشر غزوات في البر والمائد فيه كالمتشحط في دمه ومن أجاز البحر فكأنما أجاز الاودية جميعاً » وذلك لأن ظروف الصراع العسكري على المدى البعيد كانت تحتم على المسلمين استخدام كل الوسائل المتاحة وطرق كل الابواب فأهداف المستقبل هو تأمين استراتيجية عسكرية في البر والبحر، فالبحر هو العائق الوحيد الذي يفصل بين الجزيرة وبعض الدول المجاورة .

ودعوة الرسول (ص) لغزو البحر يعكس مدى وعمق النظرة المستقبلية للرسول الأكرم . حيث حدثت بعد عشر سنوات أو أكثر معارك في الضفة الاخرى من البحر انتهت بتحرير مصر وشمال افريقيا وبعض الجزر في البحر المتوسط . . ولا ريب ان الفضل في الانتصارات المتلاحقة في جبهة البحر كما في جبهة البر يعود بالدرجة الاولى الى الدعائم الاولى التي وضعها رسول الله لتكوين قوة برية وقوة بحرية متدربة على افضل فنون القتال . وكان المسلمون يتخذون من المسجد مكانا للتدريب على السلاح وكانوا يذهبون الى الجبال للتدريب على التهـديـف فقد شاهد رجل في اطراف المدينة عقبة بن عامر يحمل السلاح ويمارس التهـديـف راكضاً من مكان الى مكان فسأله (تختلف بين هذين الموضعين وانت

شيخ كبير؟ فأجاب الشيخ لأمر سمعته من رسول الله (ص) قال ما ذاك أجب الشيخ سمعته يقول من تعلّم الرمي ثم تركه فليس منا وبالرغم من ان بعض المسلمين كانوا من اهل القتال والحروب الا ان غالبيتهم كانوا من العبيد والمستضعفين الذين لم يجدوا فرصة لتعلم فنون القتال تحت ظل الجاهلية المكية فهؤلاء كانوا بحاجة ماسة الى اعادة تدريبهم على افضل صورة حتى يتمكنوا من مواجهة قريش المتدربة على أحسن فنون القتال والمسلحة بأفضل الاسلحة الفتاكة .

٤ - التعبئة المعنوية :

منذ ان وطأة قدماء اخذ رسول الله (ص) يشد الهمم ويرفع من وعي المسلمين ليصبحوا بمستوى المواجهة المباشرة مع الوثنيين . . اذ كانت هناك عقبات نفسية تحول دون تحقيق هذه المواجهة فهناك التهيب من قريش فأغلبية المسلمين اما عبيد او أجراء للسادة يعيشون في مكة فلم يكن من السهل دفع هؤلاء المستضعفين لمواجهة سادات الأمس . . وكان أمراً حتمياً ايضاً ان يحارب الأخ أخيه والابن اخيه اذ كانت العوائل لا زالت متداخلة فكانت عملية التعبئة بحاجة الى حشد من التوجيه المركز حتى يرتفع هؤلاء المستضعفين لمستوى المواجهة ويصبحوا على استعداد للدخول في حرب ضارية مع من كانوا ينظرون اليهم اسايادا لهم بالامس او مع اقربائهم او ابناء عشيرتهم .

ومنذ البدء اخذ رسول الله يركز الفكرة الجهادية في أذهان المسلمين وقد رافق هذا التوجيه حشد من الآيات القرآنية التي كانت تنزل كجرعات معنوية تهباً الجسد لمواجهة المعركة الفاصلة مع المكروب فقد نزلت اول آية تمنح الاذن للمسلمين بالقتال بعد ان تبين مبررات هذا القرار يقول القرآن الكريم ﴿ اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير ، الذين اخرجوا من

ديارهم بغير حق الا ان يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوي عزيز ، الذين ان مكناهم في الارض اقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور ﴿ ثم بعد ذلك نزلت الآية الكريمة ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله . . ﴾ ثم تعاقبت الآيات التي شدت من العزائم وأزالت الحواجز النفسية المانعة للقتال . . ﴿ قل ان كان آباؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم واموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومسكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ .

وفي مجال تقوية القلب وازالة المخاوف وبعث الاطمئنان الى النفوس قال ربنا عزَّ وجلَّ ﴿ الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم ايمانا . . ﴾ .

وعن مصير من يقتل جاء القرآن بما يثبت القلب ويثير الطمأنينة في النفوس ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم . . ﴾ واخذ الرسول يردد نفس هذا المعنى قائلاً للمسلمين :

« جاهدوا في سبيل الله فان الجهاد باب من ابواب الجنة ينجي الله به من الهم والغم » .

وزادهم طمأنينة بمصير من يُقتل ان الله تعالى يقول : « ما من عبد من عبادي خرج مجاهداً في سبيلي الا ضمنت له ان ارجعه مأجوراً غانماً . . او شهيداً اغفر له وارحمه وادخله الجنة » .

اما من يتطوع في تمويل القوة العسكرية فانه ينال أضعاف ما بذله في

سبيل الله « من ارسل نفقة في سبيل الله فله بكل درهم سبعمائة درهم » وقال ايضا : « من اعان مجاهداً في سبيل الله أظله الله يوم لا ظل الا ظله » .

اما من يصبه الأذى في المواجهة .. والأذى على درجات ومقابل كل درجة هناك ثواب « من اغبرت قدماه في سبيل الله حرهما الله على النار » .. « ومن جرح في سبيل الله ختم له بخاتم الشهداء له نور يوم القيامة ويأتي جرحه له لون الزعفران وريح المسك يعرفه بها الأولون والآخرون ويقولون فلان عليه طابع الشهداء » .

اما المجاهد الذي يبذل دمه وماله ..

« والذي جاهد بنفسه وماله حتى اذا لقي العدو قاتله حتى يقتل فذاك الشهيد الممتحن خيمة الله تحت عرشه ولا يفضلُه النبيون الا بدرجة النبوة .

والعمل العسكري له أنشطة مختلفة ولكل موقع أجر وثواب .. وقد شجع الرسول (ص) المسلمين على اقتحام كل المواقع .

ففي المراقبة والاستطلاع قال رسول الله وهو يشجع المسلمين نحو هذا العمل « حرمت النار على عين سهرت في سبيل الله » .

اما العمل خلف الجبهة فيقول الرسول (ص) :

« من مات ولم يفز او يجهز او يخلف غازياً في اهله بخير اصابه الله بقارعة قبل يوم القيامة » ، اما رباط يوم واحد فيقول (ص) رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها ومقام احدم في سبيل الله خير من عبادة احدم في سبيل الله ستين سنة .

وهناك حشد كبير من الاحاديث والآيات توجد الدافع للتقدم الى صوح الجهاد ، وقد أعطى هذا التوجيه المركز ثماره في بدر عندما اصطف

المستضعفون والعبيد في قبال اسياد قريش وحمل الابناء على الآباء فكانت معركة فاصلة انتصر فيها اصحاب القيم والمثل الذين حاربوا بقوة ايمانهم وانهزم فيها الاسياد والوجهاء لأنهم حاربوا بسلاح القوة المادية فقط فلم ينتصروا بها لأنها غير كافية لتحقيق شرايط النصر .

٥ - السرايا :

بعد ان استقر بالمسلمين المقام في المدينة وبعد ان أرسى رسول الله (ص) أسس بناء القوة العسكرية أخذ وبعد ثمانية أشهر من استقراره في المدينة يبعث بالسرايا وهي مجموعات مقاتله تتألف من عدد من المقاتلين يقودهم شخص واحد متميز بكفاءته العسكرية والهدف من ارسال السرايا امور عديدة اهمها :

١ - تعويد المسلمين على حياة الجندية وتعويدهم على الانتظام في مجموعات عسكرية وتربيتهم على الطاعة الصارمة والكتمان . . فقد ارسل عبدالله بن جحش ومعه اثني عشر من المهاجرين وكتب رسول الله كتاباً وأمره الا ينظر فيه قبل مسيرة يومين فيمضي لما أمره الرسول به ولا يستكره من اصحابه احدا . وبعد يومين فتح عبدالله الكتاب السري وقرأ ما فيه :

اذا نظرت في كتابي هذا فأمضي حتى تنزل بوادي نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارها . . وبعد ان قرأ الكتاب التفت الى اصحابه وقال لهم ، قد أمرني الرسول (ص) ان امضي الى نخلة ارصد بها قريشا حتى آتية منهم بخبر وقد نهاني ان استكره احدا منكم ممن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينبلقى ومن كره ذلك فليرجع فاما انا فماض لأمر رسول الله . . فأجابه اصحابه جميعا ومضوا حتى نزلوا بنخلة . . فمرت بهم قافلة قريش تحمل تجارة لمكة فهاجموها وقتلوا احد افرادها وهو عمرو بن

الحضرمي وأسروا اثنين آخرين وقفلوا عائدين بالبضائع والأسيرين الى المدينة . . وعندما عرف الرسول (ص) بما جرى عنف المجموعة لأنها تخطت الأوامر التي كانت تقتضي فقط رصد الاخبار وليس القتل وفي شهر حرام فقال لهم ما أمرتكم بقتال في الاشهر الحرم وأوقف التصرف بالاموال والأسيرين وابى ان يأخذ من ذلك شيئاً .

وتتجلى في هذه القضية امور تعليمية هامة . . الأمر الاول ، التدريب على الكتمان باستخدام الرسائل السرية وهو اسلوب جديد لم يتعوده العرب من قبل وهو اسلوب ذو اهمية قصوى في مباغته الاعداء وكان على المسلمين ان يتعودوا الحالة الجديدة من خلال الممارسة العملية .

فكانت مرحلة السرايا هي افضل فترة لتعلم اصول الحرب وفنونها ويظهر من هذه القضية ايضاً التدريب على الطاعة اذ كان الخطأ الذي ارتكبته المجموعة بقتلها احد المشركين في الشهر الحرم وتعنيف الرسول لها درساً بليغاً للمسلمين بقي مفعوله على مدى طويل من المعارك التي خاضوها .

وهنا ننتقل الى الهدف الثاني من انشاء فرق السرايا وهي :

٢ - الكشف عن الثغرات ومعرفة نقاط الضعف فالسرايا كانت حروب صغيرة من شأنها ان تشكف عن نقاط الضعف ان وجدت ثم معالجة هذه النقاط حتى تصبح المجموعة قادرة على الدخول في المعركة في المرة القادمة ، فقد كانت هذه المناوشات بمثابة مناورات حية وهي ضرورية للجماعة التي تستعد لمواجهة طويلة وممريرة وكان يلحظ خلال فترة المناورة سلوك أفراد المجموعة ومقدار شجاعتهم وتضحياتهم سيما وان الطريقة التي اتبعت في التعبئة هي طريقة طوعية فالفرد له الحرية الكافية في البقاء في المجموعة المقاتلة او الانصراف وكان رسول الله (ص) يختار لقيادة هذه المجموعات اشخاص أكفاء

كحمزة بن عبد المطلب وعبيدة بن الحارث وفي احدى المرات خرج بنفسه على رأس المجموعة .

٣ - رصد تحركات المشركين فقد كانت قريش تتحين الفرص للانقضاض على المدينة بقصد غزوها والسيطرة عليها فقد كان الهدف من ايفاد سرية حمزة هو رصد تحرك قوة مكية متركبة من ثلثمائة جندي. بزعامه ابي جهل بن هاشم . . فأكثر السرايا التي بعثها رسول الله كانت لمراقبة التحركات العسكرية لمشركي مكة الذين كانوا يبعثون باعداد كبيرة من المقاتلين لتهديد أمن المدينة المنورة .

٤ - اشعار المشركين بيقظة المسلمين وانهم عارفون بتحركاتهم مما سيعرقل مساعيهم في تهديد الكيان الاسلامي . . فلربما طمع المشركون بالقضاء على المسلمين وتضعيف دولتهم لولا وجود هذه التحركات التي كانت تنم عن قوة ويقظة قلبت المعادلة في اذهان المشركين . فبدلا من التعرض للمسلمين اصبح المشركون همهم الاول والاخير هو تجنب المواجهة لما يشكل ذلك من خطر على خطوط التجارة .

٥ - تهديد خط التجارة وفرض الحصار الاقتصادي بعد سلب حالة الامن من القوافل الذاهبة والقادمة من مكة . . وهذا هو الهدف الاستراتيجي من كل تلك المناورات التي قاربت في تعدادها سبع واربعين سرية . . فالهدف لم يكن القتال كما هو واضح من كلام رسول الله لمجموعة بن جحش بل الهدف هو عرقلة الحركة التجارية وعبر هذا الهدف استطاع المسلمون ان يصيبوا المشركين في القلب فقد أدت هذه المناوشات الى تذبذب في الحياة الاقتصادية في مكة والى تضرر مصالح اصحاب الأموال والصفقات التجارية .

ان تهديد هذه المصالح كان هو الهدف وليس القتال لأن عصب الحياة كانت قائمة على هذا الطريق الذي لا بد وان يمر عبر المدينة في كل الاحوال ،

وكان هذا الطريق هو مصدر ارتزاق لأهل مكة حيث كانت منتجات الحبوب القادمة من الشام تصل مكة عبر هذا الطريق فقد أحدث الحصار الاقتصادي أزمة غذائية في مكة ولم تتمكن الطرق الاخرى من تأمين النقص في المواد الغذائية .

وقد مهدت هذه المناوشات فعلا للحرب الطاحنة حيث دفعت بقريش الى وضع قضية المسلمين موضع الجد وطرحت امرها للقضاء على الكيان الاسلامي الذي استشرى آثاره .

٦ - مد جسور التحالف الى القبائل العربية القاطنة على الطريق الاستراتيجي الموصل بين الشام ومكة فقد عقد المسلمون معاهدات حسن جوار وعدم اعتداء مع بني ضمرة وبني مدلج وقد نصت هذه المعاهدات على بنود هامة على رأسها عدم الاعتداء بين الطرفين وان لا ينضم احد الطرفين في حلف مضاد للطرف الآخر وان لا يساعد هذا الطرف اعداء الطرف الآخر .

وبهذه التحالفات ضمن رسول الله عدة أمور الأول تأمين المنطقة الاستراتيجية المحيطة بالخط التجاري القرشي امام النشاطات العسكرية للقوة الاسلامية . . والثاني هو الحيلولة دون تمكن قریش من الزحف نحو المدينة بقصد احتلالها لأن مثل هذه الخطوة لا يمكن أن تتم بدون مساعدة القبائل القاطنة حول المدينة فقد اقامت هذه التحالفات شريطاً آمناً حول بعض مداخل المدينة فأصبحت هذه القبائل بمثابة الانذار المبكر لأي هجوم قد تتعرض اليه المدينة بالاضافة الى امكانية الاستفادة من هذه القبائل في صد اي هجوم خارجي .

٧ - كانت هذه المناوشات بمثابة رسالة الى من يُحدّث نفسه بضرب المسلمين من الداخل . فقد كانت الجبهة الداخلية في تلك الفترة قلقة بسبب

التواجد اليهودي المكثف في المدينة فاحتمالات حدوث التمرد وانتهاز الفرص لتوجيه الضربة الى الكيان الاسلامي قائمة .

ومن المبادئ التي التزم بها رسول الله هو ان لا يبدأ احد بالقتال بل على عكس ذلك عمل على مد جسور السلام والود مع كل جماعة ومنها اليهود وانه غير عارف بما يخططون له .

فلقد كانت الظروف كافية لكشف ما يطنه اليهود ضد الاسلام والمسلمين فالعلاقات الهشة بينهم وبين المسلمين لم تكن لتستطيع ان تصمد أمام أطماعهم سيما وان تطور بناء الدولة الاسلامية جاء معاكساً لأفكارهم وتطلعاتهم الاقتصادية . . ولم يكن اسلوب الموعظة مجدي بهؤلاء الذين ظلوا يعملون في الخفاء للاطاحة بالاسلام فلم يكن امام الرسول (ص) الا ان يتوسل بالقوة ليظهر دولته بالمظهر اللائق حتى يتجنب مؤامرات اليهود ودسائسهم فكانت هذه المناوشات بمثابة المناورة العسكرية لكبح جماح المتآمرين من اليهود الذين كانوا يتطلعون للحظة ضعف يصاب بها المسلمون ليبدأوا بتنفيذ دسائسهم وحيلهم ، فقد استطاعت هذه المناورات ان تؤمن الحد المناسب من الحالة الأمنية في المدينة وان تلغى ولو لوقت محدود وقصير اي مخطط تأمري يعمل اليهود الى تنفيذه ضد المسلمين .

ثالثاً: مرحلة الانتشار

وأخذ الاسلام بالانتشار في جزيرة العرب بعد التوقيع على صلح الحديبية فقد مكنَ هذا الصلح المسلمين من التوسع بين القبائل اعطاهم فرصة التفرغ لنشر الدعوة الاسلامية فأخذ النبي (ص) يرسل الرسائل والمكاتب الى زعماء الدول والقبائل داعياً اياهم الى اعتناق الاسلام فأرسل الى هرقل ملك الروم وكسرى ملك فارس والمقوقس في مصر والنجاشي في الحبشة وارسل الى عامل كسرى في بلاد اليمن وكتب الى ملك اليمامة وملك عمان وقد أجاب كل واحد من هؤلاء بجواب خاص .

فقد مزق ملك فارس رسالة النبي وبعث الى عامله على اليمن يأمره بأن يلقي القبض على النبي (ص) وبيعته اليه برأسه ، اما هرقل فلم يعبأ برسالته واعتقد انها لا تشكل خطراً عليه ولم يوافق على طلب الحارث ملك الغساسنة في تجهيز جيش للقضاء على النبي (ص) اما المقوقس فقد كان رده جميلاً وارسل مع الرسالة الجوابية هدية جاريتين وبغلة بيضاء وحماراً ومقداراً من المال فقبل النبي (ص) هديته ، اما النجاشي فقد كان رده جميلاً حيث لبي دعوة النبي وأمن برسالته اما حكام اليمامة وعمان فلم يرفضوا دعوة النبي (ص) وأسلم

بعض امرائهم كالمنذر بن ساور العبدى واصبح داعية للاسلام وكتب رسالة الى النبي (ص) تتضمن هذا المعنى فأجابه النبي (ص) برسالة أخرى وجعله عاملاً له على منطقته .

وتعززت حركة الدعوة وتضاعف انتشار الاسلام بعد فتح مكة حيث أزيح بسقوط قلعة الوثنية أكبر عقبة عن طريق الدعوة الاسلامية فأخذت القبائل تدخل في دين الله أفواجا كما جاء في القرآن الكريم في سورة النصر : ﴿ اذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا ﴾ فأول من آمن به بعد قريش خزاعة التي كانت حليفة معه لفترة من الزمن .

وما ان عاد النبي (ص) الى المدينة بعد فتح مكة وبعد غزوة حنين حتى كانت الوفود تترى عليه من كل حذب وصوب وكان ذلك في السنة التاسعة للهجرة والتي حملت اسم عام الوفود لكثرة ما ورد على الرسول من اطراف الجزيرة من القبائل والرسائل التي يعلن فيها أصحابها ايمانهم بالاسلام .

وكان أول وفد قدم المدينة هو وفد ثقيف وهو يتشكل من ستة أعضاء هم زعماء قبيلة بني يسار ، بني سالم ، بني الحارث وبعد كلام طويل ومفاوضات شاقة أعلن هؤلاء الستة اعتناقهم للاسلام ثم عادوا الى الطائف ومعهم المغيرة بن شعبة وأبي سفيان فكلفا بهدم اللات وجاء من لم يسلم من بني تميم فأرسلوا أشرافهم الى النبي (ص) ودخلوا المسجد ونادوا من وراء الحجرات ان أخرج الينا يا محمد فنزلت الآية ﴿ ان الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ﴾ وطلبوا من خطيبهم أن يقوم فيتفاخر بقومه فانتدب النبي (ص) ثابت بن قيس ليرد على خطيبهم وحسان بن ثابت ليرد على شاعرهم وفي النهاية أسلموا وأعلنوا العذر والطاعة للنبي (ص) ، وجاءته بني المصطلق ايضا وأكدوا اسلامهم واستعدادهم لدفع الزكاة .

وجاءه وفد بني عبد القيس برئاسة الجارود بن عمر فأسلم هو وأصحابه
وجاء عدي بن حاتم الطائي فأسلم بعد ان أقنعه النبي (ص) بالاسلام .

وأوفدت قبيلة بلى والداريين (من لخم) وسلامان وغسان وبني أسد
ممثلين عنها وجاءوا الى النبي (ص) يقولون يا رسول الله قدمنا من قبل ان ترسل
الينا رسولا .

وقدم عمرو بن معد يكرب ومعه جماعة من قبيلة من بني زيد فأسلموا
وقدم فروة بن مسيك المرادي فأسلم فولاه النبي (ص) قبائل مراد وزبيد ومذحج
وجاء الى النبي (ص) سرد بن عبدالله الأزدي ومعه وفد ازد فأسلموا فولاه
النبي (ص) على قبيلته وقدم وفد من كندة يتراوح عددهم ثمانين شخصا بزعامه
الأشعث بن قيس فأسلموا .

وأرسل ملوك حمير كتاباً الى النبي (ص) يعلنون فيه اسلامهم .

ومن العشائر الأخرى التي قدمت المدينة وأسلمت قبيلة بهراء ، وبني
البكاء وبني فزارة وبني سعد ومحارب والرهاويين وعبس طيء وبني عامر بن
صعصعة ، وكانوا يُختارون الوفود من وجوه القبيلة وشخصياتها وتحل في ضيافة
النبي (ص) خلال فترة بقاءها وتوكل الشؤون الثقافية المتعلقة بأعضاء الوفد
بخالد بن سعيد حتى يصبح كل عضو في الوفد داعية الى الاسلام ، وعندما كان
يجد النبي ضرورة في ارسال المبلغين كان يبعث معهم من يعلمهم أمور دينهم .

وبعض القبائل التي لم ترسل وفدا عنها كان الرسول (ص) يبعث صحابته
اليها من أجل افهامها الإسلام فبعث المهاجر بن أبي أمية الى صنعاء ومالك بن
نويرة الى بني حنظلة والزبرقان بن بدر الى بني سعد وزيايد بن ليبيد الانصاري
الى حضرموت ، وعلي بن أبي طالب الى اليمن^(١) .

(١) ابن هشام : ص ٣٧١ .

وأخذ الاسلام ينتشر بين القبائل المسيحية في الشمال والجنوب ووجد طريقه الى الفرس فأسلم باذان حاكم اليمن وهو فارسي تابع لدولة فارس ولم يبق في جزيرة العرب فئة لم تؤمن الا القليل فكان لا بد من الانتقال الى مرحلة متقدمة من الدعوة بالتحرك في المناطق المحيطة بجزيرة العرب وقبل تدشين هذه المرحلة كان لا بد من توحيد الجزيرة تحت لواء نظام الاسلام والاعلان عن نهاية الشرك فنزلت سورة البراءة والتي وضعت حدا للفتنات المشركة فاما ان تقبل بالاسلام نظاماً وعقيدة واما ان تغادر جزيرة العرب موطن الاسلام لأنها لا تستحق حق المواطنة ويستثنى من هذه القاعدة أهل الكتاب الذين يدفعون الجزية والمجموعات التي لها عهد مع المسلمين لمدة محددة وظلت ملتزمة بعهداها .

وكان الهدف من ذلك هو تهيئة الأمة الاسلامية وتهيأة الدولة الاسلامية التي أصبحت تشمل جزيرة العرب برمتها نحو الانطلاق الى العالم الخارجي ونقل الدعوة الى الشعوب الأخرى وعند هذه المرحلة كان التحاق النبي (ص) الى الرفيق الأعلى لكن الدعوة ظلت تواصل زحفها على القلوب بعد النبي (ص) حتى وصل صداها الى قلب القارات الثلاث آسيا ، أوروبا ، أفريقيا .

مقومات الدولة الإسلامية

هل أقام الاسلام دولة ؟

الذين روجوا لفكرة فصل الدين عن الدولة حاولوا أن ينبشوا في دهاليز أفكارهم ما يثبتوا به ان رسول الله (ص) لم يفكر في اقامة دولة لأن رسالته لا تتعدى حدود العقيدة والخلق .

وتمكنت هذه الأفكار التي روج لها المستشرقون في اذهان بعض الكتاب المسلمين الذين أخذوا بدورهم يرددون هذه النغمة على هذا اللحن منهم صاحب كتاب الاسلام واصول الحكم الشيخ علي عبد الرزاق ، وهو احد قضاة المحاكم الشرعية ومن علماء الازهر وقد ترجم كتابه الى اللغة الانكليزية ليتخذة الاعداء حجة على المسلمين بأن فيهم من يعتقد بأن الإسلام دين وليس دولة .

والمتصفح لكتاب الإسلام واصول الحكم لا يجد فيه شيئاً جديداً سوى ما جرى على ألسنة المستشرقين والغربيين وانطلاقهم في تفسير حركة الاسلام من خلال فكرة فصل الدين عن الدولة ، فقد ذكر المؤلف ان ولاية الرسول على قومه ولاية روحية منشؤها ايمان القلب وخضوعه خضوعاً صادقاً يتبعه خضوع الجسم .

وولاية الحاكم ولاية مادية تعتمد اخضاع الجسم من غير ان يكون لها بالقلب اتصال ويستلهم الكاتب هذه الفكرة من افكار الغربيين في فترة الصراع الديني الذي نشب في اوربا بين الكنيسة والدولة والذي أدى الى انفصال الكنيسة عن الدولة .

ولو تجرد المؤلف من تلك الافكار ودقق قليلاً في طبيعة الرسالة الاسلامية وأهدافها لما أعطى لنفسه هذا الحق بأن يقول ما قاله في كتابه وان يهدف تلك الهفوة الكبرى .

فالاسلام ليس كالمسيحية ، الاسلام ليس دين القلب وليس مجموعة وصايا وقيم اخلاقية وحسب وليس الهدف من الاسلام فقط هو تصحيح عقائد الانسان .

الهدف الذي جاء من اجله الاسلام هو بناء الانسان ليصبح لبنة لبناء المجتمع ثم بناء الدولة السعيدة . . كيف ذلك . . ؟

أول ما ابتداء الاسلام ببناء قاعدة عقائدية قائمة على التوحيد ونفي كل شيء ما عدا الله تبارك وتعالى ونفي غير الله يقتضي الاقرار بحاكمية الله ليس فقط على ارواح الناس بل على أبدانهم ايضاً لانه خالقهم .

وقام الاسلام ايضاً باعادة بناء المجتمع على اخلاق فاضلة والاخلاق غير محصورة في القلب الاخلاق هي السلوك والتعاون الحسن مع الآخرين في النواة الصغيرة الاسرة وهي المحيط الأوسع المجتمع والاخلاق تمتد الى الوضع الاقتصادي والوضع السياسي والوضع الاجتماعي . . فهناك علاقة كبيرة بين الاخلاق وبين النظام الذي يحكم الناس فمن غير الممكن ان يعبر الاسلام اهتمامه للأخلاق وينسى تنظيم شؤون الناس في المجال الاقتصادي والسياسي .

ومن المستحيل ان يهتم الاسلام باخلاق دون ان يقيم مجتمعاً صالحاً . .
فأية اخلاق حميدة يمكن لها ان تعتمد في مجتمع منحرف .

من هنا فإن الاسلام يهتم بالعقيدة وتقويم السلوك ويهتم بارساء أسس
قوية للعلاقات الاجتماعية وهذا ما ننتج من الآية الكريمة ﴿ قل تعالوا أتل
ما حرم ربكم عليكم ان لا تشركوا به شيئاً وبالوالدين احساناً ولا تقتلوا اولادكم
من اطلاق نحن نرزقكم واياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا
تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ولا تقربوا
مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا
نكلف نفساً إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ،
ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون وان هذا صراطي مستقيماً فاتبعون ولا تتبعوا
السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلك وصاكم به لعلكم تتقون ﴾ .

فالاسلام من خلال هذه الآية ليس عقيدة وحسب بل ايضاً تعامل بين
البشر وعلاقات اقتصادية علاقات في مجال التبادل التجاري وادارة شؤون الناس
في القضاء وكان لا بد لهذا الدين ان يواجه متاعب ممن يخالفوه فكان عليه ان
يواجه مكاره الدهر ويقاوم محاولات الاعداء في تصفيته والقضاء عليه ولا يتحقق
ذلك إلا بايجاد سلطة مركزية تعمل على اقامة قوة عسكرية من الناس المنتمين
اليها وتعمل على توفير الاموال الكافية لصرفها في شؤون التسليح والقتال وتعمل
ايضاً على ابرام معاهدات مع الفئات التي هي اقل خطراً من الفئات المحاربة
وهذه هي خصائص الدولة وقد غابت هذه الحقائق عنمن تجرأ وقال بأن الاسلام
دين لا دولة وان الرسول (ص) لم يقم حكماً ولا دولة .

وحتى استناداً لآخر النظريات في نشوء الدولة وتطورها ومقوماتها نجد عند
تطبيق تلك الشروط التي تضعها النظريات على الوضع الذي أسسه
الرسول (ص) لوجدنا ايضاً اننا سننتهي ايضاً الى الاستنتاج السابق ان الرسول

اقام دولة في المدينة وهذه حقيقة استنتجها ايضاً جمع من المستشرقين من امثال مونجمري وات مؤلف كتابي محمد في مكة ومحمد في المدينة الذي اقام بحثه على فكرة الاسلام دين ودولة .

عناصر الدولة :-

تجمع معظم النظريات السياسية بان الدولة هي كيان سياسي واطار لتنظيم حياة الجماعة الساكنة على قطعة ارض فالدولة هي سلطة تمارس سيادتها على ارض محددة يقطنها شعب متميز بخصائص معينة فهل كانت هذه العناصر متوفرة في الكيان الذي أقامه الاسلام ؟ سنعرف الاجابة على هذا السؤال من خلال الشرح الوافي لهذه العناصر الثلاثة التي كانت تتركب اجزاء الدولة الاسلامية .

وليس الهدف من البحث القادم هو الاستدلال على وجود دولة اسلامية في عهد الرسول (ص) بل الهدف هو فهم طبيعة هذه العناصر وطبيعة العلاقة العضوية التي تربط بين أجزائها والتي من خلالها ستتعرف على طبيعة الدولة الاسلامية في عهد الرسول (ص) والتي يجب ان تصبح قدوة حسنة لكل الدول الاسلامية القائمة اليوم .

العنصر الأول .. السلطة ..

وتقسم السلطة الى قسمين الأول القيادة .. ثانياً الاجهزة التنفيذية ..
وحديثنا عن القيادة يتركز على الشخصية القيادية لرسول الله (ص) وكيف
كان يمارس سلطاته وما هو منهجه السياسي في تطوير قدرات المجتمع ليصبح
مجتمعاً قوياً مثالياً .

أ - الرسول القائد :

كانت جزيرة العرب في القرن السابع الميلادي تفتقر الى القدوة
الصالحة ، وكان الانسان الذي ارهقته الجاهلية طامياً الى الفكر المنقذ والى
الانسان الذي يجسد هذا الفكر بسلوكه وبطريقة تفكيره فالفكر وحده لم يكن
قادراً على تغيير مجتمع رزح لأمد طويل تحت ثقل الجاهلية والخرافة بل كانت
هناك ضرورة وجود من يُجسد هذا الفكر فيساعد أبناء ذلك المجتمع على
التمسك به كان المجتمع بحاجة الى قدوة من طراز اعلى فهو مجتمع مكبل
بالاغلال مصفد بالتراكمات وبالخرافات فأية قدوة تستطيع ان تضع أمام هذا
المجتمع المثل الاعلى في السلوك الصالح والتفكير النير ؟ .. بالطبع لم يكن

هناك انسان بقادر ان يحمل تلك الوصفة التاريخية غير سيدنا محمد بن عبد الله (ص) الذي أصبح بشخصيته وبخلقه وبعامله الانساني مرتكز التغيير الاجتماعي في المجتمع الجاهلي .

فبالخلق القويم والشخصية المثالية استطاع رسول الله (ص) ان يُغير المجتمع اكثر من اي شيء آخر .

فالناس تستهويهم دماثة الخلق وتسحرهم الشخصية القوية وتؤثر فيهم القدوات الانسانية سيما في المجتمعات المتأخرة حيث يبحث كل واحد طريقاً للرفي فيجد في القدوة الصالحة الطريق الرحب للصعود فيأخذ بتقمص السلوك والأفكار من القدوة .

ولأن الاسلام بأفكاره ومناهجه يتناقض مع الجاهلية بدرجة مائة وثمانين فكان لا بد وان تتجسد تلك الافكار في انسان حيّ ينبض بالحياة وإلا فإن الفكر يظل فكراً مجرداً ما لم يُجسّد في الانسان حتى لو كان فكراً عملاقاً . فالرسول (ص) كان المُجسّد لاول للرسالة الاسلامية فكان خلقه القرآن فكان القرآن الناطق كما يصطلح عليه (ص) .

فبسلوكه وخلقه استطاع الرسول (ص) ان يقرب مفاهيم الاسلام الى الانسان الجاهلي ويجعله مؤمناً بتلك الأفكار والمفاهيم .

فكان التأثير بشخصية النبي (ص) والسمعة الطيبة التي كان يمتلكها في الوسط الاجتماعي هي الجسر بينه وبين قلوب الناس فكان يصب من افكاره الى تلك الأوعية فتتولد نماذج انسانية رائعة .

فالجيل الاول من المسلمين تربى في احضان القدوة الصالحة فكان أصلب عوداً وامضى شكيمة .

ونجد من المناسب ان يكون مدخلنا الى فهم شخصية الرسول من خلال

فقد كان في الدرجة الرفيعة من الخلق السامي كان كما ورد في مناقب آل ابي طالب الذي أورد بعض صفاته جمعها بعض العلماء والتقطها من الاخبار كان النبي (ص) احكم الناس واحلمهم واشجعهم واعدلهم واعطفهم لم تمس يده يد امرأة لا تحل واسخى الناس ، لا يثبت عنده دينار ولا درهم فان فضل ولم يجد من يعطيه ويحنه الليل لم يأو الى منزله حتى يتبرأ منه الى من يحتاج اليه وكان يجلس على الأرض وينام عليها يأكل عليها وكان يخصف النعل ويرقع الثوب ويفتح الباب ويحلب الشاة ويعقل البعير فيحلبها ويطحن مع الخادم إذا اعيأ ويعود المرضى في اقصى المدينة يجالس الفقراء ويؤاكل المساكين ويناولهم بيده ويكرم اهل الفضل في اخلاقهم ويتألف اهل الشرف بالبر لهم يصل ذوي رحمه من غير ان يؤثرهم على غيرهم إلا بما أمر الله ولا يجنو على احد ، يقبل معذرة المعتذر اليه ، لا يرتفع على عبيده وامائه في مأكلا ولا ملبس ولا يأتيه احد حر أو عبد أو أمة إلا قام معه في حاجته لا فظ ولا غليظ ولا صحاب في الاسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يغفر ويصفح يبدأ من لقيه بالسلام ومن رامه بحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف . . وكان لا يجلس اليه احد وهو يصلي إلا خفف صلاته واقبل عليه وقال ألك حاجة . . وكان يجلس حيث ينتهي به المجلس .

وبالاضافة الى ضرورة تحقق القدوة الصالحة في شخصيته هناك أبعاد اخرى جعلت من شخصية الرسول (ص) في القمم العالية من الصفات الحميدة والفضائل ، من هذه الابعاد انه عاش في وسط اجتماعي هو احلك ما يكون في ظلام الجاهلية والرذيلة والخرافة فكان عليه ان يبذل ما أودعه الله له من امكانية وقدرة لاصلاح ذلك المجتمع فتغير المجتمع الجاهلي لم يكن بمقدور احد إلا من على استعداد لتحمل الصعاب والألام والاهانات ولم يكن حتى بين الانبياء

من يطبق ذلك الوضع الاجتماعي الذي عاشه رسول الله (ص) والذي عمل على تغييره واستبداله بنموذج انساني قل نظيره في التاريخ البشري ولم يكن ذلك ليتحقق إلا على يد ذلك النبي العظيم الذي وهبه الله تلك الصفات العظيمة . ومن هذه الأبعاد ايضاً ان رسالته عليه الصلوات والسلام هي رسالة عالمية للبشرية جمعاء ويتطلب ذلك ان تكون شخصيته بمستوى المسؤولية العظمى التي يتحملها فهو ليس قدوة لجزيرة العرب فقط بل للعالم أجمع . . بل لكل انسان خلقه الله في ذلك الوقت وإلى آخر يوم من عمر الكون ، فكل البشر يبحثون عن قدوة .

والرسول (ص) هو القدوة الصالحة فأية شخصية عظيمة يجب ان تكون شخصيته حتى تصبح قدوة لكل أبناء العالم من يومه وحتى آخر يوم من الدنيا . . وأي عمل جبار يجب ان يبذله هذا النبي (ص) ليوصل رسالته الى كل انسان يعيش على هذه الارض .

وأي جهد كبير عليه ان يبذله ليمد الجسور الى قلوب بني البشر الذين سيولدون وسيعيشون في كرتنا الارضية جيلاً بعد جيل .

البعد الآخر المؤثر في شخصية النبي (ص) هو ان رسالته شاملة لكافة شؤون الحياة السياسية الاقتصادية الاجتماعية الثقافية فكانت على تلك الشخصية التي ستقود البشرية باتجاه التغيير الشامل ان تكون شخصيته مثالية في كل شيء وان لا تكون محصورة في نطاق محدد ، فكان الرسول هو القائد الذي يُدير امور الناس الحياتية وكان امامهم في الصلاة وخطيبهم الذي يوعظهم وكان القائد في المعركة والمعلم للدين والاخلاق فشمولية الرسالة جعلت من شخصية النبي (ص) شخصيّة شاملة في صفاتها وأبعادها وهذا هو سر عظمة الرسول ففي ذات الوقت الذي كان فيه النبي (ص) يمارس دوراً اخلاقياً كان يمارس دوراً سياسياً وعسكرياً واجتماعياً ايضاً فقلما يوفق الانسان ان يجمع بين عدد من

الصفات فيصل الى ذروة القمة في أغلب تلك الصفات إلا الرسول (ص) الذي وصل القمم العالية فجمع كل الصفات الحميدة وتحلى بكل الفضائل الانسانية فكان كتلة من الاخلاق والصفات والفضائل .

محمد الحاكم الانسان :

لم يقدم التاريخ البشري حتى الآن حاكماً وزعيماً لدولة كمحمد (ص) في انسانيته وعدله واخلاصه وتواضعه للناس وصبره واستقامته وشجاعته وهذا هو سر العظمة في شخصية الرسول القائد فهو في الوقت الذي تتجلى فيه مهابة القائد وسمو الحاكم يتحلى ايضاً بالصفات الانسانية الاخرى بحيث من الصعب تمييزه عن صحابته عندما كان يجلس معهم فكثيراً ما كان الموفدون يأتون الى مجلسه فيفترون الوجه بحثاً عنه وعندما يصعب عليهم تمييزه يضطرون الى مناداته أيكم محمداً ولربما صعب علينا ان نتصور انساناً كاملاً في صفاته واخلاقه يستطيع ان يحتفظ بصفاته كحاكم وهو يعيش الناس كفرد بسيط يعمل معهم يحرق الارض ويزرعها يجلس على الارض وينام عليها ويأكل عليها يرفع ثوبه ويخفف نعله ويركب الحمار ويعلف الناضح ويجيب دعوة المملوك ، في ذات الوقت من الصعب ان نتصور حاكماً يبقى محتفظاً بصفاته ومقومات شخصيته كإنسان متواضع يتعامل مع الناس وكأنه واحد منهم .

على رغم مشاكله الكثيرة فقد كان وقته مقسم الى حصص لا تتعدى حصّة على اخرى ، فعن الحسين بن علي (ع) إذا دخل منزله (ص) جزء دخوله ثلاثة اجزاء ، جزء لله ، وجزء لأهله ، وجزء لنفسه ثم جزء جزءه بينه وبين الناس ، هذا هو رسول الله في المحراب لا يسبقه احد في عبادته وطاعته كان (ص) يصلي الليل كله ويعلق صدره بحبل حتى لا يغلبه النوم^(١) وفي لحظات تهجده

(١) بحار الأنوار: ص ٣٠٢.

كانت تذوب مشاكله وتتوارى متاعبه وكان يستمد في تلك اللحظات القوة والعزيمة من خالقه ليمضي في اليوم التالي في مواصلة مسؤوليته الكبرى .

وفي بيته كان يساعد عياله يقطع اللحم ويطحن الطحين ويحلب عنز أهله ويتحمل تربية الاولاد يخدم في مهنة اهله (كما ورد) ولم تُسمع منه كلمة يغضب منها احد من اهل بيته .

قال أنس بن مالك ؛ اني خدمت رسول الله (ص) عشر سنين ما رأيته قط أدنى ركبته من ركة جليسه وقال لشيء صنعته لم صنعت كذا .

وفي المجتمع كان يسأل عن اصحابه واحداً واحداً كان يعود المرضى ولو في اقصى الدنيا ويجالس الفقراء ويؤاكل المساكين ويناولهم بيده ، يصل ذوي الرحم من غير ان يفضلهم على غيرهم وكان يغفر ويصفح ويتبدأ بالسلام .

وفي دار الحكومة في المسجد كان يستقبل الناس بدون حاجب ولا حرس وكان يقول لمن يحضر ليبلغ الشاهد الغائب . . ابلغوني حاجة من لا يستطيع ابلاغني حاجته فانه من ابلغ سلطان حاجة من لا يستطيع ابلاغها اياه ثبت الله قدميه يوم القيامة . . وكان يجيب دعوة الحر والعبد والأمة والمسكين ولا يدعوه احمر ولا اسود من الناس إلا اجابه . . وكان يُقسم لحظاته على اصحابه ينظر الى ذا وينظر الى ذا بالسوية فقد كان يحرص على التعامل مع اصحابه بروح من المساواة .

ومن فرط عدالته حتى في الامور الطفيفة كان يعطي كل واحد من جلسائه نصيبه من النظر حتى لا يحسب جليسه ان احداً اكرم عليه منه من جالسه .

أما في تلبية حاجات الناس فقد ورد في كتب السيرة من سألته حاجة لم يرد إلا بها ، وكان من فرط اهتمامه بالداخلين عليه ان كان يكرم من يدخل عليه

كما ورد في الروايات وكان بابه مفتوحة للسيد والعبد للمسكين والأمة وإذا لقيه احد فقام معه أو جالسه احد لم ينصرف حتى يكون الرجل هو الذي ينصرف عنه .

وكان يصغي بكل مسامعه لمن يعرض عليه شيئاً من مشاكله أو ما يهيمه فقد ورد عند ارباب السير ما وَضَعَ احدُ فمه في آذانه إلا استمر صاعياً حتى يفرغ من حديثه ويذهب وجاء ايضاً كان حسن الاصغاء الى محدثه لا يلوي عن احد وجهه ولا يكتفي بالاستماع الى من يحدثه بل يلتفت اليه بكل جسمه .

فمن كان يجلس امامه لم يكن ليلمس ما يمنعه من التحدث بصراحة فقد ازال (ص) الحواجز النفسية التي قد تنشأ بين الحاكم والمحكوم ، عندما جاءه اعرابي وأراد ان يكلمه ارتعدت فرائضه عندما استحضر انه يجلس قبال حاكم الدولة لكن الرسول اسرع مخففاً عنه ؛ هَوْن عليك فلست بملك انما انا ابن امرأة كانت تأكل القدر رواه ابن مسعود^(١) .

فأين هذا مما يصنعه بعض الحكام من الأبهة والفخفخة أين هذا من الذين يضعون على قصورهم الحجاب والحرس ويمنعون من له حاجة ومن له مشكلة يريد حلها .

اين هؤلاء الذين لا يشاهدهم الناس إلا من شاشات التلفزيون عن ذلك الحاكم الانساني الذي كان يقول ابلغوني حاجة من لا يستطيع ابلاغني حاجته . اين أولئك الذين تكبروا على الناس وشمخوا بانوفهم ولم يسمحوا لأنفسهم ان يستمعوا رأياً لأحد عن ذلك النبي (ص) الذي كان يشاور اصحابه في الرأي^(٢) وكان يقول لأصحابه ما من احد يشاور احداً إلا هدى الى الرشد

(١) بحار الأنوار: ص ٢٢٩ .

(٢) أعيان الشيعة: ٢٢٢ .

فاستشارهم في معركة الخندق فكان صاحب الرأي هو سلمان القادم من فارس واستشارهم في أحد هل يبقى في المدينة او يخرج الى القوم وكان من رأي الرسول ان يبقى في المدينة . . وكان رأي اصحابه ان يخرجوا ليلتقوا بالاعداء خارج المدينة فاتبع رأي الصحابة .

ابن أولئك الذين انصرفوا الى الدنيا وملأوا بطونهم بألوان الاطعمة والاشربة عن ذلك النبي (ص) الذي جاء عنه انه لم يشبع من خبز ثلاثة ايام حتى مضى لسبيله .

وجاء ايضاً في كتب السيرة لقد قبض (ص) وان درعه مرهونة عند يهودي من يهود المدينة بعشرين صاعاً من شعير استلفها ينفقه لأهله .

عن ابن عباس قال ان رسول الله (ص) دخل عليه عمر وهو على حصير قد أثر في جنبه فقال يا نبي الله لو اتخذت فراشاً فقال : ما لي وللدنيا ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب سار في يوم صائف فاستظل تحت شجرة ساعة من نهار ثم راح وتركها^(١) .

ودخل على النبي (ص) رجل وهو على حصير قد أثر في جسمه ووسادة ليف قد أثرت في خده فجعل يمسح ويقول ما رضي بهذا كسرى ولا قيصر انهم ينامون على الحرير والديباج . . أنت على هذا الحصير ؟

فقال رسول الله (ص) : لأنا خير منهما لأنا أكرم منهما^(٢) .

فأين هذا من أولئك الذين اصبح همهم ملء الارصدة وبناء القصور والفلل واليخوت فكم هم اليوم بعيدين عن منهج رسول الله (ص) وكم

(١) بحار الأنوار: ص ٢٣٩ .

(٢) بحار الأنوار: ج ١٦ - ص ٢٨٢ .

هم بحاجة الى ان يعودوا الى ذلك القائد العظيم ليستلهموا منه الزهد والاخلاص والصدق وحب الناس وليتعلموا منه العدالة والمساواة وكيف كان يحافظ على امانات الناس ولا يخونهم حتى في الامور الطفيفة فكيف بالامور الكبيرة .

والحاكم قد يدفعه تشبهه بالسلطة أو اعتزازه بمنصبه وغروره بكرسيه الى الانتقام ممن يخالفه فكم من حاكم قتل الآلاف دون ذنب لهم سوى عدم أمثالهم لأوامر السلطة وكم من حاكم انتقم من اصدقائه وأهل بيته وحتى اقرب الناس اليه نتيجة كلمة غير مرضية أو عمل غير مرضي فتاريخ الحكومات تاريخ مملوء بالانتقام مصبوغ بدماء الأبرياء .

وكلما أسبرنا الغور بحثاً عن حاكم تعامل مع خصومه معاملة انسانية سوف لا نجد في سجل الحكام قائداً كرسول الله (ص) فعن عائشة انه ما انتقم لنفسه إلا ان تنتهك حرمة الله فينتقم لله . .

وجاء ايضاً انه إذا غضب لم يظهر من اثر غضبه إلا نفرة عرق بين حاجبيه .

وعن انس بن مالك قال ان النبي (ص) ادركه اعرابي فأخذ بردائه فجبذة جبذة شديدة حتى نظرت الى صفحة عنق رسول الله وقد اثرت به حاشية الرداء من شدة جبذته ثم قال له يا محمد مر لي من مال الله الذي عندك .

فالتفت اليه رسول الله : فضحك وأمر له بعتاء .

فأين ستجدوا مثل هذا الحاكم الذي يقابل الاساءة بالاحسان .

لقد تفنن الحاكم في معاقبة المعارضة ووصل الامر بالبعض منهم ان يصدروا قراراً بقتل من ينال منهم بكلمة واحد بقصد الاهانة، فكيف إذا تطاولوا عليهم باطلاق الهتافات أو الخروج في المظاهرات فان الاعداء حينذاك

سيكون قليلا بحقهم وبحق ذويهم ..

أما رسول الله (ص) فإذا جاء رمضان اطلق كل اسير واعطى كل سائل فكان اصبر الناس على أوزار الناس كما ورد في الرواية وهكذا كان مع عبد الله ابن أبي يوم أساء له وتآمر عليه وأراد المسلمون قتله وجاء ابنه متطوعاً لتنفيذ هذا العقاب لكن صاحب القلب الرحيم الذي كان يعطف حتى على الحيوان امتنع عن ذلك ويوم وفاة رأس النفاق خلع رسول الله ردائه ولفه بها فكان يقابل الاساءة بالإحسان .

هذا في ميدان الانسانية والرحمة أما في ميدان الحرب فكان رحيماً حتى مع الذين قاتلوه يعطف على الاسير ويداوي الجريح وقد سنّ سنة لم تكن تعرفها العرب وهو اطلاق سراح الاسير بفدية أو مقابل عمل ينجزه بعد ان كان الاسير يسترق ويصبح كالعبد المملوك وكان في ميدان المواجهة المقاتل الاول الذي يتقدم على جموع المقاتلين فعن علي (ع) قال : لقد رأيتني يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي (ص) وهو اقربنا الى العدو وكان من اشد الناس يومئذ بأساً^(١) .

وعنه ايضاً كنا إذا احمر البأس ولقي القوم القوم اتقينا برسول الله (ص) فما يكون احد اقرب الى العدو منه^(٢) .

وفي مواضع الخطر كان المبادر قبل الآخرين ففي رواية أنس قال كان رسول الله (ص) اشجع الناس واحسن الناس واجود الناس . قال ؛

فزع اهل المدينة ليلة فانطلق الناس قبل الصوت قال : فتلقاهم رسول الله (ص) وقد سبقهم وهو يقول لن تراعوا ، وهو على فرس لأبي طلحة وفي عنقه السيف قال فجعل يقول للناس : لم تراعوا وجدناه بحرا ، او انه البحر .

(١ - ٢ - بحار الأنوار: ج ١٦ ص ٢٣٢ .

وكان صادقاً مع نفسه ظاهره كباطنه لا يمارس الحيل السياسية التي يمارسها اليوم السياسيون . فكان يعرف رضاه وغضبه في وجهه .

فعن ابن عمر : كان إذا رضي فكأنما تلاحك الجذر وجهه (المرأة التي توضع في الشمس فيرى نورها) وإذا غضب خسف لونه .
وكان فعله وقوله واحد . . . لا يطلق الشعارات الجوفاء ولا يمارس شيئاً معاكساً لما يقوله .

ففي احد الايام كان يخطب في المسجد ويحث المسلمين على الزواج وما ان انتهت الخطبة حتى اعلن من على المنبر عن تزويج ابنة عمه ضباعة من المقدار بن الاسود وكان ولياً لها كما يظهر من الحادث فقد زوج هاشمية من بيت رفيع في قريش من انسان عادي حتى يكسر الطوق الذي اصطنعه المجتمع الجاهلي وحتى يقول للآخرين بأن المقياس في الكفاءة الزوجية هو الايمان وليس الحسب والنسب . . هكذا عبّر رسول الله (ص) وبصورة عملية عن أفكاره في المساواة فكان المترجم الاول للقيم التي حملها ودعى اليها على عكسه اليوم الكثير ممن يحملون قيماً عظيمة لكنهم في الممارسة على عكس ذلك فهناك الكثير من الحكام وغيرهم ممن يحملون شعار العدالة والمساواة لكنهم في واقعهم لا يمارسونها فيفرون بين هذا وذاك فيفضلون من يرتاحون اليه فيغدقون عليه بالأموال والعطايا لا لكفاءة له بل لأنه فقط فقط يمتدح هذا الحاكم ويحني رأسه له . . لم يكن رسول الله (ص) هكذا فقد كان يعامل اصحابه بالسوية حتى في توزيع نظراته أثناء الحديث وكان يحاسبهم حتى لو كانوا اقرب الناس اليه .

وكان يوعظهم ويرشدهم ان بدر منهم الخطأ فعن ابي عبد الله (ع) قال :
استقبل رسول الله (ص) رجلاً من بني فهد وهو يضرب عبداً له والعبد يقول اعوذ بالله فلم يقلع الرجل عنه فلما ابصر العبد برسول الله (ص) قال : اعوذ بمحمد

فأقلع عن الضرب فقال رسول الله : يتعوذ بالله فلا تعيده ويتعوذ بمحمد فتعيذه ؟
والله أحق أن يجار عائذه من محمد فقال الرجل : هو حر لوجه الله فقال
رسول الله (ص) :

والذي بعثني بالحق نبياً لو لم تفعل لواقع وجهك حرّ النار^(١) .

أما في عدله فليس هناك أدل على هذه الصفة مما ذكره المؤرخون ان
يهودياً كان له على رسول الله (ص) دنائير فتقاضاه فقال له يا يهودي ما عندي ما
اعطيك فقال : فاني لا افارقك يا محمد حتى تقضيني فقال : إذا اجلس معك
فجلس معه حتى صلى في ذلك الموضع الظهر والعصر والمغرب والعشاء
الآخرة والغداة وكان اصحاب رسول الله (ص) يتهددونه ويتواعدونه فنظر
رسول الله (ص) اليهم فقال : ما الذي تصنعون به فقالوا يا رسول الله يهودي
يحبسك فقال (ص) لم يعثني ربي عز وجل بأن اظلم معاهداً ولا غيره . . فلما
علا النهار قال اليهودي أشهد أن لا اله إلا الله وأشهد ان محمداً عبده ورسوله ،
وشطر ماله في سبيل الله . . اما والله ما فعلت بك الذي فعلت إلا لأنظر الى
نعتك في التوراة ، فاني قرأت نعتك في التوراة محمد بن عبد الله مولده بمكة
ومهاجره بطيبة وليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب ولا متزجين بالفحش ولا قول
الحناء وانا اشهد ان لا إله إلا الله وانك رسول الله وهذا مالي فاحكم فيه بما انزل
الله وكان كثير المال^(٢) .

وكان من عدله وكرمه هذه الحادثة المنقولة عن الصادق (ع) قال : جاء
رجل الى رسول الله (ص) وقد بلى ثوبه فحمل اليه اثني عشر درهما فقال يا علي
خذ هذه الدراهم فاشتري لي ثوباً ألبسه قال علي (ع) فجئت الى السوق
فاشتريت له قميصاً باثني عشر درهماً وجئت به الى رسول الله (ص) فنظر اليه

(١) بحار الأنوار: العلامة المجلسي: ج ١٦ ص ٢٨٢ .

(٢) بحار الأنوار: ج ١٦ ص ٢١٦ .

فقال : يا علي غير هذا احب اليّ اترى صاحبه يقللنا فقلته لا ادري فقال : انظر فجلث الى صاحبه فقلت ان رسول الله (ص) قد كره هذا ، يريد ثوباً دونه ، فأقلنا فيه فرد عليّ الدراهم وجلث به الى رسول الله (ص) فمشى معي الى السوق لبيتاع قميصاً فنظر الى جارية قاعدة على الطريق تبكي فقال لها رسول الله (ص) ما شأنك ؟ قالت يا رسول الله ان اهل بيتي اعطوني اربعة دراهم لاشتري لهم بها حاجة فضاعت فلا اجسر ان ارجع اليهم ، فأعطاهم رسول الله (ص) اربعة دراهم وقال ارجعي الى اهلك ومضى رسول الله (ص) الى السوق فاشتري قميصاً بأربعة دراهم ولبسه وحمد الله وخرج فرأى رجلاً عرياناً يقول : من كساني كساء الله من ثياب الجنة فخلع رسول الله (ص) قميصه الذي اشتراه وكساه السائل ثم رجع الى السوق فاشتري بلاربعة التي بقيت قميصاً آخر فلبسه وحمد الله ورجع الى منزله وإذا الجارية قاعدة على الطريق فقال لها رسول الله (ص) ما لك لا تأتين اهلك قالت : يا رسول الله اني قد أبطأت عليهم واخاف ان يضربوني فقال رسول الله (ص) : مري بين يدي ودليني على اهلك فجاء رسول الله (ص) حتى وقف على باب دارهم ثم قال السلام عليكم يا اهل الدار فلم يجيبوه فأعاد السلام فلم يجيبوه فأعاد السلام فقالوا : عليك السلام يا رسول الله ورحمة الله وبركاته فقال لهم مالكم تركتم اجابتي في اول السلام والثاني قالوا يا رسول الله سمعنا سلامك فأحببنا ان نتكثر منه فقال رسول الله (ص) ان هذه الجارية أبطأت عليكم فلا تؤاخذوها فقالوا : يا رسول الله هي حرة لممشاك فقال رسول الله (ص) الحمد لله ما رأيت اثني عشر درهماً أعظم بركة من هذه كسى الله بها عريانيين واعتق بها نسمة^(١) .

هذا هو محمد (ص) قائد وهادي لم تنسه مشاغل الحكم ومشاكل السلطة وتعقيدات العمل الاداري انه نبي الرحمة وانه الرسول الهادي الذي بعثه الله

(١) بحار الأنوار: الخصال: ٢، ص ٨٦-٨٧، الامالي: ص ١٤٤ .

لهداية الناس وانقاذهم من تخلف الجهل وتخلف الرذائل .

لم تنسه كثرة المهام التي كان يتواصل في القيام بها عن البحث عن انسان جائع ليسد جوعه وعن انسان عريان ما يتستر به ، لم تصرفه مسؤولياته الكبيرة عن البحث بين سكك المدينة عن كل محتاج ، عن تلك الجارية التي فقدت دراهمها فلم يكن هينا عليها العودة الى البيت خاوية اليد .

فقد كان رسول الله (ص) يمثل السلطة العليا للدولة الاسلامية لكن ليس بالمفهوم الذي تعارف عليه الناس فالسلطة عند رسول الله (ص) ليست تسلطاً على رقاب الناس وليست فقط اصدار الأوامر بل هي اغاثة الملهوف واعانة الفقير والبحث عن المحتاج فلقد اقترنت السلطة بالهداية فأخذت صورة اكثر شفافية في اعين المسلمين حتى لم يعد المسلم يرى فاصلاً بينه وبين رئيس الدولة وهي شهادة أقر بها جميع من اتصلوا به (ص) .

فهذا عروة بن مسعود يعود الى قريش بعد ايفاده الى المدينة يعود ليقول لهم :

يا معشر قريش اني أتيت كسرى في ملكه ، وقصر في ملكه والنجاشي في ملكه واني والله ما رأيت ملكاً في قوم قط مثل محمد في اصحابه .

ومحمد (ص) لم يتغير فقد ظل على منهجه وسلوكه الرسالي حتى التحاقه بالرفيق الاعلى .

وهذه هي احدى ركائز العظمة في شخصية الرسول انه لم يتغير خلقه وسلوكه بعد ان صار الرجل الأوحده في جزيرة العرب فقد ظل على وفائه للفقراء والمساكين وظل بيته منزهاً عن حياة الترف حتى عن الحياة الاعتيادية فقد كان يكتفي بالحدود الأدنى من احتياجاته الدنيوية وعندما اعترضن زوجاته على هذه الحياة وضع امامهن خياراً صعباً إما القبول بهذا الوضع واما الطلاق فهذه عائشة

تقول ما زالت الدنيا علينا عسرة كدرة حتى قبض رسول الله (ص) ، فلما قبض صبت الدنيا علينا صبا^(١) وكانت تقول : انا كنا لننظر الى الهلال ثلاثة اهله في شهرين وما وقدت في بيوت رسول الله نار فقال لها عروة بن الزبير ما كان يعشيكم ؟ قالت : الاسودان ، التمر والماء ، وقد ظل على هذا النهج حتى في فترة غنى المسلمين وكان باستطاعته ان يعيش على الاقل عند المستوى المتوسط من الناس لكن كان رسول الله يريد ان يواسي أفقر الناس في طعامه وشرابه حتى لا يشعر الفقير بالحسرة والحرَج طالما قائده يعيش بنفسه مستواه فلم يكن رسول الله (ص) حاكماً وحسب بل كان معلماً ايضاً ، مرشداً ايضاً فأراد ان يجمع بتلك الخصال الدنيا والآخرة معاً الواقعية والفضيلة معاً ، السياسة والهداية معاً ، فكان كتلة فضائل تتحرك بين الناس سواء كان في دست الحكم أو على كرسي القضاء أو في قيادة الجيش أو في زعامة المجتمع ، خلق يتحرك وفضائل تجوب بين المسلمين تلي حاجه المحتاج وترشد من هو في ظلال وتيه فكان بحق القدوة الصالحة لكل بني البشر من الانسان العادي حتى الحاكم . . من الانسان العامل وحتى المدير .

وحقاً جاء القرآن ليهتف بالمسلمين ويطلب منهم الاقتداء بنبيهم فهو القدوة الصالحة .

ولقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة .

(١) بحار الأنوار: ج ١٦ ص ٢٤٦ .

the first of these is the fact that the
the second is the fact that the

the third is the fact that the

the fourth is the fact that the

the fifth is the fact that the

the sixth is the fact that the

the seventh is the fact that the

the eighth is the fact that the

the ninth is the fact that the

the tenth is the fact that the

the eleventh is the fact that the

the twelfth is the fact that the

the thirteenth is the fact that the

the fourteenth is the fact that the

the fifteenth is the fact that the

the sixteenth is the fact that the

the seventeenth is the fact that the

the eighteenth is the fact that the

the nineteenth is the fact that the

the twentieth is the fact that the

the twenty-first is the fact that the

the twenty-second is the fact that the

ب . جهاز السلطة :-

لم تكن دعوة الاسلام دعوة اخلاقية او عقائدية وحسب بل هي دعوة شاملة لتغيير حياة الانسان وفق موازين جديدة . فقد عمل رسول الله (ص) ثلاثاً وعشرين عاماً على ارساء حياة جديدة للانسان تشمل حياته الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية فهو (ص) لم يبن فرداً بمعزل عن المجتمع ولم يبن مجتمعاً بمعزل عن العالم .

كما وان كل جزء من حياة الانسان يرتبط بالأجزاء الاخرى فالبقاء على العقيدة والصمود بوجه تيارات الشرك المنتشرة في الجزيرة العربية لا يتحقق إلا بوجود عوامل اخرى .

فإشاعة الاجواء الاسلامية في المجتمع وتطهير الانسان من الجشع والطمع والحرص ووضع حدود لما هو مسموح وما هو ممنوع وتوطيد بناء اقتصاد قوي يكفل للمسلم الاستغناء عن قوى الشرك وحماية هذه العقيدة بالقوة العسكرية . . وهي عوامل من شأنها ان تعمق مشاعر التوحيد في الانسان وبدونها لا يمكن الاستقامة على العقيدة التي جاء بها رسول الله (ص) .

من هنا جاء الإسلام كاملاً ليشمل جميع حالات الانسان وجميع أبعاد

حياته المرتبطة بمجال التفكير بمجال البدن وبمجال السلوك .

لكنه في مجال التطبيق العملي جاء بصورة تدريجية ، فالقرآن الكريم نزل بصورة تدريجية ليساير بناء الصرح الاسلامي .

ففي مرحلة بناء النواة العقائدية جاء القرآن ليعمق هذا البناء وليزيده قوة وصلابة وفي مرحلة بناء المجتمع كان من المحتوم ان تُنزل الآيات تدريجياً لمسايرة عملية البناء لبنة فلبنة .

وتتواصل عملية بناء المجتمع فتأخذ شكلاً أكثر تنظيمياً ليتمخض عن هذا الشكل الصورة المتعارفة للدولة .

فالرسول (ص) وضع أسس البناء على ركائز نهايتها هو تشكّل الدولة بكافة أجهزتها التنفيذية فمنذ اليوم الاول من قدومه الى المدينة شرع في تأسيس الدولة فأسس المسجد كقاعدة انطلاق في تنظيم الدولة وجاء البناء في بدايته بسيطاً يتناسب مع حجم الكتلة الاسلامية وحجم علائقها الحياتية ومع تطور هذه الكتلة اصبح من الضروري ان تتطور تلك الاجهزة البسيطة فإذا كل شيء اصبح يسير بنظام خاص واصبح يدار عبر اجهزة تنفيذية مرتبطة بالقيادة من جهة وبالامة من الجهة الاخرى .

وكانت حصيلة التطور التنظيمي في المجتمع الاسلامي هو قيام الدولة الاسلامية بكامل أجزائها وابعادها ولربما لا نجد الصورة الكاملة لهذه الدولة إلا في أواخر عهد الرسول (ص) عندما انتشر الاسلام في ربوع الجزيرة العربية برمتها واصبح للرسالة شعباً وارضاً وسيادة متمثلة بالقيادة الرسالية .

فاقامة صرح الدولة وتكميل اجهزتها لم يأخذ من الرسول سوى سنوات من التطور الاجتماعي فالدولة بدأت بنواة في العهد الاول من الهجرة ثم تكاملت النواة الى كيان وهذا ما نستطيع ان نلمسه بصورة واضحة في ابتداء حياة

المسلمين في المدينة المنورة وحتى العام العاشر للهجرة حيث تكامل البناء بعد ان حج رسول الله حجة الوداع وخطب في المسلمين تلك الخطبة المشهورة التي قال فيها كلمته الاخيرة .

إذا ما دققنا النظر في حركة المجتمع الاسلامي لوجدنا ايضاً ان هذه الحركة كانت تمضي نحو اكتساب صيغة تنظيمية متكاملة . . فالرسول (ص) كان يقود هذا المجتمع بنفسه لكنه كان يدير اوضاعه العامة عبر أشخاص كان يعينهم تعييناً وهؤلاء الاشخاص كانوا يعملون على انفراد أو بصورة اجهزة وحتى الذين يعملون على انفراد كانوا يمثلون بمجموعهم في ميدان معين جهازاً تنفيذياً .

فإذن كان التجمع الرسالي يتحرك بادارة اجهزة مختلفة كانت تمثل حلقة الوصل بين القيادة والقاعدة وهذه هي الحكومة في عرف العصر .

وكان هناك احد عشر جهاز متخصص يقوم بوظائف الحكومة في عهد رسول الله (ص) هو :

- ١ - الوزير .
- ٢ - الجهاز الاداري .
- ٣ - الجهاز القضائي .
- ٤ - الجهاز الفني .
- ٥ - الجهاز المالي .
- ٦ - الجهاز الدبلوماسي .
- ٧ - الجهاز العسكري .
- ٨ - الجهاز التعليمي .

٩ - الجهاز الاعلامي .

١٠ - جهاز الامن والحسبة .

١١ - جهاز المهمات الخاصة .

١ - . . وظيفة الوزارة

لم يكن في الدولة الاسلامية التي انشأها رسول الله (ص) منصب بهذا اللفظ لكن كان هناك من يقوم بهذا الدور [أي دور الوزير لرسول الله (ص)].
فقد كان الرسول يستشير عدداً محدوداً من اصحابه ممن يثق بأرائهم وسلامة تفكيرهم وعلى رأس هؤلاء الذين كانوا محط الاستشارة الإمام علي (ع) .

وما فتأ رسول الله (ص) يصرح بهذه الحقيقة بين الفينة والأخرى فهو يوم جمع عشيرته وأولمهم تلك الوليمة المشهورة في التاريخ طلب منهم ان يوازره وينصروه فقام علي (ع) كما جاء في اكثر كتب التاريخ فقال النبي (ص) هذا أخي ووصي وخليفتي من بعدي .

وكان (ص) ينييه مكانه في بعض المناسبات كما حدث في غزوة تبوك عندما انابه في المدينة مع انه كان راغباً في المشاركة في الحرب فقال له رسول الله (ص) ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى^(١) وفي هذه العبارة اشارة للآية الكريمة ﴿ واجعل لي وزيراً من اهلي هارون اخي ﴾ وكان ينتدبه في اللحظات الحاسمة فاختره للمباهلة مع نصارى بني نجران ، واختاره لفتح خيبر بعد ان عجز جيش المسلمين عن اقتحام الحصن فلم يجد سوى

(١) الإصابة في تمييز الصحابة : ج ٢ ص ٢٦٩ - دار الكتب العلمية بيروت - لبنان .

علي (ع) واختاره رسول الله (ص) ليقراً سورة البراءة على قريش في الحج وهي بمثابة بيان سياسي هام رسمت ابعاد وحدود العلاقة السياسية بين الدولة الاسلامية والكيانات الاخرى التي لم تدخل الاسلام .

فعليّ كان المستشار الاول ورجل المهمات الصعبة والرجل الثاني في القيادة بعد رسول الله (ص) وكانت توكل اليه مهام الوزير دون ان يحصل هذا اللقب في زمن الرسول (ص) .

واختيار الرسول (ص) لعلي (ع) لتحمل اعباء هذه المهمة كان اختياراً موفقاً فهو الذي رباه واحتضنه منذ صباه وهو اول من آمن به وآزره ودافع عنه وهو الذي فدى نفسه في ليلة الهجرة وتحمل مسؤولية رد الامانات الى اصحابها وكان في معظم غزواته هو حامل لواء الجيش والقائد مهما أوتي من عبقرية فهو بحاجة الى مساعد يقف الى جانبه يستشير في الخطط ويوكل اليه المهام عند غيابه ويكون رقيباً على مسيرة الأمة وقد تطورت هذه المهمة في عهود دولة الراشدين والدولة الأموية والعباسية حتى أصبح يطلق على من يقوم بهذه المهمة كلمة الوزير .

٢ - الجهاز الاداري :

مع توسع رقعة الدولة الاسلامية وامتدادها على طول وعرض جزيرة العرب ومع تزايد عدد المسلمين تزايدت المهام المنوطة بالقيادة مما استدعت تعيين عمالاً وولاة يمثلون السلطة المركزية في مناطقهم ويقومون بوظائف القائد في ولايتهم كامامة المسلمين في الصلاة وجمع الزكاة وجبايتها وتعليم الناس مبادئ دينهم .

وكان يختار ولاته من بين اصحابه من تتوفر فيه الصفات الخيرة ليكون قدوة للناس ومن تتوفر فيه مقومات هذه المسؤولية ، فقد اختار رسول الله على

مكة بعد فتحها عتاب بين أسيد وهو شاب لا يتجاوز العشرين ونيف وقد اسلم يوم الفتح وعُين والياً عليها يوم اسلامه حتى يزيل الخوف والرعب من قلوب المكيين الذين كانوا يخشون عواقب الامور بعد فتح مكة ويعرفون ماذا سيصنع بهم رسول الله (ص) على رغم العفو الذي اعلنه ، فبتعيين عتاب وهو من العوائل المتنفذة في مكة ازاح غطاء الخوف من القلوب واطمأن الجميع الى مستقبلهم وانهم سيعاملون معاملة حسنة في ظل الاسلام فاندفعوا الى اعلان اسلامهم .

ومن جانب آخر كانت اوضاع مكة بحاجة الى حاكم شديد مع المفسدين ولين مع المؤمنين وهي صفة كانت متوفرة عند عتاب كما نقل عن انس وذكره ابن حجر في الاصابة^(١) ومن جانب آخر كان عتاب زاهداً ليس في قلبه شيء من حب الدنيا فقد نقل عنه انه سمع وهو مسند ظهره الى بيت الله يقول- والله ما اصببت في عملي هذا الذي ولاني رسول الله (ص) إلا ثوبين معقدين كسوتهما مولاي كيسان^(٢) .

وكان رسول الله (ص) قد عين له مرتباً يومياً مقداره درهم وهو شأنه مع بقية الولاة قد صرح بذلك عندما خطب في الناس قائلاً: أجاج الله كبد من جاع على درهم ، فقد رزقني رسول الله (ص) درهما كل يوم فليست بي حاجة الى أحد^(٣) .

وقد حرص رسول الله (ص) ان يعطي لولاته ما يكفيهم حتى لا يتناولوا على اموال الناس وكان يعطي للبعض راتباً يومياً ولللبعض الآخر كان يعطيهم

(١) الاصابة: ص ٢١٢ .

(٢) نفس المصدر: ج ٤ .

(٣) النظام السياسي في الإسلام: ص ١٦٢ .

مقداراً من الطعام يكفيهم فقد عين لواليه على همدان قيس بن مالك مائتي صاع من ذرة نثار ومائتي صاع من زبيب خيوان ويستمر هذا العطاء حتى بعد موته ليكون لعقبه .

وكان (ص) يختار الوالي في أغلب الأحيان من أبناء المنطقة نفسها لعوامل نفسية تتعلق باحساسات اهالي تلك المنطقة فهم عندما يجدوا ان الوالي من أبناء منطقتهم يزداد تفاعلهم وطاعتهم للقوانين ، كما وان وجود والي من نفس المنطقة سيمكنه من اداء وظيفته على احسن ما يرام فهو اعرف بأهل المنطقة وأدرى بالكيفية التي يجب التعامل مع أهلها .

ومن بين الولاة الذين اختارهم الرسول (ص) من أبناء المنطقة قيس بن مالك فقد قدم الى مكة من همدان فأسلم فرجع الى النبي (ص) يوماً آخر وقال بأن قومه اسلموا فكتب عهده على قومه همدان عربها ومواليها وخلائطها ان يسمعوا له ويطيعوا وان لهم ذمة الله ما أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة .

وكتب رسول الله (ص) الى قيس السلام عليكم : أما بعد فاني استعملك على قومك^(١) كما وان رسول الله (ص) قد قسم اليمن الى مقاطعات وجعل على كل مقاطعة احد أبناء او حفدة لوزان وهو الحاكم الاصيلي لليمن قبل الاسلام وبعده فكان ممن اختارهم عمرو بن هزم بن زيد لوزان ، شهر بن باذام وابنه عامر بن شهر .

واختار عدي بن حاتم على منطقته طي وعين فروة بن مسك المرادي على مراد .

وقد تجلّى في هذا العمل حنكة سياسية إذ ساعدت هذه التعيينات على

(١) الإصابة : ج ٥ ص ٢٦٤ .

تهدأت الخواطر وكسب الناس الذين لم يسلموا بعد . فقد كشف رسول الله بهذا المنهج عن احترامه لمشاعر القبائل وحرصه على حماية حقوقهم في اختيار الرجل المناسب من بينهم ومع حسن اختياره للولادة لم يدع فرصة إلا وقدم لهم فيها النصائح ووضعهم أمام واجباتهم الكبيرة .

في كتاب تعيينه لعمر بن حزم جاءت هذه النصوص الارشادية :

هذا بيان من الله ورسوله يا ايها الذين آمنوا أوفوا بالعهد عهد من محمد النبي رسول الله (ص) لعمر بن حزم حين بعثه الى اليمن أمره بتقوى الله في امره كله فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، امره بأن يأخذ بالحق كما أمره الله وان يبشر الناس ، ويأمرهم به ويعلم الناس القرآن ، ويفقههم فيه وينهى الناس فلا يمس القرآن انسان إلا وهو طاهر ويخبر الناس بالذي لهم والذي عليهم ويلين الناس في الحق ويشدد عليهم في الظلم فإن الله كره الظلم ونهى عنه فقال : الا لعنة الله على الظالمين « ويبشر الناس بالجنة ويعملها وينذر الناس بالنار ويعملها ويستأنف الناس حتى يفهموا في الدين ويعلم الناس معالم الحج وسنته وفريضته وما امر الله به والحج الكبير .

وجاءت في وصيته الى معاذ بن جبل عندما ارسله والياً :

يا معاذ علمهم كتاب الله واحسن أدبهم على الأخلاق الصالحة وانزل الناس منازلهم خيرهم وشهرهم وانفذ فيهم امر الله ولا تماش في امره ولا ماله احداً فانها ليست بولايتك ولا مالك واد لهم الامانة في كل قليل وكثير وعليك بالرفق والعفو في غير ترك للحق يقول الجاهل قد تركت من حق الله واعتذر الى أهل عملك من كل امر خشيت ان يقع اليك منه عيب حتى يعذروك وامت امر الجاهلية إلا ما سنه الاسلام واطهر امر الاسلام كله صغيره وكبيره وليكن اكثر همك الصلاة فانها رأس الاسلام بعد الاقرار بالدين وذكر الناس بالله واليوم

الآخر واتبع الموعدة فانه اقوى لهم على العمل بما يحب الله ثم بث فيهم المعلمين واعبد الله الذي اليه ترجع ولا تخف في الله لومة لائم . . وأوصيك بتقوى الله وصدق الحديث والوفاء بالعهد واداء الامانة وترك الخيانة ولين الكلام وبذل السلام وحفظ الجار ورحمة اليتيم وحسن العمل وقصر الامل وحب الآخرة والجزع من الحساب ولزوم الايمان والفقہ في القرآن وكظم الغيظ وخفض الجناح واياك ان تشتم مسلماً او تطيع آثماً او تعصي اماماً عادلاً او تكذب صادقاً أو تصدق كاذباً واذكر ربك عند كل شجر وحجر وحدث لكل ذنب توبة السر بالسر والعلانية بالعلانية .

وتشتمل وصايا رسول الله (ص) الى ولاته اموراً تتعلق بالولاء انفسهم واموراً تتعلق بالوظائف التي يؤديها الى الناس واموراً تتعلق بالوظائف العامة التي عليه ان يقوم بها .

فأما القسم الاول من الوصايا فهي تتضمن :

١ - تعميق الصلة بالله والالانة اليه والاقرار بالخطأ ان كان في السر يكون الاقرار سرّاً وان كان الخطأ علني فيجب ان يكون الاعتراف والتوبة علانية امام الملاء .

٢ - التخلص بالاخلاق السلامية كصدق الحديث والوفاء بالعهد واداء الامانة وترك الخيانة ولين الكلام وبذل السلام وحفظ الجار ورحمة اليتيم وحسن العمل وقصر الامل وحب الآخرة وكظم الغيظ وخفض الجناح وعدم السب ليصبح الوالي قدوة حسنة في الاخلاق يقتدي به غيره .

٣ - الالتزام بالحق وعدم التهاون فيه وان لا يخاف في الحق لومة لائم وان لا يسام فيه فيجاري الناس على حساب الحق طمعاً في البقاء في السلطة .

٤ - اطاعة رؤسائه ان كانوا على عدل فإذا كان رئيسه آثماً او يأمره بأمر

منكر فلا يجب اطاعته بل عليه ان يطيع الذي يأمره بالعدل .

٥ - ويذكرهم الرسول (ص) بيوم الآخرة وبالحساب والعقاب وبالجنة وما أعدّه الله للمؤمنين ولمن يسيرون في الناس بالعدل .

أما الوظائف التي يجب ان يؤديها للناس فهي :

١ - ان يكون داعية للحق مبشراً به بين الناس .

٢ - يعلم الناس القرآن ويفقههم في الدين وكيف يمارسوا العبادات .

٣ - ان ينزل الناس منازلهم فيقرب اليه خيرُهم ويبعد عنه الاشرار منهم وان يعطي لكل فرد مكانته في المجتمع .

٤ - تطبيق احكام الله على الناس .

٥ - الرحمة باليتيم وحسن العمل مع الجميع .

٦ - يعلم الناس حقوقهم والواجبات التي عليهم .

٧ - اشاعة الاخلاق الحميدة بين الناس .

أما الوظائف العامة التي يقوم بها الوالي فهي :

١ - احياء سنن الله واماتت السنن الجاهلية .

٢ - الاعتراف بالخطأ أمام الناس إن صدر هذا الخطأ بصورة علنية .

٣ - الفطنة والذكاء فلا يصدق كاذباً ولا يكذب صادقاً من الناس .

محاسبة الولاة :

وبعد تعيين الوالي يظل رسول الله (ص) يراقبه عن كثب خشية انحرافه عن الجادة وإذا ما زل زلة وحتى ولو كانت صغيرة فسيتم عزله كما حدث للعلاء

ابن الحضرمي عندما شكته قبيلة عبد القيس فأرسلوا وفدًا الى رسول الله (ص) يطالبونه بعزله فاختار لهم رسول الله (ص) أبان بن قيس وهو من أكابر قريش اسلم في خيبر وشارك في المعركة بعد اسلامه وله قصة معبرة عند اسلامه فكان أبان بن قيس يتاجر بين مكة والشام فالتقى في الطريق براهب اسمه يكا وصف له صفة النبي (ص) وعندما رجع أبان الى مكة وجد هذه الاوصاف متطابقة على النبي (ص) فجمع قومه وذكر لهم ذلك ثم رحل الى المدينة فأسلم ، ارسله النبي (ص) على سرية في قطاع نجد قبل ان يرسله الى البحرين ليحل محل العلاء بن الحضرمي فالولاء الذين كان يختارهم النبي (ص) ذو سابقة عريقة واصحاب تجارب قبل ان يتولوا المسؤولية وقد يزل البعض منهم عندما يجد من يحاسبه .

استعمل النبي (ص) رجلاً من الأزدي على الصدقات وعندما حاسبه في الاموال التي جاء بها قال الازدي هذا لكم وهذا أهدي اليّ فغضب رسول الله (ص) من كلامه وقال لأصحابه ما بال الرجل نستعمله على العمل من ولانا الله فيقول هذا أهدي لي ؟ أفلا قعد في بيت أمه وأبيه فنظر أبيه الى أم لا والذي نفسه بيده لا نستعمل رجلاً على العمل مما ولانا الله منه شيئاً إلا جاء به يوم القيامة يحمله على رقبته ان كان بغيراً له رغاء ، وإن كانت بقرة لها خوار وان كانت شاة تمغر ثم رفع يده الى السماء وقال اللهم هل بلغت قالها مرتين او ثلاثة^(١) .

وكان في الخطاب عبرة ودرس للولاء الآخرين .

والتاريخ يقدم لنا نماذج معكوسة ايضاً فقد استعمل رسول الله (ص) عبد الله بن رواحة على اموال خيبر وحاول اليهود ان يرشوه بمقدار من الحلي من حلي نسائهم قائلين له هذا لك ، طالبين منه ان يخفف عنهم .

(١) القرشي: النظام السياسي في الإسلام: ص ١١٦ .

فهاج عبد الله بن رواحة فرد على طلبهم مخاطباً اياهم . .

يا معشر اليهود انكم لمن أبغض خلق الله تعالى الي ، وما ذاك بحاملي
على ان احيف عليكم واما ما عرضتم علي من الرشوة فانها السحت وانا لا
نأكلها . . فأعجب اليهود بهذه المقالة فأقروا بعظمة الاسلام الذي صنع مثل
هذه النماذج قائلين بهذا اقامت السماوات والارض .

وكان رسول الله (ص) لا يعين احداً في هذا المنصب إلا بعد ان يتأكد من
صلاحه وبعد ان يجتاز فترة من التجربة واكتساب الخبرة .

فقراءة سريعة في حياة العلاء بن الحضرمي تشير الى انه كان من العناصر
القوية في الجهاز الاداري فكان يتحلى بقدرة فائقة على الاقناع والتأثير في الآخرين
وهي سمات هامة في الشخص الذي ينتخب . . فقد ارسله الرسول (ص) الى
البحرين وكان زعيمها يومذاك المنذر بن ساوى فاستطاع العلاء بحنكته السياسية
ان يقنع الملك بالمصالحة وان يستثمر هذه المصالحة لنشر الدين الاسلامي في
هذه البقعة وعلى رغم هذه الكفاءة نجد ان رسول الله (ص) يعزله لمجرد ان
تصل اليه شكوى من اهالي تلك المنطقة إذ ليس من السهل على الحاكم وحتى
ولو كان جيداً ان يحكم في اجواء انعدام الثقة .

فقد كانت البحرين منطقة بعيدة عن المركز وتتكون من مجتمع غير
متجانس فيضم بالاضافة الى المسلمين المسيحيين وبالاضافة الى
العرب الفرس ايضاً وتاريخياً كانت البحرين للدولة الفارسية وكانت تطمح الى
التحرر على ايدي المسلمين .

وكانت محاسبته (ص) لولائه تشمل حتى الامور الطفيفة فقد جاء أهل اليمن
يشكون اليه تطويل معاذ بن جبل في صلاته فزجره رسول الله (ص) وقال من أم في
الناس فليخفف .

٣ - الجهاز القضائي :

نشأ في العهد الاسلامي الاول نواة للجهاز القضائي وأول من تصدى امور القضاء كان هو (ص) إذ لم يكن التجمع الاسلامي من السعة بحيث يحتاج الى اكثر من قاضي واعظم المشكلات التي واجهت المسلمين يومذاك كانت ذو منشأ سياسي او عقائدي حيث كانت المدينة تعج بالفئات الاخرى غير الاسلامية الامر الذي جعل رسول الله (ص) يتحمل بنفسه مسؤولية القضاء في الدولة الاسلامية .

ويذكر لنا التأريخ انه كان يقضي في الخصومات التي كانت تبرز في بداية تكوين الدولة الاسلامية .

ووضع رسول الله من خلال ممارسته لهذه المسؤولية أسس القضاء في الاسلام فالذين عينهم لهذه المهمة فيما بعد كانوا يسلكون نفس هذا الطريق في القضاء فكانوا يجدون الطريق امامهم معبدا فقد سنّ رسول الله (ص) من خلال اقواله وافعاله طريقة اصدار الحكم في المسائل القضائية فقال البينة على من ادعى واليمين على من أنكر وهو بذلك يضع قانوناً هاماً في فصل المنازعات والمخاصمات بين المدعي والمدعى عليه .

ويدع الرسول (ص) مجالا للقاضي لأن يعمل فكره في استنباط الحكم القضائي فيقول إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله اجران ، وان اخطأ فله اجر . فكان أمام القضاة ثلاثة مصادر لاصدار الحكم الكتاب ، سنة رسول الله ، والاجتهاد . ولخطورة امر القضاء كان رسول الله (ص) لا يعتمد في هذا الامر إلا على من يثق بحسن قضاؤه وكان يدفع باصحابه للتمرس في هذه الوظيفة الهامة فخرج من بين اصحابه افراد متخصصين في القضاء كالإمام علي (ع) وكان (ص) قد أقر بهذه الحقيقة بين اصحابه بقوله أفضاكم علياً ويشهد التأريخ

ان افضل من تولى هذه المسؤولية بعد رسول الله هو الإمام علي (ع) وكان موضع اعتماد الخلفاء الراشدين إذ بدونه لم يكن باستطاعتهم ان يفكوا الغاز المشاكل القضائية المعقدة حتى قال فيه الخليفة عمر بن الخطاب لولا علي لهلك عمر . . إذ كان علي بن ابي طالب (ع) أوعى المسلمين بكتاب الله وافهمهم لسنة رسوله واقدروهم على الاجتهاد وهي الأسس التي تعتمد عليها المهمة القضائية .

ونستنتج من تولي رسول الله (ص) مهمة القضاء ثم اعتماده على قلة من اصحابه كمحمد بن مسلمة الانصاري الذي خاض عدة مهمات قبل أن يصل الى دفعة القضاء فكان ممن شارك في اغتيال كعب بن الاشرف واستخلفه الرسول (ص) على المدينة في عدة غزوات ولم يصل الى مرتبة القضاء إلا بعد ان عُرف بأمانته وصدقه وتفانيه .

وايضاً معاذ بن جبل حيث عرف بأمانته وصدقه حتى قال فيه رسول الله يوم بعثه في مهمة القضاء (اني قد عرفت بلاءك في الدين)^(١) واراد رسول الله (ص) ان يعلمه كيفية القضاء فسأله عندما اراد ارساله الى اليمن « كيف تقضي إذا عرض عليك قضاء » قال اقضي بكتاب الله ، قال فإن لم تجد في كتاب الله قال فبسنة رسول الله (ص) قال فإن لم تجد في سنة رسول الله ولا في كتاب الله قال اجتهد رأيي ولا الو فضرب رسول الله صدره وقال الحمد لله الذي وفق رسول الله لما يرضى رسوله^(٢) .

وفي القضايا المعقدة كان القضاة يستشيرون الرسول (ص) . فقد جاء في احدي وصاياه لمعاذ لا تقضين ولا تفصلن إلا بما تعلم وإن أشكل عليك أمر

(١) الإصابة : ج ٦ ص ١٠٦

(٢) سنن أبي داوود : ج ٢ ص ٢٧٢ .

فقف حتى تبينه أو تكتبه اليّ فيه .

والرسائل المتبادلة بينه وبين الإمام علي (ع) في مجال القضاء يرسم الرسول (ص) معالم النظام القضائي في الاسلام . فقد روى عن الإمام علي (ع) إنه قال بعثني رسول الله الى اليمن قاضياً فقلت يا رسول الله ترسلني وأنا حديث السن ولا علم لي بالقضاء فقال إن الله يهدي قلبك ويثبت لسانك فاذا جلس بين يديك الخصمان فلا تقضين حتى تسمع من الآخر ما سمعت من الاول فإنه أحرى ان يتبين لك القضاء قال : فما زلت قاضياً وما شككت في قضاء بعد^(١) وسأل علي (ع) الرسول مرة يا رسول الله ان عرض لي امرٌ لم ينزل فيه قضاء في امره ولا سنة كيف تأمرني ؟ قال تجعلونه شورى بين اهل الفقه والعابدين من المؤمنين ولا تقضي فيه برأي خاصة^(٢) .

وهناك جملة وصايا وردت على لسان النبي (ص) في القضاء وفي القاضي منها .

لسان القاضي بين حجرتين من نار حتى يقضي بين الناس فإما الى الجنة وإما الى النار^(٣) .

ساعة إمام عادل أفضل من عبادة سبعين سنة وقد يقام لله في الارض أفضل من مطر أربعين صباحاً^(٤) .

ان أحب الناس الى الله يوم القيامة وأدناهم منه مجلساً إمام عادل وأبغض الناس الى الله تعالى وأبعدهم منه مجلساً إمام جائر^(٥) .

(١) سنن أبي داود : ج ٢ ص ٧٢ .

(٢) كنز العمال : ج ٥ ص ٨١٢ .

(٣) الوسائل : ج ١٨ ص ١٦٧ .

(٤) الوسائل : ج ١٨ ص ٣٠٨ .

(٥) سنن الترمذي : ج ٢ ص ٣٩٤ .

وورد عنه أيضاً الله مع القاضي ما لم يجز ، فإذا جار تخلّى عنه ولزمه الشيطان^(١) .

وُستنتج من ذلك إنه (ص) كان يهتم بالقضاء لارتباطه المباشر بالعدالة الاجتماعية والسياسية . وأنشأ جهاز دقيق على رأسه أكفأ أصحابه وبالرغم من تصديه المباشر لامور القضاء إلا إنه (ص) كان ينتهج أسلوباً يؤدي الى فصل السلطة القضائية عن السلطات الاخرى ، عندما كان يجلس بين الخصمين لم يكن يتمثل حينذاك إلا بالقاضي العادل ويذكر لنا التأريخ إنه (ص) كان في احدى المرات طرفاً في قضية قضائية رفعت ضده من يهودي وتمكن اليهودي ان يحتجز النبي (ص) وقتاً طويلاً بسبب افتقار النبي (ص) للبيئة .

وجرت العادة على تقسيم الجهاز القضائي الى قسمين الاول يتولى مسؤولية النظر في القضايا والفصل فيها وكان يُسمى (بالايجاب) أي إيجاب الحكم ويكمّله جهاز آخر للتنفيذ يُسمى (الاستيعاب) ويقوم بتنفيذ الحكم^(٢) .

كما وإنه قد أعدّ مكاناً لحجز المتهم فقد اتخذ من بيت بنت الحارث مكاناً للسجن وهو خاص لحجز الرجال واتخذ مكاناً في باب المسجد لحجز النساء وفي عهد عمر كان المتهم يوضع في البئر حتى عهد الإمام علي الذي كان أول من بنى السجن المتعارف عليه .

٤ - الجهاز الفني

ويشمل الكتاب والمترجمين الذين كانوا يعملون في مقر القيادة كموظفين دائمين او كمتطوعين في هذا العمل في فترات الحاجة .

(١) سنن الترمذي : ج ٢ ص ٣٩٥ .

(٢) محمد نظرة عصرية أول دستور للدولة الإسلامية، محمد عمارة: ص ٩٩ .

ومع تنوع مسؤوليات الدولة الاسلامية توسعت الحاجة الى الكتبة فكانت هناك ضرورة وجود من يكتب للملوك ورؤساء القبائل من يقوم بتحرير المعاهدات والمواثيق التي كانت تُبرم بين المسلمين وغيرهم وهناك من كان يكتب القرآن الكريم ويحرر المعاهدات المالية والمدائنات التي كانت تجري بين المسلمين وهناك من كان يدون الأموال التي تُجبي من الزكاة ومن الصدقات ومن الكتاب من كان يكتب أسماء الجنود واحتياجاتهم والعطاء الذي يأخذونه بعد كل معركة .

وقد خصص النبي (ص) لكل حقل من حقول الكتابة شخصاً معيناً . فاختص الإمام علي بن أبي طالب في كتابة المواثيق الرسمية كمعاهدة الحديبية وزيد بن ثابت كان يتولى تحرير الرسائل للملوك ورؤساء العشائر . وممن كان يعمل في هذا الجهاز أبي بن كعب الذي كان يكتب الوحي عند نزوله على النبي (ص) وممن كان يكتب له عبد الله بن الأرقم بن أبي أرقم وهو خال النبي^(١) وكان يكتب الرسائل الى الملوك وبلغ من فرط أمانته ، انه كان يكتب الرسائل ويختم ولا يقرأ ما يكتبه . وكانت طريقته في الكتابة إنه كان يكتب فحوى الرسالة ثم يعرضه على رسول الله (ص) .

كُتب للنبي (ص) كتاباً فطلب من عبد الله بن الأرقم ان يجيب عليه فأجابهم ثم جاء به الى النبي (ص) فرضي عما كتبه^(٢) . وظلّ عبد الله على مهنة الكتابة حتى بعد وفاة النبي (ص) ففي عهد الخليفة عمر بن الخطاب كان على الأموال وفي عهد عثمان على هذه الوظيفة ، ويذكر إن عثمان بن عفان قد أجازته ثلاثمائة ألف فأبى أن يقبلها قائلاً ؛

(١) الإصابة: ج ٤ ص ٣٢ .

(٢) الإصابة: ج ٤ ص ٣٣ .

انما عملت لله

وهذا ما يدل على مدى اخلاص عبد الله وأمانته وهي سمة مطلوبة في مثل هذه الوظائف وكان عبد الله الموظف المتفرغ في الكتابة في عهد رسول الله وإذا ما غاب أناب عنه رسول الله (ص) أحد صحابته .

وعلى الظاهر إن هؤلاء الكتاب كانوا يحررون ما يريده رسول الله (ص) ثم يعرضونه عليه فيما بعد ثم يُختم بختم خاص كان مع أحد الصحابة هو المعقب ابن ابي فاطمة الدوسري الذي كان موظفاً بخزانة الخاتم والتصديق على الكتب بعد الموافقة عليها .

ومن الكتاب حذيفة بن اليمان فهو كان يكتب خرص ثمار الحجاز ، وزيد كان يكتب اموال الصدقات والمغيرة بن شعبة كان يكتب المداينات والمعاملات وشرحبيل بن حسنة كان يكتب التوقيعات الى الملوك .

ومع مرور الزمن تطور جهاز الكتابة فأصبح جهازاً فنياً متخصصاً يعتني في رسم الحروف بصورة جميلة فهذا علي بن أبي طالب (ع) يطلب من كاتبه عبد الله بن أبي رافع ان يحسن كتابته فيقول له يا عبد الله التي دواتك واطل شباه قلمك وفرّج بين السطور وقمط بين الحروف .

ويجدر ذكره هنا أيضاً التطرق الى قسم الترجمة ضمن الجهاز الفني ، فمنذ أن وطأ رسول الله (ص) أرض المدينة جاءه شاب وقف قبالة وأخذ يقرأ سوراً من القرآن فقرأ سبع عشرة سورة فأعجبه ذلك فطلب منه أن يتعلم العبرية قائلاً له ؛

تعلم كتاب يهود فاني ما آمنهم على كتابي ولم يمض عليه نصف شهر حتى حذقه ولنباهته اختاره الرسول (ص) لأعمال الترجمة ، فكان يترجم له الى الفارسية والرومية والقبطية والحبشية وقد تعلم جميع هذه اللغات في المدينة

لأنها كانت تضم اقلية من فارس والروم ومصر والحيشة . وكان زيد بن ثابت يكتب الرسائل باللغات المذكورة أيضاً بالإضافة الى قيامه بالترجمة الفورية بين يدي الرسول للخطب والأحاديث المتبادلة بينه وبين الوفود القادمة من خارج الجزيرة العربية .

ويُستنتج من ذلك إن الدولة الاسلامية كانت تمتلك جهازاً فنياً متكاملأً كان له نصيبٌ وافر في إدارة دفة الحياة السياسية والمالية في الدولة الاسلامية .

٥ - الجهاز المالي :

ويشمل هذا الجهاز جباة الصدقات والموكلون على بيت المال والكتبة الذين يكتبون العطاءات السنوية . وقد برزت الحاجة لانشاء هذا الجهاز مع تدشين مرحلة المواجهة المسلحة التي كانت تدر مقادير كبيرة من الغنائم ، وبالإضافة الى الغنائم كان لتشريع الزكاة سبب آخر في انشاء هذا الجهاز لكنه بدأ بصورة بسيطة في عهد رسول الله (ص) وتوسع في العهود المتعاقبة حتى أصبح من اكبر الأجهزة الادارية العاملة في الدولة الاسلامية .

مصادر الخزينة :

تقوم الخزينة (بيت المال) بدور كبير في تدوير كتل الأموال من أيدي الأغنياء الى أيدي الفقراء ، وتدويرها من أماكنها الراكدة الى ميادين العمل والانتاج والبناء فبيت المال هو قلب الاقتصاد الاسلامي وعصب الحياة في الدولة الاسلامية .

من هنا جاء اهتمام الرسول الأكرم (ص) بانشاء بيت المال والتركيز على جباية الأموال (الصدقات) . والطريقة الانسانية التي تُجبى فيها الأموال من مصادرها المشروعة . والمصادر المشروعة هي :

١ - الزكاة .

٢ - الخراج .

٣ - الجزية .

٤ - الغنائم .

٥ - الفياء .

١ - الزكاة :

وهي أول ضريبة وضعت على أموال الأغنياء وفي بداية الأمر كانت ضريبة اختيارية حيث أثنى القرآن الكريم على من يعطيها ﴿ والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم ﴾ وظلت هكذا حتى نزول الآية ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصلّ عليهم ، ان صلاتك سكن لهم ﴾ ولا تجب الزكاة إلّا في ثلاثة شروط هي : انها تجب على الغلات الأربع (الحنطة ، الشعير ، التمر ، الزبيب) وعلى الأنعام الثلاثة (الابل ، والبقر ، والغنم) وعلى النقدين (الذهب والفضة) .

٢ - وصول الثروة حد النصاب ، ونصاب الغلات الأربع ما يعادل ٨٤٧ كيلو غراماً و٣٠٧ غراماً أما نصاب الأنعام فللإبل اثني عشر نصاباً يبتدىء من خمس وزكاته شاه حتى ١٢٠ وأكثر وزكاته ان يعطي مقابل كل أربعين بنت لبون .

أما البقر فله نصابان الأول ثلاثون فيدفع مقابلها تبعة^(١) والنصاب الثاني أربعون وزكاته مسة^(٢) . أما نصاب الغنم فهو على خمسة أشكال أربعون وزكاتها شاة و١٢١ وزكاتها شاتان و٢٠١ وزكاتها ثلاث شياة و٣٠١ وزكاتها أربع و٤٠٠ فما فوق كل مائة يدفع عنها شاة .

(١) تبعة: البقر الذي دخل في السنة الثانية .

(٢) مسة: البقر الذي دخل في السنة الثالثة .

أما نصاب الذهب فهو نصابان الأول عشرون مثقالاً مثقالاً شرعياً فعليها (٤٠/١) أي ربع عشرها والنصاب الثاني هو زيادة أربعة مثاقيل شرعية على النصاب الأول فيدفع ربع عشر ٢٤ مثقالاً . أما نصاب الفضة فالأول هو بلوغه ١٠٥ مثقالاً وزكاته ربع العشر والثاني إذا ازداد عن النصاب الأول بمقدار ٢١ مثقال فيجب الزكاة على ١٢٦ مثقال .

وهذه الأنصبة والمقدار الموضوع عليها لم يأت بها القرآن الكريم بل حددتها السنة النبوية .

٣ - مرور عام على ملكية الأشياء التي تجب عليها الزكاة فدون هذه لا يأخذ منها .

وقد وضع رسول الله (ص) وعبر هذه الفريضة أساساً متيناً للعدالة الاجتماعية ومحو مشاعر الطبقة بين الأغنياء والفقراء . فالمال الذي يعطيه الغني هو مال الله وهو ليس إلا أمين على هذا المال يجب عليه ان يعيده الى أصحابه . من هنا جاءت الآية الكريمة صريحة في ذلك ﴿ وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ﴾ (١) ومن هنا أيضاً صدع القرآن ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ بِهَا ﴾ فالزكاة هو تطهير للغني ومناعة ضد الأمراض الاجتماعية والاقتصادية من احتكار واستغلال وتكبر والزكاة تطهير للمجتمع من الفقر ومن الطبقة لأن الغني الذي يعيش الى جنب الفقير لا يجد ما يرضي ضميره إلا وان يخرج هذه الضريبة التي وضعها الاسلام على ماله فهو يدفع الزكاة الى الفقير براحة قلب وضمير أما الفقير فهو لا يشعر بالضيق عندما يقبض ذلك المال الذي فرضه الله له في مال الغني وهو في الأصل من مال الله الذي أودعه أمانة عند الاغنياء وعلى

(١) سورة النور، الآية: ٣٣ - ٢٤ .

هذا الاساس القويم استطاع الاسلام ان يُزيل الكثير من الفروقات الطبقيّة في المجتمع الاسلامي ليس في مجال المال وحسب بل حتى في مجال المشاعر والاحاسيس .

٢ - الخراج :

وهي الضريبة التي تفرض على الأرض المفتوحة عنوة أو التي صالح المسلمون عليها المشركين على مقدار معين من حاصلاتهم أو من أموالهم . وهي أراضي كانت تزايد مع تزايد الفتوحات وتزايد معها الأموال المفروضة .

وقيمة هذه الضريبة ليست ثابتة بل تتراوح حسب الاتفاق المبرم وحسب الانتاج . فالنبي (ص) صالح أهل خيبر على نصف ما تدره الأرض ، وأصبح الخراج أهم مصادر التمويل للميزانية في عهد الخلفاء الراشدين حيث ازدهرت الفتوحات في عهدهم . فازدادت الأراضي التي استولى عليها المسلمون . ومع تزايد عدد الذين أسلموا من الشعوب الاخرى وحدث انخفاض محسوس في ضريبة الجزية كان الاعتماد يزداد على الخراج في تمويل الخزينة الاسلامية ..

٣ - الجزية :

وهي ضريبة توضع على الرؤوس لا على الأرض وهذا هو محل الفرق بين الجزية والخراج . وهي تفرض على الذميين في قبال توفير الأمن والحماية لهم ولأهلهم ولأموالهم وهي تماثل الزكاة التي تفرض على المسلمين ولا حد لها عند الكثير من الفقهاء بل هي موكولة لحاكم الشرع الذي يقرر مقدار الجزية على حسب المصلحة الاسلامية . وهي تؤخذ من الأغنياء فقط مثل الزكاة ولا تؤخذ من النساء والأطفال والمجانين والشيوخ والمقعدين والعميان والفقراء . والجزية لم تكن شيئاً جديد ابتدعه المسلمون بل كانت قائمة قبل الاسلام وبصورة مضاعفة ، فالليونان كانوا يفرضون الجزية على الأمم الخاضعة لهم

وكذلك الفرس وكان المقدار المفروض سبعة أضعاف أو أكثر من الجزية التي فرضها رسول الله (ص) بالاضافة الى أنه لا تؤخذ إلا من الغني كما وأن الأسلوب الذي يؤخذ فيه الجزية يختلف بين الاسلام وغيره . فكان المسلمون يتلطفون مع أهل الذمة حين أخذهم الجزية ولا يعتدون عليهم عند ممانعتهم . وفي مقابل أخذ الجزية كان الاسلام يكفل المساكين والمقعدين والعاطلين عن العمل من أهل الذمة . في الواقع أنّ الاسلام أراد ان يوجد توازناً اقتصادياً واجتماعياً فليس من المعقول ان يدفع المسلمون الضريبة التي عليهم ويعفى أهل الذمة الذين يتمتعون بظل الدولة الاسلامية من أية ضريبة .

٤ - الغنائم :

وهي من المصادر الهامة في تقويم الخزينة الاسلامية . والغنائم مصدرها الحرب .

وتقسّم بعد استخراج الصوافي^(١) خمسة اخماس ، الخمس الأول يقسم حسب الآية الكريمة : ﴿ واعلموا ان ما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾ أما أربعة أخماس الأخرى فهي تصرف على المقاتلين وعلى المسلمين .

وكان أول ما غنمه المسلمون كان بعض ابل لقريش محملة أدماً وتجارة في جمادي الآخرة من السنة الثانية في مكان يقال له نخلة بين مكة والطائف وذلك قبل معركة بدر أثناء عملية استكشافية كانت تقوم بها سرية من الجيش الاسلامي ثم حصلت معركة بدر في رمضان السنة الثانية للهجرة فغنم المسلمون أموالاً طائلة وسلاحاً وفيراً . وبعد شهر أي في شوال من نفس ذلك العام غنم

(١) وهي ما تكون للإمام خاصة .

المسلمون أموال يهود بني قينقاع بعد ان نقضوا العهد فاجلوا من أماكنهم الى بلاد الشام . وبعد ستة أشهر من معركة أحد حاصر المسلمون بني النضير الذين تواطأوا مع الأعداء ونقضوا العهد مع رسول الله (ص) وأرادوا قتله عندما ذهب اليهم في أخذ دبة القتيلين . وبعد حصار استمر خمسة عشر يوماً صالحهم على ان يتركوا أرضهم للمسلمين ويأخذوا معهم ما حملت الابل ما عدا الحلقة وهي السلاح .

وتوالى الانتصارات ومع كل انتصار يكسب المسلمون ثروة طائلة ففي معركة الأحزاب غنم المسلمون أموالاً وأسلحة كثيرة ولأن الأحزاب اجتمعوا لتصفية المسلمين بتدبير من يهود بني قريظة آخر قبيلة يهودية في المدينة فقد مال رسول الله (ص) عليهم ولم ينته القتال إلا بتحكيم سعد بن معاذ الذي قضى بقتل المقاتلة وتقسيم الأموال .

ويقدم النبي (ص) الى مكة ويعقد صلح الحديبية وبعد تأمين الطرف الجنوبي يتحول الى الشمال نحو خيبر آخر قلاع المتأمرين ويفتحها عنوة في محرم السنة السابعة للهجرة ويغنم المسلمون من خيبر خيراً كثيراً أما الأراضي فصالح رسول الله أهلها على ثمرها بصورة مقاسمة على النصف . وبعدها يصالح رسول الله (ص) فذك على نصف الأرض فتكون له خالصة لأنها أخذت بلا قتال . وفي رمضان السنة الثامنة للهجرة يفتح المسلمون مكة لكن دون ان تمس أموال المكيين . وفي شوال من نفس السنة يحققون نصراً موزراً على قبيلة هوازن في غزوة حنين فيغنم المسلمون أموالاً كثيرة ويأسرون اعداد كبيرة من المشركين فيعفو رسول الله عن السبي ويتأسى به المسلمون وتأتي السنة التاسعة ففي رجب تقوم غزوة تبوك فيصلح القبائل الخاضعة للنفوذ البيزنطي على الجزية . فصالح بعضها على المال (دينار) عن كل شخص وصالح قبائل أخرى على ثمارها مثل أهل قضا صالحهم على ربع ثمارها وهي قبيلة يهودية

ومع تلاحق الانتصارات سارعت القبائل الى عقد المصالحة مع الدولة الاسلامية على اعطاء الجزية .

فعقد مع نجران صلحاً على ان يدفعوا في قبال الحماية التي توفرها لهم الدولة الاسلامية ألفي حلة وان عليهم عارية ثلاثين درعاً وثلاثين فرساً وثلاثين بعيراً ، إذا كان باليمن كيد كما ان عليهم ضيافة الرسل الذين يرسلهم النبي (ص) عند مرورهم في منطقتهم . وكان رسول الله يقسم الغنائم حسب المصلحة الاسلامية ، فقسم أموال بني النضير على المهاجرين الذين لم يك يملكون إلا القليل لاعادة التوازن الى المجتمع الاسلامي ومنح اثنين من الأنصار قسماً من الغنيمة وهم من الفقراء .

أما في بقية الحروب فكانت الغنائم تقسم على شكل أسهم للفارس ثلاثة أسهم وللفرس سهمان وللراكب سهم . أما للرجل فسهم واحد . وظل يسير على هذه القاعدة في معظم معاركه الأخيرة لكنه في بعض الأحيان كان يرى من المصلحة ان يعطي للبعض اكثر من سهمهم مثلما حدث في حنين عندما أعطى أسهم لأبي سفيان وبقية المؤلفه قلوبهم أكثر من استحقاقهم وذلك لتحقيق مصلحة سياسية .

٥ - الفياء :

وهي أموال يغنمها المسلمون دون قتال ودون ايجاف بخيل ولا ركاب فهي تقسم على ستة أسهم بناءً على الآية الكريمة ﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾ قيل كان قسمة الفياء في مبدأ الاسلام هكذا ثم نسخ ذلك بالآية ﴿ واعلموا انما غنمتم من شيء فإن لله خمسة . . ﴾ (١) .

(١) كنز العرفان في فقه القرآن : ج ١ ص ٢٥٦ .

بعد ان اختلف الصحابة في تقسيم غنائم بدر إذ جاءت الآية (واعلموا)
لتشرح طريقة القسمة لكان للامام مع من ذكر في الآية الخمس وصارت الأربعة
الأخماس الباقية حقاً للفاتحين^(١) .

الجباة :

وقد عيّن رسول الله (ص) أشخاصاً من أصحابه قد عرفوا بأمانتهم وحسن
خلقهم لجلب الصدقات فبعث عُدَيّ بن حاتم وهو نجل كريم آل طيء الى
عشيرته وعلى بنى أسد لتصفية صدقاتهم وبعث زياد بن ليلى الى حضرموت .
وبعث مالك بن نويرة على صدقات بني حنظلة . وبعث بالزبرقان بن بدر وقيس
ابن عصام على صدقات بني سعد في جهتين مختلفتين وبعث العلاء بن
الحضرمي على البحرين وبعث بالمهاجر بن أبي أمية بن المغيرة الى صنعاء كما
وبعث علي بن أبي طالب (ع) الى أهل نجران ليجمع صدقاتهم .

السياسة النقدية :

استبدل رسول الله (ص) نظام تبادل البضائع وهو ما كان شائعاً قبل
الاسلام ووضع بدلاً منه نظاماً نقدياً قائماً على الذهب والفضة . فقد ورد عن
أبي سعيد الخدري ان رسول الله (ص) استعمل رجلاً على خيبر فجاءه بتمر
جنيب فقال رسول الله (ص) أكل تمر خيبر هكذا فقال لا والله يا رسول الله انا
لنأخذ الصالح من هذا بالصاعين والصاعين بالثلاثة فقال رسول الله (ص) لا
تفعل بع الجمع بالدرهم ثم ابتع بالدرهم جنيباً .

وهو بذلك قد وضع سياسة نقدية ثابتة أساسها الدرهم والدينار . وقد
أوجدت هذه السياسة قفزة نوعية في الحياة الاقتصادية في جزيرة العرب فقد

(١) الماوردي، الاحكام السلطانية: ص ١٢٥ .

منحت حرية واسعة في عملية البيع والشراء بعد ان كانت هذه العملية مقيدة . كما وان النظام النقدي الجديد سهل عملية البيع والشراء وجعلها تجري بسهولة ودون بروز أي اختلاف بين طرفي الصفقة وبهذا قللت هذه السياسة المشاكل القضائية التي قد تنشأ من مبادلة البضائع . وأيضاً سهّل النظام النقدي الجديد عملية انتقال البضائع والأموال من بلد الى آخر دون خوف عليها من تلف قيمتها .

كما وان النظام النقدي بالذهب والفضة أضاف مساحات كبيرة في عمليات التبادل التجاري فأصبح من يبيع التمر قادراً على شراء ما يريد في أي زمان كان وليس مقيداً بشراء بضاعة مساوية قد لا يحتاجها .

ولتدعيم النظام النقدي أقام رسول الله (ص) قواعد هامة هي :

١ - تثبيت قيمة العملة بحيث تصبح بعد تثبيتها هي المقياس في تعيين قيمة البضائع التي يراد بيعها او شراءها . فقد حدد رسول الله قيمة مثقال الذهب بدينار وقيمة ألف دينار مساوية لمائة من الابل وذلك عند تحديده دية النفس المؤمنة فقال في كتابه الى أهل اليمن « وان في النفس المؤمنة مئة من الابل وعلى أهل الورق ألف دينار » فجعل للنقد قيمة ثابتة فأصبح مقياساً للقيم الأخرى .

٢ - وضع مقاييس نقدية تقوم على ميزان الذهب والفضة كالأوقية والدرهم والدانق والقيراط والمثقال والدينار فأصبح الذهب والفضة المقياس الذي تقوم عليه هذه الموازين . فالدينار هو مثقال من الذهب الشرعي وهو ما يساوي اليوم ثلاثة أرباع مثقال الصاغة وكل عشرة دراهم يساوي سبعة مثاقيل شرعية من الفضة الخالصة وهو ما يساوي خمسة مثاقيل وربع مثقال من مثاقيل الصاغة والأوقية الشرعية أربعون درهماً والدرهم ست دوانق والدينار أربعة وعشرون قيراطاً . وكانت تجري المعاملات الاقتصادية على هذه الموازين الشرعية .

٣ - منع كثر الذهب والفضة ﴿ والذين يكتزون الذهب والفضة لا ينفقونها في سبيل الله ﴾ والعلة في ذلك ان الذهب والفضة هما نقدان يجب تداولهما لضمان السيولة النقدية في السوق . فكثر العملة يسبب ركوداً اقتصادياً وسيترك آثاراً وخيمة على الحياة الاقتصادية . فطالما ان الاسلام قد اعتبر الذهب والفضة نقدين فلا بد من تداولهما وعدم حجزهما في أماكن لا ينتفع منها .

٤ - ومن أجل منع تراكم العملة في ايدي واحدة فرض الاسلام ضريبة على الذهب والفضة وسميت (بركة النقيدين) . وهي مقدار من المال يفرض على هذين النقيدين عندما يبلغا حدّ النصاب . وهذا أفضل السبل لمنع تراكمهما في مكان واحد بنقل قسم من هذا النقد الى أيدي محتاجة فتعود العملة الى التداول من جديد بعد ان كانت مهددة بالركود .

وبركة النقيدين وضع الاسلام نظاماً رائعاً في تضمين التداول المستمر للنقد والذي في يده مقداراً فائضاً من النقد يعطيه لمن لا يملك وبذلك تبقى حركة النقد فعالة لا تتوقف ومعها تتحرك عجلات الاقتصاد .

٦ - الجهاز الدبلوماسي :

أخذ الرسول (ص) يتحرك سياسياً بعد ان ثبتت ركائز الدولة الاسلامية خلال ست سنوات وبالضبط بعد صلح الحديبية التي اعتبرت بمثابة اعتراف رسمي من قبل قريش بدولة الاسلام فقد استفاد الرسول (ص) من الأجواء التي أفرزها هذا الاعتراف القانوني حيث كانت الدول المجاورة تتعامل مع قريش باعتبارها تمثل الزعامة العربية في جزيرة العرب ومن ناحية اخرى أدى صلح الحديبية الى تفرغ الرسول (ص) نحو ترتيب الوضع السياسي للدولة الاسلامية بإيصال صوت الاسلام الى أرجاء العالم فكانت مخاطبته للملوك والرؤساء بعد ان انتشر خبر ظهور الدين الجديد وبروزه ككيان مستقل عن الكيان القرشي .

شعر الرسول (ص) وبعد استتباب الدولة الاسلامية ونشوء أمة من المؤمنين الصامدين الأقوياء في ايمانهم وشجاعتهم انه قادر على الانتقال الى مرحلة جديدة هي مرحلة الانتشار فشرع بحمل سلاح الكلمة وطفق جمع من الصحابة يجوبون بهذه الكلمة من عاصمة الى اخرى حاملين روح الاسلام وكلمته عبر الرسائل التي خطتها يد رسول الله (ص) .

والاسلام دين المنطق والعقل فهو لا يخشى الكلمة ولا يخاف الحوار وهما الطريق الأرحب الى الانتشار . . الاسلام لم ينتشر بالسيف إذ كان دور السيف في نهاية المطاف عندما تفقد الكلمة قدرتها على التأثير في بعض العقول المتحجرة . فالاسلام دين الفكر يعيش بالفكر والتفكير والحوار وينتشر بالفكر والتفكير والحوار يؤمن به أصحاب القلوب الواعية والأفكار النيرة وأرباب الحوار والمناقشة السليمة .

لقد ظلم الاسلام أولئك المستشرقون الذين قالوا عنه انه انتشر بالسيف . . كيف انتشر الاسلام بالسيف وهو يدين أهم وأخطر مرحلة من مراحل تاريخ التحرك بالكلمة الواضحة التي لا لبس فيها ولا غموض .

كتب الى قيصر كتاباً يقول فيه . . بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد ابن عبد الله الى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد . . فأني أدعوك بدعاية الاسلام ، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإنما عليك اثم الآريسين ﴿ ويا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأننا مسلمون ﴾ .

فهي إذن دعوة واضحة عبادة الخالق الواحد وعدم الشرك به وترك عبادة الأرباب مهما علا شأنهم وارتفعت مكانتهم وهي دعوة تقرها الفطرة السليمة ويعترف بها العقل السليم . هذه هي روح الاسلام بصورة مختصرة . بهذه

الكلمة المختصرة صدع الرسول (ص) أول مرة في مكة وهو لا يزال يردد الكلمة نفسها انها كلمة التوحيد جوهر الدين الجديد وكل التفاصيل تأتي بعد كلمة التوحيد . فإذا أقر الانسان بهذه الكلمة فكأنه قد أقرّ بكل التفاصيل . فالتوحيد يعني الارتفاع الى رحاب الله والتحلي بالصفات الخيرة وهو أيضاً نبذ الرذائل والعمل على ازالتها وهذا هو الاسلام من الألف الى الياء . لقد لخص رسول الله (ص) الاسلام الى الملوك بهـ ه الكلمة وبعث مع هذه الرسائل اشخاصاً على استعداد كامل لأن يعطوا المزيد إذا أرادوا المزيد .

فالنبي (ص) لم يكتف بالرسائل وحدها بل بعث يرسل تم اختيارهم لأداء هذه المهمة فهم يجيئون إذا سؤلوا ويناقشون إذا نوقشوا .

والرسل الذين وقع عليهم الاختيار هم :

- ١ - عبد الله بن حذافة السهمي بعثه الى كسرى ملك الفرس .
- ٢ - حاطب بن ابي بلتعة بعثه الى المقوقس عظيم القبط .
- ٣ - دحية بن خليفة الكلبي أرسله الى هرقل ملك الروم .
- ٤ - جعفر بن ابي طالب الى النجاشي ملك الحبشة .
- ٥ - شجاع بن وهب الى الحارث الغساني ملك تخوم الشام .
- ٦ - سليط بن عمرو الى هوذة بن علي الحنفي ملك اليمامة .
- ٧ - عمرو بن العاص السهمي الى جعفر وعبد ملكي عمان .
- ٨ - العلاء بن الحضرمي أرسله الى ملك البحرين .
- ٩ - المهاجر بن أبي أمية - الى الحارث أحد ملوك اليمن .
- ١٠ - الحارث بن عمير الأزدي الى عظيم بصرى .

وقد نجح بعضهم في مهمته كجعفر بن أبي طالب حيث أسلم النجاشي على يده ومعه الرهبان والقساوسة . وأسلم ملكا عمان على أثر الرسالة التي وصلتتهما من النبي (ص) . أما المقوقس ملك مصر فقد أحسن استقبال السفير وبعث برسالة جوابية فيها اشادة بالنبي (ص) وبعث مع الرسالة جارييتين كهديّة الى النبي لكنه لم يعلن اسلامه .

وأما ملك الروم فقد كاد يؤمن لولا موقف القساوسة والرهبان الذين قابلوا رسالة النبي (ص) بالازدراء فحشي على ملكه واكتفى ببعث هذه الرسالة الى النبي (ص) « الى أحمد رسول الله الذي بشر به عيسى من قبل انه جائي كتابك مع رسولك واني أشهد انك رسول الله نجدك عندنا في الانجيل بشرنا بك عيسى ابن مريم واني دعوت الروم الى ان يؤمنوا بك فأبوا ولو أطاعوني لكان خيراً لهم ولوددت اني عندك فأخدمك وأغسل قدميك^(١) . ومن الذين أسلموا المنذر بن ساوى العبدي ملك البحرين على يد العلاء بن الحضرمي . أما بقية الرسل فقد تعثرت مهمتهم بغباء الذين بعثت اليهم الرسائل فكسرى ملك الفرس مزق كتاب رسول الله قبل ان يقرأه وطرد عبد الله بن حذافة من القاعة . أما شرحبيل بن عمرو الغساني عظيم بصرى فقد أوثق الحارث بن عمير الأزدي ثم قتله وهو الرسول الوحيد الذي لقي مصرعه من بين الرسل العشرة الذين بعث بهم رسول الله (ص) .

وأما هوزة بن علي ملك اليمامة فلما أتاها سليط يدعوه الى الاسلام وكان نصرانياً أرسل الى النبي بوفد يشترط على النبي شرطاً لاسلامه هو ان يحصل الأمر من بعده إذا أسلم وسار اليه ونصره وإلا قصد حربه فقال رسول الله (ص) : لا ولا كرامة اللهم أكفنيه فمات بعد قليل^(٢) .

(١) السيرة الحلبية : ج ٣ ص ١٧٧ .

(٢) ابن الاثير، الكامل في التاريخ : ج ٢ ص ٢١٥ .

وكان وراء اختيار النبي (ص) لهذه المجموعة من الصحابة المكونة للجهاز الدبلوماسي معايير ذات أهمية في انجاز المهام الدبلوماسية وهي :-

١ - اللغة فقد كان هؤلاء يتحدثون بلغات المناطق التي بعثوا اليها كما جاء في طبقات بن سعد وهذا يعني انهم مروا بفترة من التعليم المركز تعلموا لسان وعادات الاقوام التي ذهبوا اليها .

٢ - فترة الانتماء الى المسلمين فقد كانوا بأجمعهم ما عدا واحد منهم هو عمرو بن العاص ممن أسلموا قديماً فكان منهم الذي هاجر الى الحبشة كسليط ابن عمرو وأكثرهم من البدرين الذين ساهموا في كل المعارك التي خاضها المسلمون .

٣ - يمتلك جميع هؤلاء الرسل القدرة على البلاغة والاقناع . فمن ينظر الى حواراتهم مع الملوك الذين التقوا بهم يجد فيهم هذه القدرة العالية في البلاغة والأداء وقد سبق وذكرنا جانباً من بلاغة جعفر الطيار في قبال النجاشي .

وفي الحوار الذي دار بين المقوقس عظيم القبط وحاطب بن أبي بلتعة فاستفهم المقوقس - ما منعه - يقصد النبي (ص) ان كان نبياً ان يدعو على من خالفه وأخرجه من بلده الى غيرها ان يسلط عليهم ؟

فأجابه حاطب :

ألست تشهد ان عيسى بن مريم (ع) رسول الله فما له حيث أخذه قومه فأرادوا أن يقتلوه أن لا يكون دعا عليهم ان يهلكهم الله تعالى حتى رفعه الله اليه ؟

فبهر عظيم القبط بهذا المنطق الرصين فقال له . . أنت حكيم من عند حكيم .

٤ - الجلد والتحمل والصبر الطويل : فبعض الرسل أهينوا كعبد الله بن حذافة وبعضهم سجن ثم قتل كالحارث بن عمير ، ثم ان المهمة التي قاموا بها كانت تستدعي شجاعة عالية وقدرة كبيرة على تحمل الصعاب أقلها الطرق الطويلة التي كان عليهم ان يقطعوها في مدد قصيرة .

٥ - اتصافهم بالهبة والجمال فقد أشاد المؤرخون بجمال دحية الكلبي ووصفوه بأنه كان يشبه الملائكة في روعته وان جبرائيل كان يتمثل بهيئته عندما كان ينزل على النبي (ص) في اليقظة وكذا كان جعفر وعبد الله بن حذافة والآخرون .

دار الضيافة :

أخذت الوفود تقدم على النبي (ص) حيث أخذ الملوك يرسلون الرسل ويبعثون معهم الكتب وكانت مهام هذه الوفود تتطلب المكوث في المدينة لمدد قد تطول فكان لا بد من اعداد مكان لائق لضيافتهم فأختيرت دار رملة بنت الحارث النجاوية كدار للضيافة وتعين على ثوبان ان يقدم الخدمات المطلوبة لهذه الوفود عندما تحل في دار الضيافة أما المرافق العام للوفود عندما ترد الى المدينة ، فهو خالد بن سعيد بن العاص وأختير لبلاغته وقدرته على الاقتناع ، وقد لعب خالد بن سعيد دوراً فعالاً في اقناع بعض الوفود التي جاءت من أجل التفاوض مع رسول الله (ص) فعادت الى أوطانها مسلمة مؤمنة بالدين الجديد بفضل هذا التنسيق والتنظيم الذي كان قائماً . وقد كان خالد يتحمل المسؤولية الفكرية منذ اللحظة التي يطأ فيها الوفد قدمه أرض المدينة بينما كان بقية المسلمين كبلال بن رباح وثوبان يتحملون جوانب اخرى من المسؤولية فكان الوفد يعود وهو راضٍ عن الاسلام مبهور بما شاهده من سلوك المسلمين واخلاقهم الحسنة .

٧ - الجهاز العسكري :

منذ ان فكر رسول الله (ص) بنقل الدعوة الاسلامية الى المدينة أخذ يفكر أيضاً بكيفية مواجهة الأخطار التي تحدق بالكيان الجديد ، فبدأ بايجاد الاستعدادات الكافية لمواجهة الاحتمالات . ففي بيعة العقبة الثانية وعندما طلب من المسلمين الجدد المبايعة على قتال المشركين انما بذر في تلك البيعة بذرة المقاومة وأعدّ من تلك المجموعات نواة تشكل القوة العسكرية . فقد شرع الرسول (ص) في ذلك اليوم ببناء القوة العسكرية وترك الاذن الى الوحي .

وأصبح المسلمون في شوق الى القتال عندما وجدوا في انفسهم الاستعداد الكافي للقيام بهذه المهمة لكن سكوت الوحي عن ذلك جعل الجميع بانتظار لحظة الانطلاق وقد جاءت الآية تصرح :

﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا ان يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ، ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوي عزيز ﴾ .

وكان لا بد لنا من وقفة مع هذه الآية باعتبارها أول آية نزلت لتدشن مرحلة جديدة من عمر الحركة الاسلامية .

فقد رخص الله المؤمنين بالقتال بعد أن أكتملت عدتهم وقويت شوكتهم ثم بين القرآن المبررات المنطقية لصدور هذا القرار . وهو ممارسة سياسة الأضطهاد ضد المسلمين ثم اخراجهم من ديارهم بغير حق إلا لانهم يقولون لا إله إلا الله وهي مبررات كافية لحمل السلاح والدفاع عن النفس وعن الحق الذي اغتصبه الكفار .

ثم يضع القرآن الكريم أمام المسلمين المنتظرين للأذن بالقتال يضع أمامهم قانوناً في الحياة . فالحياة من طبيعتها الصراع والسبب المباشر في هذا الصراع هو تحرك قوى الشر للقضاء على مراكز التوحيد والعبادة من صوامع وبيع ومساجد يذكر فيها اسم الله وهي أماكن ترمز للرسالات السماوية التي جابهت قوى الشر وخاضت صراعاً مريراً على طول التاريخ وكان القرآن يريد ان يقول للمؤمنين بأن الصراع الذي ستخوضونه قد خاضه قبلكم أناس آخرون وانه ليس بشيء جديد فهو سنة الله في الخلق .

وفي كل مرة يهجم فيه الطاغوت يقف المؤمنون يصدون الهجمة الشرسة ومن هنا يبدأ الصراع الحقيقي بين الحق والباطل ومن هنا تحتد الساحة ليتقابل فيها جنود الحق مع جنود الشيطان ومن هنا أيضاً تأتي الفرصة الذهبية لأصحاب الحق ليحققوا الانتصار على الباطل ، فالنصر هو نهاية المعركة وسيكون من نصيب أصحاب الحق .

هذه الأفكار الرائعة التي طرحها القرآن الكريم في هذه الآية الكريمة التي تلقاها المسلمون كبداية مرحلة جديدة من المواجهة العلنية بعد الصراع السلبي .

فقد وضع القرآن في هذه الآية النقاط على الحروف وحقن المؤمنين بالأفكار التي جاء بها روحاً قتالية جديدة تضاف الى ما كانوا عليه من معنوية وإصرار على القتال . وهكذا كان القرآن يواكب المسيرة الإسلامية لحظة بلحظة وخطوة بخطوة وكان يمد المؤمنين في كل خطوة بما يحتاجون اليه من أفكار ورؤى . وكانت تلك الأفكار والرؤى التي تضمنتها الآية الكريمة ضرورية في ذلك المفصل الزمني الذي كان يشهد انتقال المسلمين من وضع قديم الى وضع جديد .

ومنذ تلك اللحظة والرسول (ص) مشغول ببناء القوة العسكرية من رفع الروح المعنوية للمسلمين وتدريبهم على استخدام السلاح وتهيئة الأسلحة

وتخصيص بعض المسلمين في الشؤون الحربية المختلفة فقد استعمل بعض أصحابه ممن يثق بهم ويثق بقدرتهم على الاستطلاع كعمار بن ياسر وابن مسعود وزيد كفريق للاستطلاع قبل قيام المعركة . وكان يخوض المعركة بنفسه لكنه كان يهيء لكل قادة عسكريين ميدانيين يقومون بأدوارهم بالتعاقب مثلما حدث في غزوة مؤتة عندما استشهد زيد بن حارثة تولى قيادة الجيش عبد الله بن أبي رواحة وعند استشهاده تولى جعفر بن أبي طالب وهو أيضاً استشهد في تلك المعركة . ونفهم من ذلك أن رسول الله قد أعد قادة ميدانيين كاحتياط في حالة استشهاد أو اخفاق أحد القادة مثلما حدث في فتح خيبر فقد أخفق أبو بكر في فتح حصن الصَّعب وهو آخر حصون اليهود في خيبر ثم تلاه عمر في قيادة الجيش فأخفق هو الآخر فقال النبي (ص) أما والله لأعطينها غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله^(١) فأعطاه علي بن أبي طالب .

وكان رسول الله (ص) يختار القائد العسكري على أسس وقواعد عسكرية فهو يختار الرجل المناسب في المكان المناسب . ولا يعير أهمية للقيم غير العسكرية التي كانت قائمة في المجتمع . فاختار أسامة بن زيد وهو لا يتجاوز العقد الثاني قائداً لجيش فيه الكهول والشيوخ . فقد اختار عبد الله بن جحش قائداً لأحدى السرايا فخطب في أفراد السرية قائلاً لابعثن عليكم رجلاً ليس بخيركم ولكنه أصبر للجوع والعطش . فبعث بعبد الله بن جحش وهو أول أمير في الاسلام^(٢) .

فكان لا بد لقائد الجيش ان يكون قدوة للآخرين في الصبر والتحمل وفي الميدان الصفة المطلوبة هي صفة التحمل والصبر وليس شيئاً آخر . ويظل يُراقب القائد العسكري بعد تعيينه . قال الإمام الرضا (ع) كان رسول الله (ص)

(١) ابن الاثير: ج ٢ ص ٢١٩ .

(٢) ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة: ص ٤ .

إذا وجّه جيشاً فأمرهم أميراً بعث من ثقاته من يتجسس له خبره .

وفي عهد الرسول (ص) لم يكن هناك جيش فيتخصص للقتال مفروز عن بقية المسلمين فقد كان الجهاد فرض على كل مسلم . فكل مؤمن جنديّ عليه ان يتهيأ للقتال في أية لحظة وكانت المساجد تؤدي دوراً هاماً في عملية التعبئة وحتى التدريب وبلغ عدد المساجد في عهد الرسول في المدينة تسعة مساجد^(١) كانت بمثابة معسكرات للتدريب والتجمع والتوجيه المعنوي .

وكان رسول الله (ص) يعمل على كسب الموازنة العسكرية لصالحه دائماً من خلال الحفاظ على تفوق القوة الاسلامية ، تفوقهم في المعنوية وتفوقهم في التدريب . ففي الجانب المعنوي كان يحثهم على الجهاد وانه باب من أبواب الجنة وكان يمنحهم الأمل بالنصر فيدخلون ساحة المعركة وهم واثقون من النصر . وفي مجال التدريب كان يدفع أصحابه الى الفروسية وكان يحثهم على الرمي وهو الجانب الاساسي الذي تفوق فيه المسلمون على خصومهم فبعض الأعداء لم يكونوا يحسنون الرمي كالروم^(٢) فكان رسول الله (ص) يُركّز على هذا السلام للحفاظ على حالة التفوق العسكري فكان يتلو الآية على المنبر ﴿واعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾ ويقول ألا ان القوة الرمي الا ان القوة الرمي . وكان يحرص الرسول (ص) على كسب التفوق العسكري على الخصم ، فتقيف كانوا بارعين في الرمي وقد أمطروا المسلمين بالنبال فاضطر الرسول (ص) ان يرميهم بالمنجنيق فكان أول من رمى في الاسلام بالمنجنيق^(٣) . وكان الرسول (ص) يستخدم الاسلحة غير المستعملة لدى العدو من أجل الحفاظ على التفوق العسكري فكان يستخدم الصنبور وهي أشبه ما

(١) صبحي الصالح ، النظم الاسلامية : ص ٦٢ .

(٢) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسي : ج ١ ص ٤٧٩ .

(٣) سيرة ابن هشام : ج ٣ ص ٣٠٣ .

تكون بالمدرعة تصنع من الخشب المغطى بالجلد يدخل في داخلها المقاتلون فيقاتلون الأعداء وهم فيها .

وكان للنساء دور هام في العمل العسكري هو التضميم فكان يخصص لهن أماكن للقيام بدورهن في تطيب الجرحى من المجاهدين .

وفي كل معركة من المعارك كان رسول (ص) يضع خطة كاملة تستوعب كل الوظائف المطلوبة في المعركة ، أفراد يذهبون الى الاستطلاع وأفراد لجمع الغنائم وآخرون للاهتمام بالأسرى بالإضافة الى الخطة الحربية في تقسيم الجيش وتعيين القادة واستخدام التكتيك العسكري الخاص بتلك المعركة .

٨ - الجهاز الاعلامي :

الاعلام ركيزة هامة من ركائز كل دولة ، فالدولة القائمة على الحق وصاحبة رسالة في الحياة بحاجة الى الكلمة الطيبة لتكون سبيلها الى قلوب وعقول الناس .

وفي السابق لم يكن للاعلام قيمة طالما كانت القوة هي صاحبة السيادة وهي الوسيلة الوحيدة لفرض الأمر الواقع على الشعوب وعلى الدول .

والاسلام دين المنطق والعقل فكان سبيله الى قلوب الناس هو الكلمة وليس القوة من هنا فقد حظي الاعلام باهمية خاصة في التحرك الرسالي الذي قام به النبي (ص) في مكة ثم من بعد في المدينة .

فبواسطة الاعلام اوجد رأياً عاماً في مكة لصالحه وضد مصالح قادة الشرك وفي اجواء هذا المناخ الاعلامي كان الوعي يتكامل عند بعض الناس من اصحاب النفوس النظيفه فكانوا ياتون الى النبي (ص) يعلنون عن رغبتهم في اعتناق الاسلام .

وعبر الاعلام استطاع النبي (ص) ان يوجد رأياً عاماً مضاداً لقادة قريش سيما في فترة الحصار في شعب ابي طالب دافعاً بقسم من ابناء قريش لفك ترابطهم مع هذه الزعامة والوقوف الى جانب رسول الله أو على الاقل وقوفهم على الحياد .

وعبر الاعلام تمكن رسول الله (ص) ان يوصل صوته الى القبائل المتاخمة لمكة وكان ينتهز فرصة مواسم الحج حيث تتجمع القبائل في مكة لتبليغ رسالته الاسلامية .

في ذات الوقت كان الرسول (ص) في مكة يرد على الدعايات المضلة التي كان يطلقها زعماء قريش ضد شخصيته الكريمة وتصويره على غير حقيقته باطلاق الارجيف كالجنون والسحر والكذب ، فكان ردّه على كل دعاية بالعمل فلم يكن صعباً على الناس ان يتأكدوا بانفسهم كذب تلك الدعايات المضلة .

وعند قدوم النبي (ص) الى المدينة وشروعه ببناء الدولة الاسلامية كان الاعلام احد اهم الجوانب التي اعارها رسول الله (ص) جل اهتمامه فما من فعل أو قول قاله أو فعله إلا ورعى فيه الجانب الاعلامي حتى النشاطات السياسية والمشاريع الاقتصادية التي اقامها الرسول (ص) كانت تتضمن جانباً اعلامياً بالاضافة الى الهدف الجوهرى من ذلك العمل ، فكان أول عمل قام به الرسول (ص) بعد بناء المسجد هو تعيين الاذان كشعار للدولة الاسلامية واعلام للمسلمين بالاجتماع في المسجد لاداء فريضة الصلاة ، وكان اليهود يستعملون البوق والنصارى يستعملون الناقوس وقد اشار بعض المسلمين باستخدام احد هذين الوسيلتين لكن الرسول لم يقبل كلا الرأيين وانتظر رأي السماء فجاءه جبرائيل كما جاء في الكافي عن محمد بن عمر بن حماد بن عيسى عن منصور ابن أبي حازم عن ابي عبد الله الصادق (ع) انه قال : لما هبط جبرائيل بالاذان

على رسول الله (ص) كان راسه في حجر علي (ع) فأذن جبرائيل ثم اقام ، فلما انتبه رسول الله قال يا علي اسمعت قال نعم قال : ادع بلالا وعلمه الاذان فاصبح الاذان بكلماته شعاراً للدولة الاسلامية وقد ميّز الاسلام عن الرسالتين .

واتخذ رسول الله المنبر وسيلة للتبليغ والتوجيه فكان المسلمون يجتمعون في المسجد ليستمعوا الى اقوال الرسول ومواعظه وكان الحاضر منهم يبلغ الغائب ما تحدث به رسول الله (ص) .

ومن النشاطات الاعلامية في العهد الاسلامي الاول قيام حديثو الاسلام بتبليغ قومهم والطلب اليهم بالانتماء الى الجماعة السلامية وخصوصاً أولئك الذين امتازوا بالمنزلة والمكانة وكان من بين من اسلم عبد الله بن سلام وهو من احبار يهود بني قينقاع ، واراد عبد الله بن سلام ان يفاجيء قومه باسلامه ويوعظهم بترك اليهودية واتباع الاسلام فاتفق مع النبي (ص) ان يمكث في احدى بيوته حتى إذا ما قدم اليهود لزيارة النبي (ص) يسألهم عن عبد الله بن سلام فإذا قالوا فيه خيراً فإنه سيخرج اليهم ليتكلم معهم فيدعوهم الى الاسلام .

وقدم اليهود فسألهم النبي (ص) أي رجل الحصين بن سلام فيكم ؟ (حصين هو عبد الله قبل اسلامه) قالوا سيدنا وابن سيدنا وخيرنا وعالمنا .

فعندما اطمئن عبدالله انهم لم يعرفوا باسلامه وانه لا زال موضع ثقتهم خرج عليهم وهو يقول : يا معشر اليهود اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به فوالله انكم لتعلمون انه رسول الله تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة باسمه وصفته ، فاني اشهد انه رسول الله واؤمن به واصدقه واعرفه .

اما الشعر فقد استخدم في ميدان الصراع كاحد أدوات المواجهة وكاحد

وسائل التعبئة فقد استثمر الرسول (ص) هذا الفن في كل موضع يتطلب موقفاً
اعلامياً .

أولاً : الرد على المشركين كان يطلب من الشعراء ان ينظموا القصائد
فيهم ففي احدى المرات كان رسول الله (ص) يجلس في المسجد إذ لاحت منه
التفاته الى الشاعر عبد الله بن رواحة فدعاه للجلوس فسأله رسول الله (ص)
كيف تقول الشعر إذا اردت ان تقول : قال انظر ثم اقول :

قال عليك بالمشركين ولم يكن قد اعد لذلك فقال :

فخبروني اثمان العباء متى كنتم بطاريق او دانت لكم مضر

أي خبروني يا معشر قريش يا من لا تتمنون ولا تعرفون الا ثمن العباء
متى كنتم سادة^(١) .

ثانياً : واستخدم الشعر في اظهار قوة المسلمين وعزتهم ومنعتهم للتأثير
في القبائل من اجل دفعهم الى الايمان فقد جاء وفد بني تميم الى
رسول الله (ص) وقام شاعرهم الزبرقان بن بدر يفتخر بقومه وانهم كرام وملوك
اقوياء وشجعان وقد تكلم شخص اخر عن مكانة بني تميم وافتخر بنسب وحسب
عشيرته .

فاراد الرسول (ص) ان تكون المقابلة بالمثل فارسل على حسان بن ثابت
وكان غائباً عن هذا الاجتماع فحضر جانباً منه فعندما ختم الزبرقان قصيدته قال
الرسول لحسان فاجب الرجل فيما قال ، فقام حسان فالقى قصيدة مدح فيها
المسلمين وافتخر بالدين الذي بعثه الله وبعد ان ختم القصيدة قام أحد بني تميم
وهو الاقرع بن حابس فقال : وابي ان هذا الرجل لمؤتي له لخطيبه اخطب من

(١) د - جودة عبدالله مصطفى (محمد نظرة عصرية): ص ١٣٣ .

خطيبنا ولشاعره اشعر من شاعرنا ولاصواتهم احلى من اصواتنا فاسلموا
باجمعهم^(١) .

وهنا يتجلى اهمية الشعر ودوره في كسب اناس جدد للانخراط في سلك
الدين الجديد ، وقد استعمل الشعر في اظهار جوانب العظمة في شخصية
القائد (ص) لاداء نفس الغرض فعلى رغم ما عرف رسول الله (ص) بكرهه
للمدح وللمداحين فقد اثناب من مدحه ككعب بن زهير الذي جاء بقصيدة
« بانث سعاد فقلبي اليوم متبول .. متيمٌ إثرها لم يفد مكبول »

يعتذر عما افترفه لسانه في الماضي في هجاء النبي (ص) .
وقد مدح رسول الله (ص) معظم الشعراء المسلمين ، وكان مديحهم يتركز
على جوانب الرسالة والقوة والشجاعة في شخصية النبي (ص) فاصبح لهذا الشعر
اثر كبير على مسامع الانسان العربي الذي سمع الكثير من الشعر فكان ينجذب الى
الشعر الجيد ويتجنب الشعر الردي .

ثالثاً : استعمال الشعر في التعبئة وفي استثارة الهمم والحث على الاقدام
والشجاعة في المعارك عند وقوع النزال بين المسلمين والمشركين .

وكان المسلمون يستعملون الشعر اثناء العمل على صورة انشاد جماعي
من اجل التغلب على التعب والنصب فعن البرار بن عازب^(٢) قال كان
رسول الله (ص) يوم الاحزاب يتقل معنا التراب وقد وارى التراب بياض بطنه
ويقول :

لولا انت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فانزل سكينه علينا وثبت الاقدام إن لاقينا

(١) ابن هشام : ج ٢ ص ٥٦٠ .

(٢) مجمع الزوائد : ج ٨ ص ١٢٣ .

ان الاولى لقد بغوا علينا وإذا أرادوا فتنة ابينا
وكان رسول الله قد وظف ثلاثة من خيرة الشعراء لخوض النزال مع شعراء
الجاهلية الذين كانوا يهجونه (ص) وينالون من المسلمين .

والثلاثة هم عبد الله بن رواحة ، حسان بن ثابت ، كعب بن مالك ، وكان
رسول الله يقول لهم اهجوا بالشعر ان المؤمن يجاهد بنفسه وماله ، والذي نفس
محمد بيده كانك تحرهم بالنبل فقد ساوى بين من يقاتل بالنبل ومن يقاتل
بالشعر .

وعلى رواية اخرى كان يردد الرسول (ص) ان المؤمن من يجاهد بنفسه
ولسانه^(١) وكان يقول ايضاً جاهدوا المشركين بالسنتكم^(٢) .

ولا غرابة ان يشبه رسول الله ابيات الشعر بالسهام التي تنطلق لتصوب الى
نحور المعتدين من قوة تأثيرها فقد كان للشعر قيمة لدى العرب واثّر في
نفوسهم .

وافردت كتب السير فصولاً وصفحات مطولة للتحدث حول هذا النوع من
الصراع الاعلامي الذي خاضه فريق الشعراء من المسلمين مع الشعراء
الجاهليين وكان هذا الفريق يمثل في الواقع جهازاً اعلامياً منظماً تنظيمياً دقيقاً .

وكان رسول الله (ص) يعمل على تغيير اتجاهات الشعر عندما يستمع الى
الشعراء لاعطاء الهدفية الى هذا الفن وابعاده عن مواطن اللهو والعبثية فقد قال
لكعب بن مالك في قصيدة له يرد فيها على هبيرة يوم أحد قائلاً :

مجالدنا عن جذمنا كل فخمة مذبذبة فيها القوانس تلمع

(١) ابن الاثير، الكامل في التاريخ : ج ٢ ص ٢٢٧ .

(٢) ابن الاثير، الكامل : ج ٢ ص ١٧٨ .

فقال رسول الله ا يصلح ان تقول مجالدنا عن ديننا فقال كعب : نعم فقال رسول الله (ص) فايُّ حسن فقال كعب . .

مجالدنا عن ديننا كل فحمة مذبذبه فيها القوانس تلمع وبهذا الموقف اراد رسول الله (ص) ان يبين الهدفية من الشعر بان يكون في خدمة الدين فالجهاد من اجل الدين وليس من اجل الجذم وهو الأصل ، فقد ولى عهد العصيات الجاهلية واصبح الدين هو كل شيء في حياة الانسان .

وقد عمل رسول الله (ص) على تغيير بيت الشعر بأسلوب رائع وحكيم فهو لم يفرض على الشاعر هذا التغيير بل استشاره ا يصلح ان تقول مجالدنا عن ديننا واختار الكلمة المناسبة ايضاً وهذا ما يؤكد على سعة اطلاع النبي (ص) في هذا الفن وكثرة اهتمامه به .

وفي سبيل بعث الحماس واستثارة الهمم كان الشعر يستخدم في المعارك فقد حفلت الكتب بالقصائد البليغة التي اطلقت في ساعات المواجهة مع المشركين .

وفي سبيل ابراز القوة للعدو كان للشعر دور هام في ذلك ، ففي عُمره القضاء بعد صلح الحديبية ارتحل الرسول (ص) والمسلمون الى مكة وساق معه سبعين بدنة وكان عائداً لتوه من خيبر وقد اصطف المشركون عند دار الندوة فلما دخلها الرسول (ص) اضطجع بردائه فاخرج عضده اليمنى ثم قال : رحم الله امراء اراهم اليوم من نفسه قوة .

فقد وجد المكان والزمان مناسبين لاطهار القوة امام الخصم فاخراج العضد والاضطجاع بالرداء هو رمز للقوة والاستعداد للمواجهة وهي حركة يتجلى فيها الاعلام بابهى صورته ثم استلم الرسول (ص) الركن وخرج يهرول ويهرول اصحابه معه وكان بين يديه لما دخل مكة عبد الله بن رواحة آخذاً بخطام ناقته

وهو يقول :

خلوا فكل الخير في رسوله خلو بني الكفار عن سبيله
يارب اني مؤمن بقبيله اعرف حق الله في قبوله
نحن قتلناكم على تاويله كما قتلناكم على تنزيله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله^(١)

ويلاحظ كيف جمع الرسول (ص) بين تلك الحركة التي صنعها امام
الخصم وبين اعطاء زمام الناقة بيد احد الشعراء لينشد الاشعار الحماسية أمام
الملا فقد كان الموقف يتطلب عملاً اعلامياً مركزاً وهذا الذي فعله
الرسول (ص) والاعداء يرونه من على رؤوس الجبال وحول دار الندوة .

بعث الأمل في النفوس

وكان على رأس اهداف السياسة الاعلامية التي انتهجها الرسول (ص) هو
بعث الأمل في النفوس فقد كان المسلمون قلة مستضعفة ولم يكن ليقوي هذه
القلة سوى الامل الذي شدها الى الحياة والى المثابرة فلولا الامل والرجاء لما
كان المسلمون بقادرين على الصمود بوجه طغيان قريش .

فعندما يواجه المسلمون اشد انواع التعذيب ويأتي خباب بن الارت الى
رسول الله (ص) يشكو اليه ما اصابهم فيخفف عنه رسول الله (ص) وينقله الى
عالم الصمود ويجعله يتصور المجاهدين السابقين وما كان يجري عليهم فيقول
له :

قد كان من قبلكم يؤخذ منهم الرجل فيحفر له في الارض ، ثم يجاء
بالمنشار فيجعل في راسه ما يصرفه ذلك عن دينه ويمشط بامشاط الحديد ما بين
لحمه وعظمه ما يغير منه ذلك عن دينه وليتمنى الله هذا الامر حتى يسير الراكب

(١) انظر الملجد الاول: ص ٢١٥ من سيرة ابن هشام.

من صنعاء الى حضرموت لا يخشى إلا الله عز وجل والذئب على غنمه ولكنكم تعجلون .

وعندما سمع خباب هذا الحديث تفجر الصمود في اوصاله من جديد وقرر المضي حتى لو اصابه اكثر من ذلك .

فقد كان رسول الله يث ويبعث الأمل في نفوس اصحابه عندما يصيبها التعب ففي غزوة الخندق والاحزاب يحيطون به من كل جهة وهو وحيد بين قلة من اصحابه اضطر المسلمون لحفر الخندق في تلك اللحظات العصيبة التي كانت صعبة على كل انسان يجد نفسه بين الحياة والموت بين ان يبقى الدين أو لا يبقى ، في تلك اللحظة التفت رسول الله (ص) الى اصحابه الذين كانت ايديهم مشغولة بالحفر وقلوبهم مشغولة بما سيحل عليهم ، اخذ المعول وضرب صخرة قاسية فصدعها فبرقت منها برقة كبر لها رسول الله وكبر معه اصحابه ثم ضربها ثانية وثالثة فبرقت ومع كل بريق كانت اصوات التكبير تملأ الفضاء الواسع ثم التفت اليهم ثانية وقال لهم اضاءت الحيرة وقصور كسرى في البرقة الاولى واخبرني جبرائيل ان امتي ظاهرة عليها .

واضاء لي في الثانية القصور الحمر من ارض الشام والروم واخبرني ان امتي ظاهرة عليها واضاء لي في الثالثة قصور صنعاء واخبرني ان امتي ظاهرة عليها فابشروا فابشروا فابشروا المسلمون^(١) .

مواجهة الحرب النفسية

كان الاسلام يواجه اساليب عديدة في المواجهة إذ كان يواجه اعداءً كثيرين مختلفين في الفكر والثقافة والاساليب ففي فترات الهدنة والهدوء

(١) ابن الاثير، الكامل: ج ٢ ص ١١٧ .

السياسي كان السلاح الذي يشهره الاعداء ضد المسلمين هو سلاح الحرب النفسية بمختلف أنواعه لبعث الخوف ونزع الثقة من النفوس .

فمع اول خطوة خطاها الرسول (ص) في تأسيس الدولة الاسلامية شرع اليهود الذين كانوا قد تعاقدوا مع المسلمين ضمن بنود الصحيفة ببث الحرب النفسية فلم يكن امامهم يومذاك سوى استخدام هذا السلاح وهم قد برعوا بسبب ثقافتهم في فن الدعاية وبث الشائعات فاول عمل دعائي قاموا به هو تعيينهم لرسول الله (ص) وقولهم له : انت تابع لنا تصلي الى قبلتنا ، فاغتم رسول الله لذلك غمماً شديداً وخرج في جوف الليل ينظر الى افاق السماء وينتظر من الله تعالى امراً في ذلك ، وكان رسول الله (ص) قد اتخذ بيت المقدس قبلة له وظل على هذا الحال سبعة اشهر وهو يستمع الى دعايات اليهود حتى نزلت عليه الآية (١٤٣) من سورة البقرة ﴿ قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره ﴾ وبذلك أغلق امام اليهود فرصة استثمار هذه النقطة في تضعيف معنويات المسلمين .

وكان هدف اليهود في بداية الامر هو اخضاع رسول الله (ص) وعندما حبطت خططهم في ذلك اخذوا ييثون الدعايات على شخص الرسول (ص) لاسقاط هيئته أمام المسلمين فمن دعاياتهم ان لبيد بن عاصم قد سحر النبي (ص) ومنعه من الاتصال بنسائه ، والادعاء انه ظل لمدة يتخيل اليه انه قد فعل الشيء ولم يفعله وكان من قوة تأثير هذه الدعاية انها وجدت طريقها حتى الى كتب الصحاح والى كتب السيرة^(١) ويمكننا ملاحظة اهداف هذه الدعاية المضللة وهي :-

(١) معروف الحسني ، سيرة المصطفى : ص ٣٣٨ .

- ١ - إظهار قوة السحر وانه اقوى من الرسالة .
 - ٢ - إظهار قوة احد اليهود الذي خضع له الرسول (ص) مضطراً .
 - ٣ - ضعف الرسول (ص) في مواجهة السحر فلو كان الرسول نبياً وقادراً لما كان يخضع مرغماً للالسايب السحرية .
 - ٤ - السخرية من الرسول (ص) في اختيار محور شخصي هو الاتصال بالنساء .
 - ٥ - التشكيك بالقرآن وبوجود الخالق الذي يحمي رسوله من مكاره الدهر .
- وعندما عجز اليهود من النيل من رسول الله (ص) ذهبت جهودهم لتحقيق الفُرقة بين الاوس والخزرج فلم يتركوا حادثة إلا واستثمروها في اهدافهم الشريرة ومنها هذه الحادثة .
- مر احد شيوخ اليهود وهو شاس بن قيس على نفر من اصحاب الرسول (ص) فيهم الاوس والخزرج فغاضه ما وجد من الالفة والمحبة بين افراد تلك القبيلتين المتخاصمتين فاخذ ييث احقاده فارسل فتى كان معه من اليهود وطلب منه ان يجلس معهم فيذكر لهم يوم بعث وما كان من القتل واخذ ينشد الاشعار التي قيلت في المعركة فذكر القوم بما كان بينهم من عداوات فاستطاع بذكاء وحنكة ان يستثير الفريقين فتغيرت الوجوه وبدأ النزاع واخذ كل طرف يفتخر بقبيلته وتواثب منهم رجلا ن ارادا ان يتقاتلا وكادت الحرب ان تقع بينهم ولولا اسراع الرسول (ص) بعد وصول الخبر اليه ، فوقف بينهم ليقول يا معشر الانصار الله الله ابدعوى جاهلية وانا بين اظهركم بعد ان هداكم الله للاسلام واكرمكم به وقطع عنكم امر الجاهلية واستنقذكم من الكفر والف بين قلوبكم ، فندموا على ما فعلوا واحسوا بالدسيسة التي ارادها اليهود .

وظل ايقاع الفرقة بين المسلمين هدف اساسي من اهداف اعداء الاسلام معتقدين بان الماضي القبلي هو من اهم الثغرات التي يمكن استثارها لتحطيم الوحدة الدينية بين القبائل التي وحدها الاسلام .

فقد حاول عبد الله بن أبي زعيم فئة المنافقين ان يجرب حظه اثناء عودة النبي (ص) من غزوة بني المصطلق فاستغل حادثة شجار بين احد الانصار واحد المهاجرين حول بئر ماء وكاد ان يقع الشر بينهما فسارع ابن أبي ليقذف سموه لقد كاثرونا في بلادنا ، اما والله لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل . ولولا حكمة القيادة ووعي المسلمين لنفذ السهم في الهدف .

وكان لجماعة المنافقين دور خطير في بث الدعايات والترويج لها ولانهم كانوا يعيشون الى جانب المسلمين فقد كانوا يستغلون كل حادثة في خدمة مصالحهم ، فيبثون سموهم في المواقع الحساسة وفي الظروف الحرجة .

فهذا معتب بن قشير كان مع المسلمين في معركة أحد فعندما شاهد كثرة القتل بين المسلمين سارع لاستغلال الموقف فاصبح يشيع بين المقاتلين (لو كان لنا في الاوس ما قتلنا هاهنا فانزل الله تعالى في ذلك ﴿ وطائفة قد اهمتهم انفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون لو كان لنا من الامر شيء ما قتلنا هاهنا ﴾ .

ويوم الاحزاب اصبح يشيع بين المسلمين هذه العبارة : كان محمد يعدنا ان ناكل كل كنوز كسرى وقبصر وأحدنا اليوم لا يأمن ان يذهب الى الغائط فانزل الله تعالى :

﴿ وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا ﴾ .

عندما ضلت ناقة رسول الله (ص) اخذ المسلمون يبحثون عنها ووجد

اعداء الاسلام في هذه الحادثة وسيلة للدعاية فاستغلوها فاخذ زيد بن الصلت يث الدعايات ويقول : يزعم محمد انه ياتيه خبر السماء وهو لا يدري اين ناقتة فسارع رسول الله (ص) لسد هذه الثغرة فقال لاصحابه : ان قائلاً يقول : يزعم محمد انه ياتيه خبر السماء ولا يدري اين ناقتة : واني والله لا اعلم إلا ما علمني ربي وقد دلني عليها الان فهي في هذا الشعب قد حبستها شجرة بزمانها .

وحديث الافك هو نموذج اخر من اساليب الدعاية التي استهدفت شخص النبي (ص) عندما تعرضت احدى زوجاته الى الدس الرخيص وكان رد فعل النبي (ص) في ذلك رداً حكيماً فقد التزم الصمت حيال هذه الدعاية الى أن نزلت الآيات القرآنية لتفصح عن الحقيقة ولترد كيد المنافقين الى نحورهم وكان القرآن الكريم يسير الانبعاث الاسلامي ويعمل على معالجة كل موقف صعب كان يواجهه المسلمون .

فمع كل شائعة كان القرآن الكريم يقف ليؤازر الفئة المؤمنة وليكشف عن الحقيقة ناصعة لا يستطيع احد انكارها .

الاعلان الحربي

وفي المعارك كان رسول الله (ص) يشمر عن سواعد الجد مستخدماً كل الاسلحة المتاحة في تحطيم معنويات العدو ، وكان في نفس الوقت يواجه محاولات العدو للثيل من معنويات المسلمين وإذا تناولنا معركة من معارك المسلمين كنموذج حي لوجدنا حشداً من المواقف الاعلامية التي تزدهم في هذه المعركة .

فلنأخذ معركة بدر الكبرى وما فيها من ابعاد اعلامية :

١ - رؤية عاتكة بنت عبد المطلب كان لها اثر في تضعيف معنويات المشركين ، كانت عاتكة قد رأت في المنام راكباً على بعير له وقف بالابطح ثم

صرخ باعلى صوته ان انفروا يا ال عُدِر لمصارعكم في ثلاث فرأت الناس قد اجتمعوا اليه ثم دخل المسجد فمثل بغيره على الكعبة ثم صرخ مثلها ثم مثل بغيره على رأس ابي قبيس فصرخ مثلها ثم اخذ صخرة عظيمة وارسلها فلما كانت باسفل الوادي ارفضت فما بقي بيت من مكة إلا دخله فلقه منها^(١) وكانت هذه الرؤيا قد رافقت وصول انباء عن المناوشات والتحركات العسكرية التي قام بها النبي (ص) ولعب العباس بن عبد المطلب دوراً هاماً في نشر هذه الرؤيا بين المشركين وقد غضب ابو جهل من انتشار خبرها لانها ادخلت الخوف في كل بيت .

فعندما قابل العباس قال له : ما رضيتم ان يتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم ، ولم يمر وقت طويل حتى فزعت قريش لصوت ضمضم بن عمرو وهو يصرخ ببطن الوادي وهو يقول يا معشر قريش اللطيمة اللطيمة اموالكم مع ابي سفيان قد عرض له محمد واصحابه لا ادري ان تدركوها الغوث الغوث .

٢ - مقالة الاخنس بن شريق وكان مع المشركين في بدر وهي ، يا بني زهرة قد نجى الله غيركم وخلص اموالكم ونجى صاحبكم مخزومة بن نوفل وان خرجتم تبغونه وماله ، ومحمد رجل منكم وابن اختكم فان يك نبياً فانتم اسعد به وان يك كاذباً يلي قتله غيركم خير من ان تلوا انتم قتل ابن اختكم فارجعوا واجعلوا خبثها لي ، فلا حاجة لكم ان تخرجوا في غير ما يهكم ، ودعوا ما يقوله ابو جهل فانه مهلك قومه سريع في فساد ، فاطاعته بنو زهرة وتحايلوا بهذه الحيلة لتترك الجيش عندما حل المساء اسقط الاخنس نفسه من البعير فتجمعت حوله عشيرته ورفضوا السير مع قريش قائلين لا نفارق صاحبنا حتى نعلم احي هو ام ميت^(٢) فتحرك ركب قريش وما ان وصلوا الالبواء حتى سمعوا عن بني زهرة

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى: ج ٢ ص ٧١.

(٢) فتح الباري: ج ١ ص ٤٥١.

انهم عادوا الى مكة وكان عددهم زهاء الثلثمائة نفر .

واختلفت الاقوال في الاخنس هل كان مسلماً ، قد كتم ايمانه حين فعل ذلك الفعل الذكي ام لم يكن مسلماً . .

المهم انه حتى لو لم يكن مسلماً كان متعاطفاً مع المسلمين فهو الذي كان يستمع الى رسول الله (ص) اثناء تلاوته للقرآن وكان هو وابو سفيان وابو جهل يجتمعون حول بيت النبي (ص) اثناء تلاوته للقرآن وكان الثلاثة يلتقون عند العودة فيلوم الواحد منهم الاخر ، وفي احدى المرات قال الاخنس لابي سفيان

ما تقول فأجابه اعرف وانكر .

ثم سأله ابو سفيان وما تقول انت

فأجابه اراه الحق .

٣ - أما رسول الله (ص) فقد جمع اصحابه واراد ان يستشيرهم في امر القتال بعد ان لاحت رايات قريش فقام خطيباً فيهم قائلاً :

هذه مكة قد القت اليكم افلاذ كبدها فتحدث الصحابة بين موافق ورافض للحرب فتحدث عمر بن الخطاب يا رسول الله انها قريش وغدرها والله ما ذلت منذ عزت ولا امنت منذ كفرت والله لا تسلم عزها ابداً ولتقاتلنك فاتهب لذلك أهفته واعد لذلك عدته فشعر المقداد ان هذه المقالة ستؤثر في معنويات المقاتلين فسارع في التحدث بما يليق وبما لا يدع مجال لاي اثر سلبي في النفوس مما سمعوه فقال يا رسول الله امضي لامر الله فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنو اسرائيل لنبيها : اذهب انت وربك فقاتلا انا هاهنا قاعدون ولكن اذهب انت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون والذي بعثك بالحق لو سرت بنا

الى برك العماد لسرنا معك فقال له رسول الله خيراً ودعا له .

وفي معركة أحد نلاحظ ما يلي :-

١ - الاخبار التي كانت تصل النبي (ص) من العباس بعد ان عاد الى مكة من اسر المسلمين فقد كتم اسلامه فصار يكتب الى النبي بالاخبار وهو في جيش العدو فكتب الى النبي (ص) كتاباً وصف له به صنيعهم واجتماع كلمتهم وعدتهم وعددهم ودفعه سراً الى رجل غفاري ليوصله الى النبي واوصاه بالكتمان وان يجد السير ليلاً ونهاراً .

وعندما وصلت الرسالة الى النبي (ص) دفعها الى أبي بن كعب فقرأها عليه فامر النبي ان يكتم الخبر ولا يحدث احداً بما فيه .

٢ - عند ما تردد المسلمون في امر القتال فهناك من كان رأيته الخروج والالتقاء بالعدو خارج المدينة وهناك من كان رأيته البقاء في المدينة وقد ادلى المنافقون ايضاً بدلوهم وكادت روح القتال تخفت في المجاهدين لولا مبادرة الرسول (ص) وحسمه للمشكلة بلحظة بان ارتدى لامة حربه ولبس درعه وتقلد سيفه وتنكب القوس ووضع الترس في ظهره بهذه الصورة اوجز رسول الله رأيته فدفع بالصحابة الى الاسراع بالتهؤ للعدو ولم يكن موقف اخر بقادر على حسم المشكلة غير تلك المبادرة العملية الرائعة .

٣ - كان للنساء دور هام في حشد المقاتلين فقد قرب احد المنافقين وهو قزمان ان يتخلف عن المعركة فلما أصبح غيرته نساء بني ظفر وقلن له يا قزمان لقد خرج الرجال وبقيت الا تستحي بما صنعت ما انت إلا امرأة وما زلن يؤنبنه حتى دخل بيته ولبس لامته .

٤ - اشاع المشركون بان محمد (ص) قد قتل وكانت الشائعة من القوة بحيث دفعت المقاتلين الى الهروب من ساحة المعركة إلا نفر قليل فالتجأ

الهاربون الى صخرة أختبأوا فيها واصبحوا يتحدثون بينهم لقد قتل محمد(ص) فسمعهم اسد بن النضر فقال لهم يا قوم ان كان محمد قد قتل فان رب محمد لم يقتل فقاتلوا على ما قاتل عليه محمد (ص) .

٥ - وعند انتهاء المعركة اراد ابو سفيان ان يتظاهر بانه انتصر في الحرب فرفع صوته أعلى هبل .

فلم يدع له رسول الله فرصة استثمار الموقف فرفع بصوته الله اعلى واجل .

فقال ابو سفيان لنا العزى ولا عزى لكم فقال رسول الله الله مولانا ولا مولى لكم قال ابو سفيان هذا يوم بيوم بدر والحرب سجل .

٦ - اراد المسلمون ابعاد المشركين عن المدينة ومنعهم من مواصلة الهجوم عليها فارسلوا معبداً وكان مسالماً للنبي (ص) لكنه مشرك فجاءه معبد الى ابي سفيان فقال له ان محمداً خرج في اصحابه يطلبكم في جمع لم ار مثله قط يتحرقون عليكم تحرقاً وقد اجتمع معه من كان تخلف عنه في يومكم وندموا على ما صنعوا فرجعوا الى مكة بعد ان كانوا عازمين الزحف نحو المدينة .

واما فتح مكة فنلاحظ الابعاد الاعلامية التالية :

١ - احاط(ص) استعداداته لفتح مكة بهالة من الكتمان فطلب من عائشة ان تجهز ولم يخبرها بالهدف ومنع احداً ان يخرج من المدينة مخافة تسرب خبر الاستعداد حتى ظن الجميع بانه لا يريد قریش بل بعض الاعراب القاطنين حول مكة .

٢ - اخذ العباس في عهده مرافقة ابي سفيان عندما ارسلته قریش وذلك للتأثير فيه وغسل دماغه فقال له وهو يريه جيش الاسلام ويحك هذا رسول الله في عشرة الاف مقاتل وهو مصبحكم فقال ابو سفيان بابي وامى هل من حيلة

فاجابه نعم تركب معي عجز هذه البغلة لكي اذهب بك الى رسول الله فاخذه الى النبي (ص) فانبه وطلب منه ان يشهر اسلامه فاسلم على كره منه فالتفت النبي (ص) الى العباس وقال انصرف به واحبسه عند حطيم حتى تمر به جنود الله فيراها فمرت الكتائب وهي تهتف بالله اكبر استعداداً لفتح مكة فانبه ابو سفيان فقال للعباس لقد اصبح ملك ابن اخيك عظيماً يا ابا الفضل فقال له العباس ويحك انه ليس بملك انما هي النبوة .

وعلى عجل تم ارسال ابي سفيان الى قومه ليشبطهم عن القتال وليقول لهم اني رأيت من الرجال والكرع والسلاح ما ليس لاحد به طاقة ان محمداً في عشرة الاف مقاتل اسلموا تسلموا وهكذا استطاع الرسول (ص) باساليه الاعلامية ان يدفع اهل مكة للتسليم وان يفتح أبوابها دون قتال وهذا ما كان قد خطط له .

٣ - وكان رسول الله (ص) يستخدم العباس في اطلاق النداءات لانه كان يمتاز بصوت غليظ يقوم مقام مكبرات الصوت .

٤ - وامر رسول الله (ص) بلالا بان يعتلي فوق الكعبة للاذان فشرع في الاذان وعندما بلغ الى قوله اشهد ان محمداً رسول الله رفع صوته بها كأشد ما يمكن فقال جماعة من قريش ليتنا متنا قبل هذا اليوم ولم نسمع بلالا ينهق فوق الكعبة وهناك مواقف اعلامية كثيرة تخللت غزوات الرسول (ص) الاخرى وهي تشير الى وجود منهج اعلامي متكامل سار عليه المسلمون في تحركهم نحو تبليغ الرسالة الاسلامية سواء تحركهم السلمي أو العسكري .

٩ - الجهاز التعليمي :

كان رسول الله (ص) يحث الخطى نحو بناء حضارة مشرقة تشع بانوارها ارجاء الكون كله وليس جزيرة العرب فقط .

وما من حضارة إلا وتبنى على العلم .

فبدون العلم يغدو التفكير في المستقبل الحضاري ضرباً من المحال .

فالمال لا يأتي بالحضارة ان لم يرافقه العلم . لان بالمال يمكن إقامة مدينة واسعة وليس حضارة .

وجزيرة العرب كانت ظامئة الى الحضارة وكان ظمأ جزيرة العرب الى الحضارة يشبه ظمأها الى الماء فالحضارات كانت تحيط بها من كل جانب حضارة الفرس والروم واليمن مثلما يحيط بها الماء من جوانبها الثلاثة .

وكان المجتمع يومذاك يترقب ظهور الحضارة في جزيرة العرب فجاء الاسلام لينقل هذا الترقب الى واقع .

والاسلام لم يشأ بناء دولة يسعد فيها المسلمون فقط بل كان يريد ان يبني حضارة للانسان ولا حضارة بدون العلم وبدون التعليم .

من هنا اتجه رسول الله (ص) الى ايجاد حركة تعليمية ثقافية واسعة في المدينة بعد وضع اللبنة الاولى للدولة الاسلامية .

فدفع بصحابته الى التعلم وطلب من زيد بن حارثة ان يتعلم العبرية فتعلمها زهاء خمسة عشر يوماً وطلب من اصحابه ان يقوموا بتعليم ذويهم مبادئ الكتابة والعلوم فقال : ثلاثة لهم اجران رجل من اهل الكتاب آمن بنبيه وامن بمحمد ، والعبد المملوك إذا ادى حق الله تعالى وحق مولاه ورجل كانت عنده أمة فأدبها فاحسن تاديبها وعلمها فاحسن تعليمها ثم اعتقلها فتزوجها فله اجران ولم يقصر طلب العلم على الرجال فقط بل طلب على غير عادة العرب من النساء ايضاً ان يطلبن العلم فقال :

طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة . فجعل طلب العلم بمنزلة

العبادة وجعل من حق الولد على الاب تعليمه وتأديبه .

ولعل ابرز حادثة تؤكد حرص النبي (ص) على العلم واصراره على الصحابة بالتعلم هو فرضه على كل اسير من اسرى بدر لا يستطيع ان يفدي نفسه ان يعلم عشرة من ابناء المسلمين القراءة والكتابة تلك الحادثة التي استدلت بها حتى المناوئين بأحترام الاسلام للعلم والعلماء وكان الرسول (ص) المعلم الاول في حياة الإمام علي بن ابي طالب (ع) فقد علمه صنوف العلم حتى قال علي (ع) عن ذلك علمني رسول الله (ص) الف باب من العلم .

ونبغ الإمام علي [ع] (في كل علم اخذه عن معلمه حتى قال فيه رسول الله انا مدينة العلم وعلي بابها) فما من مشكلة في القضاء أو الشريعة أو السياسة إلا كان الحل مع علي (ع) حتى اصبح الصحابة يقولون : قضية ولا ابا حسن لها ونبغ بالاضافة الى علي (ع) العديد من الصحابة الذين اخذوا يتخصصون في العلوم فتخصص معاذ بن جبل في الحلال والحرام وزيد بن ثابت في تقسيم الموارث والانصبه في الغنائم وأبي بن كعب في قراءة القرآن وقد منحت هذه الحركة التعليمية الواسعة ثمارها فيما بعد حيث اوجدت القاعدة القوية لنهضة علمية ازدهرت لعدة قرون حتى اصبح العالم الاسلامي قبلة للعلماء والمفكرين والفلاسفة من كل انحاء العالم وكان للاسلام الفضل الاكبر في الازدهار العلمي في أوروبا يوم كانت تغط في ظلام الجهل والتخلف .

١٠ - الجهاز الامني والحسبة :

اصبحت الدولة الاسلامية امراً واقعياً وبات من الصعب على الاعداء الضعاف مواجهة الدولة بصورة مباشرة فالتجأوا الى الاساليب الخفية لمحاربة الدولة الاسلامية وازداد خطر هؤلاء لانهم كانوا يتظاهرون بالاسلام لكنهم يطنون العداة والحقد على الدولة الاسلامية فكان لا بد من كشف العناصر

المتلونة التي تحيك المؤامرات في الخفاء وكان لا بد من وجود جهة تتولى هذه الوظيفة فتقوم بمسؤولية تشخيص العناصر الهدامة والمخربة قبل ان تبشر تخريبها وتوجه ضربتها .

ولم يكن صعباً على رسول الله (ص) أن يختار العنصر الجيد القادر على تحمل هذه المسؤولية فقد كان بين اصحابه من يتسم بالخفة والذكاء وسرعة البديهة وقوة الملاحظة وقوة الذاكرة وهي سمات اساسية لرجل الامن فكان حذيفة بن اليمان من بين اولئك الرجال الذين اختارهم رسول الله (ص) لهذه المهمة الصعبة واختار معاوناً له هو عمار بن ياسر فأخى بينهما واصبحا معاً في مواقع العمل يؤديان مهمتهما في فحص العناصر المخربة وتشخيصها ثم تحذير المسلمين منها .

وقد عمل رسول الله (ص) على تنمية الحاسة الامنية عند حذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر وزيد بن حارثة عبر المهام الخاصة التي اوكلها لهم .

فارسل عمار بن ياسر في مهام الاستطلاع عن قوى المشركين في بدر وكذلك فعل يزيد بن حارثة .

كما وارسل حذيفة بن اليمان في مهمة سرية الى جبهة المشركين وهم مجتمعون حول الخندق يريدون استئصال الدين ، وقد دلت حادثة تسلل ابن اليمان الى صفوف المشركين وايهامه العدو انه واحد منهم وسرعة مبادرته حين طلب من كل فرد ان يسأل من هو الى جانبه عن اسمه فسارع حذيفة لي طرح السؤال على من يجلس الى جانبه حتى لا ينكشف امره وهو يدل على حالة الهدوء والطمأنينة التي اتسم بها ابن اليمان في تلك اللحظات الحرجة والتي دلت على قدرة فائقة في المناورة وتغيير الشخصية وهي سمات ملازمة لرجل الامن الجيد .

ومع تزايد مؤامرات المنافقين اتسعت المسؤولية على عاتق حذيفة بن اليمان فقد كان كثير اللقاء بالرسول (ص) وهو امر طبيعي حيث تحظى القضايا الامنية باهمية لدى القادة فتكون لقاءاتهم مع مشاورهم الامني لقاءات مكثفة .

يقول حذيفة عن لقاءاته بالنبي (ص) لقد حدثني رسول الله (ص) ما كان وما يكون حتى تقوم الساعة فكان (صاحب السر) كما قال ابو الدرداء لعلقمة اليس فيكم صاحب السر الذي لا يعلمه غيره وقد جرت بعد غزوة تبوك محاولة دينية لاغتيال النبي (ص) فقد تجمع اثنا عشر او اربعة عشر من المنافقين خلف صخرة في ليلة ظلماء وكانت الخطة ان ينفروا ناقة النبي (ص) حتى ترمي به ولاحت لرسول الله خيوط المؤامرة فاستعان بجهاز الامن فاخذ حذيفة بزمام الناقة واخذ عمار يسوقها حتى وصلوا الى الصخرة فشاهدوا المتآمرين عن قرب .

وكان حذيفة اعرف الناس بالمنافقين وكان عمر إذا اراد ان يصلي على احد من المسلمين كان يستشير حذيفة ليعرف هل هو في خانة المنافقين ام لا وكان يحتفظ بقائمة باسماء العناصر المناوئة والمخربة .

وكان تشخيص حذيفة للمنافق تشخيصاً دقيقاً ، فسئل من هو المنافق فقال الذي يصف الاسلام ولا يعمل به .

وكان يقول؛ القلوب اربعة قلب اغلف فذلك قلب الكافر وقلب مصفح فذلك قلب المنافق وقلب أجرد فيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن وقلب فيه نفاق واعيان فمثل الايمان كمثل شجرة يحدها ماء طيب ومثل المنافق مثل القرحة يحدها قيح ودم فايهما غلب عليه غلب .

وهي كلمات لا يقولها إلا العارف بنوايا الناس وما يخفون في قلوبهم من اسرار فالدور الذي كان يقوم به حذيفة بن اليمان وبمساعدة عمار بن ياسر كان

دوراً هاماً يرتبط بامن الدولة الاسلامية القائد فهو كان يقوم بدور رجل الامن بكل ما تحمل هذه العبارة من معنى . .

لكن اي رجل امن كان ؟ وهل الجهاز الامني الذي انشأه النبي (ص) شبيه بالاجهزة الامنية المعروفة اليوم ؟

للأجابة نذكر بعض صفات حذيفة بن اليمان . .

* روى احمد في مسنده عن عبد الرحمن بن ابي العلى قال : خرجت مع حذيفة الى بعض هذا السواد فاستسقى فاتاه دهقان باناء من فضة فرماه به في وجهه ، فلما كان بعد ذلك قال اتدرون لم رميت به في وجههم قلنا لا قال اني كنت قد نهيته قال النبي (ص) لا تشربوا في الذهب ولا في الفضة ولا تلبسوا الحرير ولا الديباج فانهما لهما في الدنيا ولكم في الآخرة .

وكان حذيفة(رض) يقول : كان اصحاب النبي(ص) يسألونه عن الخير وكنت اسأله عن الشر فقل له لم فعلت ذلك ؟

قال : من اتقى الشر وقع في الخير .

* أخرج ابن عساكر في تاريخ دمشق عن بريدة : ان النبي (ص) استعمل حذيفة بن اليمان على بعض الصدقة ، فلما قدم قال يا حذيفة : هل بقي من الصدقة شيء ؟ فقال لا يا رسول الله أنفقنا بقدر إلا ان ابنة لي أخذت جدياً من الصدقة . فقال كيف بك يا حذيفة إذا أُلقيت في النار وقيل لك اثنتا به ؟ فبكى حذيفة ثم بعث اليها فجاء به فألقي في الصدقة .

* اشترك في جميع المعارك إلا بدر لان المشركين كانوا قد أخذوا عليه عهداً ان لا يقتلهم فأمره النبي (ص) بالوفاء لهم .

* في الاستيعاب وأسد الغابة سئل حذيفة أي الفتن أشد ؟ قال ان يعرض

عليك الخير والشر فلا تدري أيهما تركب .

* قال حذيفة : جئت النبي (ص) فقلت : يا رسول الله ان لي لساناً ذرباً على أهلي ، وأخشى ان يدخلني النار .
فقال لي النبي (ص) : فأين أت من الاستغفار ؟؟ اني لاستغفر الله في اليوم مائة مرة .

* خاطب الناس مرة :

إياكم ومواقف الفتن . قالوا وما مواقف الفتن يا ابا عبد الله ؟ قال :
أبواب الأمراء . . يدخل أحدكم على الأمير أو الوالي فيصدقه بالكذب ويمتدحه بما ليس فيه .

هذه هي شخصية رجل الأمن في الدولة الاسلامية .

● ايمانٌ واستغفار . كان يستغفر الله في اليوم مائة مرة .

● صدقٌ وأمانة جعلته يحرم ابنته من الجدي .

● رفض زخارف الحياة مع ما كان له من منصب ودرجة سامية .

● مجاهد في طليعة العاملين والطالبين للشهادة . . هذه هي سمات تلك الشخصية التي رباها رسول الله (ص) ليعهد اليها بتلك المسؤولية الخطيرة . فدماء الناس وأسرارهم بحاجة الى أشخاص يمتلكون الورع والصدق والأمانة . وإلا فإن النتيجة ستكون التلاعب بمصير الناس وبدمائهم وأسرارهم . لقد عاش حذيفة مراتح الضمير وعندما جاءه الموت استقبله قائلاً : مرحباً بالموت . . حبيب جاء على شوق لا أفلح من ندم .

أما جهاز المراقبة وهي وظيفة يتولاها الشرطة في يومنا هذا وكان يسمى

من يتصدى لهذه الوظيفة بالمحتسب .

فكان رسول الله (ص) على رأس هذا الجهاز . فيدور في الأسواق فإذا وجد بضاعة قد احتكرت طالب أصحابها باخراجها الى السوق . ففي خبر سعد الاسكافي عن أبي جعفر (ع) قال :

مرّ النبي (ص) في سوق المدينة بعام فقال لصاحبه ما أرى طعامك إلا طيباً وسأله عن سعره ، فأوحى الله عز وجل اليه ان يدس يده في الطعام ففعل فأخرج طعاماً رديئاً فقال لصاحبه : ما أراك إلا وقد جمعت خيانة وغشاً للمسلمين^(١) .

وعن أبي هريرة ان رسول الله (ص) مر على صبرة طعام فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللاً ، فقال : يا صاحب الطعام ما هذا ؟

قال : أصابته السماء يا رسول الله . قال : أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس . ثم قال : من غشّ فليس منا^(٢) .

ولم يكتف رسول الله (ص) بمراقبته المستمرة للسوق بنفسه فقد أوكل هذه المهمة أيضاً الى أشخاص آخرين فكان سعيد بن سعيد بن العاص يقوم بهذه المهمة في سوق الباعة من صنف الرجال أما من صنف النساء فقد أوكلت هذه المهمة الى سمراء بنت نهيل الأسدية فكانت تمر في الأسواق وتأمّر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتنهى النساء عن ذلك بسوط معها .

وقد تطورت وظيفة الحسبة حتى أصبحت من الأجهزة الواسعة في الدولة الاسلامية في العهود التي أعقبت عهد صدر الاسلام . ويعود الفضل في تطور

(١) الوسائل : ج ١٢ ص ٢٠٩ الباب ٨٦ .

(٢) سنن الترمذي : ج ٢ ص ٣٨٩ - الباب ٧٢ .

هذا الجهاز الى تلك النواة الصغيرة التي تركبت من رسول الله واثنين من الصحابة والتي وضعت أسس هذه الوظيفة المقدسة .

١١ - جهاز المهمات الخاصة :

الولاءات في الجاهلية بالدرجة الاولى هي للأشخاص كرؤساء القبيلة أو رموز المجتمع ، فهؤلاء الذين سماهم القرآن الكريم بأئمة الكفر هم الذين يصدون عن الايمان ويمنعون الناس من الاقتراب من الاسلام وهم المسؤولون عن كل الحروب والفتن التي قامت في زمن رسول الله (ص) وهم بالتالي مسؤولون عن الدماء التي سفكت في تلك المعارك .

فمعركة بدر أججها قلة من التجار الذين خافوا على تجارتهم عندما تعرض لها المسلمون . وهم أنفسهم جاءوا في أحد لينتقموا من قتالهم وهم الذين اتصلوا بحلفائهم وأصدقائهم من القبائل وجندوا الآلاف في معركة الأحزاب . فكل المعارك التي قامت كانت بتدبير من هؤلاء النفر القليل فهم أصحاب المصلحة في سن تلك المعارك . أما التابعين لهم فهم وقودها فلم تكن لهم في تلك المعارك لا ناقة ولا جمل .

والاسلام دين السلام ولم يرغب رسول الله (ص) في رفع السلاح إلا اضطراراً . عندما لم يجد سبيلاً آخر لرد العدوان ورد كيد الطغاة الذين كانوا يمثلون رموز الجاهلية .

ومن أجل الحيلولة دون وقوع المعارك وزهق الأرواح وسفك الدماء من الطرفين كان على رسول الله (ص) ان يستخدم الخيارات المتاحة ومن تلك الخيارات تصفية أئمة الكفر ورموز الشر تصفية جسدية حتى يتخلص المجتمع من وبالهم وفتنهم .

وهو أسلوب لم يتوان الرسول (ص) في اتباعه مع رؤوس العدوان الذين

كانوا يتآمرون على الاسلام ولا يتركون فرصة إلا وحملوا السلاح بوجه المسلمين غير مباليين بالأرواح التي تزهق .

وكان من بين هؤلاء الرموز كعب بن الأشرف وهو واحد بني نبهان من طيء وكان قد سعى الى جمع قوة عسكرية لمحاربة المسلمين بعد معركة بدر فجاء الى مكة وحرص على رسول الله (ص) وكان يشبب بنساء المسلمين ويستعمل الشعر ضد الاسلام والمسلمين . وعندما تحقق رسول الله (ص) من خططه التآمرية جهز له فرقة فدائية متركبة من محمد بن مسلمة وأبو نائلة والحارث بن أوس بن معاف وعباد بن بشر وأبو عيس بن خبر وأعطيت قيادة المجموعة الى محمد بن مسلمة .

وقبل ان ينفذوا المهمة اتفقوا على خطة ذكية ، ففي الصباح جاء أبو نائلة الى بيت كعب بن الاشرف لوحده مستفيداً من صداقته القديمة قائلاً له : يا ابن الاشرف اني قد جئتك لحاجة فاكتمها عليّ . قال : افعل . قال : كان قدوم هذا الرجل (ويقصد النبي (ص) شؤماً على العرب قطع عنا السبل حتى ضاعت العيال وجمدت البهائم . فقال كعب ؛ قد كنت أخبرتك بهذا . قال أبو نائلة : وأريد ان تبيعنا طعماً ونرهنك ونوثق لك وتحسن في ذلك . قال : ترهونوني أبناءكم . قال : أردت ان تفضحننا ان معي أصحابي على رأيي تبعهم وتحسن ونجعل عندك رهناً من الحلقة ما فيه وفاء . فقال : ان في الحلقة وفاء^(١) .

فبعد ان كسب أبو نائلة ثقة كعب بالنيل من النبي (ص) . قدّم اليه عرضاً هو ان يرهنوا اسلحتهم (الحلقة) حتى لا يتفاجأ كعب من مشاهدة الاسلحة وهي معهم اثناء تنفيذ العملية .

رجع أبو نائلة الى أصحابه فأخبرهم . فأخذوا السلاح وساروا اليه ليلاً

(١) ابن الاثير، الكامل في التاريخ ج ٢ ص ١٤٣ .

وعندما بلغوا حصن كعب هتف أبو نائلة فجاءه كعب فأخذوا يتمشون في شعب العجوز وكانت رائحة العطر تهب من كعب فقد كان حديث العهد بالزواج . فأخذ أبو نائلة برأس كعب فشمه وهو يقول : ما رأيت كالليلة طيباً أعرف قط ثم واصلوا المشي حتى اطمأن كعب وفي اللحظة المناسبة انقض أبو نائلة على الفريسة وصاح برفاقه اضربوا عدو الله فقطعوه ارباً واجتمع اليهود حول الأشلاء المقطعة وهم يرتجفون فأصبح مقتل ابن الأشرف درساً لكل من حدث نفسه التأمر على المسلمين .

وكان هناك يهودي آخر يقوم بنفس الدور الذي كان يقوم به كعب بن الأشرف هو أبو رافع سلام بن أبي الحقيق وكان بخير وقد أعد رسول الله فرقة فدائية لاغتياله أيضاً تتكون من عبد الله بن عتيك ومسعود بن سنان وعبد الله بن أنيس وأبو قتادة وخزاعي بن الأسود ومرّ عليهم عبد الله بن عتيك . فخرجوا حتى قدموا خيبر فأتوا دار أبي رافع ليلاً . فأغلقوا كل الأبواب التي كانت مفتوحة حتى لا يسمع أحداً صوتاً . . طرقوا باب أبي رافع فخرجت امراته فقالت : من أنتم ؟ قالوا : نفر من العرب يلتمسون الميرة . قالت : ذاك صاحبكم فادخلوا عليه . فلما دخلوا أغلقوا باب العلية ووجدوه على فراشه وابتدروه ضرباً بسيوفهم فصاحت زوجته فأراد أحدهم قتلها فتذكر وصية النبي (ص) بأن لا تقتلوا امرأة ولا صبياً فتركوها وخرجوا من الدار بعد أن هبّ اليهود لنجدته .

وبعد ان وصلوا الى قواعدهم أرسلوا أحدهم فجاء الى خيبر فتأكد من مقتله فعاد الى أصحابه يبشرهم بنجاح العملية .

وبعد معركة أحد ارتأى رسول الله (ص) ان يرسل مجموعة فدائية الى مكة لاغتيال أبا سفيان للتخلص من شره فهو كان المباشر في حرب أحد وبعد ان قتل كبار زعماء قريش في بدر لم يبق سوى أبي سفيان فالقضاء عليه سيمهد الطريق أمام عودة السلام والاخاء وقبول قريش بالمصالحة .

لكن ليس من السهل ارسال مجموعة الى مكة وأعين قريش شاخصة لكل انسان غريب . فقرر رسول الله (ص) ان يقلص عدد المجموعات من أربعة الى اثنين فكلف عمرو بن أمية الضمري مع رجل من الانصار .
ونترك لعمرو ليقص علينا الخطة بكل تفاصيلها كما ورد في الكامل لابن الأثير :

خرجت أنا ومعى بغير لي وبرجل صاحبي علة فكننت أحمله على بعيري حتى جئنا بطن يأجج ، ففعلنا بغيرنا في الشعب وقلت لصاحبي : انطلق بنا الى أبي سفيان لنقتله فإن خشيت شيئاً فالحق بالبعير فاركه والحق برسول الله (ص) وأخبره الخبر وخل عني .

فدخلنا مكة ومعى خنجر قد أعددت ان عاقني انسان ضربته به . فقال لي صاحبي : هل لك ان تبدأ فنطوف ونصلي ركعتين . فقلت ان أهل مكة يجلسون بأفئتهم وأنا أعرف بها .

فلم نزل حتى أتينا البيت فطفنا وصلينا ثم خرجنا فمررنا بمجلس لهم . فعرفني بعضهم فصرخ بأعلى صوته : هذا عمرو بن أمية فثار أهل مكة الينا وقالوا : ما جاء إلا لشر وكان فاتكاً متشيطناً في الجاهلية . فقلت لصاحبي : النجاة هذا الذي كنت أحذر . أما أبو سفيان فليس اليه سبيل فانج بنفسك . فخرجنا نشدد حتى صعدنا الجبل فدخلنا غاراً فبتنا فيه ليلتنا نتنظر ان يسكن الطلب .

قال : والله اني لفيه إذ أقبل عثمان بن مالك التميمي بفرس له فقام على باب الغار فخرجت اليه فضربته بالخنجر فصاح صيحة أسمع أهل مكة فأقبلوا اليه ورجعت الى مكاني فوجدوه وبه رمق فقالوا : من جذبك . قال عمرو بن أمية ثم مات ولم يقدر يخبرهم بمكاني . وشغلهم قتل صاحبهم عن طلبي فاحتملوه ومكثنا في الغار يومين حتى سكن عنا الطلب ، ثم خرجنا الى التنعيم

فإذا بخشبة خبيب وحوله حرس فصعدت خشبته واحتملته على ظهري فما مشيت به إلا نحو أربعين خطوة حتى نذروا بي فطرحته فاشتدوا في أثري فأخذت الطريق فأعبوا ورجعوا وانطلق صاحبي فركب البعير وأتى النبي (ص) فأخبره . وأما خبيب فلم يُر بعد ذلك وكأن الأرض ابتلعتة .

قال وسرت حتى دخلت غار بضجنان ومعني قوسي وأسهمي فبينما أنا فيه إذ دخل علي رجل من بني الدُّثُل أعور طويل يسوق غنماً فقال : من الرجل ؟ قلت : من بني الدثُل ، فاضطجع معي ورفع عقبرته يتغنى ويقول :

ولست بمسلم ما دمت حيا ولست أدين دين المسلمينا

ثم نام فقتلته ثم سرت ، فإذا رجلان بعثتهما قريش يتجسسان أمر رسول الله (ص) فرميت أحدهما بسهم فقتلته وأستأسرت الآخر فقدمت على النبي (ص) وأخبرته الخبر فضحك ودعا لي بخير^(١) .

ونستنتج من هذه القضية :

* كان يفترض بعمرؤ أن لا يسمع كلام الانصاري الذي كانت نفسه تتوق الى الطواف والصلاة فوضع الأنصاري وهو غير معروف لدى المكيين يختلف عن حال عمرو وهو من أهل مكة ويعرفه الجميع . وكان هذا العمل اللا انضباطي وراء فشل المهمة .

* وإذا كان عمرو قد فشل في اغتيال أبي سفيان فهو لم يرض أن يعود الى المدينة دون ان يشف غليله من أعداء الله .

وقد تختلف المهمة التي كان يرسل رسول الله (ص) أصحابه اليها في حجمها . ففي إحدى المرات أرسل محمد بن مسلم على رأس فرقة فدائية

(١) ابن الاثير، الكامل في التاريخ ج ٢ ص ١١٩ - ١٧٠ .

عددها ثلاثون مجاهداً للاغارة على جماعة من الأعداء من بني كلاب فسار محمد مع رفاقه بالليل حتى بلغوا مكان أعدائهم فانقضوا عليهم انقضاض رجل واحد فقتلوا منهم عدداً وهرب الباقي واستولوا على الابل والغنم وأسروا زعيم أهل اليمامة تمامة بن أثال ومعه بعض أصحابه .

ومرة أخرى أرسل رسول الله (ص) محمد بن مسلمة ومعه عشرة من الفدائيين الى معادين من بني ثعلبة في مكان اسمه ذو القصة . فأحاط بهم مائة من الأعداء واشتد القتال بين القلة والكثرة فنال الشهادة أفراد الفرقة بأجمعهم أما محمد فقد جرح جرحاً بليغاً لم يستطع معها الحركة فحسب المشركون انه قد مات فتركوه وانصرفوا . فمرّ عليه المسلمون فوجدوه جريحاً فأخذوه فشفي من جراحه .

وهناك عددٌ آخر من العمليات الفدائية التي قامت بها هذه المجموعات وكان الهدف منها هو تصفية رموز الشر في جزيرة العرب . وقد لا يستسيغ البعض مثل هذه الممارسات ومن المحتمل ان ينعتوها بالارهاب وقد يتناولون أكثر ليسمو النبي (ص) برجل الأرباب والعياذ بالله . ولايضاح هذه النقطة كان لا بد من ذكر هذه الحقائق . .

١ - الارهاب هو استهداف الأبرياء وهو عمل كل الطواغيت والظالمين الذين لا يفرقون بين المذنب والبريء ، فيعتدون على من تصل اليه أياديهم . أما استهداف الظالمين والمعتدين فهو ليس بارهاب بل هو عمل من أجل تصفية الارهاب .

٢ - ما قام به رسول الله (ص) من اغتيال كعب بن الأشرف وأبي بن رافع وغيرهما هو أمر مشروع يتطابق مع المنطق الانساني والقانون العام فهؤلاء الذين قضى عليهم النبي (ص) يستحقون الموت دون محاكمة لان الجرائم التي

ارتكبوها ثابتة بحقهم وكانت أعظم جريمة ارتكبوها بالاضافة الى التسبب في قتل الآخرين احداث الفتن والفتنة أشد من القتل .

٣ - ان قتل هؤلاء الطغاة سيكون السبيل لحقن دماء الكثير من الناس الذين كان من المحتمل ان يشاركوا في حروب يسببها هؤلاء فتسفك دمائهم فيها .

فالرسول (ص) لم يقم بتلك الاغتيالات تحباً بالدماء كما يقول بعض الاعداء من المستشرقين بل كانت هناك مصلحة عامة اضطرته لاتخاذ ذلك الموقف . وفي قبال تلك الاغتيالات لرؤوس الكفر كان رسول الله (ص) يعفو عن الكثير ممن يستحقوا الموت بعد تشخيصه إن تركهم لا يترك أثراً سلبياً فالذين عفا عنهم الرسول هم اكثر بكثير من الذين أصدر القرار بتصفيتهم .

...the ... of ...
...the ... of ...
...the ... of ...

...the ... of ...
...the ... of ...
...the ... of ...
...the ... of ...
...the ... of ...

...the ... of ...
...the ... of ...
...the ... of ...
...the ... of ...
...the ... of ...

...the ... of ...
...the ... of ...
...the ... of ...
...the ... of ...
...the ... of ...

...the ... of ...
...the ... of ...
...the ... of ...
...the ... of ...
...the ... of ...

العنصر الثاني : الأرض

بعد أن تناولنا السلطة في الدولة الاسلامية ممثلة بالقيادة والاجهزة التنفيذية سنتطرق الآن الى العنصر الثاني من العناصر الثلاثة التي تكوّن الدولة وهي الارض والسيادة عليها .

فبدون الأرض لا يمكن اقامة الدولة ، لذا كان رسول الله (ص) يسعى في مكة للبحث عن أرض مناسبة يجد فيها الفرصة كي يقيم عليها دولته . فكان تحركه نحو القبائل وهو في مكة لهذه الغاية وقد آل تحركه أخيراً الى اختيار المدينة مقراً للدولة .

وأول ما قام به في المدينة هو تأسيس المسجد للتأكيد على السيادة الاسلامية على أرض المدينة وان هذه الارض ستكون مكاناً لاقامة الدولة الاسلامية . والأمر الآخر الذي قام به الرسول (ص) هو الاعلان عن الصحيفة والتي كفلت موضوع السيادة على الارض وكيفية حماية حدود الدولة الاسلامية من الاخطار المحدقة فقد صُنّفت الصحيفة القبائل الاسلامية وغير الاسلامية وأقطعت الناس الدور وجعلت كل قبيلة مسؤولة عن توفير الحماية الخارجية كما وانها مسؤولة أيضاً عن تطبيق القانون في قضايا الديات . وجاء في الصحيفة ان

يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة وهو نص يؤكد على السيادة القانونية على مدينة يثرب . ومع اتساع الارض الاسلامية كانت هذه السيادة تقوى أيضاً .

ويبقى لكل قبيلة صلاحياتها في تنظيم أمورها لكن كل حدث يخاف فسادة فان مرده الى رسول الله (ص) كما جاء في الصحيفة .

والدولة الاسلامية قد فرضت سيادتها على الأرض مع وجود قبائل غير مسلمة وهذا ما يؤكد على ان الاسلام لم يكن حاكماً على المسلمين فقط بل على كل من يعيش على تلك الارض في ظل الدولة الاسلامية فعليهم الامتثال لقوانين الدولة الاسلامية . فالاعتبار في السيادة لم يكن هو تجمعات المسلمين الساكنين على هذه الارض بل الأرض كلها . فقد منحت لغير المسلم حق المواطنة طالما انه رضي بالقوانين الاسلامية . فيهود المدينة يشكلون أمة مع المؤمنين والأمة هنا بمعنى الشعب لكن يبقون محتفظين بخصائصهم العقائدية .

وعندما خالف اليهود إحدى بنود الاتفاقية وانه لا تجار قريش ولا من نصرها كان لا بد أن يخرجوا من حدود الدولة الاسلامية لانهم خرقوا قوانين هذه الدولة واعتبر هذا الخرق بمثابة عدم الاعتراف بالسيادة القانونية للدولة الاسلامية . فكان اخراجهم من المدينة أمراً مشروعاً ومتطابقاً مع القانون . والأرض التي كان يسكنها اليهود ضمن السيادة الاسلامية كما أبرم في الصحيفة ووافق عليها اليهود فمن حق الدولة الاسلامية إخراجهم منها عندما رفضوا سيادة الدولة على شؤونهم .

والأرض التي كانت تضاف الى الدولة الاسلامية عن طريق الغزوات فهي أيضاً كانت تخضع لسيادة القانون الاسلامي وحتى لو كانت تلك الارض ملكاً لأصحابها فالسيادة شيء والتملك شيء آخر .

ففي السيادة بعد قانوني وليس فيها جنبه تملك ، لأن معيار التملك في

القوانين الاسلامية هو احياء الأرض . فكل مواطن يحيي أرضاً فهي له . تبقى القوانين التي تجري على هذه الأرض لا بد وأن تكون قوانين اسلامية .

فالذين دخلوا الى الاسلام أو قبلوا بحماية الاسلام ولم يسلموا سواء عن طريق الحرب أو الصلح انما قبلوا بالسيادة الاسلامية على أرضهم .

أما الذين لم يؤمنوا بالاسلام وصالحوا رسول الله (ص) على ان تكون الأرض لهم وان الدولة الاسلامية توفر الحماية لهم في قبال الجزية أو خراج الأرض فان الرسول (ص) أقر لها ملكيتهم للأرض وحتى سيادتهم عليها طالما ظلوا ملتزمين بالاتفاقية المبرمة .

ملكية الأرض للدولة الاسلامية :

حسب القوانين الاسلامية تقسم الأرض من حيث الملكية الى ثلاثة أقسام ملكية عامة ، ملكية الدولة وملكية خاصة . وطريقة دخول الأرض ضمن حدود الدولة الاسلامية هي التي تحدد هذه الملكية وهنا نجد العلاقة بين الملكية وبين السيادة . فالملكية هي نتيجة السيادة على الارض فنوع السيادة هو الذي يحدد نوع الملكية أيضاً .

وتقسم الأرض حسب السيادة الى :

١ - الأرض التي أصبحت اسلامية بالفتح وهي الأرض التي دخلت الاسلام نتيجة الجهاد المسلح وهي على ثلاثة أنواع :

* الأرض العامرة بشرياً وقت الفتح وملكيتها عامة لكل المسلمين .

* الأرض الميتة حال الفتح وهي أرض غير عامرة حين دخولها في الاسلام لا بشرياً ولا طبيعياً فهي ملك للامام وهذا ما نصطلح عليه باسم ملكية

الدولة^(١) وهي أرض تدخل ضمن قانون احياء الموات .

٢ - الأرض المسلمة بالدعوة كالمدينة . وهي كل أرض دخل أهلها في الاسلام دون قتال . وهي تقسم الى أرض عامرة أحيائها أهلها فهي لهم . وأرض عامرة بصورة طبيعية . وأرض موات فهي ملك الدولة .

٣ - أرض الصلح وهي الأرض التي هجم عليها المسلمون لفتحها فلم يسلم أهلها ولا قاوموا الدعوة بشكل مسلح ، وانما ظلوا على دينهم ورضوا ان يعيشون في ظل الدولة الاسلامية مسالمين وتكون ملكية الأرض حسب اتفاقية الصلح . فاذا صالحوا المسلمين على ان تكون الأرض لهم فإن ملكيتها تبقى لهم وإذا تم الصلح على عدم ملكيتهم للأرض فانها ستكون ملكية عامة^(٢) ، هذا ان كانت الأرض عامرة فإذا كانت موات فانها ستكون ضمن ملكية الدولة للأرض .

وتبرز في هذه التقسيمات الطريقة التي فرضت فيها السيادة على الأرض .

فالأرض التي أسلم أهلها ولم تستخدم فيها القوة فهي لهم فهم يملكون رقيتها ، أما الأرض التي فتحت بالقوة فهي ملك الأمة لأنها دخلت في حوزة الاسلام بمساهمة الأمة فملكيتها ستكون ملكية عامة .

أما الأرض الموات غير المحيية فملكيتها للدولة الاسلامية فهي تترك لها من أجل المباشرة باحيائها أما عن طريق مباشر أو عبر المواطنين . وهنا نجد طريقة مثلى في ربط المعايير الثلاثة الهامة من معايير الأرض وهي : الملكية القانونية والسيادة السياسية والاستثمار الاقتصادي بخطط تكاملي واحد وهذا ما

(١) محمد باقر الصدر، اقتصادنا: ص ٤٥٧ .

(٢) نفس المصدر السابق: ص ٤٧٣ .

يؤكد لنا ان التشريعات الاسلامية تشريعات متكاملة تنظر الى الأمور من زوايا متعددة .

فطريقة تعامل الاسلام مع الارض قامت على ثلاثة أسس :

- ١ - حماية حقوق الأمة في هذه الأرض .
- ٢ - حماية سيادة الدولة الاسلامية عليها .
- ٣ - استثمار الارض في الانتاج الى آخر مدى .

1. The first part of the document is a list of names and addresses of the members of the committee.

2. The second part is a list of the names and addresses of the members of the committee.

3. The third part is a list of the names and addresses of the members of the committee.

4. The fourth part is a list of the names and addresses of the members of the committee.

5. The fifth part is a list of the names and addresses of the members of the committee.

6. The sixth part is a list of the names and addresses of the members of the committee.

7. The seventh part is a list of the names and addresses of the members of the committee.

8. The eighth part is a list of the names and addresses of the members of the committee.

9. The ninth part is a list of the names and addresses of the members of the committee.

10. The tenth part is a list of the names and addresses of the members of the committee.

11. The eleventh part is a list of the names and addresses of the members of the committee.

12. The twelfth part is a list of the names and addresses of the members of the committee.

13. The thirteenth part is a list of the names and addresses of the members of the committee.

14. The fourteenth part is a list of the names and addresses of the members of the committee.

15. The fifteenth part is a list of the names and addresses of the members of the committee.

16. The sixteenth part is a list of the names and addresses of the members of the committee.

17. The seventeenth part is a list of the names and addresses of the members of the committee.

18. The eighteenth part is a list of the names and addresses of the members of the committee.

19. The nineteenth part is a list of the names and addresses of the members of the committee.

20. The twentieth part is a list of the names and addresses of the members of the committee.

21. The twenty-first part is a list of the names and addresses of the members of the committee.

22. The twenty-second part is a list of the names and addresses of the members of the committee.

23. The twenty-third part is a list of the names and addresses of the members of the committee.

24. The twenty-fourth part is a list of the names and addresses of the members of the committee.

25. The twenty-fifth part is a list of the names and addresses of the members of the committee.

26. The twenty-sixth part is a list of the names and addresses of the members of the committee.

27. The twenty-seventh part is a list of the names and addresses of the members of the committee.

28. The twenty-eighth part is a list of the names and addresses of the members of the committee.

29. The twenty-ninth part is a list of the names and addresses of the members of the committee.

30. The thirtieth part is a list of the names and addresses of the members of the committee.

العنصر الثالث : الأمة

الشعب :

وهم جماعة من الناس يعيشون على أرض واحدة ضمن نظام سياسي . وقبل قيام الدولة الاسلامية لم يكن هناك شعب بمعنى الكلمة في جزيرة العرب حيث كان مجتمع الجزيرة يتكون من مجموعة من القبائل تناهز الثلاثمائة قبيلة . وكانت العلاقة بين قبيلة واخرى أما علاقة حرب أو تحالف سياسي وهي تتغير تبعاً لتغير المصالح وتبعاً للحوادث التي تجري بين القبيلتين . وعندما جاءت الرسالة أخذت على عاتقها تأسيس نموذج مثالي لكيان اسلامي يمتد الى مساحات اجتماعية اخرى لتضم مجموعات بشرية جديدة . وهو هدف لا يتحقق إلا بقيام تنظيم اجتماعي متماسك قادر على الحركة والفاعلية باحتواء المجموعات المرشحة لدخول الاسلام .

فكان على رأس أهداف الرسالة هو تكوين مجتمع متجانس متوحد الاهداف ومتقارب المفاهيم يشترك في ثقافة موحدة وفي قيم ومثل واحدة .

وفي جزيرة العرب لم يكن مثل هذا المجتمع موجوداً عندما نزل الوحي على نبينا (ص) فكان على رسول الله (ص) ان يبدأ خطواته في تكوين هذا

المجتمع . فمئذ ان صدع بالرسالة وهو يسير في هذا الخط حتى آخر يوم من حياته في المدينة المنورة .

فالتأريخ الاسلامي هو بمثابة العمر الطويل الذي طوته الأمة الاسلامية منذ ولادتها وحتى بلوغها مرحلة النضج . والتأريخ الاسلامي هو تأريخ صراع الأمة ضد عوامل التشتت والتبعثر . وقد شهدت مكة الخطوة الأولى في بناء الأمة كما وشهدت المدينة المرحلة الثانية حيث كان امام الرسول (ص) مهمتان :

الاول : هدم الأسس التي يقوم عليها المجتمع القبلي .

الثاني : ارساء القواعد التي يقوم عليها المجتمع الإسلامي .

فقد كرس رسول الله (ص) فترة وجوده في المدينة في انجاز الهدف الاول وبأشر عند وصوله المدينة بالمرحلة الثانية مستفيداً من الاجواء الجديدة التي أوجد لها المقر الجديد للدعوة الاسلامية . وقد سبق وتحدثنا عن هذا الموضوع في فصول سابقة .

وبقي علينا ان نتناول قضية انتقال القبيلة الى أمة وهي العملية التي استغرقت التأريخ الاسلامي كله ، واستوعبت الأحداث والتطورات الناجمة عن هذا الانتقال . فقد جاء الاسلام لينسف ركيزة النظام القبلي والولاء لها واستبدله بطريقة تربوية وفكرية وروحية الى الولاء للدين وجاء القرآن الكريم لياشر عملية التحول هذه من خلال الكثير من الآيات القرآنية .

ففي الآية (٧١ من سورة التوبة) صدع القرآن الكريم :

﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله ان الله عزيز حكيم ﴾ فالولاء والنصرة أصبحت بين المؤمن والمؤمن على أساس الايمان بعد ان كانت بين أبناء القبيلة على أساس الولاء

القبلي . والطاعة تحوّلت من رئيس القبيلة الى الله والرسول ومن أجل تعميق هذه العلاقة وتجسيدها عملياً وضَعَ الاسلام نظاماً للعلاقات الاجتماعية يقوم على قاعدة التواصي والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

والآية الكريمة تضع نظرية في التحول الاجتماعي من كيان قبلي الى أمة .

فالأمة تتكون من أفراد يترابطون كأعضاء الجسد الواحد بعضهم من بعض فلا فرق بين المسلم والمسلم ولا فضل لعربي على أعجمي ، فالكل سواسية أمام القانون . والكل يتحمل مسؤولية الجزء والجزء يتحمل مسؤولية الكل والجزء يتحمل مسؤولية الجزء .

والتقوى هي معيار التفاضل ، فالمجتمع الذي يؤسسه الاسلام مجتمع هرمي يقف على رأسه الإمام أو النبي (ص) وتقوم العلاقة بين ذرات الهرم والقمة على أساس الطاعة لأن هذا المجتمع متحرك وليس مجتمعاً ساكناً ، وطاعة القيادة هي ضمان الاستمرار في الحركة والانتقال المستمر الى الواقع الافضل ويعمل الاسلام على تعميق هذه العلاقة وتجنيتها مواطن الضعف وذلك عبر تعميق الروح العبادية ﴿ يقيمون الصلاة ﴾ وتوطيد الصلة بالعمل والتطور الى الأفضل من خلال (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) وإزالة الفروقات الاقتصادية وإيجاد مشاعر موحدة بين الفقير والغني عبر اعطاء الزكاة . وهي أسس قومية لبناء مجتمع متطور متحرك متجانس متوحد في الأهداف والقيم وهي أهم سمات المجتمع الاسلامي .

١ - الديناميكية والمشاركة الذاتية :

فكل عضو من هذا المجتمع عضو فاعل متفاعل مع الاعضاء الآخرين لتحقيق هدف أكبر . . فالفرد يريد ان يحيا في نفس الوقت يريد لمجتمعه ان

يحيا أيضاً وإذا تضارب الامران فأيهما المقدم هل سيضحي الفرد بالمجتمع من أجل حياته او العكس ، وهنا تكمن الازمة الاجتماعية التي صعب على المبادئ الوضعية حلها لكن الاسلام استطاع أن يضع حداً لهذه العقدة فربى الانسان على التضحية بماله وحتى دمه من أجل المجموع ذلك لأن الفرد في المجتمع الاسلامي يطمح لأهداف أكبر من مجرد العيش وكسب الراحة لنفسه فهو يحيا للآخرين كما يحيا لنفسه أيضاً . وهذا ما يجعل المجتمع الاسلامي مكنة متحركة في هذا الوجود لا يعرف السكون لأن لا حدود لعمل الانسان ولا حدود لأهدافه وسعيه في الحياة فهو لا يعمل لنفسه فقط بل يعمل لمصلحة الجماعة وللوصول الى حياة افضل .

٢ - الانتماء المبدئي :

والمجتمع الاسلامي مجتمع ينتمي الى المبادئ . وهو يُربي أبنائه على تلك المبادئ التي جاء بها الوحي فهو مجتمع ملتزم يتمسك بالاخلاق ويتحلى بالفضائل . يتقدم الى العمل الصالح بدوافع ذاتية واشارات تنطلق من أعماق النفس . فميزة المجتمع المبدئي عن المجتمع غير المبدئي ان الاولوية لأبناء المجتمع الاول هو المبادئ بينما الاولوية للمجتمع غير المبدئي هي المصلحة . والتحرك ضمن زاوية المصلحة الفردية ، هو مصدر الخطر في المجتمع فكل شرخ ومرض اجتماعي ينتهي الى هذا المكروب والتأريخ الاسلامي حافل بالأمثلة الدالة على التضحية بالمصلحة الشخصية من أجل المصلحة العامة .

٣ - المجتمع المتجانس :

والمجتمع الاسلامي مجتمع يتجانس فيه الأفراد ، فلا فروقات ولا طبقة ولا استئثار ، فالكل اخوة في الدين . . الكل أعضاء في جسد واحد إذا اشتكى

منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى .

والمبدأ الواحد والذي هو الاسلام والكتاب الواحد والذي هو القرآن هما أكبر العوامل في خلق التجانس في المجتمع الاسلامي بالاضافة الى عوامل أخرى كالغة والعادات والقيم .

٤ - التوحد الثقافي :

فالتوجيه القرآني وتوجيه الرسول (ص) أوجد في المجتمع ثقافة مشتركة ، والثقافة هي الطريقة التي يحيا بها المجتمع والاسلوب الذي يتعامل به الانسان مع قضايا الحياة ، فالثقافة هي فكر وسلوك وقد جاء الاسلام ليوجد موقفاً فكرياً وعملاً سلوكياً مع كل قضية حياتية . فهو بصورة عملية أوجد ثقافة مشتركة لدى المجتمع الاسلامي عندما أخضع هذا المجتمع لمصدر توجيه مشترك هو القرآن والسنة .

وقد استطاع الاسلام ان يُوجد ثقافة متينة في المجتمع حلت محل العادات والتقاليد الجاهلية. فقد استطاع الاسلام ان ينفذ الى داخل الشرنقة القبلية ويبعث الحياة في الانسان من جديد ويستبدل عقليته وممارساته القبلية بعقلية اسلامية تنظر إلى الحياة من زاوية أخرى غير الزاوية التي كان ينظر إليها في السابق .

واستطاع المجتمع الاسلامي ان يقاوم الغزو الفكري ردهاً من الزمن بسبب قوة الثقافة الاسلامية التي تأصلت في جذور هذا المجتمع لكن مع ضعف تلقي التوجيه القرآني والرسالي انحسرت هذه الثقافة فهزلت بنية الامة فأصبحت قابلة للخرق الثقافي من قبل التيارات الفكرية . وقد حدث هذا الخرق بعد سقوط الدولة الاسلامية حتى الظاهرية لأنها كانت تشكل الغطاء لحفظ ثقافة الامة حتى الشيء القليل منها .

وتاريخياً نجد ان الامة لم تتأثر بالحروب الصليبية ولم تخضع سياسياً ولا عسكرياً لأنها كانت محتفظة بثقافتها الاسلامية، بل على العكس نجد ان الصليبيين تأثروا بالاسلام بالرغم من انهم غزاة على خلاف القاعدة المتعارفة في انتقال الثقافة من الغازي الى المحتلين وفي عهد الرسول (ص) اجتمعت الديانات الثلاثة في المدينة ولم يتخوف الرسول (ص) من تعرض المسلمين الى مؤثرات ثقافية غير اسلامية ذلك لأن ثقافتهم كانت من المتانة بحيث أوجدت الحصانة ضد الثقافات الاخرى .

٥ - التوحد السياسي :

ومن سمات المجتمع الاسلامي تمسكه بأهداف سياسية مشتركة على رغم وجود الحرية الكافية في ابداء الرأي وعلى رغم حرية العقيدة التي يكفلها الاسلام إلا ان الجميع كانوا يشتركون في موقف سياسي . فقد كان المجتمع الاسلامي يتحرك بواقعية ويسير بخط مستقيم نحو أهداف مرسومة وكان للرسول (ص) دور المشرف والموجه لهذه الحركة . فعندما كانت تقع الحوادث التي تستدعي موقفاً محدداً كان جميع أفراد المجتمع يمتلكون من الوعي الذي يتمكنوا به اتخاذ الموقف الموحد فعندما أقبلت قريش على ضخامة ما لديها من الاسلحة الفتاكة لقتال المسلمين لم يكن بين المسلمين من رفض المشاركة في الحرب او كان رأيه عدم الحرب على رغم قلة المسلمون بانتظار هذه المواجهة في يوم قريش كانت أمراً لا محالة ، فقد كان المسلمون بانتظار هذه المواجهة في يوم من الأيام كما كانوا في انتظار الحلقات الاخرى من المواجهات العسكرية أو السياسية . وحتى في صلح الحديبية عندما رأى البعض عدم المصالحة إلا ان الموقف السياسي العام الذي كان يقفه المسلمون عامة هو الصلح مع قريش للتفرغ الى عدو آخر كان يتربص بالمسلمين الدوائر وهم اليهود .

وهكذا لا نجد في المسيرة الاسلامية في عهد الرسول (ص) اختلافاً

سياسياً ينجر الى انقسام المجتمع إلا اللهم المعارضة الدائمة التي كانت تبديها فئة المنافقين والتي كانت تطوق اعلامياً وسياسياً من قبل الدولة والأمة معاً بل الذي نجده في المسيرة الاسلامية هو وحدة الموقف السياسي بين القيادة والشعب وهذا منتهى التفاعل الذي يصله الشعب مع القيادة .

٦ - التكامل الاقتصادي :

المجتمع الذي تتكاتف أجزاؤه ويسوده التعاون وروح الاخوة يسوده التكامل الاقتصادي أيضاً ، والتكامل الاقتصادي أهم معيار لقياس مدى تقدم الشعب فعندما تتكامل الاسر فيما بينها في الانتاج ويصبح الاعتبار الاول للتكامل وليس للتنافس في النوعية الواحدة ، اي عندما يجد انساناً ان جاره ينتج محصولاً معيناً فهو ينتقل الى محصول آخر كي تتكامل المحصولات . هذه الروح هي التي تقاس على أساسها قوة المجتمع ومدى ما يبلغه من الشعور بالمسؤولية والعقلية الحضارية . والمجتمع الاسلامي منذ اليوم الاول من قيامه قام على مبدأ التكامل الاقتصادي فقد هبّ كل عضو في هذا المجتمع لتكملة العضو الآخر . وكان للمؤاخاة التي جرت بين المهاجرين والأنصار الاثر الكبير في ايجاد ارضية التكامل الاقتصادي . إذ أصبح الانصاري ينتج والمهاجر يتاجر مستفيداً من خبراته السابقة في التجارة . وعلى هذه القاعدة أرسى الاسلام أقوى نظام اقتصادي عرفته البشرية حتى الآن . فالشعور بالتكاملية يفجر الطاقات ويحرك حلقات الانتاج المختلفة نحو الاكتفاء الذاتي وهو أعلى مستوى يصله الاقتصاد الوطني لبلد ما .

هذه هي سمات المجتمع الاسلامي والتي وضعت هذا المجتمع في مصاف المجتمعات الراقية القادرة على امتلاك قرارها السياسي وتحفظ بنظامها الحاكم .

وينتج عن هذه السمات مرتكزات لتطوير كفاءة المجتمع باستمرار نحو الأفضل ، هذه المرتكزات هي : التعاون الاجتماعي والمشاركة السياسية والارتباط بمؤسسة السلطة والالتزام بالنظام السياسي والبحث عن آفات ومستقبل أفضل . وهي مرتكزات كانت قائمة في المجتمع الاسلامي وهي السبب المباشر في تطوير هذا المجتمع وبلوغه درجات عالية من الاداء الحضاري والكفاءة الانتاجية والجدارة السياسية خصوصاً في عهد رسول الله (ص) .

سياسة الدولة الإسلامية :-

السياسة هي رعاية شؤون الناس ، والاسلام لم يأت فقط من أجل اشباع الحاجة العقائدية في الافراد بل جاء أيضاً لرعاية شؤون الناس وادارة الحياة فبالقطع يشتمل الاسلام على سياسة واضحة في الادارة والتوجيه لأنه أوجد دولة لهذه الغاية وتقسم السياسة على حسب الواقع السكاني والدولي الى سياسة داخلية وسياسة خارجية .

أولاً السياسة الداخلية :

وهي طريقة ادارة الدولة لشؤون المسلمين الخاضعين للدولة الاسلامية ونستطيع ان نستلهم من منهج الرسول الأكرم (ص) عدة أهداف لهذه السياسة .

١ - ضمان الحاجات الاساسية وهي الأمن ، الصحة والغذاء فقد أخذت الدولة الاسلامية على عاتقها ضمان هذه الحاجات بقوله (ص) (من أصبح آمناً في سربه ، معافى في بدنه ، عنده قوت يومه فكأنما زُوِّت له الدنيا) . فالدولة تتحمل مسؤولية الضمان العام لهذه الحاجات فهي توفر الامن بألوانه المختلفة الأمن السياسي والأمن الاقتصادي بضربها جذور الفساد والجرام وهي أيضاً تحصن المجتمع من كل ما يهدده صحياً كالخمر ولحم الخنزير وتراعي نظافة

المجتمع فالنظافة من الايمان وتدعو الناس الى التطبيب والمداواة ، كما وان الدولة الاسلامية تعمل على ضمان الحاجة في الطعام بانتهاجها سياسة انتاجية تكفل سد حاجة الناس . هذه هي المسؤولية العامة للدولة ، اما المسؤولية المباشرة فقد حملت الدولة الفرد مسؤولية الانفاق على نفسه وعلى عياله فإذا عجز عن الانفاق فان الدولة تتحمل المسؤولية المباشرة أيضاً .

قال رسول الله (ص) « من ترك كلاً فإلينا ومن ترك مالا فلورثته » والكل هو الضعيف الذي لا يستطيع العيش لوحده وقال أيضاً « فأیما مؤمن مات وترك مالا فليورثه عصبته من كانوا ومن ترك ديناً أو ضياعاً فليأتيني فأنا مولاه » والضياع هم العيال الذين لا شيء لهم .

٢ - كفالة الحريات والحقوق : كانت السيادة في المجتمع الجاهلي للفوضى القوي كان يأخذ حقه بالقوة أما الفقير لم تكن قدرته الضعيفة لتسمح له بنيل حقوقه فكانت حقوقه تهضم وليس هناك مرجع يعيد له الحق .

الانسان العربي تواق للحرية فقد علمته حياة الصحراء كيف يعيش حراً طليقاً لكن كانت حريته بدون قيد ولا حدود وقد نشأ من ذلك الفوضى واضطراب المجتمع .

وجاء الاسلام لا لكي يكبح الحريات بل جاء ليضع حدوداً للحريات فهي تنتهي الى هذه القاعدة لا ضرر ولا ضرار . فقد أبقى الاسلام على الحريات بعد ان شذ بها ووضع لها اطاراً لم يسمح بتجاوزه لأنه حينذاك سيتجاوز على حرية الآخرين ولنا نموذج صارخ في التجاوز على حريات الآخرين . .

كانت لسمرة بن جندب نخلة في بيت أحد الانصار ، فكان يمر الى نخلته يسقيها الماء ولا يستأذن ، مما كان يضايق عائلة الانصاري فكلمه صاحب الدار ان يستأذن قبل ان يدخل فأبى سمرة على عادة العرب في الجاهلية حيث كان

القوي يستهين بحقوق الضعيف واضطر الانصاري أمام اصرار سمرة على فعله أن يرفع المشكلة الى رسول الله (ص) فأرسل النبي (ص) الى سمرة وطلب منه الاستئذان عند الدخول فأبى أيضاً . عندها ترجى منه الرسول (ص) أن يبيع نخلته ما شاء على قيمتها فأبى ، عندها أراد الرسول (ص) أن يساومه بالقيمة المعنوية إذا كانت القيمة المادية لا تؤثر فيه فقال له ؛ لك بها عذق نمد لك في الجنة فأبى أيضاً . عند هذه النقطة تنتهي حدود الحرية التي كفلها الاسلام لسمرة فلم يكن أمام الرسول (ص) إلا أن يقول للأنصاري اذهب فاقلعها وارم بها اليه فانه لا ضرر ولا ضرار فجيء بالنخلة مقطوعة فقال النبي (ص) لسمرة انطلق فاغرسها حيث شئت .

في هذه الحادثة نجد عصاره النظرية الاسلامية في الحريات والحقوق فهي مصونة الى الحد الذي لا تتناول على حريات الآخرين وعندما تبلغ ذلك الحد فإن الدور سيكون للقانون .

٣ - رفع مستوى المشاركة : الدولة والشعب وحدة متكاملة وأكثر المسؤوليات تقوم بها الدولة والشعب معاً فالدولة بدون الشعب لا تستطيع ان تفعل شيئاً قال رسول الله (ص) « كلکم راع وكل مسؤول عن رعيته والامام راع وهو مسؤول عن رعيته » فالمسؤولية مشتركة ، فكلما زادت المشاركة الشعبية اتحدت مسؤوليات الشعب بمسؤوليات الدولة ، وعلى هذا المحور قامت سياسة الرسول الأكرم (ص)، فقد سعى من أجل ايجاد اكبر الفرص للمشاركة الشعبية فكان يشاور أصحابه امتثالاً لأمر الله ﴿ وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله ﴾ .

فقد شاور رسول الله (ص) أصحابه في غزوة بدر عندما جمعهم قائلاً لهم أشيروا عليّ أيها الناس ، ليعرف رأيهم في قتال المشركين .

ومرة ثانية يستشيرهم في معركة أحد حول البقاء في المدينة أو الخروج

لللقاء المشركين في الخارج .

ومرة أخرى يشاورهم النبي في معركة الأحزاب حول البقاء أو الخروج من المدينة وطوراً آخر يسأل اصحابه في صلح الحديبية أشيروا علي ، أترون ان نميل الى ذراري هؤلاء الذين اعانوهم فنعيدهم فان قعدوا موتورين محزونين وان نجوا تكن عنقاً قطعها الله ، أو ترون ان نؤم البيت فمن صدنا عنها قاتلناه .

وكان أبو هريرة يقول : ما رأيت أحداً قط كان أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله (ص)^(١) .

وفي غزوة الطائف يستشير أحد اصحابه حول مصير الحصار هو نوفل بن معاوية فأجابه يا رسول الله ثعلب في جحر ان أقمت عليه أخذته ، وان تركته لم يضرك فأذن بالرحيل^(٢) .

وكان رسول الله (ص) يوصي أصحابه بالمشورة فيقول لهم . .

* ما تشاور قوم قط إلا هودوا لأرشد أمرهم (النسفي ٢٦٦/٤) .

* ما ندم من استشار ولا غاب من استخار (القرطبي ١٤٩٣/٤) .

* ما شقي عبد بمشورة وما سعد باستغناء رأي (القرطبي ١٤٩٣/٤) .

والذي يأمر بالمشورة لا بد وان يتحلى بها . والمشورة هي المنطق نحو المشاركة في المسؤولية والمشاركة التي حققها الاسلام هي مشاركة الناس في صنع القرار وهو أعلى درجات المشاركة وبتلك الروح العالية فسخ رسول الله (ص) الطريق أمام المسلمين ليشاركوه أعباء المسؤولية انطلاقاً من قاعدة « كلکم راع » .

(١) سنن البيهقي : ج ٩ ص ٢١٨ .

(٢) ابن الاثير، الكامل في التاريخ : ج ٢ ص ٢١٧ .

وامثالاً لأمر القائد نفسه حينما قال « الدين نصيحة قيل لمن يا رسول الله ؟ قال لله ولرسوله ولكتابه وللأئمة ولجماعة المسلمين » .

السياسة العامة نحو التجمعات السياسية :-

يصنف التجمع الاسلامي في المدينة الى ثلاثة تقسيمات . .

- ١ - تجمع المؤمنين .
- ٢ - تجمع المنافقين .
- ٣ - تجمع المؤلفة قلوبهم .

$\frac{d}{dt} \left(\frac{\partial L}{\partial \dot{x}} \right) = \frac{\partial L}{\partial x}$

[illegible]

1997, 1998, 1999, 2000, 2001, 2002, 2003, 2004, 2005, 2006, 2007, 2008, 2009, 2010, 2011, 2012, 2013, 2014, 2015, 2016, 2017, 2018, 2019, 2020, 2021, 2022, 2023, 2024, 2025, 2026, 2027, 2028, 2029, 2030, 2031, 2032, 2033, 2034, 2035, 2036, 2037, 2038, 2039, 2040, 2041, 2042, 2043, 2044, 2045, 2046, 2047, 2048, 2049, 2050, 2051, 2052, 2053, 2054, 2055, 2056, 2057, 2058, 2059, 2060, 2061, 2062, 2063, 2064, 2065, 2066, 2067, 2068, 2069, 2070, 2071, 2072, 2073, 2074, 2075, 2076, 2077, 2078, 2079, 2080, 2081, 2082, 2083, 2084, 2085, 2086, 2087, 2088, 2089, 2090, 2091, 2092, 2093, 2094, 2095, 2096, 2097, 2098, 2099, 2100, 2101, 2102, 2103, 2104, 2105, 2106, 2107, 2108, 2109, 2110, 2111, 2112, 2113, 2114, 2115, 2116, 2117, 2118, 2119, 2120, 2121, 2122, 2123, 2124, 2125, 2126, 2127, 2128, 2129, 2130, 2131, 2132, 2133, 2134, 2135, 2136, 2137, 2138, 2139, 2140, 2141, 2142, 2143, 2144, 2145, 2146, 2147, 2148, 2149, 2150, 2151, 2152, 2153, 2154, 2155, 2156, 2157, 2158, 2159, 2160, 2161, 2162, 2163, 2164, 2165, 2166, 2167, 2168, 2169, 2170, 2171, 2172, 2173, 2174, 2175, 2176, 2177, 2178, 2179, 2180, 2181, 2182, 2183, 2184, 2185, 2186, 2187, 2188, 2189, 2190, 2191, 2192, 2193, 2194, 2195, 2196, 2197, 2198, 2199, 2200, 2201, 2202, 2203, 2204, 2205, 2206, 2207, 2208, 2209, 2210, 2211, 2212, 2213, 2214, 2215, 2216, 2217, 2218, 2219, 2220, 2221, 2222, 2223, 2224, 2225, 2226, 2227, 2228, 2229, 2230, 2231, 2232, 2233, 2234, 2235, 2236, 2237, 2238, 2239, 2240, 2241, 2242, 2243, 2244, 2245, 2246, 2247, 2248, 2249, 2250, 2251, 2252, 2253, 2254, 2255, 2256, 2257, 2258, 2259, 2260, 2261, 2262, 2263, 2264, 2265, 2266, 2267, 2268, 2269, 2270, 2271, 2272, 2273, 2274, 2275, 2276, 2277, 2278, 2279, 2280, 2281, 2282, 2283, 2284, 2285, 2286, 2287, 2288, 2289, 2290, 2291, 2292, 2293, 2294, 2295, 2296, 2297, 2298, 2299, 2300, 2301, 2302, 2303, 2304, 2305, 2306, 2307, 2308, 2309, 2310, 2311, 2312, 2313, 2314, 2315, 2316, 2317, 2318, 2319, 2320, 2321, 2322, 2323, 2324, 2325, 2326, 2327, 2328, 2329, 2330, 2331, 2332, 2333, 2334, 2335, 2336, 2337, 2338, 2339, 2340, 2341, 2342, 2343, 2344, 2345, 2346, 2347, 2348, 2349, 2350, 2351, 2352, 2353, 2354, 2355, 2356, 2357, 2358, 2359, 2360, 2361, 2362, 2363, 2364, 2365, 2366, 2367, 2368, 2369, 2370, 2371, 2372, 2373, 2374, 2375, 2376, 2377, 2378, 2379, 2380, 2381, 2382, 2383, 2384, 2385, 2386, 2387, 2388, 2389, 2390, 2391, 2392, 2393, 2394, 2395, 2396, 2397, 2398, 2399, 2400, 2401, 2402, 2403, 2404, 2405, 2406, 2407, 2408, 2409, 2410, 2411, 2412, 2413, 2414, 2415, 2416, 2417, 2418, 2419, 2420, 2421, 2422, 2423, 2424, 2425, 2426, 2427, 2428, 2429, 2430, 2431, 2432, 2433, 2434, 2435, 2436, 2437, 2438, 2439, 2440, 2441, 2442, 2443, 2444, 2445, 2446, 2447, 2448, 2449, 2450, 2451, 2452, 2453, 2454, 2455, 2456, 2457, 2458, 2459, 2460, 2461, 2462, 2463, 2464, 2465, 2466, 2467, 2468, 2469, 2470, 2471, 2472, 2473, 2474, 2475, 2476, 2477, 2478, 2479, 2480, 2481, 2482, 2483, 2484, 2485, 2486, 2487, 2488, 2489, 2490, 2491, 2492, 2493, 2494, 2495, 2496, 2497, 2498, 2499, 2500, 2501, 2502, 2503, 2504, 2505, 2506, 2507, 2508, 2509, 2510, 2511, 2512, 2513, 2514, 2515, 2516, 2517, 2518, 2519, 2520, 2521, 2522, 2523, 2524, 2525, 2526, 2527, 2528, 2529, 2530, 2531, 2532, 2533, 2534, 2535, 2536, 2537, 2538, 2539, 2540, 2541, 2542, 2543, 2544, 2545, 2546, 2547, 2548, 2549, 2550, 2551, 2552, 2553, 2554, 2555, 2556, 2557, 2558, 2559, 2560, 2561, 2562, 2563, 2564, 2565, 2566, 2567, 2568, 2569, 2570, 2571, 2572, 2573, 2574, 2575, 2576, 2577, 2578, 2579, 2580, 2581, 2582, 2583, 2584, 2585, 2586, 2587, 2588, 2589, 2590, 2591, 2592, 2593, 2594, 2595, 2596, 2597, 2598, 2599, 2600, 2601, 2602, 2603, 2604, 2605, 2606, 2607, 2608, 2609, 2610, 2611, 2612, 2613, 2614, 2615, 2616, 2617, 2618, 2619, 2620, 2621, 2622, 2623, 2624, 2625, 2626, 2627, 2628, 2629, 2630, 2631, 2632, 2633, 2634, 2635, 2636, 2637, 2638, 2639, 2640, 2641, 2642, 2643, 2644, 2645, 2646, 2647, 2648, 2649, 2650, 2651, 2652, 2653, 2654, 2655, 2656, 2657, 2658, 2659, 2660, 2661, 2662, 2663, 2664, 2665, 2666, 2667, 2668, 2669, 2670, 2671, 2672, 2673, 2674, 2675, 2676, 2677, 2678, 26

1. *Chlorophyll a* (Chl *a*)

1. 2. 3. 4. 5. 6. 7. 8. 9. 10. 11. 12. 13. 14. 15. 16. 17. 18. 19. 20. 21. 22. 23. 24. 25. 26. 27. 28. 29. 30. 31. 32. 33. 34. 35. 36. 37. 38. 39. 40. 41. 42. 43. 44. 45. 46. 47. 48. 49. 50. 51. 52. 53. 54. 55. 56. 57. 58. 59. 60. 61. 62. 63. 64. 65. 66. 67. 68. 69. 70. 71. 72. 73. 74. 75. 76. 77. 78. 79. 80. 81. 82. 83. 84. 85. 86. 87. 88. 89. 90. 91. 92. 93. 94. 95. 96. 97. 98. 99. 100. 101. 102. 103. 104. 105. 106. 107. 108. 109. 110. 111. 112. 113. 114. 115. 116. 117. 118. 119. 120. 121. 122. 123. 124. 125. 126. 127. 128. 129. 130. 131. 132. 133. 134. 135. 136. 137. 138. 139. 140. 141. 142. 143. 144. 145. 146. 147. 148. 149. 150. 151. 152. 153. 154. 155. 156. 157. 158. 159. 160. 161. 162. 163. 164. 165. 166. 167. 168. 169. 170. 171. 172. 173. 174. 175. 176. 177. 178. 179. 180. 181. 182. 183. 184. 185. 186. 187. 188. 189. 190. 191. 192. 193. 194. 195. 196. 197. 198. 199. 200. 201. 202. 203. 204. 205. 206. 207. 208. 209. 210. 211. 212. 213. 214. 215. 216. 217. 218. 219. 220. 221. 222. 223. 224. 225. 226. 227. 228. 229. 230. 231. 232. 233. 234. 235. 236. 237. 238. 239. 240. 241. 242. 243. 244. 245. 246. 247. 248. 249. 250. 251. 252. 253. 254. 255. 256. 257. 258. 259. 260. 261. 262. 263. 264. 265. 266. 267. 268. 269. 270. 271. 272. 273. 274. 275. 276. 277. 278. 279. 280. 281. 282. 283. 284. 285. 286. 287. 288. 289. 290. 291. 292. 293. 294. 295. 296. 297. 298. 299. 300. 301. 302. 303. 304. 305. 306. 307. 308. 309. 310. 311. 312. 313. 314. 315. 316. 317. 318. 319. 320. 321. 322. 323. 324. 325. 326. 327. 328. 329. 330. 331. 332. 333. 334. 335. 336. 337. 338. 339. 340. 341. 342. 343. 344. 345. 346. 347. 348. 349. 350. 351. 352. 353. 354. 355. 356. 357. 358. 359. 360. 361. 362. 363. 364. 365. 366. 367. 368. 369. 370. 371. 372. 373. 374. 375. 376. 377. 378. 379. 380. 381. 382. 383. 384. 385. 386. 387. 388. 389. 390. 391. 392. 393. 394. 395. 396. 397. 398. 399. 400. 401. 402. 403. 404. 405. 406. 407. 408. 409. 410. 411. 412. 413. 414. 415. 416. 417. 418. 419. 420. 421. 422. 423. 424. 425. 426. 427. 428. 429. 430. 431. 432. 433. 434. 435. 436. 437. 438. 439. 440. 441. 442. 443. 444. 445. 446. 447. 448. 449. 450. 451. 452. 453. 454. 455. 456. 457. 458. 459. 460. 461. 462. 463. 464. 465. 466. 467. 468. 469. 470. 471. 472. 473. 474. 475. 476. 477. 478. 479. 480. 481. 482. 483. 484. 485. 486. 487. 488. 489. 490. 491. 492. 493. 494. 495. 496. 497. 498. 499. 500. 501. 502. 503. 504. 505. 506. 507. 508. 509. 510. 511. 512. 513. 514. 515. 516. 517. 518. 519. 520. 521. 522. 523. 524. 525. 526. 527. 528. 529. 530. 531. 532. 533. 534. 535. 536. 537. 538. 539. 540. 541. 542. 543. 544. 545. 546. 547. 548. 549. 550. 551. 552. 553. 554. 555. 556. 557. 558. 559. 560. 561. 562. 563. 564. 565. 566. 567. 568. 569. 570. 571. 572. 573. 574. 575. 576. 577. 578. 579. 580. 581. 582. 583. 584. 585. 586. 587. 588. 589. 590. 591. 592. 593. 594. 595. 596. 597. 598. 599. 600. 601. 602. 603. 604. 605. 606. 607. 608. 609. 610. 611. 612. 613. 614. 615. 616. 617. 618. 619. 620. 621. 622. 623. 624. 625. 626. 627. 628. 629. 630. 631. 632. 633. 634. 635. 636. 637. 638. 639. 640. 641. 642. 643. 644. 645. 646. 647. 648. 649. 650. 651. 652. 653. 654. 655. 656. 657. 658. 659. 660. 661. 662. 663. 664. 665. 666. 667. 668. 669. 670. 671. 672. 673. 674. 675. 676. 677. 678. 679. 680. 681. 682. 683. 684. 685. 686. 687. 688. 689. 690. 691. 692. 693. 694. 695. 696. 697. 698. 699. 700. 701. 702. 703. 704. 705. 706. 707. 708. 709. 710. 711. 712. 713. 714. 715. 716. 717. 718. 719. 720. 721. 722. 723. 724. 725. 726. 727. 728. 729. 730. 731. 732. 733. 734. 735. 736. 737. 738. 739. 740. 741. 742. 743. 744. 745. 746. 747. 748. 749. 750. 751. 752. 753. 754. 755. 756. 757. 758. 759. 760. 761. 762. 763. 764. 765. 766. 767. 768. 769. 770. 771. 772. 773. 774. 775. 776. 777. 778. 779. 780. 781. 782. 783. 784. 785. 786. 787. 788. 789. 790. 791. 792. 793. 794. 795. 796. 797. 798. 799. 800. 801. 802. 803. 804. 805. 806. 807. 808. 809. 810. 811. 812. 813. 814. 815. 816. 817. 818. 819. 820. 821. 822. 823. 824. 825. 826. 827. 828. 829. 830. 831. 832. 833. 834. 835. 836. 837. 838. 839. 840. 84

١ - تجمع المؤمنين :

فهو التجمع الأكبر والأقوى فالمؤمنون كانوا يشكلون الأكثرية الساحقة في الدولة الاسلامية وهم ينقسمون الى قطاعين المهاجرين وقطاع الانصار . وكان رسول الله (ص) يعمل على تقوية الأجنحة الاسلامية لتظهر بمظهر التكتل السياسي لتنافس التكتلات الاخرى ففي الانصار كان يقول :

«لوسلك الناس وادياً وسلك الانصار وادياً لسلك مسلك الانصار وتركت مسلك الناس» ، فمن هذه المقولة يمكن الاستدلال بأن الانصار كانوا يمثلون تجمعا سياسياً واضح المعالم في عهد رسول الله (ص) ولم يكن الرسول (ص) ليلغي هذا الواقع بل على العكس كان يدعم وجود حالة التكتلات كتنظيم سياسي طالما لم يؤد وجودها الى الانشقاق والفرقة والنزاع . وبهذا النهج القويم كان رسول الله (ص) يدفع بتجمع الأنصار الى المشاركة السياسية جنباً الى جنب المهاجرين الذين كانوا يتولون الأمور باعتبارهم أول من آمن بالاسلام .

لكن من تزايد الفتوحات واتساع رقعة جماعة المسلمين كان الخوف يزداد على مصير الاسلام فكان رسول الله (ص) يعمل على تعميق الخط الاسلامي

الاصيل مع مجموعة من أصحابه ممن كانوا على استعداد لتقبل المسؤولية التاريخية .

فأصبح يراعى شؤون التجمع الرسالي الذي أقامه الإمام علي (ع) والذي كان يضم خيرة الصحابة من أمثال بلال وأبي ذر وعمار وحذيفة بن اليمان والمقداد .

وربما أوجد اهتمام الرسول (ص) بعلي وجماعته بعض الحساسيات لدى بعض الصحابة الذين أخذوا يثيرون المشاكل الأمر الذي كان يزيد من دعم رسول الله لهذا التجمع فهو كان يمثل الاسلام الاصيل ويعتبر الضمانة الاكيدة للحفاظ على الاسلام من الانحراف والانجرار نحو المتهاتات .

وهذا منتهى الحكمة في القائد الذي كان يعلم بأن الخطر الأكبر الذي يهدد وجود كيانه هو الخطر القادم من الداخل فكان عليه أن يوجد وسط التيار الاسلامي المتدفق مجراً للخط الرسالي الاصيل حتى يرمي بعهدته مسؤولية بقاء الرسالة حينما تحل عليها الهزاهز والكوارث . وفعلاً كان بقاء الاسلام والحفاظ عليه من الانحراف هو بفضل ذلك التجمع الرسالي الاصيل الذي كان يضم بالاضافة الى الامام علي (ع) حسب ما جاء في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ، عمار والمقداد وأبو ذر وسلمان وجابر وعبد الله وأبي بن كعب وحذيفة وبريدة وأبو أيوب وسهل بن حنيف . وعثمان بن حنيف وأبو الهيثم بن التيهان وخزيمة وأبو الطفيل عامر بن واثلة والعباس بن عبد المطلب وبنو هاشم كافة وبنو عبد المطلب كافة ومن بني أمية خالد بن سعيد بن العاص .

وكان رسول الله (ص) يشير الى علي ومن حوله عندما كانوا يدخلون المسجد كما يرويه أبو المؤيد موفق بن أحمد بالاسناد الى جابر في كتابه (فضائل أمير المؤمنين) والذي نفسي بيده ان هذا وشيعته هم الفائزون يوم القيامة وكان يقول أيضاً مخاطباً علياً (ع) « وان شيعتك على منابر من نور »

وباسناد آخر « انك وشيعتك في الجنة » .

وكانت الغاية من هذه الاشارات هي تقوية هذا الخط الرسالي ومنحه شرعية التحرك باعتباره الخط الاصيل والذي يطمئن الى سلامة أهدافه واتجاهه .

وكان يوصي أصحابه بالتزام خط علي (ع) والالتفاف حوله فقال لعمار يوماً - على رواية أبي أيوب الأنصاري^(١) - يا عمار انه سيكون بعدي هنات حتى يختلف السيف فيما بينهم وحتى يقتل بعضهم بعضاً وحتى يبرأ بعضهم من بعض فإذا رأيت ذلك فعليك بهذا الأصلح عن يميني علي بن أبي طالب ، فان سلك الناس كلهم وادياً وسلك علي وادياً فاسلك وادي عليّ وخلّ عن الناس .

ويحتمل ان الرسول (ص) قال هذه الكلمة لعمار في جمع من أصحابه كان فيهم الراوي ابو أيوب .

تعامل الرسول مع أصحابه :-

ظل رسول الله (ص) يتعامل مع أصحابه بعد تشكيل الدولة كما كان في مكة على عهد النضال السلبي فكان يتفقد الصحابة ويباشر قضاء حوائجهم بنفسه ويراقب أوضاعهم الفكرية والحركية حتى لا يصيبهم ما يخشى منه . فقد اتفق جمع من صحابة رسول الله (ص) على رأسهم عثمان بن مظعون اتفقوا على أن يحرموا على أنفسهم الطيبات ويرفضوا الدنيا ويسبحوا في الأرض فوجد الرسول (ص) نفسه أمام ظاهرة خطيرة سرعان ما تنتشر بين أصحابه وسيكون لها آثار سلبية اجتماعية وسياسية . فسارع لايقافها بأسلوبه التربوي فقال لهؤلاء الجماعة (ان لأنفسكم عليكم حقاً فصوموا وأفطروا وقوموا وناموا فاني أقوم وأناام

(١) الطبرسي، مجمع البيان: ج ٣ ص ٥٣٤.

وأصوم وأفطر وأكل اللحم والدسم وآتي النساء ومن رغب عن ستي فليس مني^(١).

وكان ينصح أصحابه كلما وجد موقفاً يستدعي النصح خرج رسول الله ، فإذا في المسجد مجلسان مجلس يتفقّهون ، ومجلس يدعون الله ويسألون فقال : كلا المجلسين اليّ خير ، أما هؤلاء فيدعون الله ، وأما هؤلاء فيتعلمون ويفقهون الجاهل هؤلاء أفضل ، بالتعليم أرسلت ثم قعد معهم^(٢).

ويمكننا ملاحظة الاسلوب التربوي الذي ينتهجه النبي (ص) في نصح أصحابه (رض) فهو لا يستخف عمل أولئك القوم الذين جلسوا للدعاء بل فضل عليهم أولئك الذين جلسوا لتداول العلم ولكي يدلل رضاه عنهم جلس معهم هكذا كان رسول الله يربي أصحابه ويهتم بأمور بنائهم وهو يومذاك قائداً لدولة وذو مشاغل كثيرة لكن مشاغله ومهامه لم تنسه المهمة الكبرى وهي مواصلة عملية بناء الانسان المسلم ذو الشخصية القوية .

وإذا ما وقفنا ملياً عند وصاياه للاحتضان كم كان رسول الله يهتم في بناء أصحابه وتربيتهم التربية الاسلامية كي يصبحوا قادة المستقبل ويتمكنوا من تحمل اعباء المسؤولية فوصاياه للإمام علي (ع) بلغت مائة وستون وصية قالها في وقت واحد وإذا ما راجعنا مضامينها لوجدناها تتضمن منهجاً عملياً لقيادة الأمة وكيف يجب أن يكون القائد الاسلامي في تعامله مع الناس ومع المؤمنين^(٣).

ولم تقتصر وصاياه الى ابن عمه الإمام علي (ع) فقد حظي صحابة آخرين

(١) الطبرسي، مجمع البيان: ج ٥ ص ٢٣٦.

(٢) منية المرید: ص ١٣.

(٣) راجع كتاب مجمع البيان، وتحف العقول، وكلمة الرسول الأعظم.

بلقاءات مركزة كرسى للبناء وأخذ التعليمات .

فمن هؤلاء الصحابة ابي ذر رضوان الله عليه فقد بلغ تعداد الوصايا التي تلقاها من رسول الله (ص) ١٦٩ وصية وهي تركز بأجمعها على بناء الانسان المقاوم^(١) مقاومة الهوى ومقاومة الدنيا ومقاومة السلطان الجائر وقد تركت تلك الوصايا أثاراً كبيرة على شخصية أبي ذر ظل مفعولها حتى آخر يوم من حياته فقد عاش حياة الصمود في التاريخ كرمز للمقاومة .

أما وصاياه الأخرى فكانت لابن مسعود حيث أوصاه بسبّ وثمانين وصية اشتملت على مائة وعشرين آية من القرآن الكريم استهدف منها رسول الله بناء رجل العلم الذي يستمد من القرآن الكريم علومه وشخصيته .

وقد ذكر المؤرخون في أصل وصية النبي (ص) لابن مسعود رواية يحدثنا بنفسه قال دخلت أنا وخمسة رهط من أصحابنا يوماً على رسول الله (ص) وقد أصابتنا مجاعة شديدة ولم نكن نرزقنا منذ أربعة أشهر إلا الماء واللبن وورق الشجر فقلنا يا رسول الله الى متى نحن على هذه المجاعة الشديدة فقال رسول الله وذكر الوصية بالكامل ، فأمره في الوصية بالصبر والزهد في الدنيا ثم تعلم القرآن ثم معرفة الحلال والحرام ولا عجب أن يخرج ابن مسعود من مدرسة الرسول (ص) فقيه بارع في استنباط الاحكام الشرعية .

وكان رسول الله (ص) يريد عبر هذه الوصايا بالاضافة الى المهمة البنائية ان يرفع من مستوياتهم وان يمكنهم من أداء المسؤوليات الكبيرة فقد أصبح للاسلام اليوم دولة وهي بحاجة الى رجال مرشدين وموجهين للناس والى اداريين كولاة وجباة وحفظة يحفظون دين الله من الضياع .

وخصص القرآن الكريم في بعض مواضعه لارشاد النبي (ص) طريقة

(١) انظر الى كتاب كلمة الرسول الاعظم : من صفحة ١٦٩ - ٢١٥ .

التعامل مع أصحابه وأقربائه . . فنزلت الآية ١٥٩ من سورة آل عمران :

﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فأعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله ، ان الله يحب المتوكلين ﴾ .

وفي سورة الأعراف آية ١٩٩ :

﴿ خذ العفو وامر بالعرف . . . ﴾ .

وفي سورة الشعراء آية ٢١٥ :

﴿ واخفض جناحك لمن اتبعك . . . ﴾ .

نزلت هذه الآيات لترسم العلاقة بين القائد وشعبه ولتبقى قاعدة ذهبية الى كل الاجيال فقد كانت صفات النبي (ص) وخصاله من المثالية بحيث كانت هذه العلاقة تجري بصورة طبيعية ولا نحتاج إلا الى اشارات من بعيد وكانت هذه الآيات اشارات ضوئية عملت على ابقاء تلك العلاقة بمستواها الطبيعي .

٢ . الفئة الثانية .. المنافقون :

برزت حركة النفاق في المدينة المنورة بعد قيام الدولة الاسلامية كظاهرة طبيعية وصحية . . اما كيف انها ظاهرة طبيعية فلأن الاسلام قد أصبح قوي وأصبحت له دولة وقد توسعت رقعة المسلمين في المدينة . كما وان طريقة التوجيه اختلفت عما كانت في مكة حيث كان التوجيه يتم عبر الاتصال المباشر والمستمر أمافي المدينة فلكثرة عدد المسلمين أصبح التوجيه العام هو الاسلوب الممكن في الاتصال باعداد كبيرة من المسلمين . . وقد أدى ذلك الى بقاء بعض الترسبات في نفوس من آمنوا فكان ازالتها بحاجة الى وقت أطول وجهد أعمق .

كما وان ظهور قوتين متناقضتين قوة الكفر وما يمثله من كيان ومصالح وفلسفة قائمة على عبادة الأوثان وقوة الدولة الاسلامية وما تمثله من مثل وقيم ونظرية فكرية وممارسة عملية جعل البعض يتذبذب ويعيش على الحافة لا الى هؤلاء ولا الى أولئك وقد وصف القرآن هذه الحالة . .

﴿ مذبذبين بين ذلك لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء ﴾^(١) .

(١) سورة النساء، الآية: ١٤٣ .

﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف فان أصابه خير اطمأن به وان أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين﴾^(١) .

ولذا لاحظنا ولادة هذه الظاهرة في المدينة المنورة مع قيام الدولة الاسلامية حيث وجد البعض أنفسهم منجذبين الى قطبين متنافرين ، فالكفر يجذبهم لأنه يضمن لهم مصالحهم المادية ويُقي على عقائدهم وخرافاتهم والاسلام يجذبهم لانهم يجدونه القوة المنتصرة ولا يمكنهم إلا مسيرته لأنهم يعيشون في قلبه وبين جموع المسلمين .

هذه هي طبيعة الحركة بصورة عامة أما على صعيد الحركة كأفراد فهناك أسباب أخرى مستقلة ساهمت هي الاخرى في ظهور هذه الحركة فكان لا بد أيضاً من معالجة القضية من زاوية الحالات الفردية .

فالدواعي التي دفعت بعبد الله بن أبي لأن يسقط في مستنقع النفاق ثم يتزعم هذه الحركة تختلف عن الحالات الاخرى للمنافقين .

فعبد الله بن أبي فَقَدَ مكانته في المدينة بعد قدوم النبي (ص) اليها ، فبعد حرب بعث بين الأوس والخزرج قررت القبيلتان أن ينهيا المشاكل بينهما وأن يُولِّيَا عبد الله بن أبي ليصبح ملكاً على يثرب وأخذتا تعدان العدة لاقامة أضخم مهرجان لتتويجه لهذا المنصب لكن مع مجيء رسول الله الى المدينة تبددت أحلام عبد الله بن أبي فرأى ان محمداً (ص) قد استلبه ملكه ، ولما رأى قومه أبوا إلا الاسلام دخل فيه كارهاً وظل مصراً في قلبه على عقائده السابقة .

اما انها ظاهرة صحية . . فلأن الدولة الاسلامية كانت موعودة مع بروز هذه الظاهرة في يوم من الأيام فبروزها في زمن النبي (ص) ساعد كثيراً على

(١)، سورة الحج ، الآية : ١١ .

معالجتها بصورة عملية يكفل التخلص منها . فظاهرة النفاق تشبه الى حد بعيد الامصال التي تزرع في الأبدان للتخلص من الأمراض الخبيثة فهي قد أوجدت في الأمة الاسلامية المناعة من الاصابة بهذا المرض وجعلت المسلمين على يقظة وحذر من الطابور الخامس الذي يزرع التفرقة والشقاق وهي بالاضافة الى ذلك جعلت المسلمين صفاً واحداً أمام التحديات الداخلية التي تواجه الدولة الاسلامية ، فمن العناصر الايجابية في ظاهرة النفاق انها كشفت للمسلمين عن ثغراتهم فسارعوا لسدها قبل ان يندس من خلالها الأعداء فمثلُ المنافقين مثل المكروب الضعيف الذي يكشف للإنسان عن نقاط ضعفه فيسرع لاتخاذ اللازم ليصبح معافاً سليماً .

ولهذا كان تعامل رسول الله (ص) مع هذه الظاهرة تعامل الرجل الحكيم والطبيب الحاذق والسياسي المتمرس فهو لم يعمل على تصفية هذا الوجود الدخيل بالقوة والعنف بالرغم من قدرته على ذلك فقد جاءته عروض كثيرة لقتل عبد الله بن ابي واحدى هذه العروض جاءته من ابنه عبد الله لكنه لم يقبل بها جميعاً لأنه كان ينظر الى ظاهرة النفاق كظاهرة اجتماعية فهي بحاجة الى معالجة اجتماعية نفسية أكثر من المعالجة السياسية وهنا تبرز الحكمة القيادية في الرسول الأعظم خلال هذه السياسة .

برنامج المنافقين في تخريب الدولة الاسلامية :-

كان المنافقون ينتهزون كل فرصة من أجل تسديد سهامهم ضد الدولة الاسلامية فكانوا يعملون بصورة جماعية أو أفراداً وكانوا يرمون بسهامهم بصورة مخططة أو بصورة عفوية وقد أتاح تواجدهم بين المسلمين أكبر الفرص للكشف عن ثغرات الدولة الاسلامية ثم الاسراع لتسديد السهم في الهدف وقبل فوات الأوان .

وكانوا يُغَيَّرُونَ من أساليبهم تبعاً لتغيّر الاوضاع فكانت أساليبهم بعد انتصار المسلمين تختلف عن أساليبهم بعد الهزيمة . كما وان أساليبهم في فترة الاستقرار تختلف عن أساليبهم في فترة تأهب المسلمين للقتال .

وقد ساعدت الظروف السياسية والاجتماعية التي كانت تحيط بالدولة الاسلامية في تنفيذ مآربهم . فكان يحيط الدولة أعداء ألداء فقريش من جانب وثقيف وهوازن من جانب آخر وحتى في الداخل كان المسلمون مهددين بأعداء لا يقل خطرهم عن المشركين هم اليهود ، ومن جانب آخر كان الوعي الديني لدى قطاع من المسلمين الذين آمنوا لتوهم هابط فهم قد أصبحوا فريسة للقلوب الجائعة الى الدغل والتأمر .

ومن جانب آخر كان المنافقون مندسين في صفوف المسلمين فهم غير معروفين للآخرين وكان يصعب على المسلمين تشخيص هويتهم فهم في الظاهر مسلمين ومتفانين في اسلامهم لكنهم في الباطن كانوا يمارسون تأمرهم وحقدهم على المسلمين ﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم انما نحن مستهزؤن ﴾ والأخطر من كل ذلك كانوا يقربون أنفسهم الى النبي (ص) والى المسلمين ويظهرون الحماس والاهتمام المتزايد بالرسالة .

فقد حدثتنا كتب السير ان عبد الله بن أبي كان يجلس كل جمعة أمام الصفوف وينتهاز فرصة جلوس الرسول (ص) بين الخطبتين فيقوم ليقول للناس :

أيها الناس هذا رسول الله (ص) بين أظهركم أكرمكم الله وأعزكم به ، فانصروه وعزروه واسمعوا له وأطيعوا ، ثم يجلس ، واستمر على هذا المنوال وحتى بعد ان انكشف أمره للمسلمين فبعد هزيمة أحد وقف ليتكلم في احدى الجمع فقام اليه المسلمون فأخذوا بشيابه من كل مكان وصاحوا اجلس أي

عدو الله لست لذلك بأهل وقد صنعت ما صنعت .

فقد حاول المنافقون أن يختفوا خلف حاجز كثيف من الأساليب والأعمال الظاهرية غافلين عن أعين الناس التي كانت تراقبهم وترسم علامات الاستفهام حول كل حركة تبدر منهم .

وإذا أردنا أن نحصي اعمالهم المعادية للإسلام في قائمة مرتبة فاننا سنجد أنفسنا أمام منهج متكامل ودقيق في أساليبه وخططه يستهدف تخريب الدولة الإسلامية ووضع العراقيل والعقبات أمامها وسنلاحظ أيضاً أن المنهج المعادي الذي سار عليه المنافقون متنوع في نشاطاته وميادينه وهي :

١ - ترويج الشائعات وبث الأكاذيب بهدف تضعيف معنويات المسلمين وزعزعة الثقة بالإسلام وبرسول الإسلام وخصوصاً في أيام الحرب حيث المسلمين مشغولين في الدفاع عن حريم دينهم كان المنافقون يتأهبون تماماً لشن الحرب النفسية ضد المسلمين ففي غزوة الخندق وعندما استولى على المسلمين الخوف من كثرة الأعداء الذين حاصروا المدينة ولم يكن أمام رسول الله إلا ان يرفع من معنويات أصحابه وبيعث فيهم الأمل بسقوط قصور كسرى وقيصر تحت أقدام المسلمين في ذلك اليوم هبّ المنافقون ليقذفوا بسهام حربهم النفسية فأخذوا يسخرون من قول رسول الله (ص) ويشيرون الخوف والهلع في نفوس المسلمين قائلين ، كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدهم اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب الى الغائط فتزلت الآية لتصف جانباً من الحرب النفسية . .

﴿ وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً ﴾ .

وبعضهم كان يأتي الى رسول الله (ص) ليأخذ منه الاذن بالعودة الى أهله

مشجعاً الخائفين والمتذبذبين على الانسحاب . . ﴿ يستأذن فريقٌ منهم النبي يقولون : ان بيوتنا عورة وما هي بعورة ان يريدون إلا فرارا ﴾ .

وعند الهزيمة كانت تقوى سواعدهم للفتك بالمسلمين فبعد معركة أحد كان المنافقون يشمتون بالمسلمين الذين اشتركوا في المعركة وكانوا يقولون للمسلمين لو كان من قُتل منكم عندنا ما قُتل وأصبح عبد الله بن أبي يقول عصاني محمد وأطاع الولدان (يقصد الشباب المراهقين) والله لكأني كنت أنظر الى هذا .

وحتى في حالة الانتصار كانوا ينتهزون كل فرصة من أجل تشييط العزائم والهمم ، فبعد معركة بدر التي انتصر فيها المسلمون عاد المقاتلون الى المدينة وهم متعبون وهو تعب طبيعي لكل من دخل المعركة لكن المنافقين استغلوا هذا الموقف ولم ينتظروا ليعرفوا نتيجة المعركة فبمجرد أن لاحت اليهم طليعة الجيش العائد من ساحة الحرب وكان في مقدمة العائدين زيد وكانت تلوح عليه امارات التعب والنصب ومن بعيد كانت النساء والشيوخ في انتظار عودة ذويهم وبينهم كان المنافقون يرددون عندما شاهدوا زيد على تلك الحالة قائلين قُتل صاحبكم ومن معه .

وهتف آخر قد تفرق أصحابكم تفرقاً لا يجتمعون بعده ، وقتل محمد وهذه ناقتة نعرفها ، وهذا زيد لا يدري ما يقول من الرعب .

هكذا كانوا يستغلون كل شيء في تبرير نهجهم المعادي للمسلمين محاولين أن يجدوا ولو منفذاً صغيراً لبث الشائعات والاكاذيب وهذا بالضبط ما يفعله اليوم الاعلام المعادي للاسلام والذي يحاول ان يستغل حتى المظاهر الايجابية من الصحوة الاسلامية في بث الدعايات وفي تسمية بعض معالم الصحوة بالارهاب أو التخلف أو التراجع الى الخلف من أجل تسميم الجو الاعلامي ضد الاسلام .

٢ - تدبير المؤامرات . . فلم يُضيع المنافقون أية فرصة في تدبير المؤامرات مع أعداء الاسلام في الاوقات الحرجة وهذا ما يؤكد لنا ان المنافقين كانوا يطمحون ازالة الاسلام من الوجود وليس فقط تخريبه من الداخل ففي حصار المسلمين لبني النضير في السنة الرابعة للهجرة وبينما كان المسلمون يتأهبون لاجراج هذه القبيلة اليهودية من المدينة أحس عبد الله بن أبي بالتخوف من المستقبل فبعث برسالة الى زعماء القبيلة جاء فيها أثبتوا وتمنعوا ، فانا لن نسلمكم ، ان قاتلتهم قاتلنا معكم وإن أخرجتم خرجنا معكم . . وتكشف هذه الرسالة عن نوايا وأهداف جماعة المنافقين فهم من جانب يعملون على تقوية معنويات حلفائهم بدعوتهم الى التثبيت والمنعة ومن ناحية أخرى يعطوهم عهداً بأنهم سينصرونهم ليثيروا فيهم الاطمئنان وأكثر من ذلك إذا شنوا الحرب فانهم سيشاركونهم وسيعملوا كطابور خامس في صفوف المسلمين وقد جاءت الآية القرآنية لتفضح هذه المؤامرة الدنيئة ﴿ ألم تر الذين نافقوا يقولون لآخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب : لئن أخرجتم لنخرجن معكم ﴾ .

ولم يكتف المنافقون بهذا القدر من التآمر بل تركزت جهودهم الحثيثة أيضاً على الطرف الاسلامي من أجل تضعيف ارادة القتال وعرقلة تقدم المسلمين نحو تحقيق الانتصار ففي حصار بني قينقاع وبينما كان المسلمون يحاصرونهم لتحقيق كسب عسكري آخر حاول ابن أبي ان يمنع المسلمين من ذلك فجاء الى النبي متوسلاً : يا محمد احسن في مواليّ (أي اتركهم وشأنهم) فلم يجبه الرسول فاعاد : يا محمد احسن في مواليّ : فأعرض عنه ، فأدخل يده في جيب درع الرسول وراح يكرر توسلاته .

فردّ عليه الرسول (ص) :

ويحك أرسلني .

فأجاب ابن أبي . .

لا والله لا أرسلك حتى تحسن في موالي ، اربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع
قد منعوني من الأحمر والأسود تحصدهم في غداة واحدة ؟ اني والله امرؤ أخشى
الدوائر .

فأجابه النبي (ص) هم لك ثم التفت الى اصحابه قائلاً : خلّوهم ، لعنهم
الله ولعنه معهم .

والواضح ان النبي (ص) لم يكن قد استقر رأيه على قتلهم فكان رأيه ان
يكتفي باخراجهم من المدينة . . وعلى أثر التماسات ابن أبي اراد
الرسول (ص) منحه فرصة أخرى ليغير من نهجه فقال له هم لك لكنه في نفس
الوقت لعنه أمام المسلمين من أجل أن لا يستثمر ابن أبي هذا الموقف ويثبت من
خلاله شرعيته بادعاء ان النبي (ص) قد استجاب له .

٣ - تضعيف القوة العسكرية . . ويرمي المنافقون بكافة سهامهم أثناء
التهيؤ للمعركة مع الاعداء فيصبح كل همهم هو تفتيت الارادة القتالية للمسلمين
باشاعة الدعايات لاقناع البعض على عدم المشاركة في الحرب أو دفعهم الى
الانسحاب أثناء التقدم .

ففي غزوة أحد أخذ عبد الله بن أبي يثبط العزائم ويشير المخاوف مركزاً
على مقترحه بالبقاء في المدينة والقتال فيها وكان يقول اطاعهم وعصاني ، ما
ندري علام نقتل أنفسنا ها هنا أيها الناس ، وأثرت اقواله في البعض واستطاع
ان يقنع ثلث الجيش المتقدم للمعركة بالعدول عن القتال والانسحاب وجرت
محاولات يائسة من قبل المسلمين لاعادتهم الى صف المقاتلين فسعى عبد الله
بن عمرو بن حرام الاتصال بالمنسحبين واقناعهم بالعودة قائلاً لهم يا قوم اذكركم
الله ألا تحذلوا قومكم ونييكم .

فأجابه بعبارة مستوحاة من دعايات عبد الله بن أبي . .

لو نعلم انكم تقاتلون لما أسلمناكم ولكننا لا نرى انه يكون قتال .

وعندما باءت محاولاته بالفشل غضب عمرو بن حرام فرد عليهم قائلاً
أبعدكم الله اعداء الله فسيغني الله عنكم نبيه^(١) إذ لم تكن الدعايات المضللة
ذات مفعول على المؤمنين الصادقين .

وفي غزوة تبوك كرر المنافقون نفس الاساليب التي استخدموها في أحد
لكن بصورة أوسع وأكثر تركيزاً فقد أقام عبد الله بن أبي لجماعته معسكراً أسفل
معسكر النبي (ص) ومن ذلك المركز اخذوا يثنون الدعايات والتبريرات
والمخاوف لشتيط المسلمين فمرة كانوا يتعذرون بالحر وأخرى بقلّة المؤنة وطوراً
بقوة العدو واستطاعوا ان يثيروا البلبلة في صفوف المقاتلين مما دفع بالعشرات
الى التخلف عن المعركة قدر ابن هشام عددهم بضعة وثمانين رجلاً ومعظمهم
من أصحاب الأموال وضعيفي الايمان الذين لم يستطيعوا أن يكيّفوا أنفسهم مع
التيار الاسلامي . . وقد استفاد المنافقون من الجو العام الذي كان يحيط بهذه
الغزوة فلم يكن العرب يحلمون يوماً من الايام بمقاتلة الروم سيما وانهم قد
حققوا لتوهم انتصاراً باهراً على الفرس كما وان توقيت الغزوة كان مع شدة الحر
وفي الوقت الذي كانت فيها ثمار المدينة قد حان قطافها فلم يكن سهلاً على
الاغنياء ترك هذه الفرصة والمضي الى حرب لا تُعرف نتائجها ولا يعرف ما
سيلاقونه في الحر والغربة وكانت الغزوة امتحاناً عسيراً محصّ الله فيه المؤمنين
عن المنافقين ، ولا ريب ان بعض ضعاف الايمان قد تأثروا بالحملة الشعواء
المضادة للحرب التي شنّها ابن أبي وقد ندموا على تخلفهم من بينهم كعب بن
مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية الذين نزلت في حقهم آية من سورة التوبة

(١) ابن هشام ، السيرة النبوية : ١٧٤ - ١٧٥ .

قَبِلَ اللهُ فيها توبتهم وسنأتي الى حكايتهم عند الحديث عن معالجة النبي (ص) لظاهرة النفاق .

٤ - إقامة كيان في قبال الكيان الاسلامي :

وازداد عدد المنافقين حتى قيل ان عدد من تخلف مع عبد الله بن أبي كان بعدد الذين كانوا مع النبي (ص) وعلى رغم المبالغة في هذا العدد إلا ان الواقع يؤكد على تنامي عدد هذه المجموعة التي استفادت كثيراً من سماحة الاسلام وعفو النبي (ص) المستمر لهم .

وبلغ بهذا التجمع حداً ان أوجد لديهم شعوراً بضرورة اقامة كيان في مقابل الكيان الاسلامي ليصطادوا من خلاله المزيد من ضعاف الايمان وكان لا بد من التحرك بصورة غير مثيرة وبالطريقة التي يتمكنوا فيها السيطرة على الرأي العام الاسلامي فأقاموا مسجداً حتى لا تنكشف نواياهم المبيتة وكان وراء قرار بناء المسجد أحد المنافقين هو ابو عامر الراهب وكان قد ترهب في الجاهلية وقبل ان يقدم الرسول (ص) الى المدينة ومع اسلام أهل المدينة تظاهر ابو عامر بالاسلام لكن ظل على معتقداته السابقة وبعد ان قوي الاسلام بفتح مكة التجأ أبو عامر الى ثقيف ليتمكن من هناك التحرك ضد المسلمين لكن لم يمض وقت طويل حتى اسلمت ثقيف فاضطر ابو عامر الخروج من جزيرة العرب والالتحاق ببلاد الشام بعد أن اعلن تنصره وارتداده عن الاسلام وكان ابو عامر على اتصال مع شبكة من المنافقين المنبشرين في المجتمع الاسلامي الذين كانوا يأترون بأوامره وكان قد كلف اتباعه بناء المسجد وان يجدوا في امرهم ووعدهم بأنه سيذهب الى قيصر ويحرضه على ارسال جيش قوي الى المدينة للقضاء على النبي (ص) ومن معه من المسلمين فكان المنافقون يتوقعون ذلك ولكن الله عجل بهلاكه قبل ان يصل الى ملك الروم .

وبُني المسجد بأموال المنافقين وأموال المغفلين عن مؤامرات المنافقين

كابي لُبابة الذي شارك بالمال فقط وقيل ان مؤسسي المسجد هم اثني عشر رجلاً ذكر المؤرخون اسماءهم وبعد ان أتموا بناء المسجد جاؤوا الى النبي (ص) فقالوا له يا رسول الله لقد بنينا مسجداً لذوي القلة والحاجة واليلة الممطرة وانا نحب ان تصلي فيه وتدعو لنا بالبركة فاعتذر النبي (ص) لأنه كان يتجهز لمعركة تبوك ووعدهم انه سيصلي فيه بعد عودته .

ويفهم من العلاقة بين اقامة المسجد وتهيؤ النبي (ص) لقتال الروم بعد سماعه أنباء عن نية قصير الروم بالهجوم على شمال جزيرة العرب ومطالبة ابو عامر الراهب الاسراع في انجاز المسجد يفهم من ذلك كله ان بناء المسجد لم يكن إلا لغاية أكبر مما ذكره المؤرخون . . فكان وراء بنائه خطة انقلابية للاطاحة بالدولة الاسلامية بالتعاون مع القوى الاجنبية ، وكان دور المنافقين في هذه الخطة هو دور الطابور الخامس الذي يمهّد السبيل للغزو الاجنبي ، والذي يؤكد على ذلك المحاولة الفاشلة لاغتيال النبي (ص) بعد عودته من تبوك وبعد ان انكشف امر المتآمرين واصداره قراراً بهدم المسجد واحرقه فقد كمن عدد من المنافقين في طريق النبي (ص) خلف صخرة ووضعوا خطة لاغتياله عندما يصل الى العقبة فيلقوه فيها مستفيدين من ظلام الليل لكن شاء الله ان يحبط هذه الخطة كما حبطت الخطط السابقة .

من هذه القرائن نستدل بأن الهدف الذي كان يسعى من أجله المنافقون هو القضاء على الدولة الاسلامية ولم يتركوا فرصة إلا وترجموه الى حيز الواقع .

سياسة النبي (ص) إزاء المنافقين :

لا نعرف في تأريخ الحكومات سياسة حكيمة اتبعت في معالجة القلاقل الداخلية كالتى انتهجها النبي (ص) في تعامله الحكيم مع ظاهرة النفاق ، فعلى رغم ما كانت تشكله هذه الظاهرة من أخطار كانت قد تودي بمصير الدولة

الاسلامية إلا ان الحكمة التي اتبعها النبي (ص) في تطويق الظاهرة جعلتها في حالة انكماش مستمر حتى انتهت بنفسها دون استخدام العنف والقوة فموقف النبي (ص) من هذه الظاهرة موقف الطبيب من المرض ، عمل على حصر المكروب في أصغر مساحة ممكنة ثم سد المنافذ التي كانت تزود هذا المكروب بأسباب الحياة مما جعلها غير قادرة على الاستمرار في نشاطها أكثر مما فعلته .

وقد قامت سياسة النبي (ص) اتجاه المنافقين على أسس متينة هي :-

١ - تعامل النبي (ص) مع ظاهرة النفاق في البداية كظاهرة اجتماعية نفسية فلم يعطها جانباً سياسياً ولذلك فقد توسل بالوسائل النفسية والاجتماعية لمعالجة هذه المشكلة والمثل على ذلك تعامله مع ابن أبي في بداية الأمر ومنعه المسلمين من مسه بسوء على رغم ما فعله من مشاكل .

٢ - تعامل النبي (ص) مع ظاهرة النفاق بصورة مجزأة فعالج كل جزء باعتباره قضية مستقلة عن القضية الاخرى اي انه لم يتعامل مع مشكلة النفاق كحركة وتجمع إلا بعد ان أخذ هذا التجمع بعده السياسي فكانت المعالجة الاجتماعية والنفسية تقتضي علاجاً نفسياً لكل عنصر مشترك في صنع الظاهرة على انفراد ومن الأمثلة على ذلك ما رواه ابن هشام في سيرته ان نفرأ من المنافقين فيهم وديعة بن ثابت ومخشن كانوا يقولون للمسلمين ؛ اتحسبون ان جلاد بني الاصفر (الروم) يقتال العرب بعضهم بعضاً والله لكأنا بكم غداً مقرئين في الجبال وعرف النبي (ص) بهم فأرسل اليهم عمار وقال له : ادرك القوم يا عمار وسلهم عما قالوا فإن انكروا فقل لهم قلتم كذا وكذا وانطلق عمار ابن ياسر ولما سألهم عما كانوا يتحدثون به اسرعوا الى رسول الله يعتذرون اليه ، وتقدم وديعة وأخذ بزام ناقتة وقال يا رسول الله لقد كنا نخوض ونلعب ولم نكن جادين في شيء قلناه فعفا عنهم النبي (ص) وانزل الله فيهم : ﴿ ولئن سألتهم

ليقولن إنا كنا نخوض ونلعب قل ابالله وآياته كنتم تستهزون ﴿٢٠﴾ .

٢ - تحصين المجتمع الاسلامي من آثار وتراكمات حركة النفاق وذلك بالكشف عن هوية المنافقين وعن وسائلهم وطرق تحديهم للأمة الاسلامية وكان للقرآن الكريم دور كبير في الكشف عنهم وعن مخططاتهم وفي ايجاد المناعة لدى المسلمين ومنعهم من التأثير بهم وكان النبي (ص) يلعنهم بالاسماء حتى لا يدع مجالاً للتأثير في المسلمين .

٣ - فرض العزلة عليهم وهو من الاساليب النفسية والسياسية التي استخدمها النبي (ص) لشل حركة النفاق فمن ناحية تشعرهم بأخطائهم الجسيمة ومن ناحية أخرى تقطع الجسور بينهم وبين المجتمع فينقطع تأثيرهم المباشر وينقطع عنهم الامداد المالي لأن الحركة تقوم على تمويل بعض اصحاب الاموال وابرز مثال على هذه القاعدة ما وقع على الثلاثة الذين خُلِفُوا فقد فرض النبي (ص) عليهم العزلة حتى ضاقت عليهم الارض بما رحبت وهم كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن امية وكان سبب تخلفهم عن معركة تبوك هو التسويف وضعف الارادة والتأثر بدعايات المنافقين ولم يكن لكعب عذر في عدم المشاركة فجاء الى النبي (ص) نادماً مقرأً بالخطأ وعندما سأله النبي (ص) عن سبب تخلفه فعزى ذلك الى الجدل الذي يؤدي الى حالة التردد وينشأ منها التخلف وكان الرسول قد أنهى الكلام معهم فنبذهم المجتمع وظلوا على هذه الحالة خمسين يوماً اضطرب ابن الربيع وهلال بن امية ان يقعدوا في البيت يكيان واما كعب بن مالك فكان أشبَّ الثلاثة واجلدهم فكان يخرج فيشارك في الصلاة مع المسلمين ويطوف في السوق ولا يكلمه احد وكان يأتي رسول الله (ص) ويسلم عليه فيقول في نفسه هل حرك شفتيه برد السلام أم لا فيسارقه النظر فإذا التفت نحوه اعرض النبي (ص) عنه فتكررت له الدنيا ولم يرض احد ان يكلمه بنتت شفه فجاء الى بستان ابن عمه او قتادة وهو أحب الناس اليه فلم يرد

ابو قتادة عليه السلام فقال له : يا ابا قتادة انشدك بالله هل تعلمني حب الله ورسوله ؟ وذلك من اجل ان يجبره على الكلام لكن ابو قتادة سكت ثم اعاد عليه السؤال فسكت ايضا وأخيرا قال ابو قتادة الله ورسوله أعلم ، فزادت الكارثة على رأس كعب بن مالك عندما جاء الى زوجته ليجدها قد عزلته أطاعة لأوامر رسول الله .

وعرف ملك غسان بالامر فارسل كتابا الى كعب يقول فيه انه قد بلغني ان صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضبغة فالحق بنا نواسك ، وكان الملك يتوقع ان كعباً سيستجيب له بسرعة وانه سيستخدم ذلك ورقة يانصيب مع المسلمين الآخرين الذين يتعرضون لمثل هذه المحنة لكن ماذا كان جواب كعب للعروض التي قدمها ملك غسان .

اخذ الرسالة فاحرقها في التنور وبهذا الموقف الصلب برهن كعب على اخلاصه واستقامته فتقبل الله توبته فنزلت في حقه والاثنين الآخرين ﴿ لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والانصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعدما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ، ثم تاب عليهم انه بهم رؤوف رحيم ، وعلى الثلاثة الذين خُلِفُوا حتى إذا ضاقت عليهم الارض بما رحبت وضاقت عليهم انفسهم وظنوا ان لا ملجأ من الله إلا اليه ، ثم تاب عليهم ليتوبوا ، ان الله هو التواب الرحيم ﴾ . . ونستخلص من هذه الحكاية الاساليب التربوية التي اتبعها النبي (ص) في معالجة المشاكل من هذا القبيل ، فالنبي (ص) لم يكتف بفرض العزلة الاجتماعية بل طبق على هؤلاء الثلاثة الذين لم يأتوا بعذر مشروع لغياهم عن غزوة تبوك العزلة الاقتصادية ايضاً وامتد قانون العزلة حتى داخل البيت . ويمكن لمس آثار المقاطعة التامة سيما مقاطعة النبي (ص) لكعب على نفسه ونقف في هذه الحكاية عند معاودة الاعداء على استثمار هذه المقاطعة ومحاولة كسب كعب بواسطة تلك الرسالة الجذابة التي ارسلها ملك غسان وننظر ايضاً

الى نهاية الحكاية والتي تُوجت بقبول التوبة عن الثلاثة انذين خُلفوا وهي تؤكد فاعلية اسلوب المقاطعة في تغيير المواقف والسلوك الانساني .

٤ - ملء أوقات المسلمين . . فأفضل طريقة لمواجهة الدعايات هو أن يبادر القائد ويتصل بجماهيره بصورة مباشرة وعبر التوجيه المكثف والمتواصل ليمحي اثر الدعاية مهما كانت قوية . هكذا كان يفعل رسول الله (ص) في مقاومة الدعاية المضللة فهو لم يدع مجالاً لهذه الدعايات من النفوذ داخل صفوف المسلمين فكان رده يأتي سريعاً واسرع حتى من حركة الدعاية في المجتمع ، ففي عودة النبي (ص) من غزوة بني المصطلق وقعت مشكلة كادت ان تثير فتنة بين المسلمين سببها مقولة عبد الله بن أبي فما كان من النبي (ص) عندما بلغه ذلك إلا وان يأمر اصحابه بالرحيل ولم يكن الرحيل مقررأ في تلك الساعة ، ومشى بالجيش طوال الليل وشطراً من اليوم الثاني حتى آذتهم الشمس فزلوا وقد انهكهم السير ولم يمكنوا قليلاً حتى امرهم بالسير الى المدينة فلم يدع مجالاً لانتشار الخبر وعندما انتشر حديث الأفك بين الناس سارع النبي (ص) ليقف خطيباً ليقول : ايها الناس ما بال رجال يؤذوني في أهلي ويقولون عليهم غير الحق والله ما علمت فيهم إلا خيراً وما علمت في ذلك الرجل سوءاً ولم يدخل بيتاً من بيوتي إلا وانا معه ويجري النبي (ص) تحقيقاً سريعاً ويطلب من الموكلين بالتحقيق ان ينقلوا للملأ تفاصيل الحادث ، هكذا كان رسول الله (ص) يتحرك مع النشاط الدعائي الهدام الذي كان يقوم به المنافقون فهو كان يرد بالمنطق والعقل ولم يسكت على الدعايات المضللة ولم يحاول ان يتهرب من الرد ولم يتجاهلها بالرغم من تفاهتها وتعرضها غير المباشر لشخصيته الكريمة .

٥ - استعمال العنف : وذلك عندما تتحرك حركة النفاق من ظاهرة اجتماعية الى ظاهرة سياسية عندها لا يجد النبي (ص) وسيلة للمقاومة سوى

التوسل بالعنف لتصفية التحرك .

وحتى في هذه المرحلة لا يتوسل النبي (ص) بالقتل بل كان يكفي بإيقاف التحرك الذي يقوم به المنافقون ففي غزوة تبوك كان المنافقون يجتمعون في بيت من بيوت اليهود يثبطون عزائم الناس ويخوفونهم من لقاء الروم ويتآمرون على عرقلة مسيرة الجيش الى تبوك بالتعاون مع طائفة اليهود الاعداء وعندما بلغ الخبر النبي (ص) ارسل الى بيت طلحة بن عبيد الله في نفر من اصحابه فأشعلوا النار في البيت فانهمز المتآمرون وفر احدهم من خلف البيت فسقط فكسرت رجله . ومرة ثانية لم يتردد رسول الله (ص) في استخدام القوة عندما عقد المنافقون عزمهم على اتخاذ مسجد ضرار مكاناً للتآمر على المسلمين بالتعاون مع الروم فأرسل ايضاً جماعة من اصحابه لهدم المسجد واحرقه لكن اسلوب العنف لم يتعد ذلك ، فقد كان الهدف هو الحيلولة دون اصطباغ الحركة بالطابع السياسي باتخاذ الاوكار والمراكز ومنع تطور حركة النفاق الى مستوى التأثير الحاسم وقد استطاع بهذه الاساليب الحكيمة ان ينهي هذه الحركة ويزيلها من الوجود وربما كان يستشري شرها لو كان الرسول (ص) يستخدم القوة في بداية الأمر .

فقد ترك الحركة لتنتهي بنفسها فانتحرت بايديها ويعود الفضل في ذلك الى سياسة التعامل فقد تعامل معها كما يتعامل الطبيب مع المريض فالطبيب يعمل على حصر المرض في أضيق مكان ويعمل ايضاً على تقوية الجسم واعطائه المقاومة اللازمة ليتمكن بنفسه ان يقضي على المرض والحكمة في ذلك انه سيتولد في الجسم مناعة مضادة ضد هذا المرض سيجنبه الاصابة به لامتد طويل .

وانتهت الحركة الى مصير معلوم فبعد موت عبد الله بن أبي تفرق جمع المنافقين فبعضهم عاد الى حظيرة الاسلام ثائباً الى الله مثل متعب بن قشير

الذي كان من العناصر النشطة في معركة أحد يومها كان يردد لو كان لنا من الامر شيء ما قُتلنا ها هنا فقد ذكر ابن حجر في الاصابة انه تاب ومن التائبين ايضاً هلال بن أمية . . واما الآخرون فقد جمّدوا نشاطهم بعد وفاة زعيمهم ولم يعد يُسمع لهم ذكر بعد السنة التاسعة للهجرة .

the first of these is the fact that the
the second is the fact that the
the third is the fact that the

the fourth is the fact that the
the fifth is the fact that the
the sixth is the fact that the

the seventh is the fact that the
the eighth is the fact that the
the ninth is the fact that the

the tenth is the fact that the
the eleventh is the fact that the
the twelfth is the fact that the

the thirteenth is the fact that the
the fourteenth is the fact that the
the fifteenth is the fact that the

the sixteenth is the fact that the
the seventeenth is the fact that the
the eighteenth is the fact that the

الفئة الثالثة .. المؤلفة قلوبهم :

شهدت الحياة الاقتصادية في جزيرة العرب فترة ظهور الاسلام تطوراً نوعياً فقد انتقل قسم من المجتمع من حياة البداوة الى الحياة الحضرية وقد رافق هذا الانتقال تغير في التكوين الاقتصادي لحياة المدن فبعد ان كانت الحياة الاقتصادية في الصحراء حياة متواضعة بسيطة أصبحت الحياة في المدينة أكثر تعقيداً ودخلت التجارة كعنصر هام في قلب موازين الحياة في الحضر فقد جلبت التجارة الاموال الطائلة ودفعت بأصحاب رؤوس الاموال الى صرف بعض الاموال على الترف والراحة فظهرت حياة ارسقراطية في المدن وبالأخص مكة التي كانت مركز التجارة في جزيرة العرب ورافق هذا التحول الاقتصادي بروز بعض سمات الحضارة المادية كالنفعية والبحث عن الربح وتسخير كل شيء من أجل المنافع الاقتصادية . فقد استثمرت قريش المكانة الدينية لمكة لمنافعها التجارية فتمسكت بالوثنية لأنها كانت السبيل للمحافظة على مكانة مكة (في جزيرة العرب) وبالتالي فهو الضمان لبقاء زمام التجارة بأيديهم .

وعندما جاء الاسلام قاومت قريش الدين الجديد خوفاً منها على مصالحها وعاداتها وتقاليدها فالاسلام يساوي بين السيد والعبد وبين الغني والفقير وهذا

يتناقض مع نظام الطبقات في مكة بالإضافة الى ان الدين الاسلامي يؤمن بآله موجود في كل مكان ويمكن ان يعبد في أي مكان وهذا ما يؤثر على منزلة مكة حسب اعتقاد قريش باعتبار ان مكة هي مركز الاوثان في جزيرة العرب . لهذا وجدنا ان زعماء قريش ووجهائها لم يرفضوا فقط الدين الجديد بل حاربوه بضراوة ، غير ان قيام الدولة الاسلامية في المدينة أوجد لدى المسلمين فرصة وضع العراقيل أمام التجارة المكية فأصبحت تجارته تحت رحمة المسلمين وكانت تحدد النبي (ص) رغبة تحرير مكة بدون قتال لأنها مدينة مقدسة ولم يكن يريد النبي (ص) إضعاف مكانتها كمركز عبادي وتجاري كما انه كان على بيّنة من امر زعماء قريش وان سبب رفضهم للإسلام هو غرورهم بأموالهم فإذا ما استطاع النبي (ص) تهديد منافعهم ثم تضمينها فإنه سيتمكن من السيطرة على مكة فوجدناه يتحاشا الصدام العسكري ويعقد صلحاً مع قريش هو صلح الحديبية ثم تنتكر قريش لبنود الصلح فيجهز الرسول جيشاً جراراً كان باستطاعته ابتلاع القوة العسكرية التي تمتلكها قريش في ساعات لكن الرسول ظل على سياسته في تحرير مكة سلمياً ودفع زعمائها الى الاسلام وقد تحقق له ما شاء ففتح مكة دون اراقة الدماء ومنح زعماء مكة فرصة التفكير قبل اعلان اسلامهم لكنهم ادركوا بالبدية ان اسلامهم يعني ضمان وضعهم الاقتصادي بل زيادة على ما يمتلكون فانهم سيحصلون على سهم من الغنائم . وهذا الذي حصل فعلاً بعد غزوة حنين حيث اعطى رسول الله زعماء قريش وسادتها ووجهائها مائة بغير وفضلهم في العطاء على الانصار والمهاجرين . فعن طريق المال كان رسول الله يأمن شرهم ويكسبهم الى جانبه لأنه كان على علم بأن هؤلاء ليسوا رجال عقائد بل رجال منافع فأينما اتجهت المنافع اتجهوا اليها وسموا بالمؤلفة قلوبهم وأصبحوا يشكلون بوزنهم الاجتماعي وخبرتهم في السياسة والقتال وبالأموال التي يمتلكوها قوة ذات اهمية في الخريطة السياسية وابرز هؤلاء المؤلفة قلوبهم :

أبو سفيان وولديه معاوية ويزيد ، حكيم بن حزام بن خويلد وهو ابن أخت خديجة زوجة النبي (ص) ، العلاء بن جارية ، الحارث بن هشام بن المغيرة وهو سيد بني مخزوم ، صفوان بن أمية وهو ابن الطاغية أمية بن خلف وكان من أثرياء قريش هرب يوم فتح مكة الى ساحل البحر الاحمر ومكث مطارداً حتى حصل على أمان رسول الله (ص) ، استدان منه رسول الله (ص) (٥٠ ألف درهم) لتوزيعه على المحتاجين من الانصار والمهاجرين ، سهيل بن عمرو وهو مبعوث قريش الى النبي (ص) في صلح الحديبية وكان خطيباً بارعاً ، حويطب ابن عبد العزي وكان من أثرياء قريش استدان منه النبي (٤٠ ألف درهم) ، مالك بن عوف كان رئيس هوازن يوم حنين وكان اهله ضمن أسرى في غزوة حنين وامواله ضمن الغنائم لكنه فلت من المسلمين وتحصن من جديد لقتال المسلمين لكن رسول الله أمّله باعادة أمواله وأهله إذا ما اسلم فاستجاب لرأي رسول الله فأعطاه الرسول بالاضافة الى ذلك مائة بغير من غنائم حنين .

ومن المؤلفلة قلوبهم أيضاً عيينة بن حصن ، الاقرع بن حابس ، هشام بن عمر ، قيس بن عمر ، سعيد بن يربوع ، عثمان بن وهب ، العباس بن مرداس ، مخزومة بن نوفل ، عمير بن وهب ، النضر بن الحارث ، أسيد بن الحارث .

وللوهلة الأولى نجد ان هؤلاء كانوا يشكلون واجهات اجتماعية أو رؤساء عشائر أو تجار لهم خبرة في المعاملات التجارية وكان انضمامهم للمسلمين ذو فوائد جمّة سياسية واجتماعية واقتصادية فهؤلاء هم رموز الشرك فأعلانهم الاسلام كان يعني انتهاء عهد الشرك الى الأبد كما وان لكل واحد من هؤلاء عدد كبير من التابعين فاسلامهم سيؤدي الى اسلامهم ايضاً ، كما ان بعض هؤلاء من اصحاب الاموال يمكن الاستفادة من اموالهم بالاستدانة منهم والاستفادة من خبراتهم التجارية .

فالسّياسة التي اتّبعها الرسول (ص) في مكة قامت على جذب هؤلاء الى صف الاسلام فمن ناحية أكّد على مكانتهم عندما اعلن بأن من يدخل دار أبي سفيان فهو آمن اما ولاية مكة فقد منحها لواحد من بني أمية هو عتّاب بن أسيد وأيضاً أبقي مالك بن عوف على زعامة قبيلته وهذا يؤكد بأن النبي (ص) لم يشأ احداث تغيير يشمّ منه المكيون رائحة الخطر فقد طمأنهم النبي (ص) بتلك الخطوات التي قام بها بعد ذلك بذل عليهم المال السخي من أجل ان يضمن ولائهم ، في نفس الوقت عمل رسول الله على دمجهم بالمجتمع الاسلامي على رغم صعوبات ذلك لأن بعض هؤلاء المؤلفة قلوبهم كانوا بعيدين كل البعد عن مجالات الاعتقاد والايمان . . إلا ان محاولات الدمج نجحت في بعض هؤلاء فقد برز بين هؤلاء المؤلفة قلوبهم من حَسُن ايمانه هو بن عمرو فقد أثمرت محاولات النبي (ص) في تغييره حتى أصبح يقول والله لا أدع موقفاً وقفته مع المشركين إلا وقفت مع المسلمين مثله ولا نفقة أنفقتها مع المشركين إلا أنفقت على المسلمين مثلها ، وكان رسول الله (ص) يطيل معه اللقاء فقد نقل الينا سهيل بن عمرو جملة من الروايات منها هذا الحديث سمعت رسول الله (ص) يقول : مقام احذكم في سبيل الله ساعة من عمره خير من عمله عمره في أهله .

وكان لسهيل دور بارز في الوقوف بوجه الردّة في مكة بعد وفاة النبي (ص) فقد خطب في أهل مكة وطالبهم الاستمرار في ولائهم للاسلام وبعد ان استقرت الاوضاع ذهب سهيل بن عمرو الى الشام وهو يقول أرباط حتى أموت ولا أرجع الى مكة . فكم بلغ التحول في هذا الرجل الذي بدأ حياته ضمن مجموعة المؤلفة قلوبهم ليؤكد بأن ليس كل الذين كانوا ضمن هذه المجموعة بقوا ضعيفي الايمان .

فهناك من بقي على حاله كأبي سفيان ومعاوية الذين ظلا على نظرتهم

واهدافهما مثلما كانا أيام الجاهلية .

وعلى الرغم من أن المؤلفة قلوبهم لم يظهروا بصورة كيان سياسي إلا أنهم بعد وفاة الرسول (ص) أخذوا يخططون للتسلل الى السلطة ، فتمكنوا في عهد الخليفتين عمر وعثمان ان يحققوا خططهم فأصبح معاوية والياً على الشام فمهّد الطريق للاستيلاء على الحكم وتحويل الحكم الاسلامي الى ملكية .

فقد لعب المؤلفة قلوبهم دوراً خطيراً في تاريخ الاسلام وتسببوا في تحريف الدولة الاسلامية عن النهج الرسالي من خلال النظام الذي أوجدوه خلال فترة حكمهم .

فلقد بذل رسول الله (ص) جهداً كبيراً من أجل دمج هذه الشريحة الاجتماعية في المجتمع الاسلامي وتذويبها في العقيدة الاسلامية لكن البعض من هؤلاء كان يحمل في قلبه وسادة تمنع من دخول الايمان واستقراره من أمثال أبي سفيان ومعاوية وكان وجودهم يشكل خطراً على الاسلام كالمناقف فكان رسول الله (ص) يعمل على تفهيم الأمة بحقيقتهم لدرء مخاطرهم فقد ذكر الطبري ان النبي (ص) رأى أبا سفيان مقبلاً على حمار ، معاوية يقود به ويزيد ابنه يسوق به فقال : لعن الله القائد والراكب والسائق^(١) .

وعن ابي سعيد الحذري وعبد الله بن مسعود قال رسول الله : إذا رأيتم معاوية على منبري فاقتلوه^(٢) . . فقد كان رسول الله (ص) يخشى ان يقوى هذا التيار فيصبح قادراً على تحريف المسيرة الاسلامية وهو الذي حدث فعلاً عقب فترة من وفاته (ص) .

(١) تاريخ الطبري : ج ١١ ص ٣٥٧ .

(٢) السيوطي ، اللالي المصنوعة : ج ١ ص ٤٢٤ - ٤٢٥ .

السياسة الخارجية للدولة الإسلامية .:

لم تقم الدولة الإسلامية في محيط منززل ومنفصل عن شعوب العالم ولم يكن الرسول(ص) ينوي إقامة دعوته بمعزل عن تلك الشعوب مثل اليهودية فهو يحمل رسالة عالمية لكل الشعوب فكان لا بد من اختيار المكان المناسب لهذه الدعوة وكانت المدينة أفضل مكان لنشر الدعوة الى الآفاق إذ كان في المدينة تجمعات فكرية تنتمي الى اليهودية والنصرانية وهي أيضاً تعتبر جسراً لامتدادات الشعوب القاطنة حول جزيرة العرب .

وكان واضحاً لدى النبي (ص) انه ذاهب الى مكان يشتمل على اتجاهات سياسية مختلفة فكان عليه ان يضع خطوط سياسته أزاء تلك الأقوام التي لا يجد بُدّاً من التعامل معها سلباً أو ايجاباً .

ومع أول قدومه للمدينة بدأ يرسم معالم سياستها الخارجية التي تناولت في الوهلة الاولى التجمعات اليهودية ثم بعد ذلك أخذت تتكامل هذه السياسة مع اتساع روابط الدولة الإسلامية مع التجمعات الاخرى ومع قيام صيغة جديدة في العلاقة بين الكيان الاسلامي والكيانات الاخرى .

وإذا تعمقنا في النهج السياسي الذي سلكه النبي في علاقاته الخارجية

نجد ان هذا النهج يقوم على عدة أهداف مركزية هي :-

١ - نشر الدعوة الاسلامية . . فبداية العلاقة بين الاسلام والأديان الاخرى كانت علاقة حوار استهدفت التأثير في المنتمين الى الديانات الاخرى . ويذكر لنا التاريخ ان عدداً من أحرار اليهود ورهبان النصارى قد آمنوا بالنبي (ص) وحتى في مراحل الصراع المسلح كانت الغاية هي نشر الاسلام وايصال تعاليمه الى الشعوب الاخرى وسنأتي الى ذكر هذه الأمور في فصول قادمة .

٢ - كسب وضع أفضل للدولة الاسلامية : فقد أرسى النبي (ص) سياسته الخارجية سواء مع اليهود أو مع قريش سواء كانت سياسته السلمية أو الحرية لتحقيق هذه الغاية . فقد كانت الدولة الاسلامية دولة ناشئة يحيط بها الأعداء من كل جانب ومكان ولم يكن أمام انطلاق المسلمين إلا كسر القيود التي كانت من حولهم بايجاد أوضاع أفضل تتمكن من خلالها الدولة الاسلامية من التحرك بحرية كافية في جزيرة العرب وخارجها .

فالاتفاق الذي أبرمه النبي (ص) مع اليهود في بداية تشكيل الدولة الاسلامية كان ضرورياً من أجل بناء البيت الداخلي للمسلمين . ثم ان اخراج القبائل اليهودية من المدينة بعد نكثها للاتفاقية كان قد أوجد لدى الرسول (ص) فرصة لفرض السيادة التامة على المدينة . وان الحرب او السلم مع قريش كان لتحقيق نفس هذه الغاية . ولوشئنا التدقيق في معالم أهداف كل خطوة خطاها النبي (ص) لوجدنا ان وراء كل خطوة قراراً حكيماً وان نتائج كل خطوة كانت لصالح الدولة الاسلامية مما يؤكد بأن هناك هدفاً مركزياً كان يسعى اليه النبي (ص) من وراء سياسته وهو ايجاد وضع أفضل للدولة الاسلامية .

٣ - تحاشي الاقتتال . . وكان من بين الأهداف الرئيسية التي سعى اليها النبي (ص) هو تحاشي الاقتتال والتوسل بأية وسيلة يمكن بها ضمان تحقيق أهدافه دون حمل السلاح . فكان من بين الوسائل التي اختارها عقد الاتفاقيات

وابرام المعاهدات وارسال الرسل وتبادل الرسائل . فقد تحاشى الصدام مع اليهود عند وصوله الى المدينة ف عقد معهم الاتفاقية التي وردت بنودها في الصحيفة ونفس الشيء بالنسبة الى نصارى نجران فقد عقد معهم اتفاقية يعطون على أساسها مقداراً من المال في قبال توفير الحماية لهم على ان يبقوا على دينهم وممارسة طقوسهم ونجده أيضاً (ص) ينتهج هذا النهج حتى مع قريش فهو يجهد نفسه من أجل ان يسلك طريقاً لا يؤدي الى اراقة الدماء . ومعظم اتفاقيات الصلح التي أبرمها النبي لم تكن بسبب الضعف العسكري بل وراءها جميعاً غايات نبيلة كان النبي (ص) يسعى اليها دون اراقة الدماء . ولم يكن النبي (ص) ليرفع السلاح إلا عند الاضطرار وفي حالات الدفاع عن النفس .

٤ - تحقيق العدالة بين الشعوب . . فالإسلام دين عدالة وقوانينه هي لانقاذ البشرية من التخلف والاضطهاد وكان من واجب كل مسلم تطبيق قوانين الاسلام لتحقيق العدالة بين الشعوب حتى غير المسلمة فقد لا يشترط على تلك الشعوب تغيير معتقداتها واعتناق الاسلام لكنه قد يشترط عليها الامتثال لقانون العدالة التي جاء بها الاسلام والذي يضمن لها الخير والسعادة وهذا هو هدف مركزي سعى اليه النبي (ص) عندما عقد مع القبائل معاهدات يفرض عليها الالتزام بقوانين العدالة مع انه لا يفرض عليها العقيدة الاسلامية .

وأول معاهدة عقدها النبي (ص) مع اليهود كانت تتضمن هذا المعنى ، فقد اشترطت الصحيفة أن تحال القضايا المتنازع عليها الى النبي (ص) باعتباره المنفذ للعدالة .

عندما وقعت حادثة زنا قام بها يهودي محصّن اضطرروا امثالاً لبنود الاتفاقية ان يرفعوا القضية الى النبي (ص) لكن أحبارهم قالوا لهم إن حَكَمَ بالرجم فارفضوا وإن كان بغيره فاقبلوا فرفض النبي (ص) ان يحكم بغير

الرجم . من هنا ندرك ان النبي (ص) رضي ان يبقى اليهود على دينهم لكنه لم يقبل أي تنازل عن قوانين الاسلام لأنها قوانين عادلة من شأنها اسعاد الانسان ووضعه على طريق الخير .

فإذا لم تُجبر الدولة الاسلامية ارباب الديانات على اعتناق الإسلام فإن عليها ان تعمل من أجل سيادة العدالة وسيادة القوانين الالهية على كافة الشعوب الاسلامية وغير الاسلامية وهو هدف لا يمكن التساهل عليه بأي وجه .

جبهة عريضة للموحدين

من الاهداف التي عمل من أجلها النبي (ص) في بداية تشكيل الدولة الاسلامية هو اقامة جبهة عريضة بين المؤمنين بالديانات الثلاثة الاسلام واليهودية والنصرانية في قبال العدو المشترك وهو الوثنية .

فمرحلياً كان لا بد من السعي لتطهير جزيرة العرب من براثن الشرك المستشري في صفوف المجتمع والذي كان السبب وراء كل مظاهر التخلف والعجز والانحطاط في ذلك المجتمع . فقد رأى رسول الله (ص) اشراك أصحاب الديانات التوحيدية الاخرى في هذه المهمة وان تكون تصفية الوثنية مهمة خاصة به .

فكانت أول خطوة على طريق تنفيذ هذا المشروع هو عقد الاتفاقية مع اليهود وكانت من أهداف الاتفاقية رص الصفين الاسلامي واليهودي في قبال قريش التي كانت تمثل الكيان السياسي للشرك .

وخطى الرسول (ص) خطوة أخرى باجراء الاتصالات مع نصارى نجران وفتح أبواب الحوار المباشر مع قادة وعلماء النصارى فقد أرسل أهالي نجران وفدًا من ستين راكباً بعد تلقيهم رسالة من النبي (ص) يصف فيها القواعد التي يمكن على أساسها قيام التفاهم بين المسلمين والنصارى . واجتمعت الاديان

الثلاثة على مائدة الحوار الفكري فدعاهم رسول الله (ص) الى الالتزام بالحدود المشتركة من العقائد الثلاثة قائلاً لهم : ﴿ يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾ .

وتشكّل هذه الآية الكريمة قاعدة راسخة في التفاهم العقائدي فهي قدمت لأصحاب الديانتين عروض مغرية فأعلنت المساواة بين المؤمنين بهذه الاديان الثلاثة وان يكون محور اللقاء هو التوحيد وعدم الاشراك بالله وان يصبح الحق هو معيار السلوك .

وعندما سئل رسول الله (ص) عن هوية العقيدة الاسلامية قال لهم : آمنا بالله وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط وما أوتي موسى وعيسى ، وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون . ثم بيّن لهم النبي (ص) موقف المسلمين من عيسى بن مريم منكراً على النصارى عقيدتهم في التثليث وقرارهم بالوهية عيسى قائلاً لهم ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون .

وكانت الغاية من هذا اللقاء هو تصحيح معتقداتهم وكشف جوانب التحريف في اليهودية والمسيحية . ووقع الاختلاف الشديد بين اليهود والنصارى إذ قالت النصارى : ليست اليهود على شيء ، وقال اليهود ليست النصارى على شيء . ودار نقاش ساخن وجدال عنيف أدلى كل منهم بما عنده .

فأنكر اليهود رسالة عيسى (ع) ورسالة النبي محمد (ص) معتقدين بأن الرسل يجب ان يكونوا من بني اسرائيل وزعموا ان عزير هو ابن الله وانجر الحوار الى جدل غير مجدي والى تعصب المسيحيين عند رأيهم فلم يبق أمام رسول الله سوى دعوتهم الى المباهلة : ﴿ فمن حاجك من بعد ما جاء من العلم

فقل تعالوا ندع أبناءنا وابناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل
فنجعل لعنة الله على الكاذبين ﴿١﴾ وذكر كذب السير ان النبي (ص) جاء ومعه
علي وفاطمة والحسن والحسين للمباهلة . وعندما رأوا الجدية على محيا
النبي (ص) انسحبوا خوف افتضاح أمرهم واجتمعوا للتشاور فيما بينهم فالتفوا
حول كبيرهم ابي حارثة العاقب فقالوا يا عبد الله ماذا ترى فقال والله يا معشر
النصارى لقد عرفتم ان محمداً نبي مرسل ولقد جاءكم بالفصل من خبر
صاحبكم ، ولقد علمتم ما لآعن قوم نبياً قط فبقي كبيرهم ولا نبت صغيرهم .

فاجمعوا عند رأي واحد هو ان ينسحبوا من المباراة فأتوا الرسول (ص)
قائلين له يا أبا القاسم : قد رأينا ألا نلاعنك وان نتركك على دينك ونرجع على
ديننا ، ولكن ابعث رجلاً معنا من أصحابك ترضاه لنا يحكم بيننا في أشياء قد
اختلفنا فيها من أموالنا فانكم عندنا رضا .

وباءت محاولات النبي (ص) في توحيد الديانات الثلاثة بالفشل أمام
تعنت اليهود وصلفهم ورفضهم للأسس المشتركة بينهم وبين الاسلام وبينهم
وبين المسيحية .

فقد ظلوا مصرين على انحرافهم الفكري رافضين أية دعوة لتصحيح
معتقداتهم وظل الرسول (ص) ولمدة وهو يناقشهم في أفكارهم بهدف
تصحيحها فلو كان اليهود قد صححوا أفكارهم لكانوا قد قبلوا بعروض
النبي (ص) ولوافقوه على رسالته لأنهم يجدونه في كتابهم المقدس الا ان
عنادهم وعنصريتهم العمياء جعلتهم يستبعدوا أي تقارب فكري مع المسلمين
واي تعاون مع النبي محمد (ص) .

العلاقة مع اليهود :

كان من المفترض ان يسارع اليهود لتأييد النبي محمد (ص) لأنهم أصحاب دين ورسالة وان ذكر النبي (ص) قد جاء في التوراة كما أشارت الآية القرآنية ﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل﴾^(١) كما وان هناك مشتركات بينهم وبين المسلمين هو التوحيد وانهم كانوا يتوجهون في العبادة الى بيت المقدس في بداية الأمر . كما وان القرآن الكريم جاء على ذكر موسى وتفاصيل عن حياته وصراعه مع فرعون وذكر نبذاً من حياة بني اسرائيل . في ذات الوقت كان اليهود يتوعدون أعدائهم بالنبي (ص) الذي سيبعث وانه سيقض مضاجع أعداء اليهود . وعلى أساس هذه الخلفيات كان المتوقع من اليهود ان يساندوا النبي (ص) ويكونوا أول مؤمن به . لكن عنادهم وعنصريتهم (إذ كانوا يعتقدون بأن الرسول المنتظر يجب ان يكون من بني اسرائيل) جعلهم يفترون عن الاسلام باستثناء عدد ضئيل من علمائهم الواعين من أمثال عبد الله بن سلام .

(١) سورة الاعراف، الآية: ١٥٧ .

أما النبي (ص) فقد أبدى نحو اليهود درجة عالية من حسن النية عند وصوله الى المدينة فقد ارتأى تقريب الطائفتين أمة (المدينة) تضم بالاضافة الى المسلمين اليهود ايضاً وأعلن بنود المشروع الوحدوي في الصحيفة التي رسمت السياسة العامة وطريقة التعامل مع اليهود المتحالفين مع العرب . وكان لليهود تحالف مع الأوس والخزرج لكنهم كانوا يستثمرون تحالفهم من أجل تمزيق القبيلتين فقد أبقى النبي (ص) على تحالفهم لكن هذه المرة مع أمة واحدة وليس مع أمتين مما سلب من اليهود القدرة على المناورة وبث النزاعات الداخلية ، كما وسلب منهم القدرة على فرض آرائهم على المسلمين فقد كان هدف اليهود من حسن استقبالهم للنبي (ص) هو استقطابه الى جانبهم وجعله تابعاً لهم وكانوا يرسلون أخبارهم لمناقشة النبي (ص) في أمور العقيدة وكان النبي (ص) يجيبهم على كل ما يسألون ويدحض افتراءاتهم وأكاذيبهم .

ويوماً بعد آخر أصبح يتضح لليهود ان عقيدة التوحيد التي يدعوا اليها النبي (ص) ليست بالصورة التي يعتقدونها وانهم غير قادرين على التفاهم معه لأنه يقر المساواة بين كل الاقوام ولا يعطي لقوم أفضلية على قوم آخرين بخلاف عقيدتهم القائمة على حصر الايمان بقوم معين وجعل هذا القوم على رأس الاقوام .

وانقطعت جسور التفاهم بصورة كاملة عندما آمن عبد الله بن سلام برسول الله (ص) متحدياً العقيدة اليهودية ومتجاهلاً عشيرته وقومه وكان من زعماء بني قينقاع .

فقد أراد عبد الله بن سلام ان يكون اعلانه عن اسلامه بطريقة تفاجئ اليهود فقدم عدد من يهود بني قينقاع الى النبي (ص) وعبد الله بن سلام مخبئاً في احدى الغرف ولا يعلم باسلامه أحد . فأعلمهم بذلك فقالوا له كذبت ثم دفعوه بقوة .

ومن الذين آمنوا به أيضاً مخريق من بني ثعلبة وكان حرباً كبيراً غنياً يملك الأراضي الكثيرة والمحاصيل الوفيرة .

وظلت العلاقات تتوتر أكثر فأكثر كلما مضى النبي (ص) نحو تطبيق الشريعة الاسلامية فحرم الربا ثم حرم الخمر وكانت هذه التشريعات مدعاة للمزيد من الحقد لأنها طعنت بمصالح اليهود بعد ان نسفت عقيدتهم فازدادوا عداوة وحقداً . وهنا بدأ فصل جديد من العلاقة بين النبي (ص) واليهود اتسمت بالتشنج والتآمر ووصلت الى مستوى العنف وحمل السلاح وبذلك انتهت محاولات النبي (ص) في كسب ود اليهود .

وقد تحدّث المستشرقون سيما اليهود منهم كثيراً حول هذه النقطة فاعتقدوا ان النبي (ص) صاغ عقائده في بداية أمره في المدينة بالصورة التي يستطيع بها كسب اليهود فقد اعتبروا التوجه الى بيت المقدس اثناء الصلاة والصيام يوم عاشوراء هوتا نازل من النبي (ص) من أجل ترغيب اليهود في الاسلام^(١) وهو كلام لا يتطابق مع الحقيقة لأن ما ذكره من تنازلات لا علاقة لها باليهود بل هي من صلب الدين الاسلامي ، وعندما تغيّر موضع القبلة الى الكعبة جاء اليهود الى النبي (ص) وترجوا ان يستقبل بيت المقدس وعرضوا له انهم سيؤمنوا به إذا ما أطاعهم في هذا الأمر ولم يتوقعوا ان عروضهم المغرية ستقابل بالرفض . وأمامنا صور كثيرة عن مطالب اليهود في لقاءاتهم مع النبي (ص) كان يرفضها لأنها تتعارض مع الواقع ومع الشريعة فلو كان النبي (ص) يريد التنازل لليهود لتنازل لهم فكسب ودهم ولو تبخّر المستشرقون قليلاً في تأريخ العلاقة بين الاسلام واليهود لوجدوا ان جذور العداء الذي

(١) أنظر الجزء الثاني من كتاب محمد في المدينة، تأليف مونجمري وات، محاولات محمد للتفاهم مع اليهود: ص ٣٠٢. وانظر الى كتاب تاريخ الشعوب الاسلامية، تأليف بروكلمان: ص ٤٧.

استحكم بين اليهود والنبي (ص) منشأه هو عدم تنازل النبي (ص) ، فلو كان النبي (ص) قد أذعن لليهود ولم يصدمهم بأفكارهم المناقضة للعقيدة اليهودية لكانوا قد أعلنوا تأييدهم ومؤازرتهم له ، وقد ورد هذا الاشكال على لسان أحد المستشرقين الذي أخذ على النبي (ص) موقفه الصلب من اليهود وانه دعاهم الى الاعتراف برسالته التي تختلف عن العقيدة اليهودية فيقول ولفنسون في تاريخ اليهود في بلاد العرب ص ١٢٢ لو وقفت تعاليم النبي (ص) عند حد محاربة الوثنية فحسب لما وقع نزاع بينهم وبين المسلمين ولكانوا قد نظروا بعين ملؤها التبجيل والاحترام لتعاليم الرسول (ص) ولأيدوه وساعدوه بأموالهم وأنفسهم حتى يحطم الاصنام ويقضي على العقائد الوثنية .

فباعتراف ولفنسون ان منشأ الصراع مع اليهود هو النبي (ص) وليس اليهود على عكس نظرية بروكلمان ووات وغيرهما الذين قالوا ان النبي قدّم التنازلات الكافية لليهود وكانوا يطمحون للمزيد ولا مجال لطرح آراء بقية المستشرقين الذين وجدوا في العلاقة بين اليهود والمسلمين مادة دسمة للبحث والتحليل وقذف الدعايات وتوجيه الافكار المناهضة للاسلام . المهم ان هذه العلاقة كانت مرشحة للتوتر منذ اليوم الاول الذي قابل به بعض زعماء اليهود الرسالة الاسلامية . فقد كانوا على يقين من سلامة الدعوة الاسلامية وسلامة ما جاء به النبي (ص) لكنهم مع ذلك خالفوه وحاربوه وليس أدل على ذلك ما ذكرته صفية بنت حي بن أخطب وهو حديث نقله ابن اسحاق في سيرته قالت : كنت أحبّ وُلد ابي اليه والى عمي ياسر ، لم ألقهما قط مع ولدهما إلا أخذاني دونهم ، فلما قدم رسول الله المدينة ونزل بقيا في بني عمر وبني عوف غدا عليه أبي حيّ بن أخطب عمي أبو ياسر بن أخطب مغلسين فلم يرجعا إلا مع غروب الشمس فأثيا كالين كسلانين ساقطين يمشيان الهوينا فهششت اليهما كما كنت أصنع فوالله ما التفت إليّ واحد منهما مع ما بهما من الغم وسمعت عمي أبا ياسر يقول

لابي حي بن أخطب أهو هو ؟ قال ؛ نعم والله ، قال : اتعرفه وتثبته قال نعم ، قال فما في نفسك منه ، قال عدوؤنه والله ما بقيت . هذه الحكاية تؤكد ان اليهود كانوا قد قرروا المواجهة مع النبي (ص) في اللحظات الاولى من وصوله المدينة واستقبال الأوس والخزرج له ذلك الاستقبال الحافل ودخولهم في دينه وكلما قوي الدين وازداد المسلمين ازداد غيظ اليهود لكن لم يكن أمامهم خيار سوى مسايرة الوضع الجديد لترقب نتائج خططهم القاضية بالفتك بالرسول أو الحيلولة دون الاستمرار في نشاط الدعوة .

المواجهة :

فشلت كل المحاولات لايجاد علاقة طيبة بين اليهود والمسلمين وكانت هذه المحاولات تمضي الى الانهيار كلما زاد اليهود في تعنتهم-وتكبرهم فأصبحت المواجهة قضية حتمية بين الطرفين لكنها سارت بصورة تدريجية حتى بلغت أوجها في المعارك الحاسمة التي أجليت على اثرها القبائل اليهودية .

١ - المعركة الكلامية :

في بداية الأمر انطلق اليهود في استخدام أبواقهم الاعلامية وهم المعروفون بالدعاية والتضليل ، فأخذوا يروجون استحالة بعث الرسل من غير بني اسرائيل وكانوا يتصلون بكل من يؤمن بالرسول (ص) منهم ويقولون له تلك الفكرة فقد التقى حي بن أخطب وكعب بن أسعد وأبورافع بعبد الله بن سلام بعد ان أسلم قائلين له : ما تكون النبوة في العرب ولكن صاحبك ملك^(١) . واستعملوا هذا اللون من التضليل بين اليهود حتى لا يفكر أحد منهم بالاسلام . وأنكروا ان يكون النبي (ص) قد ذكر في توراتهم فقال مالك بن الصيف

(١) ابن هشام : ج ٢ ص ٤٤ .

للنبي (ص) حين ذكر لهم ما أخذ عليهم من الميثاق ، والله ما عهد النينا في محمد عهد وما أخذ له علينا من ميثاق^(١) ثم عمدوا الى تغيير صفاته الموجودة في التوراة واستبدلوها بصفات لا تنطبق عليه لايهام جماعتهم بأنه غير مذكور في التوراة وقد صرح القرآن الكريم بذلك ﴿والذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وان فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون﴾^(٢) ثم زعموا ان ابراهيم كان من ملتهم ولو كان محمداً موافقاً لابراهيم لاتبع دينهم لكن القرآن أجابهم ﴿ما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين﴾ وكانوا يظهرون للناس أنهم آمنوا ثم بعد ذلك يعلنون عدولهم عن الايمان ويجهرون بالكفر حتى يقول الناس ظهر كذب محمد فعدلوا عنه فنزلت الآية ﴿وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار وكفروا آخره لعلهم يرجعون﴾ . وسبوا النبي (ص) واستهزؤوا به وقد قال الله في ذلك لنبه ﴿ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً﴾ . وكان البعض يجيبه بالسأم عليك ويعني الموت .

٢ - التآمر :

ولم يكتف اليهود بهذا القدر من العداء للاسلام ولنبي الاسلام فأخذوا يوسعون من دائرة عدائهم وأصبحوا يتحينون الفرص للانقضاض على الاسلام والمسلمين سيما بعد انتصار المسلمين في معركة بدر وألتي أثارت ضغائن اليهود وكانوا يقولون للنبي (ص) لا يغرنك من نفسك انك قتلت نفراً من قريش كانوا أغماراً لا يعرفون القتال ، انك والله لو قاتلتنا لعرفت انا نحن الناس ، وانك لم تلق مثلاً . وصعدوا من صرايحهم وتآمرهم بمحاولة فاشلة لاغتيال

(١) نفس المصدر: ج ٢ ص ٣٦ .

(٢) سورة البقرة، الآية : ١٤١ .

النبي (ص) عندما ذهب الى بني النضير يطلب منهم المساعدة لدفع الدية عن قتيلين من بني عامر وفق ما تقتضيه الوثيقة الموقعة بينهم وبين المسلمين فأبدوا موافقتهم في اعطاء الدية ، لكنهم ذهبوا ليخططوا لدسيئة دنيئة وسارعوا لتنفيذ مخططهم الجهنمي القاضي بالقاء صخرة كبيرة على النبي (ص) اثناء جلوسه أسفل جدار بيت من بيوتهم وسارع أحدهم وهو عمرو بن جحاش بن كعب لتنفيذ الخطة فصعد سطح المنزل لكنه لم يجد النبي (ص) إذ لم يمهله الوحي فرصة لتنفيذ مأربه فقد خرج النبي (ص) ، من حصنهم وفي نيته اخراجهم من أرضهم لأنهم تنصلوا من الميثاق الذي وقّعوه معه . وفي أحد يتحمل كعب بن الأشرف أحد كبار اليهود مسؤولية تحريض قريش والقدوم الى المدينة لمقاتلة النبي (ص) وفي الأحزاب يتطوّع شخص آخر من القادة لنفس هذا الدور هو حي بن أخطب .

هذا على صعيد التحرك السري المضاد ، أما في الداخل فبالإضافة الى المدعابات التي كانوا يبثونها بين آونة واخرى ساندوا حركة النفاق بزعامة عبد الله ابن أبي فاصبوا ممن يسهمون في تقوية هذه الحركة وساعدوها على تمزيق صفوف المسلمين فقد ذكرنا في حديث سابق محاولة شاس بن قيس وهو من اليهود في تفريق الأوس عن الخزرج وذلك باثارة الخلافات السابقة وباعادة قراءة الأشعار التي قيلت في حرب بعاث وكادت النار تشتعل بين القبيلتين المسلمتين لولا تدخل النبي (ص) السريع .

٣ - المواجهة العسكرية :

وبلغت أزمة العلاقة بين اليهود والمسلمين الى حد المواجهة المباشرة فبينما كانت امرأة مسلمة تتجول في سوق بني قينقاع ومعها بضاعة تريد بيعها لدى الصاغة عمّد بعض اليهود الى الاستهزاء بها والتحرش بها طالبين منها الكشف عن وجهها فأبت وتجمع اليهود حولها وكل واحد يكيل اليها ويسخر منها

ويضحك فصاحت المرأة فسمعها رجل مسلم فوثب للصائغ اليهودي فقتله شر قتلة فرد اليهود على المسلم فقتلوه فاستصرخ أهل المسلم أتباعهم . فلم يقف النبي (ص) مكتوف الايدي حيال هذا التحدي الصارخ فقرر فرض الحصار على حصونهم الواقعة داخل المدينة لأنهم نكثوا العهد ولم يعد لهم الحق في البقاء خصوصاً وانهم كانوا يعيشون بين المسلمين فكان شرهم أقوى وأشد واستمر حصار النبي (ص) لهم خمسة عشر يوماً حتى قبلوا الخضوع لحكم النبي (ص) الذي قضى عليهم بالجلاء من يثرب الى أي مكان آخر . فمنذ ذلك الوقت أصبح الرسول (ص) جدياً في مواجهة تحدياتهم ومؤامراتهم فأرسل فريقاً فداًياً لتصفية كعب بن الأشرف الذي حرّض قريش وحشدهم لقتال المسلمين في أحد وكان يقول الشعر ضد المسلمين ويشبب بنساء المسلمين كأم الفضل بنت الحارث زوجة العباس بن عبد المطلب وهي من النساء الأوائل اللاتي آمن بالرسول (ص) ثم يرسل فريقاً آخر للقضاء على سلام بن أبي الحقيق وهو من زعماء بني النضير ولعب دوراً خطيراً في تحشيد الأحزاب ضد المسلمين . وعلى أثر محاولة الاغتيال الفاشلة التي قام بها بنو النضير ضد الرسول (ص) ، أثناء مجيئه الى حصنهم أمر رسول الله أصحابه بأن يتقدموا نحو معاقل هذه القبيلة ، وفرض حصاراً على حصونهم وأصبح يضيق الحصار عليهم حتى دبّ الذعر والخوف في نفوسهم فوجدوا ان من الأفضل لهم ان يختاروا الطريق الذي اختاره بنو قينقاع بالجلاء عن أماكنهم حقناً لدمائهم وطلبوا من النبي (ص) ان يسمح لهم بحمل ما تقدر عليه ابلهم فيما عدا السلاح فأذن لهم فخرجوا من المدينة باتجاه الشمال فاستقروا في خيبر . ولم يفلت عمرو بن جحاش من العقاب الرادع لمحاولته قتل النبي (ص) فأرسل النبي (ص) من يتعهد بقتله كي يصبح عبرة للآخرين . وهكذا تخلص المسلمون من تجمع آخر من تجمعات اليهود التي كان وجودها في المدينة يشكل خطراً على المسلمين وبالرغم من تعاقب حصار بني النضير بعد محاولة الاغتيال الأثيمة ضد حياة النبي (ص) إلّا

ان دواعي هذا القرار يتسع لأكثر من هذه الحادثة على رغم خطورتها فقد كان وجود هؤلاء مضر بحركة المسلمين نحو التطور وكسب وضع أفضل . فهم عقبة في طريق تقدم المسلمين بالإضافة الى أعمالهم المشينة التي قال عنها القرآن الكريم ﴿ ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ﴾ .

وواصل زعماء بني النضير تأمرهم على الدولة الاسلامية متخذين من خبير مكاناً مناسباً للتحرك السياسي فقد شكلوا حلفاً وسیعاً من القبائل العربية غطفان وقريش وجمعوا قوة عسكرية هائلة جاءت الى محاصرة المدينة فكانت أصعب تحدي يواجهه النبي (ص) طيلة صراعه المرير كل ذلك من تدبير زعماء بني النضير الذين لم يكتفوا بالقوة التي جلبوها لمحاصرة المدينة بل رأوا من الأفضل أيضاً ان تتحرك المجموعة اليهودية المتبقية في المدينة وهي بني قريظة ليوجهوا الى النبي (ص) ضربة قاضية يشترك فيها الداخل والخارج .

ولم يكن هيناً على حيّ بن أخطب اقناع كعب بن اسد زعيم بني قريظة بالغاء المعاهدة المبرمة بينه وبين المسلمين فقد كان مصير بني قينقاع وبني النضير عبرة لا يمكن ان ينساه . لكن اقتضاء الخطة مشاركة بني قريظة في المعركة أجبرته ان يضّر على طلبه مستخدماً المراوغة والخداع مؤملاً كعب بأن القوة التي تحاصر المدينة لا تبرح حتى تستأصل محمداً ومن معه ، فلا داعي للخوف إذا كان كل شيء سينتهي لصالحهم وان المسلمين سيقضى عليهم .

فوافق كعب بن أسد ان يشترك في المعركة وان يشنّ هجوماً في الليل على دور المسلمين لخلق البلبلة في صفوف مقاتليهم واشترط على تنفيذ ذلك الاستعانة بألفي مقاتل .

ولم يكن هيناً على المسلمين ان يسمعوأ أنباء خيانة بني قريظة فأرسل النبي (ص) سعد بن معاذ زعيم أوس وسعد بن عباد زعيم الخزرج من أجل

تغيير موقفهم لكنهم استقبلوا وفد رسول الله (ص) بالشتيم والسب . فسلم النبي (ص) أمره الى الله وأخذ الحيلة داخل المدينة للرد على أية محاولة للخرق يقوم بها الاعداء الداخليين .

وأخذ الله نبيه وعباده المؤمنين من الموقف الحرج بالريح التي شتت جمع المحاصرين وجعلتهم يفرون من مواقعهم . فلم يبق أمام النبي (ص) سوى ان يقرر مصير بني قريظة فجمع أصحابه بعد فرار الاحزاب ليقول لهم (من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا ببني قريظة)^(١) .

وبفضل سرعته في اتخاذ القرار والتعجيل بالهجوم تم احباط أية محاولة لوصول الامدادات الى بني قريظة . فقد تفاجأوا بالمسلمين وهم يحاصرون حصونهم إذ لم يكن يتوقعون ذلك بهذه السرعة واستمر الحصار لخمس وعشرين يوماً ضاق فيه اليهود ذرعاً فقرروا التسليم بعد ان لم يجدوا حلاً آخر وتركوا مصيرهم لمن يختاره النبي (ص) فاختار سعد بن معاذ زعيم أوس وكان بين قبيلة أوس وبني قريظة عهد وميثاق وحلف قبل الاسلام وكان الرسول (ص) قد احترم المواثيق المبرمة في عهد الجاهلية واستفاد منها في بعض الموارد .

وجيء بسعد بن معاذ وكان مستلقياً على سرير من جرح أصابه في المعركة فالتف حوله اليهود وهم يقولون يا أبا عمرو أحسن في مواليك فان رسول الله (ص) انما ولاك ذلك لتحسن فيهم فلما ألحوا عليه قال لهم :

لقد آن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم ، ثم أصدر حكمه بقتل الرجال المحاربين وتقسيم الأموال وسبي الذراري والنساء فما كان من الرسول (ص) إلا ان قال له (لقد حكمت فيهم بحكم الله وحكم رسوله)^(٢) . وكان لدى

(١) سيرة ابن هشام : ص ٢٢٣ .

(٢) سيرة ابن هشام : ص ٢٢٨ .

النبي (ص) المبرر الكافي لتنفيذ هذا الحكم فقد كانت جريمة بني قريظة أكبر من جريمة بني النضير وبني قينقاع وكان لا بد لليهود ان يأخذوا درساً لن ينسوه بعد اليوم . فقد وجد النبي (ص) أن الرحمة ببني النضير لم تزد لهم إلا ايغالاً في الجريمة ، فزعماء هذه القبيلة الذين عفى عنهم النبي (ص) هم الذين جيشوا الجيوش وجاؤوا بها لمحاصرة المدينة فكان لا بد ان لا تأخذ الرأفة بهم بعد اليوم لأنهم سيعودوا الى الخيانة لأن التآمر يجري في عروقهم فكان قرار القتل هو القرار الصائب والمطابق لقانون الحروب والمطابق للوضع السياسي الذي كان يعيشه المسلمون . فالذي ارتكبه بنو قريظة كان أشد من القتال وتكفي جريمة الخيانة وحدها بأن يصدر عليهم قرار الموت فكيف وانهم حملوا السلاح بوجه المسلمين في الليل البهيم .

ولم يبق أمام المسلمين إلا القضاء على الوكر الاخير لليهود في خيبر حيث كانوا يستفيدون من موقعه في حياكة المؤامرات فكل مؤامرة انطلقت من خيبر إذ أصبحت ملجأ لليهود الهاربين من العدالة فكان لا بد من القضاء على هذا الوكر قبل ان يستشري أمره ويتفاقم شره سيما وان أنباء وصلت الى المدينة تشير الى وجود تحرك جديد يقوم به سلام بن مشكم زعيم خيبر لاعادة بناء القوة اليهودية ثم الهجوم على المسلمين . وعلى رغم معارضة بعض الزعماء لهذه الفكرة إلا انها لقيت تأييداً واسعاً من قبل اليهود شجعت سلام بن مشكم على المضي في تنفيذ الخطة وقامت جهود لتعبئة اليهود فقد ارتأى سلام ان لا يستعينوا بالعرب بل يكتفوا في تشكيل القوة على اليهود فقط ، وقال واصفاً خطته : نسير الى محمد بما معنا من يهود خيبر فلهم عدد ونستجلب يهود تيماء وفدك ووادي القرى ثم نسير اليه في عقر داره .

وبلغت أخبارهم النبي (ص) الذي كان في وقته يتوجّه الى مكة عاقداً مع قريش صلح الحديبية الذي منح النبي (ص) فرصة ذهبية للانقضاض على يهود

خيبر فتحرك المسلمون وكان عددهم ألف وأربعمائة و٢٠٠ فارس وأول ما قاموا به هو السيطرة على طريق خيبر غطفان لمنع وصول الأمدادات من غطفان وأوهم اليهود بأنه يريد الهجوم على غطفان لكنه عدل في طريقه فباغت يهود خيبر فجرا في وقت كانوا فيه مشغولين بزراعتهم . ووضع الرسول (ص) خطة حربية دقيقة للسيطرة على الحصون الكثيرة والمنقسمة الى ثلاث مناطق النطاة والشق والكثبية وكان عدد المدافعين عن هذه الحصون زهاء عشرة آلاف مقاتل . فكان ميزان القوة لصالح اليهود وهذا ما جعل البعض يعتقد بأن الدائرة ستدور هذه المرة على المسلمين لكن بالخطة العسكرية الحكيمة التي وضعها الرسول (ص) والتي على أساسها قسمت الحصون الى صغيرة وكبيرة فكان بعض المجاهدين يشاغلون القوات المعادية بينما كانت القوة الرئيسية تتركز حول الحصون الكبيرة .

كما انه قسم قواته الى أقسام على أساس القبائل وبطونها ، وجعل لكل قسم قائداً حتى يشتد التنافس بين القوات فأخذت الحصون تسقط واحدة بعد أخرى ولم يبق إلا حصن واحد منيع وقد سقط على أيدي علي بن أبي طالب (ع) الذي أبدى شجاعة فائقة في ذلك اليوم قتل مرحب احد ابطال اليهود فأدخل العرب في قلوبهم فاضطروا لمصالحة النبي (ص) على حقن دمائهم في قبال دفعهم للمسلمين نصف حاصلاتهم فوافق النبي (ص) على ذلك ، واشترط عليهم ان شاء اخراجهم فعليهم الخروج وذلك لكي يأمن شهرهم بهذا الشرط .

وتجلى حكمة النبي (ص) في الابقاء عليهم في أراضيهم انها كانت واسعة ومزروعة بكاملها وان العمل عليها بحاجة الى عدد كبير من المزارعين المهرة ولم يكن لدى المسلمين المقدرة على توفير العدد اللازم والقدرة على استثمار كل تلك الأراضي فقد كان يهود خيبر أكفأ في الزراعة من الأنصار . كما وان النبي (ص) كان يستفيد من القوة البشرية في الأعمال الحربية ولم تكن أمام

المسلمين يومذاك فرصة للقيام بأعمال واسعة وطويلة المدى كزراعة أراضي خبير فلم يكن أمام الرسول (ص) إلا أن يقبل ببقاء اليهود على أراضيهم في مقابل نصف ثمر الأراضي فالرابع في هذه الصفقة بالطبع كان المسلمون .

وبعد خبير لم يعد النبي (ص) يخشى اليهود فقد أخذ يتعامل معهم بصورة أخرى فقد اعتبرهم مواطنين للدولة الإسلامية يدافع عنهم كما يدافع عن المسلم . إذ يفقد اليهود لآخر مركز لهم في خبير لم يعودوا قوة سياسية في جزيرة العرب .

ويستطيع المراقب لتطور العلاقة بين اليهود والمسلمين ان يلاحظ نقطة هامة جدية بالإلتفات وهي ان النبي (ص) قد تعرض لحياة بعض اليهود في صراعه المسلح وتعرض بعض اليهود للأسر وتعرض نسائهم للسبي وممتلكاتهم للمصادرة لكنه لم يتعرض أبداً وطيلة فترة صراعه معهم الى مقدساتهم . كان مما غنمه المسلمون في خبير صحائف متعددة من التوراة فجاء اليهود يطلبونها فأمر الرسول (ص) بتسليمها اليهم كما وأوصى عامله معاذ بن جبل (بالافتن اليهود عن يهوديتهم) واليهود الذين دفعوا الجزية كيهود البحرين لم يجبرهم أحد على ترك دينهم بل ظلوا متمسكين باليهودية ويستنتج من ذلك ان صراع النبي (ص) مع اليهود لم يكن من أجل معتقداتهم أو من أجل تغيير عقيدتهم الى الاسلام بل كان سبب هذا الصراع هو العداوة المستحكمة الذي قابلوا به النبي (ص) والمسلمين دون مبرر وأعمالهم المنافية للقانون وللاتفاقيات المبرمة بين الطرفين . فكان كل الذي عمله الرسول (ص) هو انه ردّ على أعمالهم الشنيعة وهو في نفس الوقت الذي كان يخوض صراعاً مريراً مع الدّ أعدائه كان يضمن لهم حرية المعتقد ويحافظ على كتابهم المقدس بخلاف ما يحدث عادة في الغزوات وحتى بخلاف ما فعله اليهود بالنصارى . وهذا يكشف لنا جانباً من طبيعة الصراع الذي كان يخوضه المسلمون مع اليهود .

the same quality of the thing, and the same
quantity of the thing, and the same
quality of the thing, and the same

quantity of the thing, and the same
quality of the thing, and the same
quantity of the thing, and the same
quality of the thing, and the same

quantity of the thing, and the same
quality of the thing, and the same
quantity of the thing, and the same
quality of the thing, and the same

quantity of the thing, and the same
quality of the thing, and the same
quantity of the thing, and the same
quality of the thing, and the same

quantity of the thing, and the same
quality of the thing, and the same
quantity of the thing, and the same
quality of the thing, and the same

quantity of the thing, and the same
quality of the thing, and the same
quantity of the thing, and the same
quality of the thing, and the same

العلاقة مع النصارى :

كان النصارى أكثر وداً مع النبي (ص) من غيرهم فهم أول من استقبل رسالته بالترحيب البالغ بعد أهل بيته فكان ورقة بن نوفل ابن عم خديجة وهو نصراني قد قرأ الكتب وسمع من أهل التوراة والانجيل وهو أول من شدّ على يد النبي (ص) وقوى من عزيمته في تبليغ الرسالة .

وقد تلقى المسيحيون أنباء الدين الجديد بصدور رحب وشعروا بالقوة لأنهم كانوا أقلية مضطهدة في جزيرة العرب . فأرسل أهل نجران وفداً من عشرين رجلاً من أهل الرأي والعلم فجاءوا الى النبي (ص) وهو في مكة فكان اللقاء في الحرم فسألوه عن الاسلام فحدثهم عنه وتلا عليهم بعض آيات القرآن . ففاضت أعينهم من الدمع خشوعاً فاستجابوا لله وكانت قریش تراقب هذا الاجتماع عن قرب فبعد ان انتهى الاجتماع وقام الوفد من مكانه اعترضهم أبو جهل ومعه بعض قادة قریش فقالوا لهم :

خبيكم الله من ركب ، بعثكم من وراءكم من أهل دينكم تترادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل ، فلم يطمئن مجلسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه بما قال ، ما نعلم ركباً احمق منكم .

فرد أعضاء الوفد مبتدئين بتحية الاسلام :

سلام عليكم .. لا نجاهلكم لنا ما نحن عليه ولكم ما انتم عليه ، لم نأل أنفسنا خيراً^(١) .

وفي عين الحال كانت الآيات تترى وهي تحكي للمسلمين قصة عيسى (ع) مع اليهود وما عاناه المؤمنون من ألوان العذاب وجاء القرآن على ذكر أصحاب الأخدود وهم مسيحيون مؤمنون قتلوا حرقاً فقد مجّد القرآن ذكرهم وثمن صمودهم وعرضهم للمسلمين كأبطال صمدوا أمام العذاب واستقاموا على مبدئهم .

ضحايا الأخدود لم يكونوا سوى نصارى نجران الذين قتلوا على أيدي (ذو نواس) بتحريض من يهوذا اليمى وظل أهل نجران يستعيدون تلك الحادثة الأليمة التي لقي عشرون ألفاً من الرجال والنساء مصرعهم حرقاً حتى زمن البعثة وكان لتكريم القرآن الكريم لهم في سورة البروج أثر كبير على نفوس أولئك المضطهدين من نصارى نجران .

ولا ريب كل هذه الأحداث كانت تؤشر للنبي (ص) بأن النصارى سيقفون الى جانبه في صراعه المرير مع الوثنية فعمل على ايجاد خط ارتباط مع هؤلاء النصارى . ففكر بأن يرسل عدداً من المسلمين الى الحبشة لتبليغ الرسالة وللتخلص من أذى قريش . وبعد ان جمع الوفد المقرر ارساله الى الحبشة وقف فيهم (ص) قائلاً . . . « لو خرجتم الى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد . وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه » . وحدث ان وصلت المسلمين انباء عن انتصار الفرس على الروم فاغتموا كثيراً لكن نزلت آيات من القرآن الكريم تشير الى هزيمة الفرس أمام جيش روما في القريب

(١) سيرة ابن هشام : ج ٢ ص ٣٢ .

العاجل فهّداً من خواطر المسلمين هذا التنبؤ .

وكانت علاقة النبي (ص) بالنصارى على ما يرام في الفترة التي مكث فيها في مكة وعند قدومه الى المدينة أعاد اتصاله بنصارى نجران فأرسل اليهم برسالة يطلب منهم مؤازرته والايمان به وسارع النصارى بارسال ٦٠ عالماً من علمائهم وعندما وصلوا المدينة وجدوا حواراً على أشده قائم بين المسلمين واليهي فأرادوا ان يشتركوا في النقاش أيضاً فأخذوا يسألون النبي (ص) أسئلة تاريخية وعقائدية وغيبية من أجل التأكد من نبوته فأجابهم النبي (ص) عن كل ما سألوه عن عيسى بن مريم فقال لهم ان مثل عيسى عند الله كمثّل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون . ثم ذكر لهم النبي (ص) بعض الوقائع في حياة عيسى (ع) لكن بعض أعضاء الوفد ظل مصراً على النقاش بقصد الفرار من الحقيقة الصارخة فلم يكن بداً من ايقاف النقاش إلا بأسلوب المبالهة الذي أشار اليه القرآن الكريم إلا ان الوفد لم يجد ضرورة للمبالهة فهم واثقون من صحة ما قاله النبي (ص) وخشوا من نتائج المبالهة لأنها ستقلب عليهم فقبل اجراء المبالهة انسحب الوفد من الميدان راضياً بالجزية . ثم كتب كتاباً يرسم العلاقة بين المسلمين ونصارى نجران والكتاب هو . .

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما كتب محمد النبي رسول الله لأهل نجران . ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله على أموالهم . وأنفسهم ، وملتهم ، وغائبهم ، وشاهدهم ، وعشيرتهم ، وبيعهم ، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير لا يغيّر أسقف من أسقفية ، ولا راهب من رهبانية ، ولا كاهن من كهانته ، وليس عليهم دية ولا دم جاهلية ولا يحشرون ولا يعشرون ولا يطأ أرضهم جيش ومن سأل منهم حقاً فينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين ، ومن أكل ربا من ذي قبل فذمتي منه بريئة ولا يأخذ رجل منهم بظلم آخر . وعلى ما في هذا

الكتاب جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله حتى يأتي الله بأمره ما نصحوا وأصلحوا ما عليهم ، غير مثقلين بظلم .

كما وكتب أيضاً الى ابي الحارث بين علقمة أسقف نجران كتاباً يتضمن هذا المعنى .

وفي هذه الوثيقة يتعهد رسول الله (ص) لنصارى نجران توفير الحماية الكافية وضمان حرية العبادة والتأكيد على استقلالية المنطقة وانها ستكون منزوعة السلاح من أية قوة اسلامية ، ولا يحق للدولة الاسلامية ان تطلب منهم متطوعين في الحروب كما لا يحق لهم أخذ العُشر .

ويظهر من هذه اللهجة ان المسلمين كانوا ينظرون الى النصارى بنظرة تختلف عن نظرهم الى اليهود فكانوا يتعاملون معهم دون وجل أو حذر ، وقد نزل القرآن الكريم ليضع أمام المسلمين حقيقة هامة هي :

﴿ ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى ﴾^(١) فرسمت هذه الآية آفاقاً واسعة في العلاقة مع النصارى وفضلهم على غيرهم . فقامت سياسة النبي (ص) على أساس التحرك نحو القبائل المسيحية بهدف تصحيح مفاهيمها وعقائدها التي سادتها التحريف ثم تحريرها من السيطرة الأجنبية .

فقد كانت أجزاء من جزيرة العرب خاضعة للاحتلال الاجنبي . ومن هذه الأجزاء المناطق التي كان يعيشها المسيحيون في شمال جزيرة العرب وفي الجنوب . فقد كانت مناطق الشمال محتلة من قبل الروم ومناطق الجنوب محتلة من قبل الفرس بعد ان كانت خاضعة للحبشة فترة من الزمن .

وقامت سياسة النبي (ص) بعد فتح مكة على فصل القبائل المسيحية عن الدولة

(١) سورة المائدة ، الآية : ٨٢ .

البيزنطية والدولة الفارسية وذلك لتحقيق الاستقلال الكامل لجزيرة العرب حتى تصبح جزيرة اسلامية صرفة لا وجود فيها لأية قوة سياسية بعد ان اندحرت القوة الرئيسية والمتمثلة بزعامة قريش .

وكانت أجواء التحاق مسيحيّ الجنوب بدولة الاسلام مشجعة ، فقد كانت أراضيهم محتلة للدولة الفارسية التي تدين بالزرادشتية وكان لها علاقات جيدة مع يهود اليمن ، وهي ترّوج للعقيدة النسطورية التي ترفض المعتقد الذي يؤمن بطبيعة واحدة للسيد المسيح . وفي عام ٦٢٨ للميلاد قتل امبراطور دولة فارس مما تسبب ضعفا في الدولة الفارسية . فاستثمر رسول الله (ص) كل هذه العوامل وأخذ يتحرك ابتداءً من عام ٦٣٠م نحو هذه القبائل بقصد عزلها عن الدولة الفارسية أولاً ثم فتح الطريق أمامها لاعتناق الإسلام فدخلوه أعداد غفيرة منها .

أما في الشمال فقد كان الأمر أشد أهمية فقد كانت الدولة البيزنطية تراقب عن كثب تقدّم القوات الاسلامية في جزيرة العرب والتوسع الذي شهدته الدولة الاسلامية . فكان يحدو القيصر رغبة في إيقاف هذا الزحف متخذاً من القبائل العربية المسيحية التابعة للامبراطورية درعاً لكبح جماح التقدم الاسلامي باتجاه الشمال . من هنا فقد كان على الرسول (ص) ان يستبق الأحداث ويشل خطة القياصرة قبل ان يتمكنوا من تحقيق شيء يذكر .

فمن القبائل الشمالية التي آمنت بالاسلام :

١ - قبيلة تميم ، كانت تنتشر في المنطقة الواقعة بين اليمامة والحيرة وتنتمي الى الكنيسة السورية الشرقية (النسطورية) . وأول من اعتنق الاسلام الأقرع بن حابس ومعه عشرة من قبيلته التقوا بالنبي (ص) أثناء فتحه لمكة فأغدق عليه النبي (ص) ومنحه سهم المؤلفه قلوبهم من غنائم معركة حنين

وجعله موضع احترام وتقدير ، وانتشر الاسلام في تميم وعين النبي (ص) مالك ابن نويرة أحد زعماء القبيلة جامعاً للصدقات .

٢ - قبيلتي بكر بن وائل وتغلب وهما قبيلتان مسيحيتان تؤمنان بطبيعة واحدة للمسيح وكان بينهما حروب طاحنة وكانتا من بين القبائل التي أرسلت وفوداً الى النبي (ص) فاستقبلها استقبلاً حاراً وعقد معها حلفاً وكان رسول الله (ص) ينظر الى هاتين القبيلتين بنظرة استراتيجية دقيقة فمناطق بكر وتغلب تعتبر مداخل الى العراق ، كما وان تمرس القبيلتان في القتال جعل منهما قوة عسكرية ذات ثقل في المناطق المتاخمة للحدود الجنوبية لدولة فارس . أضف الى ذلك ان بكر شاركت ملوك الحيرة في المعركة الفاصلة التي اندحرت فيها دولة فارس عام ٦١١م في معركة ذي قار فقد كسبت من خلال تلك المعركة مكانة سياسية هامة . وبرز من بكر قادة عسكريين من أمثال المثني بن حارثة الشيباني وهو من شيان أحد بطون بكر .

٣ - حنيفة ، وهي من القبائل المسيحية التي كانت تقطن وسط جزيرة العرب وترتبط بروابط حسنة مع الدولة الفارسية ، يشغل معظم أفرادها بالزراعة ، يتزعم القبيلة ملك قوي هو هوذة بن علي الذي كان مسؤولاً عن قبيل الدولة الفارسية عن سلامة القوافل العاملة على طريق اليمن - فارس . وكانت طموحه بلا حدود فعندما كتب له النبي (ص) طارحاً عليه اعتناق الاسلام كان رده انه يقبل هذا العرض في حالة تنصيبه ملكاً فيما بعد .

٤ - لخم ، وهي قبيلة مسيحية تعيش في تخوم سورية وكانت تتعاون مع البيزنطيين ، آمن قسم من أبنائها من حدس وكان النبي (ص) يرأسلهم باستمرار ويعدهم بالحماية .

٥ - كلب ، وهي قبائل تقيم على طريق العراق وعلى طريق سورية

وتحتفظ لنفسها بموقع استراتيجي هام وطالما استخدمت هذا الموقع لضرب القوافل القادمة من المدينة مما أجبر النبي (ص) على ارسال جيش بقيادة عبد الرحمن وطلب منه ان يتزوج ابنة قائد كلب واستطاع عبد الرحمن ان يعقد اتفاقاً مع الأصبع بن عمرو وان يتزوج ابنته تماضر حسب ما أمره النبي (ص) لتعميق الصلة ، ومن أبرز شخصيات هذه القبيلة دحية الكلبي الذي استخدمه النبي كسفير له في المناطق المسيحية .

٦ - كندة ، وكان قسماً منها يعيش في دوحة الجندل بالقرب من منطقة كلب ، وهي قبيلة سكون أما القسم الاكبر فكان يعيش في جنوب جزيرة العرب ، وكان زعيم هذه القبيلة هو أكيدر بن عبد الملك وكان وجود هذه القبيلة يسبب عدم الاستقرار في خطوط التجارة المتجهة نحو المدينة ، فأرسل النبي (ص) قوة من اربعين شخصاً مع خالد بن الوليد تمكنت من أسر الملك أكيدر وفرضت عليهم الجزية .

وبالقضاء على هذا الجيب تمكن النبي (ص) ان يفرض سيادته على القبائل المسيحية الشمالية ، أما باعترافهم الاسلام او بدفع الجزية مقابل توفير الحماية وحرية المعتقد او بالمواجهة وهي حالة نادرة استخدمها الرسول مع أصحاب الجرائم كجرائم السطو على القوافل .

وعلى العموم النتيجة التي نستخلصها ان النبي (ص) كان يحسب حساباً كبيراً لتلاحم النصارى مع الدين الجديد والى حد ما استطاع بأخلاقه وتعامله الانساني وبالتوعية وكشف جوانب الانحراف في العقيدة المسيحية ان يكسب الى جانبه عدداً كبيراً من المسيحيين في الشمال والجنوب وان يعبد الطريق أمام انتشار الاسلام خارج حدود جزيرة العرب .

السياسة جبال المشركين

تصدّر أهداف الحركة الرسالية ابتداءً من مكة وحتى فتحها وما بعده مواجهة الوثنية التي كانت مستشرية طاغية فارضة سيادتها على عقائد الناس وعلى علاقات القبائل فيما بينها . فكانت هذه الحركة قد خاضت حرباً حضارية مع الوثنية استغرقت ثلاث وعشرون عاماً ، واستعملت فيها كل السبل المنطقية في صراعها المرير في مقابل استخدام الوثنيين لكل ما لديهم من وسائل بطش .

فالاسلام كان قد خاض مع الشرك معركة وجود وانتهت المعركة لصالح المسلمين حيث تغلبت كلمة الحق على الباطل واندحرت الوثنية من جزيرة العرب بعد سلسلة من المواجهات السياسية والعسكرية والاعلامية أحرز فيها المسلمون انتصاراً بعد انتصار حتى توجت هذه الانتصارات بفتح مكة والذي تم فيه تصفية الوجود السياسي للوثنية الجاهلية .

وقد مرّت المعركة مع الشرك بثلاث مراحل هي :

- ١ - مرحلة انهالك القدرة العسكرية والسياسية والاقتصادية لقريش .
- ٢ - مرحلة السلام المشروط .
- ٣ - مرحلة التحرير .

مرحلة الاستنزاف

وهي تبدأ من منتصف السنة الاولى للهجرة وحتى فتح مكة في السنة الثامنة للهجرة وهي أهم فترة من فترات التاريخ الاسلامي حيث حفلت بأحداث هامة وخطيرة وحيث شهدت تحولات كبيرة في الخارطة السياسية لجزيرة العرب بعد ان برزت القوة الاسلامية كمعادلة أساسية في هذه المنطقة .

وكانت استراتيجية الرسول في هذه المرحلة تعتمد النقاط التالية :

١ - كسب الاصدقاء من القبائل المجاورة فمِنذ اقامة الدولة الاسلامية في المدينة والنبي (ص) يسعى لمد جسوره الى القبائل المجاورة وبالأخص التي تقع على الحدود بين مكة والمدينة ، ومن بين القبائل التي دخلت في تحالف مع النبي (ص) قبل قيام المواجهة مع قريش مدلج وضمرة . . كما وأبقى النبي (ص) على التحالفات السابقة التي كانت بين القبائل العربية والقبائل التي دخلت الاسلام فكان بين خزرج وجهينة حلفاً قبل الاسلام أبقى عليه النبي (ص) وكان لهذه القبيلة دوراً هاماً قبل وقوع معركة بدر ، فهي تتمتع بعلاقات حسنة مع قريش وقد مكنها موقعها الاستراتيجي ان تشكل عازلاً بين المسلمين وقريش عندما اقتربت القوتان وكادت المعركة تقع لولا هذه القبيلة .

وكان لمزينة حلفاً مع الأوس وكان الرسول (ص) قد أبقى أيضاً على هذا الحلف واستفاد من أبناء هذه القبيلة في بعض الشؤون الاقتصادية كالرعي وما الى ذلك .

وأيضاً أبقى الرسول (ص) على تحالفات بعض الشخصيات الاسلامية مع القبائل بل كان قد عمل على تعميق هذه التحالفات كما كان بين سعد بن معاذ وبني قريظة من تحالف في الجاهلية أبقى عليه النبي (ص) . ومن كان له جوار مع احد القبائل المشتركة أو مع فرد من افراد تلك القبيلة كان أيضاً يستثمر هذا

الجوار لقضاء بعض النشاطات السياسية فكان لعثمان جار في مكة هو ابان بن سعيد بن العاص وكان قد ارسله النبي (ص) في مهمة الى المسلمين في مكة قبل صلح الحديبية ليطمئنهم ان الصلح لن يكون على حسابهم وان الفتح قريب فذهب الى مكة تحت غطاء هذا الجوار .

وهكذا لم يترك النبي (ص) وسيلة يستطيع فيها أن يمد جسور التفاهم والتعاون مع القبائل العربية إلا واستخدمها وكان وراء هذه التحالفات اهداف سياسية واضحة فقد استثمر النبي (ص) علاقاته مع القبائل العربية في مواقع سياسية وعسكرية حاسمة كان لها الأثر الكبير في استراتيجيته العامة .

فقد استفاد من علاقاته مع مدلج وضمرة في تأمين الجهة الجنوبية للمدينة فقد كانت هاتان القبيلتان بمثابة عازل طبيعي أمام أية محاولة للغزو تقوم بها قريش مستفيداً مما كان بين بني ضمرة وقريش من عدااء قديم .

كما واستفاد النبي (ص) أيضاً من تحالفه مع خزاعة عندما انتدب احد حلفائه من هذه القبيلة بعد معركة أحد وأرسله الى قريش ليقذف فيهم الرعب وليقول لهم ان المسلمين يتجمعون من جديد ليوجهوا الضربة الانتقامية ضدكم مما جعل زعماء قريش يفكرون بالعودة الى مكة مكتفين بما احرزوه من نصر عسكري وكان رأيهم قبل ذلك هو مواصلة الهجوم حتى القضاء على الدولة الاسلامية وكان النبي (ص) يستفاد من مراكز هذه القبائل في مراقبة قريش او التصدي لها فكان المسلمون الذين يتولون مهمة الاستطلاع يراقبون خطوط القوافل القريشية من اخبية الجهيني في منطقة الحوراء ولم يكن النبي (ص) ليكتفي بالفوائد السياسية التي يجنيها من تحالفاته مع القبائل بل كان يعمل في بعض الاحيان على تسديد النصح والموعظة الى هذه القبائل مستفيداً من علاقاته الطيبة معها فكان يرسل المبلغين ، مثال على ذلك :

قَدِمَ الى النبي (ص) أبو براء عامر بن مالك الملقب بملاعب الأسنة فعرض عليه الرسول الاسلام فأَجَلَ ذلك لكنه لم يرفض الاسلام وطلب من النبي (ص) أن يبعث رجلاً من اصحابه الى اهل عشيرته وهي عامر بن صعصعة ليدعوهم الى الاسلام عليهم يستجيبوا له وعندما أبدى النبي (ص) تخوفه على مصير المبلغين بعد الذي حدث لهم من غدرٍ في ماء الرجيع قال أبو براء أنا جار لهم فابعثهم فليدعوا الناس الى امري فأرسل معه أربعين من الدعاة وعين مسؤولاً عليهم هو المنذر بن عمرو وعندما وصلوا بئر معونة جاءوا الى احد رؤساء العشيرة وهو عامر بن الطفيل حيث كان هو وعامر بن مالك يتقاسمان الزعامة وعندما نظر عامر بن طفيل الى احد المسلمين وهو يقدم له كتاب رسول الله اغتاط فضربه برمح بجنبه خرج من الشق الآخر ثم استصرخ بني عامر ان يقضوا على الدعاة فلم يجيبوه التزاماً بجوار زعيمهم الآخر أبي براء فاضطر لأن يستصرخ بقبائل سليم المجاورة فاستجابوا له وأحاطوا بالمبلغين وحدث قتال شديد لم ينج من المسلمين إلا القليل منهم وعند عودة أحدهم الى المدينة صادف في الطريق اثنين من بني عامر فقتلتهما انتقاماً ممن قتل الدعاة فطلب عامر بن مالك ديتهما فاستجاب له الرسول (ص) فأعطى ديتهما بالنيابة عن القاتل ويلاحظ في هذه الحادثة الأساسية عدة نقاط هامة الأولى اصرار النبي (ص) على مواصلة العمل والنشاط التبليغي على رغم حادثة شبيهة قد وقعت قبل أيام استشهد فيها أو أسر عدد من الدعاة بنفس هذه الطريقة ، لكن من يريد العمل لا بد أن يُفَكِّر بالتضحيات ويحسب حساب الخسارة فبدونها لا يتحقق شيء والنقطة الثانية استثمار النبي (ص) جوار أبي البراء في مد جسوره الى بني عامر فقد كان هذا الجوار غطاءً آمناً وفعلاً نلاحظ ان بني عامر لم يستجيبوا لطلب زعيمهم الثاني عامر بن مالك في تصفية المسلمين والنقطة الثالثة هي استجابة النبي (ص) لطلب عامر بن مالك باعطاء دية القتيلين على رغم ما فعله عامر الذي تحمل دماء ما يقارب أربعين شهيداً من المسلمين فقد

كان النبي (ص) عند التزاماته وحتى بعد خرق الطرف الآخر لهذه الالتزامات وذلك لكي يحافظ على علاقاته الودية مع القبيلة التي وقفت ذلك الموقف الشجاع ورفضت الانصياع لأوامر احد ساداتها .

٢ - تعميق الخلافات بين قريش والقبائل الاخرى فقد كان بين قريش وكنانة خلافات شديدة وكادت هذه الخلافات أن تلغي قرار الحرب في معركة بدر وقد وادع النبي (ص) بني ضمرة ومدلج التي كانت تكن لقريش العداء وهي تقطن المناطق القريبة من مكة .

أما جهينة التي كانت حليفة الخزرج قبل الاسلام فقد حاول النبي (ص) بإبقائه على هذا الحلف أن يُحيّد هذه العشيرة التي كان لها علاقات طيبة مع قريش ولولا علاقته الجيدة لكانت هذه العشيرة قد دخلت الحرب ضده في غزوة بدر ويذكر لنا التاريخ ان مجدي بن عمرو الجهني حال دون قيام المواجهة بين أبي جهل (ومعه مائة راكب من أهل مكة) وبين حمزة بن عبد المطلب (ومعه ثلاثين راكباً) وذلك أثناء مهمة تفقدية كان يقوم بها على شاطئ بحر الأحمر ولولا حياد جهينة لوقع القتال ولُقتل عدد كبير من الثلاثين مقاتل على أيدي الكثرة من المشركين .

وكانت خطة النبي (ص) في استثمار خلافات قريش مع القبائل هي تطوير قريش بحلقة عازلة تستطيع ان تحد من حركتها سواء العسكرية منها أو الاقتصادية ، واغلب الذين وادعهم النبي (ص) كانوا يقطنون على حافات الطريق التجارية الذاهبة الى مكة .

٣ - فرض الحصار الاقتصادي فكان عماد الحياة في مكة قائم على الحبوب والمنتجات المستوردة من الشام ومن المدينة وفي حالة اغلاق الطرق كان من غير الممكن وصول هذه المواد الغذائية وليس هناك مكان آخر لاستيراد هذه المواد فالطريق من مصر عبر البحر لا بد وان يمر بطريق الجار وهو مرفأ تابع

للمدينة^(١) وهو خاضع للسيطرة الاسلامية اما اليمن فقد أدت الاضطرابات السياسية والمشاكل المناخية الى فقدان اهميتها كمصدر للمحاصيل الزراعية فكان ضرب الحصار على هذه الطرق سيؤدي حتماً الى أزمة غذائية في مكة وسيؤدي أيضاً الى التأثير في مكانة قريش بين القبائل مما سيخفف من هيمنتها على هذه القبائل وبالتالي سيتمنع النبي (ص) فرصة لفتح جسور العلاقات مع هذه القبائل .

وكان أول ما قام به النبي (ص) بعد ارساء دعائم الدولة الاسلامية هو ارسال فرق عسكرية باتجاهات مختلفة غايتها سلب الحالة الامنية للطرق التجارية والذي كان سيؤدي حتماً الى أزمة اقتصادية حقيقية في مكة .

٤ - استنزاف القدرة العسكرية لقريش . .

لم يكن خروج النبي (ص) من مكة نهائياً فمكة هي مهبط الوحي وهي المكان الذي عاش فيه ابراهيم وبنى فيه بيته الحرام ومكة هي مركز جزيرة العرب بدونها لا يمكن الانتشار الى المناطق الاخرى .

ومن ناحية أخرى فإن وجود قريش كقوة سياسية وعسكرية يحبط أية خطة للتوسع وكان لا بد للاسلام من التوسع والانتشار وكان على رسول الله (ص) ان يقيم دولته الكبرى في جزيرة العرب وان يوصل رسالته الى الدول الاخرى المجاورة وهو غير ممكن مع وجود قريش كقوة منافسة ولها شرعية دولية لدى السلطات الفارسية والبيزنطية فبدون سقوط قريش لم يك من الممكن كسب الشرعية الدولية .

ومن جانب آخر ان الغاية الأولى للاسلام هي بناء الحضارة ونشر القيم

(١) بيضون الحجاز والدولة الاسلامية : ص ١١٢ .

والمثل وتركيز معايير الحق والتعاون والعدالة وهذا كله لم يكن ليتحقق دون الامساك بالمجتمع واخضاعه لتوجيه عام وايجاد الظروف السياسية والاجتماعية المناسبة فكان من أولى مستلزمات بناء الحضارة الاسلامية هو توحيد جزيرة العرب تحت لواء واحد وهو غير ممكن مع وجود قريش العدو اللدود .

فكان لا بد من ازالة هذا الكيان ، لكن كيف ؟ وهنا تكمن المشكلة الحقيقية التي واجهت النبي (ص) فهو لم يكن يريد سفك الدماء في مكة وان يتحول بيت الله الحرام الى ساحة للمعارك إذ ان اي قتال في مكة سيخدش حرمة هذا المكان المقدس وان كل من يقاتل فيه سيكتب في التاريخ انه تجرأ على قدسية بيت الله الحرام ذلك المكان الذي جعله الله مكان أمن وسلام وهو في غير صالح المسلمين .

ولذلك نلاحظ ان النبي (ص) اعتمد خطة منذ مجيئه الى المدينة تقوم على انهك القدرات الاقتصادية والعسكرية للكيان القرشي لدفع هذا الكيان تدريجياً الى التلاشي حتى يمكن اخضاعه دون قتال . . ولقد كلفت هذه الخطة زمناً طويلاً دام ثمانية أعوام قضاها رسول الله (ص) في جهاد مرير لقمض قوائم الكيان القرشي حتى ينهار هذا الكيان بذاته دون استخدام قوة خارجية ومنذ مجيئه الى المدينة بدأ رسول الله (ص) يهيء نفسه للمواجهة مع قريش لكنها كانت حتمية فأخذ يرسل السرايا نحو طرق المواصلات التجارية لعرقلة سير التجارة من وإلى مكة وقد تطورت الأحداث على اثر فعالية هذه السرايا لتصل الى مستوى المواجهة المسلحة والتي بدأت بمعركة بدر .

بحر: معركة الوجود

وكانت أول معركة في الاسلام وأول اختبار حقيقي للقوة التي بدأت تأخذ طريقها لأول مرة قبل خمسة عشر عاماً والتي حظيت برعاية واهتمام الرسول (ص) فقد بدأ الاسلام بواحد واثنين واليوم أصبحت له دولة وتحول الى مجتمع اسلامي مصغر فكان لا بد من اختبار قوة هذا المجتمع ومدى تماسكه مع القيادة . كان على الرسول (ص) ان يُجني ثمار خمسة عشر عاماً من الجهد المرير والتربية المركزة لبناء الانسان المؤمن الصابر . . كان عليه أن يبدأ الفصل الجديد من التاريخ الاسلامي بهذه المعركة الفاصلة التي هيأ نفسه لها من فترة وهيأ المسلمين لها بعد أن أعدّهم اعداداً عسكرياً ممتازاً لخوض غمار المواجهة .

وعلى رغم قلة اعداد المقاتلين وضعف العدة إلا ان ثقة النبي (ص) بالنصر كانت كبيرة للغاية لأنه كان موعوداً بالنصر إذ لم يكن الله ليترك عباده المؤمنين وحدهم في أول معركة فاصلة يتوقف عليها وجود الاسلام .

فقد كانت معركة بدر معركة وجود ، نستنتج ذلك من دعاء النبي قبل قيام

الحرب (اللهم ان تهلك هذه العصابة اليوم لا تبعد) فإن الاسلام كله كان يتوقف بقائه على هذه القلة من المسلمين وان التاريخ كله كان يتوقف على تلك اللحظات التي سيكتب فيها لهذه القلة النصر او الهزيمة .

وعلى هذا الاساس فقد أعدّ النبي (ص) للمعركة إعداداً حكيماً فأول ما قام به هو طلب المشورة من اصحابه قائلاً لهم أشيروا علي أيها الناس : وكان يريد بهذه العبارة ان يعرف مدى استقامة اصحابه من ألسنتهم . . وقام عدد من الصحابة وتكلموا بكلام ينم عن شجاعة واستقامة وتحول المكان الى بركان من الحماس والعواطف الجياشة وأصبح نقطة البداية في التعبئة الروحية والمعنوية العالية وتقدم الى بئر بدر بعد ان أخلف أبا لبابة وكيلاً عنه في ادارة شؤون المدينة وأخذوا ينتظرون العدو القادم اليهم بروح عالية مع علمهم الكامل بأن عدوهم ثلاثة إضعاف عددهم وعدتهم لكن ثقتهم بالنصر لم يدعهم يفكروا بالقوة المادية التي يمتلكها العدو طالما امتلكوا القوة الروحية .

ونزل القرآن الكريم ليشارك في عملية التعبئة ورفع المعنويات ﴿ يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبون مائتين وان يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون ﴾ .

وتقدم المسلمون للمعركة الفاصلة وهم على يقين بأن كل خطوة من خطواتهم ستكتب في التاريخ وان مصير هذا الدين سيتوقف على هذه الخطوات وبدأت المعركة بفاصلة قتالية قدّم فيها النبي (ص) أقربائه الثلاث علي وحمزة والحارث بن عبيدة بينما راحت قريش تختار أفضل مقاتليها لهذه الجولة وهم عتبة وأخيه شيبه وابنه الوليد ولم تمض لحظات حتى كان الثلاثة يتضرجون في دمائهم فانخسفت وجوه المشركين وانهارت معنوياتهم وهم يشاهدون تفاصيل تلك المعركة التي أبدى فيها علي بن أبي طالب وحمزة والحارث شجاعة قل

نظيرها استطاعت ان تغير الصورة التي كانت تحملها قريش عن المسلمين بأنهم ضعاف ولا معرفة لهم بالقتال وكانت نهاية هذه الفاصلة القتالية قد حسمت نتيجة المعركة ايضاً لصالح المسلمين فالتحم الجيشان في أروع معركة في التاريخ تجسدت فيها المثل والقيم والتضحية والايثار والشجاعة والجرأة ، كان المسلم يقاتل أبيه وأخيه وابن العشيرة يقاتل ابن عشيرته فقد تساقطت في هذه المعركة قيم الجاهلية فسحقت تحت اقدام المقاتلين العصبية القبلية لتعطي مكانها للقيم والعقيدة وتجلت في المعركة ايضاً روعة العناية الالهية التي أخذت بأيدي المسلمين نحو النصر ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ وانتهت المعركة بنصر حاسم فولت قريش بمن بقي من مقاتليها وارسل النبي (ص) اثنين من صحابته هما عبد الله بن رواحة وزيد بن حارثة لكي يوصل أبناء الانتصار الى أهل المدينة الذين كانوا يعيشون حالة القلق طيلة الفترة ولم يك ليحلموا بالنصر وصدد المنافقون من نصر الله للمؤمنين وحاولوا ان يستبعدوا الحقيقة متشبثين بكل حشيشة فأصبحوا يذيعون بين أهل المدينة ان محمداً قتل واصحابه هزموا وهذه ناقته نعرفها جميعاً لو انه انتصر لبقيت عنده وانما يقول زيد ما يقول إلا هذياناً من الفرع والرعب لكن خابت مساعي المنافقين وعادوا ادراجهم يجرون أذيال الخيبة بعد ان عرفوا بنصر الله للمؤمنين وعم الحزن مكة كلها على فقدان أشجع شجعانها وأعز أبنائها وشاركهم في الحزن كل من خشي انتصار المسلمين في المعركة من اليهود والمنافقين ، عاد المسلمون الى المدينة ومعهم الأسرى كأي واحد منهم على خلاف عادة العرب في التعامل مع أسرى الحروب .

فقد تعاملوا معهم بطريقة انسانية ثم قبلوا منهم الفداء ومن لم يكن لديه ما يفدي به نفسه طلب منه أن يُعَلِّم عشرة من أولاد المسلمين في مقابل اطلاق سراحه .

فلم يكن النبي (ص) ليحقد على أولئك الذين صنعوا به ما صنعوا ولم يك في قلبه شيئاً على الذين آذوه وعذبوا أحبائه لأن ما تلقاه كان أمراً طبيعياً وكان من الطبيعي أيضاً أن يتعامل مع اعدائه بهذه الصورة الانسانية لأنه لم يك يوماً يريد الاستقواء والظهور بمظهر القوي بل كان يريد بناء حضارة انسانية وكان أيضاً يريد أن يُعلّم قريش معنى الالتزام بالقيم لعلها تنصاع لنداء الضمير وتتوقف عن عدائها المستحكم لكن مع كل تلك المواقف الانسانية فقد ظلت قريش تتمادى في غيها وجاءت من جديد الى المدينة تريد الانتقام فكانت معركة أحد .

احد: معركة التصحيح

ما كان الله ليترك عباده المؤمنين لوحدهم وما كان ليرضى لهم الهزيمة لكن ما كان ليرضى لهم التواكل فكان يريد للأمة التي ستتحمل مسؤولية عظمى في التاريخ أن تقف على أقدامها وأن تنال النصر بكفاءة وقدرة ذاتية .

لقد تدخلت القدرة الالهية في معركة بدر . . لكن كان للمسلمين ايضاً دور حاسم في نتائج المعركة فالله لم ينصر الفئة المؤمنة إلا بعد أن نصرتة بتصحيح عقيدتها وبتعلق نفوسها بالمبادئ وتقدير العلاقة بالله على العلاقة العائلية والعشائرية وهنا يكمن سر الانتصار الذي أحرزته الفئة المؤمنة في بدر .

لكن كان على هذه الفئة ان تفهم سنن الله وان تعرف ان من يخالف هذه السنن سيلقي جزاءه ، كان عليها ان تفهم ان النصر بحاجة الى عزيمة من الانسان وعناية من الله فبدون العزيمة لن يكون انتصار .

كان عليها ان تفهم فنون الحرب وان تطور أسلحتها لمواجهة العدو المدجج بالسلاح وكان عليها ان لا تغتر بالنصر فالغرور هو بداية الهزيمة .

حقائق كان لا بد من ادراكها ولو كان ثمن هذا الادراك باهظاً .

فالمعركة بين الاسلام والكفر معركة لا نهاية لها فكان على المسلمين ان

يرتبوا أوضاعهم وأن يعدوا أنفسهم لفترة طويلة من الصراع فكانت معركة أحد خيراً درس وقف فيه المسلمون موقف تأمل آخذين العبر مما حدث لهم في هذه المعركة .

فقد جمعت قريش كل ما لديها من قوة وتوجهت نحو المدينة للانتقام مما حدث لها في بدر ولفك الحصار الاقتصادي الذي ما زال مضروباً عليها والتحق معها جمع من الاحابيش وأهل تهامة وثقيف حتى بلغ تعداد القوة المهيأة للقتال ثلاثة آلاف رجل فيهم سبعمائة دارع ومائتا فرس وثلاثة آلاف بعير وأخذوا معهم النساء لاثارة حمية المقاتلين ولتعبير من يحاول الفرار .

وبلغ خبر الحملة المدينة المنورة فجمع رسول الله (ص) أصحابه وشاورهم حول الموقف المطلوب فاختلفت الآراء حول البقاء في المدينة أو الخروج منها وقد حسم النبي (ص) الموقف قبل ان يتسرب التردد الى نفوس المقاتلين فخرج مرتدياً لامة حربه واضعاً كافة المسلمين أمام الأمر الواقع وكان الوضع المتردد للمسلمين بحاجة الى مثل تلك المبادرة والتي على أثرها انطلق المسلمون لمواجهة أعدائهم الذين كانوا يفوقونهم بأكثر من ثلاثة أضعاف .

واختار النبي (ص) ميدان الحرب كما فعل في بدر وهذه إحدى الخصائص الهامة للقيادة الناجحة واستلم المسلمون جبل أحد واصطفوا للقتال . . والتقى الطرفان في منتصف شوال ووفق أبطال الاسلام وفرسانهم يقطعون الرؤوس ويوقعون الموت والهزيمة في العدو فلم تجد قريش إلا الفرار فلم يسعها عددها الكبير ولم تنقذها عدتها الكبيرة فعم الرعب أرجاء المعركة وأصبح الشجاع من يتمكن الفرار ولم تستطع ان تردعهم عن ذلك صرخات النساء وأهازيجهن وباتت المعركة تجري لصالح المسلمين . . لكن للحظات انقلب كل شيء وتحولت المعادلة رأساً على عقب ، فقد أخذ بعض المسلمين الغرور والطمع فتسابقوا لجمع الغنائم وخشيت القوة المسيطرة على الجبل أن

تفوتها الغنيمة فأسرعت هي أيضاً نحو الغنائم التي تركتها قريش فانتهاز خالد بن الوليد الذي كان على رأس قوة من الفرسان خلف الجبل انتهاز الفرصة وأحدث التفاف سريع خلف المقاتلين المسلمين الذين كانوا مشغولين بجمع الغنائم بعد ان تمكن ان يسيطر على الجبل ، وهنا بدأت المعركة تأخذ شكلاً آخر فاخترق فرسان قريش صفوف المسلمين موغلين في قتل من تصل اليه رماحهم وسيوفهم وبات مصير الحرب بأيدي قريش لولا المبادرة السريعة التي قام بها رسول الله (ص) في جمع بعض صحابته والوقوف بحزم وشجاعة بوجه زحف المشركين للحيلولة دون تحقيق المزيد من الانتصار العسكري .

وقالت الكتيبة التي كان فيها الرسول قتال المستميت وفيها قاتل رسول الله بشجاعة لا نظير لها فكان يتصدى لمن يتقدم لقتله ولم يستطع المشركون الاقتراب منه فأخذوا يرشقونه بالحجارة والصخور حتى كُسرت ربايعته وسال الدم على وجهه الشريف .

وعلى رغم الاعياء والتعب فقد واصل النبي (ص) القتال هو ومن كان معه وعلى رأسهم علي بن أبي طالب (ع) حتى لا يدعوا للعدو فرصة الشعور بالقوة . . فقد حافظ النبي (ص) بهذا التكتيك حالة التوازن في المعركة وتمكن أيضاً أن ينقذ تسعين بالمائة من جنوده كانوا مهددين بالقتل لولم تجد قريش تلك المقاومة والتي بسببها عجزت عن تحقيق ما تريد وهو كسر شوكة المسلمين والقضاء على النبي (ص) وانتهت المعركة دون أن يكسب أي طرف نتائج حاسمة .

فقريش كانت تتأني كثيراً عندما تصطدم بمقاومة عنيدة فهي لا زالت تعيش الهزيمة النفسية التي تلقته في بدر وهي تخشى ان تلقى نفس المصير فكانت تتحرك في المعركة بحذر .

أما المسلمون فقد عادوا يجمعون قواهم مجدداً بعد أن أدركوا فاعلية المقاومة وعرفوا ان النبي (ص) لم يُقتل وكان لبعض الصحابة من امثال خارجة وأبو ذر وسهل بن حنيف الفضل الأكبر في دحر العدو فباستقامتهم ودفاعهم المستميت عن الاسلام ألغوا ما كانت تطمح اليه قريش ، وكان لبعض النسوة دور شامخ في هذه المعركة من امثال نسيبة . فقد تركن وظيفتهم الأصلية وهي تضييد الجرحى واضطرون مع هزيمة الرجال ان يحملن السلاح دفاعاً عن النبي (ص) .

لقد تجنب المسلمون الخسائر الفادحة في هذه المعركة ويعود ذلك الى الموقف الصامد الذي وقفه النبي (ص) فقد ظل محتفظاً بهدوئه واتزانته لم تزعزعه الهزيمة العسكرية المنكرة ويعود الفضل في الدرجة الثانية الى علي بن أبي طالب (ع) الذي قاتل في ذلك اليوم قتالاً لم يقاتل مثله قط ودافع عن النبي دفاع المستميت فكان يصد الكتاب المهاجمة التي كانت تطمع برأس النبي (ص) كما ذكر ابن أبي الحديد في شرح النهج .

لقد انتهت المعركة ليخلص منها المسلمون بنتيجة واحدة هي ضرورة الطاعة والالتزام والانضباط وكان الدرس قاسياً الى حد لم ينساه مسلم آخر عمره .

وهكذا قُدر للمسلمين أن يصابوا بذلك البلاء الشاق حتى يسدوا الثغرات التي في نفوسهم وحتى يتمكنوا من مواجهة العدو في معارك أخرى .

ولا عجب أن تكون الهزيمة في أحد هي الأولى وهي الأخيرة بفضل النتائج التي أسفرت عنها وبفضل الدرس الذي أخذه المسلمون والذي ظل ماثلاً أمامهم خلال المعارك التي خاضوها .

التحق:المواجهة الشاملة

وقعت في السنة الخامسة للهجرة ، وخلال هذه السنوات الخمس حقق المسلمون انتصارات باهرة على بعض القبائل كبنى المصطلق وبنى النضير وبنى قريظة وطهروا منطقة دومة الجندل من المتعرضين للقوافل التجارية وذاع صيت المسلمين في جزيرة العرب بالصورة التي أثارت القلق لدى قريش . . لكن ما المخرج من هذه المشكلة ؟

فقریش وحدها غير قادرة على مقاتلة النبي (ص) لما استنزف منها من شجعان وفرسان كان هناك حل واحد هو أن يجتمع أعداؤه في جيش واحد ويضربوه ضربة رجل واحد . . فبدأ تحرك واسع بين يهود بني النضير الذين أجلاهم النبي من أراضيهم في المدينة وبين قريش وغطفان لعب فيه سلام بن ابي الحقيق وكنانة بن ابي الحقيق وحي بن أخطب وهوذة بن قيس الوائلي دور هام في التوفيق بين هذه المجموعات المتباينة في الاتجاهات المتحدة في محاربتها للنبي (ص) ووصلت أنباء الحشود الى المدينة عن طريق خزاعة القبيلة التي كانت لها علاقات طيبة مع المسلمين .

وتقدمت جيوش الأحزاب في عشرة آلاف مقاتل وفي قول آخر أربعة

وعشرين ألف ولم يكن مع النبي (ص) يومذاك سوى ثلاثة آلاف مقاتل وهو عدد لا يكفي لمواجهة هذا السيل من المقاتلين ، فكان رأي النبي (ص) ان يتجنب القتال إلا إذا اضطر اليها وكانت المدينة محصنة بالجبال والأشجار من كل الأطراف إلا حدودها الشمالية فكانت حرة واقم تمتد الى الشرق وحررة وبرة الى الغرب اما من ناحية الجنوب فكانت الأشجار الكثيفة تحول دون تسلل الاعداء وداخل المدينة كان محصناً بالبنائات المرتفعة والتي كانت تشبه الحصون ، فطرح رسول الله (ص) الأمر للمشورة فأشار اليه سلمان الفارسي ان يحفر خندق في الجهة الشمالية فاستحسن المسلمون هذا الرأي وأخذ كل عشرة يحفرون أربعين ذراعاً وكان للرسول (ص) سهمٌ أيضاً في الحفر وقضى المسلمون ستة أيام في أروع عمل جماعي حتى تمكنوا من حفر الخندق بطول اثني عشر ألف ذراع ولكي لا يأخذهم التعب كانوا ينشدون أناشيد جماعية اثناء الحفر وكان الرسول يشاركونهم في المقاطع الاخيرة بأن يرفع صوته ماداً الكلمة الأخيرة من الانشودة .

وجاء الأحزاب وكانوا ثلاث كتائب . . كتيبة مع أبي سفيان وكتيبة مع عيينة بن حصن وكتيبة مع ابن الاعور السلمي ووقفوا أمام الخندق بينما وقف المسلمون في الخلف وتمكن حي بن أخطب ان يقنع بني قريظة الذين لا زالوا في المدينة بالمشاركة في الهجوم فتأزم الوضع عند المسلمين وتحركت مجموعة من الفرسان واستطاعوا أن يجدوا مكاناً ضيقاً في الخندق فسارعوا للانتقال الى الجهة الاخرى فأصاب بعض المسلمين الذعر وكان فيهم عمرو بن ود العامري ، عكرمة بن أبي جهل وهبيرة بن أبي وهب ونوفل بن عبد الله وضرار ابن الخطاب بن وادي وهم من أشهر فرسان قريش وقد طلبوا البراز فلم يتقدم اليهم سوى علي بن أبي طالب (ع) كما جاء في كل كتب التاريخ وتمكن علي أن يقضي على هذه المجموعة لوحده بطريق المبارزة الثنائية ولم ينجو سوى عكرمة بن أبي جهل وضرار بن الخطاب وقد عرض المشركون عشرة آلاف درهم

في مقابل جثة عمرو بن ود التي ظلت خلف الخندق في جانب المسلمين .

وعلى أثر مقتل هؤلاء الفرسان ارتفعت معنويات المسلمين وهبطت معنويات المشركين الذين ما كان امامهم سوى الاسراع في اتخاذ قرار الهجوم لكن شاءت ارادة الله ان يتسلل أحد المهاجمين الى النبي (ص) ليعلن اسلامه وهو نعيم بن مسعود فاتفق معه النبي (ص) على خطة لتفريق الأحزاب ف جاء نعيم الى بني قريظة وكان نديماً لهم وقال لهم : يا بني قريظة لقد عرفتم ودي لكم وصلتي بكم ، فقالوا : ما تريد فلست عندنا بمُتهم : فقال لهم : ان قريشاً و غطفان ليسوا كأنتم البلدة بلدكم وفيه أموالكم وأولادكم ونسائكم ومن الصعب عليكم ان تتحولوا لغيره ، اما قريش و غطفان فقد جاؤا لحرب محمد وتركوا نساءهم وأموالهم وأولادهم في بلدهم آمنين ، فإن قدر لهم أن يصيبوا محمداً وأصحابه فذاك ما يريدون وإن عجزوا رجعوا الى بلادهم وخلوا بينكم وبينه ، ولا طاقة لكم له ان خلا بكم ، وأرى لكم ان لا تقاتلوا مع القوم إلا ان تأخذوا منهم رهناً من اترافهم يكونوا بأيديكم وعندها يضطرون ان لا يتخلوا عنكم ويرجعوا الى بلادهم فاقنعوا بهذا الرأي وقالوا له لقد أشرت بالصواب ثم أتى الى أبي سفيان وقال له نفس هذا الكلام ، ثم جاء الى غطفان وقال نفس الكلام وأوجد هذا التحرك اضطراباً في العلاقات فأرسل أبو سفيان وفداً من قبله الى بني قريظة ليستطلع موقفهم فاستقبلوهم بالغضب واشتروطوا على بقائهم في جبهة القتال اعطائهم رهينة حتى يطمئنوا بأنهم لا يتركونهم وحدهم بعد ان تنته الحرب بل يظلون يقاتلون ، عندها تأكدوا من مقالة نعيم فأرسلوا اليه ان لا ندفع لكم رجلاً واحداً من رجالنا وحدث الانشقاق في جبهة الاحزاب فخشي ابو سفيان ان يزداد الخوف فقرر الهجوم في صبيحة اليوم التالي لكن دعاء الرسول (ص) لم يمهلهم فقد طلب من الله أن يكشف عنه ما أحاطه من البلاء ويصرف عنه شرهم فإذا بالريح تعصف بهم والصواعق تتلاحق مثيرة الرعب

والخوف وكفأت قدورهم واقتلعت خيامهم وخشوا ان ينتهز المسلمون الفرصة ويهاجموهم وهم على هذا الحال واضطر أبو سفيان ان يعدل موقفه وان يعلن لقريش الاسراع في العودة الى الديار فعادوا الى الديار فعادوا بعد عشرين يوماً من الحصار لم يجنوا سوى الخيبة والاحباط التي أخذت تمزق نفوسهم ولم يعدوا بعدها يفكرون بقتال النبي (ص) .

وهكذا استطاع رسول الله (ص) أن ينتزع من أيدي أعدائه السلاح وان يدفعهم الى التسليم شاؤوا ذلك أم أبوا فقد عمل خلال السنوات الخمس الماضية على استنزاف العدو مادياً ومعنوياً حتى لم يعد يفكر بالعودة الى القتال من جديد ، واستثمر هزيمة قريش النفسية في ملاحقة بقايا اليهود من بني قريظة الذين خانوا العهد منهياً بذلك فصلاً آخر من فصول المواجهة مع جبهة اليهود .

ثانياً : . . مرحلة السلام المشروط :-

كان وضع المسلمين في ذي القعدة بعد ست سنوات من الهجرة على أحسن ما يرام فقد تمكنوا خلال السنوات الست أن يتخلصوا من أشرس أعدائهم اليهود واستطاعوا أن يوصلوا صوتهم الى القبائل العربية القريبة من مكة والمدينة وتمكنوا ان يقتلوا في قريش ارادة القتال فكانوا القوة الرئيسية في جزيرة العرب لا ينافسهم احد .

فلم لا يستثمر النبي (ص) الظروف الجيدة ويقوم بمبادرة اخرى يبرهن خلالها انه رجل سلام وليس رجل حرب وانه سلام الرجل القوي وليس الرجل الضعيف وانه رجل مبادئ وليس رجل مصالح وهذا موسم الحج قادم وقد اشتاقت القلوب الى بيت الله الحرام فهي فرصة لا يمكن اضاعتها .

وجاءت مبادرة النبي (ص) واعلانه للمسلمين بأنه عازم لأداء المناسك

ودعا كل المسلمين أن يشاركوا في هذه المرحلة وأوفد الى القبائل غير المسلمة طالباً منها مشاركته ايضاً في مسيرة السلام نحو بيت الله الحرام .

ولم يخطر ببال احد ان النبي (ص) سيفكر بمثل هذه المبادرة . . لكن القيادة الناجحة هي التي تمتلك الرؤية الثاقبة والتي من خلالها تتمكن ان تصنع المبادرات الخلاقة .

والمبادرات الجيدة هي التي لا تكلف كثيراً بل تعطي الكثير من النتائج ، وإذا ما تتبعنا سير الرحلة والمناقشات التي دارت فيها لتجلت لنا حكمة القيادة وقدرة خارقة في ادارة دفة الصراع ، وادارة الصراع في فترة السلم هي أصعب بكثير من فترة الحرب .

فقد جاء في كتب السير ان النبي (ص) وأكثر من ألف وأربعمائة من صحابته خرجوا متجهين نحو مكة بعد ان اعلن للملأ بأنه لا يريد الحرب وساق من أمامه سبعين بُدنة وأصبح يتقدمهم على ناقته القصوى واخذوا معهم سيوفهم لكنها كانت في اغمادها وما ان وصل الميقات في ذا الحليفة حتى احرم ولّى وجرح عدداً من البدن في الشق الايمن من سنامها ووضع قطعاً من الجلد في اعناقها اشارة بأنها هدي . . وبوصوله عسفان هبت قريش على أبناء هذه المبادرة فخرجت بأطفالها ونساءها فرعة ونزلت بذي طوي وتقدم مائتي فارس من قريش الى كراع الغميم وهو موقع لا يبعد عن مواقع المسلمين سوى ثمانية أميال وكانت مهمة هؤلاء الفرسان هو قطع الطريق على النبي (ص) ، ووصل النبي (ص) خبر استنفار قريش فقال يا ويح قريش لقد اكلتهم الحرب ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين العرب فان هم أصابوني كان الذي ارادوه وان أظهرني الله عليهم دخلوا في الاسلام وافرين وهي عبارات تكشف عن معالم الاستراتيجية التي كان النبي يتبعها مع قريش . فهو لا يريد القتال ولو أرادها لكان باستطاعته دخول مكة محرراً فاتحاً . . كان هدف الرسول (ص) ان يدخل

مكة مسالماً وقد كلفه ذلك الكثير فغير طريقه عندما سمع باستنفار قريش وتحركت المسيرة العبادية السياسية في طريق وعمر كثير الحجارة بين شعاب مضنية حتى وصلوا الحديبية فنزل هناك وعندما لاحظت قريش ذلك شكّت في انه جاء للقتال فأوفدت احد قادة خزاعة هو بديل بن ورقاء في رجال من عشيرته ليتعرف عما جاء اليه محمداً (ص) فأخبرهم النبي (ص) عن نيته فرجعوا الى قريش وأخبروها عن أهداف المسيرة فلم تصدق أقوال بديل فأرسلت شخصاً آخر هو مكر بن حفص وعاد مكر بن نفس النتيجة التي عاد بها بديل وكذلك رفضوا قوله ثم أرسلوا اليه الحليس بن علقمة وكان زعيم الأحابيش وهم يشكلون القوة الضاربة في مكة وكانت غاية قريش من ارسال الحليس هو وضعه في المواجهة الساخنة مع النبي (ص) عندما يجده جاء للقتال في شهر الحرام .

واستبشر النبي (ص) بمجيء الحليس فقال لأصحابه ان هذا من قوم يتألهون ، وامرهم بأن تعرض الهدي أمامه ليتأكد بنفسه انه لا يريد الحرب .

ولما رأى الحليس البدن في القلائد قد أكلت أوبارها من طول الحبس تأثر كثيراً لهذا المنظر وهو رجل على فطرته فلم يكلف نفسه عناء اللقاء بالنبي (ص) فرجع مسرعاً ليقول لقريش انه لم يأت للحرب فأجابوه بأنه رجل اعرابي لا يفهم شيئاً فغضب الحليس وتسمر قائلاً : يا معشر قريش والله ما على هذا حالناكم ولا على هذا عاقدناكم ، أَيْصَدُ عن بيت الله من جاء معظماً له . . والذي نفس الحليس بيده لئن لم تتركوا محمداً وما جاء لأجله أو لانفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد وانقلب الوضع على قريش وازدادت ورطتها بالتحول الذي حدث للحليس فخشيت ان يتعقد الموقف اكثر من ذلك فاستدعت عروة بن مسعود الثقفي وهو رجل حكيم وموزون فأرسلته لمعالجة الموقف الصعب .

وجاء عروة غاضباً يأخذ بلحية النبي (ص) ويهزها والنبي (ص) يتسم في وجهه ويمنع أصحابه من النيل منه على رغم خشونته فتأثر عروة بخلق

النبي (ص) وهو الرجل القوي الذي لا يخشى احداً فعاد الى قريش ليقول لها يا معشر قريش انما جئت كسرى في ملكه وقيصر في ملكه والنجاشي في ملكه واني والله ما رأيت ملكاً في قوم قط مثل محمد في اصحابه ، رأيت قوماً لا يسلمونه لشيء أبدا .

وارسل النبي (ص) مندوباً عنه ليضع قريش في الصورة وكادوا يقتلون ممثله لولا تدخل الاحابيش^(١) وظلت قريش في عنادها فارسلت خمسين رجلاً ليقذفوا النبي (ص) وصحابته بالحجارة فأسر المسلمون هؤلاء المهاجمين فجيء بهم الى النبي (ص) فعفا عنهم وخلقى سبيلهم ثم انه ارسل عثمان بن عفان لهذه الغاية مستفيداً من علاقته مع ابان بن سعيد فأجاره فاحتبسوا عثمان ثلاثة أيام حتى ظن المسلمون انه قتل ، عندها سارع اصحابه لمبايعته على ان لا يفروا عنه حتى الموت وسميت ببعة الشجرة أو ببعة الرضوان .

وبعد أن تأكدت قريش من اهداف هذه المبادرة وان النبي لا يريد حرباً وانها غير قادرة على منعه وانه ما انفك مصراً على عزمه ارتأت ان تتفاوض النبي (ص) حتى لا يعرف بأن المسلمين دخلوا على رغم انوفهم فكبريائهم كان يحول دون وقوع هذا العمل بهذه الصورة التي قدم بها المسلمون فأرسلت سهيل بن عمرو للتفاوض وبعد اخذ ورد تم الاتفاق بين الطرفين على النقاط التالية :

١ - عودة النبي (ص) الى المدينة وتأجيل أداء المناسك الى العام القادم .

٢ - ارجاء الطرفين لكل من يقدم اليهم من مكة أو المدينة .

٣ - السماح للطرفين بالتحالف مع من يشاؤوا من القبائل .

(١) ابن الاثير، الكامل في التاريخ : ج ٢ ص ٢٠٢ .

٤ - إيقاف الاقتتال بين الطرفين لعشرة أعوام .

والتزم النبي (ص) بالنود فاتفق وقد جاءه ابن سفير قريش أبي جندل بن سهيل بن عمرو وكان مسلماً فانفلت من قريش وجاء الى النبي (ص) وهو مقيد بالحديد فلما شاهد سهيل ابنه قام اليه فضربه واخذ بتلابيه وقال يا محمد لقد تمت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا فقال النبي صدقت فجعل يجبر ولده ليرده الى قريش وهو يصرخ ويقول أأرد الى المشركين ليفتنوني عن ديني ولم يكن حيناً على النبي (ص) ذلك لكن ما الذي يستطيع أن يفعله قد وقع على المعاهدة والذي تمكن عليه هو ان يقول لابي جندل : اصبر واحتسب فإن الله سيجعل لك ولمن معك مخرجاً وفرجاً ، انا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً وأعطيناهم وأعطونا العهد على ذلك وان لا نضر بهم وعاد المسلمون الى المدينة وهم متألّمون لأنهم لم يحققوا ما يريدون لكن ليس كل ما يريده الانسان هو الصحيح فإن المصلحة العامة مقدمة على المصلحة الخاصة فقد دفعت هذه المبادرة بالمسيرة الاسلامية الى الامام ومنحت المسلمين فرصة لاعادة بناء أنفسهم من جديد ومنحت الرسول (ص) فرصة التفرغ نحو بقية المهام وللإمام بهذه الخطوة السلمية اكثر لا بد ان نقف قليلاً على الوضع العام .

فالرسول (ص) في هذه العملية السلمية كانت له اليد العليا على قريش فلم تستطع قريش ان تملي عليه شيئاً ، وثانياً لم يتنازل عن هدفه الاساسي وهو أداء المناسك فالذي حدث هو تأجيل الهدف الى العام القادم . اما بند تبادل الفارين فكان لمصلحة المسلمين ايضاً إذ انه اوجد مشكلة جديدة لقريش كما حدث لها مع ابي بصير الذي التجأ الى البحر وانضم اليه المسلمون الفارون واصبحوا يشكلون عائقاً أمام تجارة مكة .

ورابعاً لم تكن معاهدة الحديبية سلام دائم بل كانت أشبه ما تكون بالهدنة وهي مشروطة بالتزام الطرفين بينودها وكان من المؤكد لدى الرسول (ص) ان

قريش سوف لا تفي بتعهداتها طالما ظلت تتعامل مع النبي (ص) من موقع التكبر والتعجرف فهي لازالت تنظر الى النبي (ص) على انه ذلك الطريد الذي هرب الى المدينة بتلك الصورة فكانت هذه النظرة وتلك الحالة تدفعان بقريش للاستهانة بالمعاهدة ثم خرقها في يوم من الأيام .

وكان الرسول (ص) ينتظر ذلك اليوم حتى يكشف للقبائل خواء قريش ويكون سبيلاً لتحقيق هدفه الأساسي وهو الدخول الى مكة فاتحاً قالعاً لجذور الوثنية .

أما المكاسب التي حصل عليها النبي (ص) من خلال توقيعه على معاهدة الصلح مع قريش فهي :

١ - الظهور بمظهر القوي وانه لا يخشى أحد بدليل انه يتوجه الى مكة معقل أعدائه مسالماً وسيفه في غمده .

٢ - وضع قريش في زاوية حرجة حيث أصبحت لا تدري ماذا تفعل هل تمنع المسلمين من اداء المناسك ومعنى ذلك انها لم تف بالتزاماتها أمام القبائل عندما جعلت من نفسها حامية للبيت والحجيج ثم انها تسمح لهم فيعرف العرب ان محمداً قد ارغمهم وأجبرها على ذلك وهذا يتنافى مع كبريائها وغرورها .

٣ - كسب الشرعية الدولية فالدول كانت تتعامل مع قريش باعتبارها الممثل الواقعي لجزيرة العرب وترفض التعامل مع أية جهة لا تعترف بها قريش وهذا ما نلاحظه عند استدعاء امبراطور الروم لأبي سفيان ليسأله عن الدعوة الاسلامية بعد وصول كتاب النبي (ص) .

واليوم وبعد ان وقّعت قريش مع المسلمين على تلك المعاهدة فانها اعترفت بوجود قوة سياسية ذات كيان مستقل عنها وكان لهذه الحقيقة مردود

سياسي لدى السلطات التي تلقت الرسائل عن النبي (ص) كما سنأتي الى ذكر ذلك .

٤ - أخذت القبائل تتعامل مع المسلمين بلا حذر أو خوف كان مصدره في السابق هيمنة قريش على تلك القبائل أما الآن وبعد اذعانها للأمر الواقع وتوقيعها على معاهدة السلام مع المسلمين فإن تلك القبائل التي كانت ترغب في مد جسور التعاون مع المسلمين أخذت تعمل بحرية تامة متجاهلة قريش سيما وان قريش أقرت هذا الحق في بنود الصلح .

٥ - التصدي والتفرغ للعدو التقليدي اليهود الذين تجمعوا في خيبر وكان يشكل تجمعهم خطراً على الاسلام والمسلمين فقد حان الوقت للتخلص منهم بعد ان جمد المسلمون صراعهم مع المشركين ولولفترة محدودة . فقد ذكر ابن هشام ان النبي (ص) شن سبع عشرة غزوة خلال السنتين الفاصلتين بين الحديبية وفتح مكة ، وما كان ذلك ليحدث لولا الصلح الذي عقد مع قريش .

لقد برهن الرسول (ص) خلال هذه المصالحة الموقته انه سياسي محنك لم يتنازل عن اهدافه ومبادئه وانه رجل المفاوضات لا يستطيع الخصم اجباره على شيء بالرغم مما اظهر من ليونة في بعض الامور غير السياسية كموافقته على الغاء كلمة رسول الله من الوثيقة وهي ليونة مطلوبة في العمل السياسي لكن يجب ان لا تخرج عن الحدود والذين يحاولون ان يشبهوا اتفاقية كمب ديفيد بصلح الحديبية لتبرير سياسة المصالحة مع اسرائيل على خطأ كبير لأنهم تجاهلوا حقائق هامة اول هذه الحقائق ان النبي (ص) اخذ من قريش ولم يعطها شيء في واقع الأمر فالمكسيان اللذان حصلت عليهما قريش هو عودة الأمن لشرائها التجاري بعد سنوات من التلكؤ وعدم الاستقرار والأمر الآخر كان إعادة المسلمين الفارين الى مكة لكن ماذا كانت النتيجة... النتيجة ان طرقها الاقتصادية عادت غير آمنة وهذه المرة عبر هؤلاء الفارين الذين كانت تطمح

بإعادتهم الى مكة لكنهم لم يعودوا الى مكة ولم يقبلهم النبي (ص) في المدينة حسب بنود الاتفاق فأصبحوا يفعلون ما يريدون وليس لقريش أي حق على النبي (ص) بضبطهم والزامهم بنود الاتفاقية لأنهم خارجون على القانون .

أما في اتفاقية كمب ديثيد فقد حصلت اسرائيل على أكثر مما أعطت فهي كسبت أولاً شرعية احتلالها للأراضي الفلسطينية وعرضت مصر لغزو ثقافي واستفادت اسرائيل من منابع النفط في شبه جزيرة سيناء وفي ذات الوقت قامت بغزوها للبنان مستفيدة من تحييد اكبر دولة عربية فاسرائيل هي الرابحة في صفقة كمب ديثيد من عدة جهات ولم تكسب مصر شيئاً سوى استرداد الارض التي احتلتها اسرائيل في حرب ١٩٦٧ .

ويعزى هذا التفاوت الى الموقف قبل عقد الاتفاقية فالرسول (ص) وقع على الاتفاقية من موقع القوي المنتصر . لكن لم يكن موقف مصر من القوة بحيث تستطيع بها اخضاع اسرائيل لشروطها على رغم قيامها بحرب ٧٣ ، لكنها لم تستفد من نتائج هذه الحرب فقد دخلت اسرائيل في الاتفاقية من موقع القوة ، وهناك أمر آخر وهو الأهم ان النبي (ص) وقع على اتفاقية الصلح وهو طريد الأمس الذي لم يكن له ملجأ ولا مأوى ولم تك قريش لتفكر انها ستضطر في يوم من الايام لأن توقع مع النبي (ص) مثل هذه الاتفاقية . . أما في قضية كمب ديثيد فالعكس الذي نجده .

فاسرائيل التي لم تك شيئاً ولم يكن لها ملجأ ولا مأوى اصبحت طرفاً في توقيع المعاهدة اما مصر فلم يكن ليمر بخلدها انها ستضطر في يوم من الايام ان توقع اتفاقية مع فلول من الشراذم جاؤوا الى أرض وسكنوها ثم أخرجوا اهلها ثم قالوا هذه الارض لنا . . هذا هو الفارق الكبير بين اتفاقية كمب ديثيد و صلح الحديبية .

ثالثاً . . مرحلة التحرير :-

كان النبي (ص) يتربص اليوم الذي تنصل فيه قريش عن المعاهدة لينتقل الى المرحلة التالية من خطته في تحرير مكة وجزيرة العرب من الوثنية .

وفعلاً لم يمر وقت طويل حتى شند بني بكر غارة على خزاعة وسارعت قريش لتقديم العون الى القبيلة الحليفة لها وبذلك فقد خرقت البند الأول من الاتفاقية مما جعلت الاتفاقية بحكم الملغاة وجاءت خزاعة تطلب العون من المسلمين باعتبارهم حلفاء لها فوجد النبي (ص) ان الفرصة قد سنحت فدعى المسلمين الى التهيؤ لكنه أحاط قراره بهالة من السرية فجهز قوة عسكرية وأرسلها الى الشمال للتمويه كما وانه اغلق كل الطرق المؤدية الى مكة وأفضل محاولة حاطب بن ابي بلتغة في نقل اخبار الاستعدادات الى قريش .

وتقدم المسلمون وكانوا عشرة آلاف مقاتل وتبعهم عدد كبير من القبائل التي كسبها النبي (ص) الى جانبه خلال الستين ، فمزينة ١٠٠٠ رجل و١٠٠٠ من سليم و٤٠٠ من أسلم و٤٠٠ من جفار وعدد من جهينة واشجع وخزاعة وضمرة وليث وسعد بن بكر^(١) كلهم جاؤوا مع النبي (ص) لفتح مكة وكانت خطة الرسول (ص) تتضمن قذف الرعب في نفوس المكيين ودفعهم الى الاستسلام دون حدوث المواجهة فما ان وصل الجيش الى مقربة من مكة حتى أشعلوا النيران فازداد اهل مكة رعباً فارسلوا ابي سفيان وبديل ليستطلعوا الخبر فاعتقد بديل انها خزاعة قد جاءت للانتقام واستبعد أبو سفيان ذلك وكان العباس بن عبد المطلب في معسكر المسلمين يبحث عن أية فرصة يتمكن الاتصال فيها بزعماء قريش لاقناعهم بالتسليم فعندما شاهد ابي سفيان دنى منه واخذه معه في

(١) سيرة ابن هشام: ص ٨١ - ٨٢ . الواقدي: ٣٣٢٦، ٣٣٢٧، ٣٥٨.

حركة ذكية داخل معسكر المسلمين ليريه قوتهم فيثير فيه الرعب والخوف أما بديل فقد قفل راجعاً الى مكة ، ورتب العباس لقاء بين النبي (ص) وابي سفيان في خيمته .

وحاول النبي (ص) في اللقاء ان يدعوه الى الاسلام قائلاً له ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم انه لا إله إلا الله .

قال بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك والله لقد ظننت ان لو كان مع الله إله غيره لقد اغنى عني شيئاً بعد ذلك واستمر النبي (ص) في محاولته واما سفيان يرفض بأدب فغضب العباس فقال له ويحك اسلم وأشهد ان لا إله إلا الله وان محمداً رسول الله قبل ان تضرب عنقك فاضطر الى اعلان اسلامه .

وقد تم اسلام ابا سفيان بتلك الطريقة ضمن خطة الدخول الى مكة دون قتال وأخذ المسلمون يستعرضون قوتهم أمام ابي سفيان وهم يتقدمون نحو مكة فكلما مرت قبيلة كبرت ثلاثاً وأبو سفيان يشاهد عن كثب والى جنبه العباس فيسأله من في هذه فيقول سليم فيقول ابو سفيان مالي وللسليم وتمر قبيلة اخرى وهكذا حتى جاءت النوبة للكتيبة الخضراء التي تضم ألف دارع من المهاجرين والانصار لا يرى منهم إلا الحدق خلال الحديد وهي كتيبة رسول الله (ص) فسأل ابو سفيان سبحان الله يا عباس من هؤلاء ؟ فأجابه هو رسول الله في المهاجرين والانصار فقال ابو سفيان ما لاحد بهؤلاء حول ولا طاقة فطلب منه العباس ان يسرع الى قومه يعلمهم بما رأى وسمع فدخل ابو سفيان مكة وراح يصرخ بأعلى صوته يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به فمن دخل دار ابي سفيان فهو آمن^(١) .

(١) ابن هشام : ص ٢٨٦ - ٢٨٧ .

وهكذا تكاملت حلقات الخطة فلم يجد اهل مكة بدءاً من التسليم لأمر زعيمهم ابي سفيان ، وكان على الرسول (ص) ان يدخل مكة بصورة المنتصر فقسم جنوده الى أربعة أقسام وجعل على كل قسم قائداً أوصاه ان لا يقتل احداً إلا من رفع السيف بوجه المسلمين ودخل رسول الله في قسم من جنوده وكانت رايته عند علي بن أبي طالب (ع) وتحقق له وعد الله الذي بشر المؤمنين بالنصر وخرجت قريش الى ذي طوى ينظرون الى رسول الله (ص) وهو يدخل مكة بذلك الجلال وتلك العظمة وتذكر كيف خرج هذا النبي من مكة وهو خائف يتربق وقد وضعوا لقتله جائزة ثمينة وتذكروا كيف تزايد عدد المسلمين بعد ان كانوا قلة قليلة خائفة . . وتذكروا كيف كاد الجوع أن يقضي عليهم وهم في شعب أبي طالب مرّ من أمامهم هذا الشريط وهم في لحظات الانهيار والتعجب لما وصل اليه امر الاسلام فأية قوة عظمى كانت وراء هذا الدين . . فلو لم يكن رسول الله (ص) على حق لما كان ينتصر ، ولو لم تكن قريش على باطل لما أذلها الله بهذه الصورة ، لم يبق احد في مكة لم يدعن لهذه الحقيقة إلا نفر قليل من ذوي النفوس المصابة بالغرور الذين حاولوا ان يقاوموا الجيش الزاحف لكن دون جدوى فيذكر الرواة نموذجاً لهؤلاء هو حماس بن قيس ، سارع حماس الى بيته واخذ يصلح سيفه فالتفتت اليه زوجته مستغربة : لماذا تعد سلاحك ؟ قال : لمحمد وأصحابه . .

وبغرور وصلف قال لها : واني لأرجو ان اجد لك منهم خادماً ! . .

فقالت له : ويحك لا تفعل ولا تقا تل محمداً واني والله ما أراه يقوم لمحمد واصحابه شيء لكنه لم يسمح لنفسه حتى الرد على زوجته فطفق مسرعاً مع صفوان وجماعته واتجهوا جميعاً نحو الخندقة احدى الطرق المؤدية الى مكة وهو الطريق الذي كان قد كلف خالد بن الوليد الدخول منه الى مكة فحاولت هذه المجموعة ان تمنع تقدم المسلمين لكن دون جدوى فقد قُتل جلهم في

ضربة واحدة فلم يكن أمام الآخرين سوى الفرار وقد حالف حماس الحظ فكان من جملة الفارين فجاء الى بيته مسرعاً مرتعداً فأغلق عليه الباب ، فسخرت منه زوجته قائلة أين الخادم الذي وعدتني به قال لها ويحك لقد جاء محمد بجيش لا طاقة لاحد عليه ، وقد قال من دخل داره وأغلق عليه بابه فهو آمن فقالت له ألم أنهك عن قتال محمد انه مامقاتلكم مرة إلا وظهر عليكم .

وتكشف هذه الحكاية عن طبيعة الافكار التي كانت تسود مكة حول النبي (ص) وقوته وتكشف عن طبيعة بعض النفوس المغترّة وما آلت اليه في نهاية المطاف .

أما النبي (ص) فقد واصل تقدمه حتى دخل مكة دون ان يلاقي أية مجابهة سوى الجيب الذي تعرض لقوات خالد في قاطع خندقة وكان اول عمل قام به هو أداء الطواف حول البيت الحرام وكلما مرّ على صنم كان يشير بقضيب في يده ويقول جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقاً فيكسر حتى وصل الى هبل فكسر أيضاً ثم أمر بفتح الكعبة وكان في داخلها التماثيل والصور وقد ملئت جدرانها فأمر بازالتها ثم صلى داخل الكعبة وخرج ووقف ببابها والجموع تنتظره فرفع صوته قائلاً الحمد لله الذي صدق وعده ونصر عبده وهزم الاحزاب وحده إلا ان كل مأثرة او دم أو ربا في الجاهلية فهو تحت قدمي هاتين ، إلا سداة الكعبة وسقاية الحاج .

وهو اذان بانتهاء الجاهلية بقيمها وقوانينها والبدء بمرحلة جديدة ثم واصل الحديث . . يا معشر قریش ان الله قد اذهب نخوة الجاهلية وتعظمها لانتماء الناس لأدم وآدم من تراب ثم تلا قوله تعالى :

﴿ يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ .

ثم وجه كلامه الى اهل مكة وكانوا حاضرين ذلك الجمع فقال لهم ماذا ترون اني فاعل بكم وما تظنون قالوا خيراً أخ كريم وابن أخ كريم فقال اذهبوا فانتم الطلقاء .

وكانت غاية الرسول (ص) من انتهاجه لهذه السياسة هو كسب قلوب المكيين الذين ما كان من السهل عليهم ان يتصوروا انهم في يوم من الأيام سينضموا الى المسلمين فقد كان الشعور بالغرور لا يدعهم يفكرون في ذلك أبداً فهم سادة العرب وأكثرهم مالاً وعزة فكيف يسمحوا لأنفسهم ان ينبذوا عقائدهم وتقاليدهم في لحظة واحدة .

فكانت خطة النبي (ص) في مكة هي كسب ودهم والتأثير في نفوسهم حتى يقبلوا الاسلام عن قناعة ووعي .

فجلس في المسجد يستقبل المبايعين فجاءه الرجال والنساء جاءت هند مبايعة وقد عفى عنها النبي (ص) وهي التي أكلت كبد عمه حمزة فأخذ يوعظهم بآيات من القرآن الكريم حتى وصل النبي (ص) الى قوله ولا يقتلن أولادهن : فقالت هند ربيناهم صغاراً وقتلتهم كبار فتجاهل النبي (ص) قولها ولم يك سهلاً على غيره ومن هو في مكانه ان يسمع هذا الكلام من عدوة لدودة لكن حلم النبي وصره ورحمته هي الجسور الى قلوب الآخرين .

وجاءه أيضاً رجلاً لبيايعة فأخذته الرعدة والخوف فنظر اليه رسول الله بعطف ورحمة وقال له هَوْن عليك فاني لست بملك انما انا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد بمكة .

وكان لسقوط مكة صدى واسع في أرجاء الجزيرة بين فرح مستبشر بسقوط قلعة الوثنية وبين مستاء متوجس خائف على نفسه ومن المستائين هوازن وحلفائهم من ثقيف وجشم ونصر .

سقوط آخر قلاع الشرك :-

عندما لاح لهوازن ان جيوش المسلمين استعدوا للقتال ظناً منهم ان النبي (ص) يريدهم لكن اتجه النبي (ص) كان نحو مكة وظلت هوازن على استعدادها للحرب وعندما بلغها خبر سقوط مكة ازدادت يقيناً بأن النبي (ص) سيقصدهم في يوم من الأيام فلم لا يبادروا لقتاله بأنفسهم فتقدم ملك بن عوف زعيم هوازن وهو يسوق عشيرته نحو المواجهة الحاسمة مع المسلمين وكمنوا للمسلمين في الجبال والمرتفعات وانتظروا لحظة وصول الجيش الاسلامي وهو في طريقه الى مواقعهم .

ولم ير النبي (ص) بدأ من التحرك نحو هوازن التي سبقته في الاستعداد للمعركة وما ان وصل ركب المسلمين وادي حنين حتى أخذوا على حين غرة فانتشر في صفوفهم الرعب وفروا منهزمين بلا هدى وأصبح الرسول يقاتل وحده ومعه جمع قليل من أصحابه وعادت صورة أحد تتكرر من جديد لكن بشكل آخر فالمسلمون في احد كانوا قلة اما اليوم فهم كثرة وقد قال الله عن ذلك اليوم :-

﴿ ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن شيئاً وضاقت عليكم الارض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وانزل جنوداً لم تروها ﴾ .

ثبت النبي (ص) في المعركة ومعه جمع من بني هاشم واستطاعوا بقتالهم العنيف ان يُغيروا الموقف وان يعيدوا ميزان القوة لصالح المسلمين عندها عاد المسلمون ليقاتلوا ببسالة وشجاعة مكبدين العدو الخسائر الجسيمة غانمين أموالاً كثيرة وانتهت المعركة بانتصار المسلمين وهزيمة من بقي من المشركين وفرارهم الى الطائف فواصل النبي (ص) تقدمه الى الطائف وفرض حصاراً على المدينة التي لم تستقبله ذلك اليوم الذي ذهب اليها وحيداً ،

فسخرت منه وأهانته .

ولم يكن النبي (ص) يريد من ثقيف سوى التسليم فقد استخدم ما كان بحوزته من الوسائل والأسلحة ومنها المنجنيق لدفعها الى التسليم لكنها ظلت تقاوم وطالت فترة الحصار وجاءت أشهر الحرم فرأى النبي (ص) أن يفك الحصار عن المدينة ليمنح أهلها فرصة جديدة للتفكير بمصيرهم إذ لا خوف عليه منهم وانهم لم يعودوا قادرين على الحيلولة دون قيام الدولة الاسلامية في الجزيرة كلها بعد ان سقطت عاصمة الشرك مكة وفعلاً لم يمر وقت طويل حتى جاءته ثقيف الى المدينة وهي تريد الاسلام وكانوا يريدون أن يجمعوا بين الاسلام والابقاء على صنمهم اللات فرفض منهم ذلك . . فأخذوا يساومونه في المدة ولو لفترة شهر واحد فكان يأبى ويصر على هدمها فوراً ثم ساوموه على ترك الصلاة فرفض ايضاً قائلاً لا خير في دين لا صلاة فيه وأخيراً قبلوا الاسلام دون قيد أو شرط فعادوا الى موطنهم وأمر عليهم النبي (ص) احد زعمائهم وهو عثمان بن ابي العاص بعد ان رأى انه اكثرهم حرصاً على تعلّم الاسلام من غيره .

ثم بعث النبي (ص) المغيرة بن شعبة وابي سفيان لهدم اللات فخشي ابو سفيان ان يتقدم لهذا العمل قائلاً للمغيرة : انك امنع عندهم مني فباشر المغيرة بهدم اللات وقومه بنو متعب من حوله متأهبون للدفاع عند أي هجوم يتعرض اليه . . وبذلك سقط آخر معقل للوثنية ولم يبق أمام المسلمين سوى الزحف نحو الامبراطورية البيزنطية .

العلاقات الدولية :

لم تكن رسالة الاسلام محصورة بفئة خاصة ولا لبلاد خاصة ولا لشعب خاص فهي رسالة للعالم أجمع وعلى هذا الافق سار ركب الاسلام وعلى هذا الأساس قامت خطة الرسول في ايجاد قاعدة قوية تنطلق منها الدعوة الى أرجاء الأرض .

فكان بانتظار النبي (ص) أعباء اكبر ومسؤوليات أعظم فعليه ان يُعدّ ويهيء الأرضية لتحمل تلك الاعباء فأول ما كان يحتاجه النبي (ص) للانطلاق الى المرحلة المتقدمة من حركته هو ايجاد قاعدة للانطلاق في المكان والانسان فأقام الدولة الاسلامية على أرض المدينة والتي اخذت تتوسع مع تطور الاحداث كما وأقام قاعدة بشرية صامدة قادرة ان تصبح نقطة صامدة للانطلاق في أرجاء الأرض، وقبل ان يرحل النبي (ص) الى ربه فانه استطاع خلال السنوات الأخيرة من عمره ان يوجد امكانيات الانطلاقة الكبرى للإسلام والتي تابعت حلقاتها في حياته وبعد غيابه .

فالرسول (ص) بذلك أرسى قواعد للعلاقات الدولية قائمة على مبدأ الالتزام بالاسلام والايمان بالدين الذي يضمن للبشرية الأمن والحياة السعيدة .

وبدأ النبي (ص) يتحرك على الصعيد الدولي بعد ان أنجز المقدمات وبعد ان اطمأن على وضع الاسلام في جزيرة العرب وبالضبط بعد التوقيع على معاهدة الحديبية فأرسل الرسائل الى كل من ملك الروم وملك فارس ومقوقس مصر ونجاشي الحبشة وملوك اليمامة وعمان وتضمنت رسائله الدعوة الى الاسلام وارسل مع هذه الرسائل سفراء وانتظر ردود الفعل على هذه الخطوة حتى ينتقل الى الخطوة التالية وقد تباينت ردود الفعل على هذه الرسائل وعلى أساسها تم التخطيط للمرحلة الاخرى .

. . . وستتناول كل علاقة على حدة بصورة مستقلة .

الدولة البيزنطية

١ - الدولة البيزنطية : وهي احدى الدولتين العظيمتين اللتين كانتا تتجاذبان السيادة في العالم .

وكانت الدولة البيزنطية تسيطر على بعض مناطق الجزيرة العربية وأخذت تفرض هيمنتها على بعض مناطق الدولة الفارسية . . ففي الوقت الذي وصلت رسالة النبي (ص) الى هرقل كان ميزان القوة يمضي لصالح الدولة البيزنطية فقد عاد هرقل من حرب فارس واسترداده الصليب الأعظم الذي اخذه الفرس من بيت المقدس فكان في شغل عن رسالة النبي (ص) فلم يعتني بها وحتى بعد ان وصلته الرسالة من عامله الحارث الغساني يطلب منه الاذن في معاقبة النبي (ص) تجاهل الأمر ولم يعبأ بهذه الرسالة فقد كان وقتها يحتفل في بيت المقدس بالنصر على الفرس ، وذكر بعض المؤرخين رأياً مخالفاً لهذا الرأي فهم على اعتقاد جازم بأن قيصر آمن بالنبي (ص) لكنه خشي الاعلان عن اسلامه بعد ان طرح الموضوع على القساوسة فرفضوا اعتناق الاسلام^(١) .

(١) الواقدي ، المغازي : ج ٢ ص ١٠١٩ .

كما وأرسل النبي (ص) رسالة الى المنذر بن الحارث بن ابي شجر الغساني حاكم دمشق مع المنذر بن الحارث فكان رده على الرسالة سيئاً للغاية كما وأرسل الى حاكم بصرى بيد الحارث بن عمير الأزدي فأخذه شرحبيل بن عمرو حاكم الشام من قبل هرقل فقتله .

فأحس النبي (ص) ان سياسة الرسائل غير فاعلة سيما وانها قد تُعرض سفرائه الى مخاطر كثيرة ففكر بارسال سرايا من عدة أنفار يقومون بارشاد الناس ودعوتهم الى الاسلام فأرسل سرية بقيادة كعب بن عمير الى منطقة ذات اطلاع في بلاد الشام وكان مصير السرية مأساوياً حيث قتل جميع افرادها ولم ينجو منها سوى جريح واحد استطاع ان يصل المدينة بأعجوبة عندما تأكد النبي (ص) ان الروم يعيشون غرور الانتصار وانهم لا يدعون للحق إلا باستخدام القوة العسكرية أخذ يستعد لمعركة فاصلة وتقدم بقوة عسكرية قوامها ثلاثين ألف مقاتل وعين ثلاثة من أصحابه لقيادة الجيش هم جعفر بن أبي طالب ومن بعده زيد بن حازمة ومن بعدهما عبد الله بن رواحة وعلى رواية اخرى زيد اولاً ثم جعفر ثم عبد الله بن رواحة ولاحق النبي (ص) قطاعات الجيش حتى ثنية الوداع وهناك اخذ يوصيهم انكم ستجدون رجالاً في الصوامع معتزلين الناس فلا تتعرضوا لهم وستجدون آخرين الشياطين في رؤوسهم مفاحص فاقبلوها بالسيف ، ولا تقتلوا امرأة ولا صغيراً ضرعاً ولا كبيراً فانيا ولا تقطعوا نخلاً وشجراً ولا تهدموا بناء لأحد .

وانطلقت جموع المقاتلين باتجاه الشام ووصلت أنباءهم مسامع البيزنطيين فجهّزوا جيشاً جراراً قوامه مائة ألف او مائتي جندي كان يقودهم هرقل او اخيه تيودور .

وكاد الانهيار يسود المقاتلين المسلمين عند سماعهم بعدد القوة المعادية التي فاقتهم بأكثر من سبعين ضعفاً لولا خطاب عبد الله بن رواحة الذي شدهم

للقاتل فوقف يقول ؛ يا قوم انا لم نكن نقاتل الناس بعدد وكثرة بل نقاتل بهذا الدين الذي اكرمنا الله به ، فانما هي احدى الحسنين اما ظهور على العدو واما الشهادة^(١) كان لهذه الكلمات أثر سحري على المقاتلين الذين مضوا للقاء أعداءهم في احدى القرى يقال لها مؤتة والتقى الصفان ثلاثة الاف في قبال مائتي ألف فقاتل المسلمون قتال المستميت العاشق للشهادة .

فتساقطوا شهداء واحداً بعد آخر وقد كبدوا العدو خسائر فاستشهد زيد وفيها قاتل جعفر قتال الابطال حتى استشهد فأخذ الراية عبد الله بن رواحة واستشهد أيضاً فانهمز من تبقى من المسلمين فأخذ الراية ثابت بن ارقم فاعاد لحمة الجيش واعطى الراية الى خالد بن الوليد الذي لم يجد فائدة من المقاومة فوضع خطة للانسحاب فصنف مجموعة كبيرة من المقاتلين خلف جيشه فظن الروم ان جيشاً قدم من المدينة لمساعدة المسلمين حينها انسحب خالد من المعركة فلم يتبعه الروم خشية وجود قوة اخرى وعاد جيش خالد الى المدينة فاستقبله المسلمون بالسخرية قائلين يا فرار فررتم في سبيل الله فقال النبي لهم ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار^(٢) وكان المقاتل يأتي الى اهله وبيته ويدق عليهم الباب فيرفضون ان يفتحوا له قائلين له لو تقدمت مع اصحابك فقتلت كما قتلوا .

وكان درساً لا ينساه كل من شارك في المعركة فقد حفزت المسلمين من جديد للقاء الروم وجعلتهم لا يفكروا بالعودة الى المدينة إلا بعد ان يحققوا النصر والظفر .

وفرح اعداء الاسلام بنتائج هذه المعركة واعتبروها هزيمة ساحقة

(١) الواقدي ، المغازي : ج ٢ ص ٧٦٠ .

(٢) الواقدي ، المغازي : ج ٢ ص ٧٦٥ .

للمسلمين وتجرات قريش فتنصلت من الاتفاقية التي ابرمتها مع المسلمين فوجد النبي (ص) الفرصة قد سنحت للتحرك نحو مكة وتأجيل المعركة الفاصلة مع الروم لما بعد فتح مكة .

وفتحت مكة بتلك الصورة الرائعة وعاد النبي (ص) الى المدينة فلم يكن أمامه شيء سوى الزحف نحو الدولة البيزنطية ، فأخذ يُجهز جيشاً قوياً لمواجهة الروم سيما وان أنباء وصول المدينة تشير الى استعدادات كبيرة وحشود بيزنطية يراد لها غزو الجزيرة لكن ثمة مشاكل كانت تعيق حركة التعبئة العسكرية فالطقس كان حاراً للغاية والسنة سنة جذب وكان موسم الحصاد يقترب شيئاً فشيئاً وهو املهم الوحيد للخروج من الأزمة الاقتصادية الخانقة .

والمرة الوحيدة التي يخبر فيها النبي (ص) اصحابه عن الهدف من الحملة هو محاربة الروم مما كان يضاعف من صعوبة التعبئة فالذي لقيه المسلمون في مؤته لم ينس عن البال كما وان المسافة الطويلة من المدينة الى بلاد الروم وما فيها من مشاق وجوع وعطش كانت تزيد من تناقل المقاتلين لهذه الأسباب تعثرت عملية التعبئة ونشط المنافقون في تثبيط العزائم وتضعيف ارادة المقاتلين .

وعلى رغم المعوقات فقد تمكن الرسول (ص) من تجهيز الجيش الذي سمي بجيش العسرة والذي وصل عدده ثلاثين ألفاً في بعض الروايات^(١) وفي اخرى اربعين ألفاً أو سبعين ألفاً ووصل المسلمون الى تبوك وكانت قيادة الجيش تحت إمرة النبي (ص) ، وقبل ان يصل المسلمون الى تبوك بلغت أنباءهم الروم . وكانت قد بلغتهم أخبار انتصار النبي (ص) على قريش وتذكروا خسائرهم الفادحة في مؤته على رغم قلة المقاتلين المسلمين .. فخافوا القتال وآثروا الانسحاب على الاشتباك .. وظل رسول الله فترة من الوقت في تبوك بعد

(١) الواقدي ، المغازي : ج ٢ ص ١٠٠٢ .

للمسلمين وتجرات قريش فتصلت من الاتفاقية التي ابرمتها مع المسلمين فوجد النبي (ص) الفرصة قد سنحت للتحرك نحو مكة وتأجيل المعركة الفاصلة مع الروم لما بعد فتح مكة .

وفتحت مكة بتلك الصورة الرائعة وعاد النبي (ص) الى المدينة فلم يكن أمامه شيء سوى الزحف نحو الدولة البيزنطية ، فأخذ يُجهز جيشاً قوياً لمواجهة الروم سيما وان أنباءً وصلت المدينة تشير الى استعدادات كبيرة وحشود بيزنطية يراد لها غزو الجزيرة لكن ثمة مشاكل كانت تعيق حركة التعبئة العسكرية فالطقس كان حاراً للغاية والسنة سنة جذب وكان موسم الحصاد يقترب شيئاً فشيئاً وهو املهم الوحيد للخروج من الأزمة الاقتصادية الخانقة .

والمرة الوحيدة التي يخبر فيها النبي (ص) اصحابه عن الهدف من الحملة هو محاربة الروم مما كان يضاعف من صعوبة التعبئة فالذي لقيه المسلمون في مؤته لم ينس عن البال كما وان المسافة الطويلة من المدينة الى بلاد الروم وما فيها من مشاق وجوع وعطش كانت تزيد من ثقل المقاتلين لهذه الأسباب تعثرت عملية التعبئة ونشط المنافقون في تثبيط العزائم وتضعيف ارادة المقاتلين .

وعلى رغم المعوقات فقد تمكن الرسول (ص) من تجهيز الجيش الذي سمي بجيش العسرة والذي وصل عدده ثلاثين ألفاً في بعض الروايات^(١) وفي اخرى اربعين ألفاً أو سبعين ألفاً ووصل المسلمون الى تبوك وكانت قيادة الجيش تحت إمرة النبي (ص) ، وقبل ان يصل المسلمون الى تبوك بلغت أنباءهم الروم . وكانت قد بلغتهم أخبار انتصار النبي (ص) على قريش وتذكروا خسائرهم الفادحة في مؤته على رغم قلة المقاتلين المسلمين . . فخافوا القتال وآثروا الانسحاب على الاشتباك . . وظل رسول الله فترة من الوقت في تبوك بعد

(١) الواقدي ، المغازي : ج٢ ص ١٠٠٢ .

انسحاب الروم وقد رأى ان لا يعود الى المدينة إلا بعد ان يظهر المناطق الحدودية من برائن الشرك فارسل برسله الى امراء المنطقة فجاؤوه طائعين مقرين بالاسلام أو على استعداد لدفع الجزية ، وارسل ايضاً قوة لتطهير منطقة دومة من الجيب العميل لدولة الروم اكيدر بن عبد الملك الكندي الذي كان يشكل خطراً على المسلمين بتعاونهم مع الروم فعاد النبي (ص) بعد مكثه عشرين يوماً في تبوك مكللاً بالانتصار السياسي على اكبر دولة في ذلك الزمن بالرغم من عدم وقوع القتال إذ كان انسحاب الروم يشكل ضربة سياسية لهذه الدولة ويحقق فراغاً على الحدود البيزنطية يضمن الاستقرار والهدوء في المناطق المتاخمة للدولة الاسلامية يعطي للمسلمين القدرة على فرض سيادتهم على هذه المناطق . . إذ أدى انسحاب الدولة البيزنطية الى ضعف هيمنتها على القبائل العربية المسيحية التي وجدت ان من الافضل لها الاتفاق مع النبي (ص) بعد ان فقدت من تستند اليه . . وبذلك حقق النبي (ص) جزءاً هاماً من اهدافه هو فرض السيادة الاسلامية على مناطق شمال الجزيرة وضمان الطرق التجارية التي اصبحت من اليوم في خدمة الاقتصاد الاسلامي بعد ان كانت تخدم اعداء الاسلام .

دولة فارس

٢ - دولة فارس : لم تكن العلاقة بين الدولة الاسلامية والدولة الفارسية كالتي كانت بينها وبين الدولة البيزنطية فالعلاقة المتداخلة بين القبائل والدولة البيزنطية وتداخل المصالح التجارية كانت تحرض المسلمين للتحرك نحو الدولة البيزنطية اما الدولة الفارسية فلم تكن علاقاتها مع القبائل العربية إلا علاقة احتلال فكانت خطة النبي (ص) هي تحرير هذه المناطق من برائن الاحتلال الفارسي مستفيداً من ضعف الدولة الفارسية وهزيمتها أمام الدولة البيزنطية .

وكان النبي (ص) قد بعث برسالة الى كسرى ملك فارس يطلب منه

اعتناق الاسلام فغضب كسرى ومزق الرسالة وكتب الى عامله في اليمن بازان يأمره بأن يبعث اليه برأس النبي (ص) فقد كانت هزيمته أمام الروم قد مزقت قلبه فكان يبحث عما يعوض عن هذه الخسارة ولو كان رأس النبي (ص) كما طلب في رسالته .

وقد أوفد بازان الى النبي (ص) مـ نلين من قبله لاستطلاع الأمر وعند اللقاء اخبرهم النبي (ص) بأن كسرى قد قتل وان ابنه شيرويه خلفه في مكانه ووعظهم ودعاهم الى الاسلام وطلب منهم ان يدعوا بازان الى الاسلام ومكث بازان مدة وهو ينتظر خبر كسرى فوصله الخبر كما رواه النبي (ص) فتأكد له ان محمداً (ص) هو نبي ورسول من قبل الله وكانت دولة فارس قد ضعفت واصبحت على وشك الانحلال فأعلن اعتناقه للاسلام وانضمامه للنبي (ص) وبدخول اليمن في الاسلام اصبح الطريق مفتوحاً أمام الدعوة الاسلامية بالانتشار نحو المناطق الجنوبية .

وفي الشمال كانت بعض القبائل العربية تابعة الى الدولة الفارسية فعندما لاحظت الضعف يحل بهذه الدولة في مقابل الانتصارات التي حققها الرسول (ص) ارتأت ان ترسل وفوداً الى المدينة وان تعلن عن اسلامها وبعض هذه القبائل تعاهدت مع النبي (ص) على دفع الجزية وعند هذه الحدود اقتضرت الصلة بين الدولة الاسلامية والدولة الفارسية في عهد النبي (ص) .

دولة مصر

دولة مصر : وكان رد المقوقس عظيم القبط في مصر رداً جميلاً على رسالة النبي (ص) ، فقد بعث اليه برسالة جوابية أشار فيها أنه يعتقد بان نبياً سيظهر لكن ليس في الحجاز بل في الشام وأرسل الى النبي بهدايا ثمينة جاريتين وبغلة بيضاء وحمار ومقدار من المال وقبل النبي (ص) هديته وعند هذا

المستوى كانت الصلات والعلاقة بينه وبين مصر ، ويدل هذا الرد الحسن بأن المقوقس كان راغباً في اعتناق الاسلام لولا تخوفه من امبراطور الروم فاسلامه كان سينته الى عزله بالتأكيد .

دولة الحبشة

وبدأت العلاقة بين رسول الله (ص) وملك الحبشة من أيام مكة عندما بعث جمعاً من صحابته إلى الحبشة للاستقرار فيها ولتبليغ الرسالة هناك .

وسمع النبي (ص) بحسن استقبال النجاشي للمسلمين وما رد به وفد قريش فحرص على تمتين العلاقة به فأرسل اليه الرسائل يدعوه فيها الى الاسلام حتى استجاب لدعوته فأرسله اليه قائلاً الى محمد رسول الله من النجاشي الأصم بن ابجر . . سلام عليك يا نبي الله من الله ورحمة الله وبركاته لا إله إلا هو الذي هداني الى الاسلام ، فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى ، فورب السماء والارض ان عيسى لا يزيد على ما ذكرت ، وقد عرفنا ما بعثت به الينا ، وقريناً ابن عمك وأصحابه ، فاشهد انك رسول الله صادقاً ومصدقاً ، وقد بايعتك وبايعت ابن عمك واسلمت على يديه ، وان شئت ان آتيك فعلت يا رسول الله ^(١) وقد حاول بعض المستشرقين ان يشككوا في اسلام النجاشي على غرار تشكيكهم في الكثير من الحقائق التاريخية الأخرى وأخذ بعض الكتاب المسلمين هذه الفكرة متأثرين بكتابات المستشرقين لكن حقائق كثيرة من بنيتها هداياه التي أرسلها الى المدينة وخطبته لأُم حبيبة لتصبح زوجة للنبي (ص) بعد ان تنصّر زوجها ودفعه للصدّاق وسماحه للمسلمين بأن يأخذوا حريتهم في تبليغ الاسلام تؤكد على طبيعة العلاقة الوطيدة بين ملك الحبشة

(١) معروف الحسني ، سيرة المصطفى : ص ١٨٤ .

والمسلمين وهي تحمل أيضاً أدلة دامغة على صحة الأنباء القائلة بإسلام النجاشي .

هذا هو كل ما يمكن أن نجده في السيرة النبوية من مصالح للسياسة الخارجية في دولة الرسول (ص) فقد كانت العلاقات الدولية في عهد الرسول (ص) في مراحلها الأولى إذ إن الوقت الأكبر من عمر الدولة الإسلامية كان يبذل لتثبيت دعائم هذه الدولة وفي تطهير الساحة الداخلية تشمل جزيرة العرب برمتها من بقايا الوثنية والكفر حتى تغدو قاعدة قوية يستعان بها في المرحلة المتقدمة وهي مرحلة الانتشار خارج حدود الجزيرة .

الحضارة الإسلامية :

أدى انتصار حركة الرسول (ص) على الظلم والانحراف والتخلف والجهل الى انبثاق الحضارة الاسلامية التي تولدت من رحم الأحداث ومن قلب الصراع المرير الذي خاضته جحافل الايمان ضد الشرك والتخلف ، فهي إذن النتائج الطبيعي الذي أسفرت عنه حركة الرسول (ص) من يوم بدأت تصدع بالحق في مكة حتى آخر يوم من حياته صلوات الله عليه وآله وسلم . فقد بذل رسول الله (ص) عمره في بناء صرح الحضارة الاسلامية لبنة لبنة حتى تكامل البناء في السنة العاشرة للهجرة، فكان الثمرة التي قدمها الرسول (ص) للانسانية ليس في ذلك الزمان وحسب بل في كل زمان ومكان حتى أصبح المسلمون اليوم يقتاتون على الارث الكبير الذي تركته الحضارة الاسلامية لهم وليس المسلمين وحسب بل أصبح العالم كله مدينا للحضارة الاسلامية فقد أضاءت الطريق أمام كل انسان فأينما توقدت شعلتها كان التقدم .

ففي العصور الوسطى كان الظلام ينشر بأجنحته على أوروبا كلها وما كان بقدرتها النهوض إلا بقبس من نور الحضارة الاسلامية وهي حقيقة يقرها الجميع ولا مجال لنكرانها فقد أقر بها تونبي وبرناردشو وكثير من مفكري الغرب .

وإذا ما تتبعنا المسيرة الإسلامية منذ انطلاقتها الأولى لوجدنا ان سرّاً عظيماً كان يكمن في خطوات الرسول (ص) فقد كانت هذه الخطوات تجري بحساب دقيق كانت تتلاحق حلقاتها لتستقر عند بناء صرح الحضارة الإسلامية . فكل كلمة قالها وكل عمل قام به وكل صمت أو توقف أو تحرك كان من شأنه أن يضيف شيئاً الى هذا البناء ليعلو في السنة العاشرة من الهجرة وكان كل شيء في حياة الحركة الرسالية مبرمجاً ليصل المسلمون الى هذه النتيجة .

وهنا تكمن قوة العمل الذي قام به النبي (ص) فقد ظل يسقي الشجرة حتى أينعت ثمارها ثم طلب من العالم ان يأتوا ليتنعموا بحلاوتها وعذوبتها . فكل شيء كان وسيلة والهدف هو ان تنضج الثمرة لتعطي أكلها لكل انسان في هذا الكون .

فالحضارة الإسلامية هي نقطة الهدف التي توجهت بها مسيرة الاسلام وحتى الدولة الإسلامية لم تكن إلا أداة لتحقيق العدالة والحرية والمساواة ولنشر الفضيلة والقيم فهي وسيلة والحضارة هي الهدف إذ لم يكن همّ النبي (ص) هو اقامة دولة وكسب السلطة والزعامة بل الهدف هو بناء حضارة عن طريق هذه الدولة . فلقد وجدناه يتنازل عن مصالح الدولة من أجل تركيز قيم الحضارة وأبرز مثال على ذلك هو تسامحه مع عبد الله بن أبي على رغم خطره ورفضه لأي عرض في تصفيته لأنه لم يكن يريد أن يقتل انساناً يقول لا إله إلا الله فهو بذلك كان يريد تثبيت مبدأ .

وأولئك بنو عامر أجابوا النبي (ص) حين دعاهم الى الاسلام أن يكون لهم الأمر من بعده فرفض النبي (ص) في يوم كان أحوج ما يكون الى نصير واحد فكيف بعشيرة تنصره . فقد يأخذ البعض والعياذ بالله على النبي (ص) تهاونه السياسي في مثل هذه الحالات إذ كان من المصلحة ان يوافق على طلب هذه

العشيرة وتلك لكي يقوى ساعده .

لكن النبي (ص) لم يكن يريد ان يبنى صرحاً مهلهلاً بل كان يريد ان يبنى صرحاً قوياً ثابتاً راسخاً من هنا اختار طريق القيم وضحي بالمصالح السياسية الوقتية .

وأمر آخر ليس هناك تضارب نجده بين مصالح تحرك النبي (ص) وأهدافه الحضارية فمصلحة الدولة هي مصلحة الحضارة أيضاً . . لكن ان بدى تناقض بين المصلحتين فانها تبدوا لمن ينظر الى القضايا من زاوية وقتية ولا ينظر اليها من خلال نظرة زمنية طويلة فيحسب حساب الماضي والحاضر والمستقبل وثمة آخرون من الكتاب مشككتهم أنهم ينظرون الى سياسة النبي (ص) من خلال ما يعايشونه من سياسة راهنة فعندما نعرض حياة النبي (ص) ومسيرته الشريفة عبر منظار السياسة الراهنة فإن الكثير من المواقف السليمة تبدو وكأنها مواقف خاطئة أو العكس .

فكان علينا ان نجرد أعيننا من أية نظرة مسبقة وندرس حركة الرسول (ص) كما هي وكما أرادها الرسول نفسه ، وكما رسم خطوطها العامة القرآن الكريم . عند ذلك فقط نستطيع ان نقيّم العمل الجبار الذي قام به النبي (ص) في ردح من الزمن لا يتجاوز ثلاث وعشرون سنة .

فخلال هذه الفترة خطى النبي (ص) خطوات متدرجة نحو بناء حضارة انسانية رسالية تسعد فيها البشرية ويجد فيها الانسان انسانيته وخلال العامين الأخيرين من عمره الشريف أخذ يضع اللمسات الاخيرة للاطار العام لهذه الحضارة . فبعد ان حقق الانتصار على الأعداء وصفت جزيرة العرب خالصة للاسلام وللمسلمين كان على النبي (ص) ان يعلن نهاية الشرك وانقشاع تلك

السحابة المظلمة .

فكان أن أرسل علي بن أبي طالب (ع) الى مكة ومعه سورة البراءة وعندما اجتمع الناس بمنى ليؤدوا مناسك الحج وقف الإمام علي ليقراً هذا البيان الهام الذي تضمنته سورة براءة والتي جاء في مطلعها :

﴿ براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين فسيحوا في الأرض أربعة أشهر واعلموا انكم غير معجزي الله وان الله مخزي الكافرين ﴾ .

وبعد تلاوة البراءة وقف الإمام علي (ع) ليقول للناس وفيهم مسلمين وغير مسلمين :

(أيها الناس انه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان . ومن كان له عند رسول الله (ص) عهد فهو الى مدته) وكانت تلك آخر سنة حجّ فيها المشركون على طريقتهم الخاصة ومع سورة البراءة اختتمت مرحلة وبدأت أخرى .

وبالرغم من ضعف المشركين يوم أعلنت البراءة إذ لم يكن لهم كيان سياسي ولم يكونوا مبعث خوف لدى المسلمين .

فما الداعي الى اتخاذ مثل هذا الموقف ؟

لا يمكن ان نحلل قرار البراءة من منظار سياسي أو عسكري أو اجتماعي فقط . فقد كان وراءه دواعي أخرى أهم من تلك الجوانب .

صحيح ان الشرك لم يعد قوة سياسية أو عسكرية ولا حتى قوة اجتماعية إلا أنه كان لازال قائماً كمبدأ وعقيدة لدى بعض القبائل المتناثرة . فكان لا بد من وضع نهاية سريعة حتى لهذا الوجود الضعيف .

فقد تعامل الاسلام مع الشرك كظاهرة غير طبيعية وحالة شاذة فلم يعد

هناك أي مبرر لوجودها بعد ثلاث وعشرين عاماً من الموعظة والارشادات .

فحركة التاريخ تجري نحو الأفضل فلم يعد بعد اليوم مكاناً للشرك بعد ان اكتسحته عجالات التاريخ وكان لا بد من ازاحة الشرك ليصبح الطريق مفتوحاً أمام التوحيد .

فمجتمع الجزيرة قد تحوّل برمته الى الاسلام ولم يبق إلا النزر القليل الذين لازالوا يمشون في الظلام تائهين عن الطريق ، فلم يعد هناك مكان لهؤلاء في مجتمع يسوده النور والوعي فكان لا بد من اعطاء فرصة لهؤلاء حتى يتمكنوا أن يكتفوا أنفسهم مع الوضع الجديد . إذ لم يعد بالامكان تحمّل الجهل والتخلف في وسط مجتمع متحرك نحو التقدم يستعد للانتقال الى مرحلة أكثر دقة ومسؤولية وهي نقل الرسالة الاسلامية الى الشعوب الاخرى خارج جزيرة العرب .

والفرصة التي منحت لهؤلاء الذين لم ينصتوا بعد لصوت الحق هي أربعة أشهر وهي كافية لاعادة التفكير واتخاذ القرار المناسب وبعدها لا حق لهم بالبقاء في مجتمع نظيف قائم على القيم وعلى العقل والمنطق وليس الخرافة والجهل .

ويشمل هذا القرار المجموعات التالية :

- ١ - الذين لا عهد لهم مع المسلمين .
- ٢ - الذين عاهدوا ونقضوا عهدهم .
- ٣ - الذين لا يستبعد منهم نقض العهد .
- ٤ - الذين عاهدوا النبي (ص) لكن لم يحددوا مدة العهد . فيسمح حينذاك لأحد الطرفين تحديد المدة وهي أربعة أشهر كما حددها المسلمون .

ويستثنى من هذا القرار الذين عاهدوا النبي (ص) وظلوا أوفياء على عهدهم ولم ينقضوها وهم قلة من بني كنانة وبني ضمرة .

ويستثنى من القرار أيضاً أهل الكتاب الذين تعاهدوا مع النبي (ص) فظلوا على عقائدهم وتقوم الدولة بحمايتهم على أنهم مواطنون وعليهم أن يدفعوا الجزية في مقابل ما تقدمه الدولة من خدمات .

فهناك عقيدة فاسدة لا بد من محوها وهناك عقيدة يحترمها الاسلام ويتعامل مع معتنيها برفق والشرك هو أقصى درجات الحضيض ، فالايامن بالخرافة والتعصب الأعمى ووأد البنات وإشاعة الربا والاحتكار والاعتماد على نظام الرق هي من خصائص الشرك ، فكان لا بد من تصفية كل هذه السخافات التي تحد من حركة الانسان والمجتمع وترك المجتمع لينطلق الى مجالات التقدم .

من هذا المنظار الحضاري تعامل الاسلام مع الشرك فوجوده يحد من حركة المجتمع نحو البناء . فكان لا بد من ازالته وقطع صلة المجتمع به نهائياً .

أما اللمسات الأخرى التي وضعها الرسول (ص) فقد جاءت في خطبته المشهورة بخطبة حجة الوداع والتي ذكر فيها المسلمين بالقيم والأهداف التي جاء من أجلها الاسلام ، ذكرهم بالوحدة والأخوة التي بها انتصر المسلمون على أعدائهم ، ذكرهم بحرمة دماءهم وأموالهم واداء الأمانة وذكرهم بحرمة الربا والظلم والتعدي على الآخرين .

سمات الحضارة الاسلامية :

الحضارة التي جاء بها الاسلام تختلف عن كل الحضارات التي سبقتها بقوتها وسرعة تدفقها ومستوى تفاعلها مع قضايا الانسان والمجتمع وقد امتازت

على الحضارات الاخرى بما يلي :-

١ - انها حضارة التوحيد تقوم على الايمان العميق بوجود خالف لهذا الكون وانه قادر على كل شيء وانه خلق الانسان ليعبده .

والتوحيد هو القاعدة القوية التي انطلقت منها الحضارة الاسلامية أيضاً فهي وضعت الانسان أمام مسؤولية كبيرة وأوجدت علاقة فاعلة بين الايمان والسلوك بين العقل والقلب فأصبح الايمان غير منفصل عن الحياة على خلاف ما كان قائماً في العالم المسيحي من فصل بين أعمال القلب وأعمال الانسان الأخرى والذي أدى الى فصل الكنيسة عن الدولة .

على عكس ذلك أوجد الايمان بالوحدانية الالهية خط الارتباط القوي بين أجزاء الانسان وأجزاء الحياة فأصبح الكون والانسان والمجتمع وكل شيء في الحياة يسير نحو مركز واحد هو التوحيد .

فكان التوحيد منبع للارادة ومنبع للخير ومنبع لطاقات الانسان وعلى هذه قامت الحضارة الاسلامية .

وعندما نقول ان الحضارة الاسلامية حضارة توحيدية يعني بذلك انسجامها مع خط الحياة والكون وقدرتها على بناء الانسان والاستفادة من طاقاته لبناء الحياة .

فقد قامت الرسالة الاسلامية من أجل اعادة بناء الانسان وصياغته صياغة جديدة على مبدأ التوحيد ونتج عن هذه الحركة التغييرية الحضارة الاسلامية ، فعلاقة الحضارة بالتوحيد هي علاقة السبب بالنتيجة .

٢ - انها حضارة للبشرية كلها لانها لا تؤمن بالقبيلة ولا بالحدود ولا تفضل أمة على أمة فالجميع سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربي على أعجمي ولا

لأبيض على أسود إلا بالتقوى . فهي حضارة تستوعب كل البشر وتستثير كل الطاقات لبناء عالم أفضل .

ولهذا لاحظنا سرعة انتشار الاسلام بين الأمم وسرعة قيام الحضارة الاسلامية في كل البلاد الاسلامية على رغم الفوارق والحواجز .

ولو درسنا تاريخ الشعوب غير العربية التي أسلمت كشعب فارس لوجدنا كم كان للرسالة الاسلامية من تأثير في استفجار طاقات هذه الشعوب وصبها في مصب الحضارة فلو لم يكن الاسلام قد حطم كل الحواجز لما كان باستطاعته ان يصنع حضارة في بلاد فارس ما بين النهرين أو بلاد النيل . فبفضل عالمية الرسالة أصبح للحضارة الاسلامية وهج أقوى وتآلق أشد لأنها أشركت كل الشعوب في عملية البناء .

٣ - الحضارة الاسلامية حضارة تغييرية فهي لا تتوافق مع تغيّر المظهر والشكل بل تعمل على تغيير الوضع القائم من جذوره واستبداله بوضع أفضل . وينتج عن هذا التحول الجذري من واقع رديء الى واقع أفضل قيم ومثل وأفكار واستعدادات تساهم بدورها في ترسيخ الحضارة وزيادة اشعاعها .

وهي تتجانس مع المجتمع الذي تعمل على تغيير واقعه ، فإذا توقف المجتمع عن التغيير فان وهج الحضارة سيخبو ويتحول الى قشور لا تحمل الروح مثلما حدث للحضارة الاسلامية في فترة الركود والخمول فطفح هذا الخمول حتى لامس الحضارة أيضاً فغدت جسداً ميتاً لم يبق منه سوى الأشلء .

ونجم خمول الحضارة بسبب الركود الذي شهدته حركة التغيير . فالتغيير هو روح الحضارة وقد جاء في القرآن الكريم :

﴿ لا يَغَيِّرُ اللهُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ .

٤ - الحضارة الاسلامية حضارة شاملة فهي لا تقتصر على الجانب الروحي وتترك الجانب المادي وهي تهتم بالآخرة كاهتمامها بالدنيا . فهي تستوعب حياة الانسان بكل أبعادها وتستوعب نشاطه بكافة ألوانها ، فهي تبني للانسان اقتصاداً متيناً وتقيم له نظاماً اجتماعياً وسياسياً بنفس الدرجة التي ترسخ فيه القيم والمثل وتبنيه بناءً عقلياً وروحياً ليصبح عضواً نافعاً في المجتمع .

فهي ليست كحضارة اليونان التي اهتمت بعقل الانسان فقط وليست كالحضارة الغربية التي أشبعت حاجات الانسان المادية فقط ، بل هي حضارة شاملة شمول الرسالة وشمول القرآن الذي لم يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها .

وهي تدفع بالانسان الى العلم كما تدفعه الى الخلق وكما تدفعه الى عمل الخير . فهي لا تؤمن بالعلم المجرد من الخلق أو الخلق البعيد عن العلم . فكما أنَّ هناك ترابط بين مكونات الانسان فإن هناك ترابط أيضاً بين العناصر المكونة للحضارة . فلا يمكننا ان نفصل التقدم العلمي عن التقدم الخلقي وبالعكس كما لا يمكن ان تقوم حضارة اسلامية على طلب العلم وازدهار الحركة العلمية فقط في غياب التقدم في المجالات الاخرى . فعندما يتقدم الانسان الى الامام يتقدم بكل كيانه وبكل ممارساته في الحياة والرسالة هي التي تتحمل مسؤولية إحداث هذا التحول بالتربية والتعليم . يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ﴾ .

فالتزكية هي مفتاح تغيير البشر وهي مفتاح التقدم والرفق وهي الطريق الى بناء حضارة قوية قائمة على قواعد راسخة .

معطيات الحضارة الاسلامية :

اكتسحت الرسالة الاسلامية المجتمع الجاهلي وفتحت طريقها بقوة الوحي نحو بناء حضارة انسانية لم يشهد التاريخ البشري مثيلاً لها .

ومع اكتساحها لذلك المجتمع المتهوي جرفت كل ما تبقى من المجتمع الجاهلي من سمات وعقائد وأفكار وبنّت على انقاضه أفكاراً وقيماً جديدة أخذت تترسخ وتنتشر بظلالها أرجاء الكون . ونشأ على أثر هذه الحركة القوية التي قلبت كل شيء عطاء لا ينضب من القيم والافكار .

فكان أول عطاء للحضارة الاسلامية هو الانسان الفاعل في الحياة والنظام القادر على اسعاد البشر والقيم المحركة للحياة .

أولاً : الانسان الفاعل . .

تطرقنا في أول البحث حول طبيعة الانسان الجاهلي وإذا ما أردنا ان نقارن بينه وبين أي نموذج انساني في عهد الرسالة لوجدنا بوناً شاسعاً .

إذا ما أردنا أن نقارن بين أبي ذر الغفاري قبل الاسلام وبعده لكم كان الفارق كبير وشاسع فقد حولت الرسالة أبا ذر من قاطع للطريق الى صوت للعدالة يهز عروش الطغاة والى منادي للحرية والحق فقد قدّموا له الرشاوي حتى يسكت ويترك نقد السلطة فإذا بقاطع الطريق يخرج غاضباً رافضاً أية مساومة في دينه وفضل ان يعيش منفياً في الربذة على ان يساوم في دينه ، وأينما وضعنا أيدينا على النماذج الانسانية التي صنعتها يد الرسالة لوجدنا العظمة وهي تتجلى في صفحات حياتها ، فهذا عمار وذاك خباب وذلك بلال كيف كانوا وكيف أصبحوا .

ان مفخرة الاسلام هو تلك المعادن التي صنعها من لا شيء .

وان عظمة رسول الله (ص) تتجلى في أولئك الذين صنعهم من لا شيء
ودفع بهم للتأريخ كرموز للانسانية ومناثر للعلم والفضيلة .

لقد صنع في الانسان الارادة بعد ان كانت تسيره الخرافة والمعتقدات
البالية . واستثار فيه العقل ودفعه بقوة الى الحياة لبني ، ليزرع ، ليصنع وليعمل
حتى المستحيل .

وحرك في الانسان مشاعر الكرامة والعزة فأصبح لا يدنو للذائل ولا
يقرب لما حرّمه الله تعالى . وأوجد لديه شعوراً بالمسؤولية نحو كل موجود على
سطح الأرض فهو مسؤول حتى عن الحيوانات فكيف بالانسان .

قضى رسول الله (ص) رداً من الزمن وهو يصنع الرجال ويبني بهم الامة
التي أصبحت خير أمة أخرجت للناس بفضلهم . وإذا ما تابعتنا عملية البناء
للاحظنا انها بدأت بهدم العقائد القديمة ثم بناء قيم وأفكار جديدة ومن أجل
تعميق هذه القيم شرع القرآن الكريم العبادات ، الصلاة لتطهير النفوس من
الادران وتزكية القلب من الغرور والتكبر ولزيادة الاتصال بالله .

الصوم لتطهير البطون من الجشع والفروج من الأهواء وللمزيد من
الارتباط بالانسان المستضعف العاجز عن سد حاجاته اليومية من الغذاء .

والزكاة لتزكية النفوس من البخل والجشع والاستئثار وللمزيد من الارتباط
بالمجتمع .

والعبادة للبناء . . بناء الانسان والمجتمع .

وشرّع المعاملات ، البيع ، الشراء ، العقود ، لبناء الانسان ومن أجل ان
يضع كل شيء في مكانه المناسب ، فالمعاملات لبناء الانسان ولتحصين
المجتمع من الظلم والتعدي والتجاوز على الحقوق .

فعلى تلك الاسس أقام رسول الله (ص) بنيان الانسان المسلم ولم تمر فترة طويلة حتى كان الآلاف من المجاهدين والعلماء والقادة يتخرجون من مدرسة رسول الله (ص) ينشرون في الأصقاع الفضيلة والوعي فكانوا أفضل ثمرة تقدمها الرسالة الاسلامية الى البشرية فبفضل انسان واحد كأبي ذر آمن خلق كثير من جبل عامل بلبنان .

وبفضل انسان واحد آمنت أندونيسيا كلها .

وإذا كان لكل حضارة بضاعة تصدرها الى الشعوب الأخرى فإن بضاعة الحضارة الاسلامية هو الانسان الذي صدرته عبر الغزوات لينشر النور في عالم كان يخبث في الظلام .

ثانياً : النظام القادر على اسعاد البشر . .

أوجدت حركة النبي (ص) في مجتمع الجزيرة نظاماً متكاملاً تكونت أجزاؤه بمرور الزمن وأصبح هذا النظام يستوعب كل مشاكل الانسان وقضاياه لانه تولّد من تفاعل الانسان نفسه مع الحياة .

فالنظام الذي أوجده الاسلام جاء جراء حركة النبي (ص) نحو تحقيق أهدافه فهو افراز لتفاعلات جمّة في المجتمع والانسان ودور القرآن في النظام هو تعيين الاسس والقواعد والخطط العامة لهذا النظام .

وكان من الطبيعي ان يأتي هذا النظام ملبياً لحاجات الانسان والمجتمع منسجماً مع أهدافه ودوافعه في الحياة .

وكذلك وفرّ النظام الحماية الكافية لمكتسبات الانسان وحاجاته في الحياة فهو لم يترك الانسان لوحده بل أخذ بيده نحو تحقيق ما يريد في الحياة من عدالة وحرية ومساواة .

فقد أقام رسول الله (ص) نظاماً يسعد فيه البشر ، يحقق فيه الفقير أمنيته في أن يعيش غنياً كريماً ويحقق فيه الغني أمنيته في أن تساهم ثروته في غنى المجتمع ليصبح المجتمع بأسره غنياً .

ويحقق فيه المظلوم أمنيته في دفع الظلم حتى لو كان مصدره الحاكم نفسه ويحقق فيه المضطهد بسبب اللون أو الجنس أو القوم أمنيته في المساواة مع غيره ، وحتى العبيد يجدون فيه ما يرفع عنهم الحيف ويمنحهم الحرية . فأى نظام هذا الذي يسمح للأرقاء بأن يدخلوا اليه ليصبحوا بعد أيام سادة . أى نظام ذلك الذي ساوى بين بلال الحبشي وحمزة الهاشمي . وأى نظام هذا الذي ساوى بين أبي ذر المَعدِم وبين العباس الثري .

فلقد أوجد الرسول (ص) خلال حركته في مكة والمدينة أنظمة متعددة كلها تنتهي الى هدف واحد فأوجد قانوناً لبناء الحركة المجاهدة القادرة على فرض ارادتها على المجتمع وأوجد بعد ذلك قانوناً لتحويل التجمع الجهادي من صورته المصغرة الى مجتمع اسلامي كبير . ثم أوجد قانوناً لبناء الدولة الاسلامية ثم قانوناً لادارة أمور الدولة وادارة شؤون الأمة في حالة السلم وفي حالة الحرب وإذا جمعنا كل هذه القوانين لوجدناها جميعاً وهي تجتمع في نظام واحد مركزه واحد وهدفه واحد أيضاً .

مركزه هو الانسان المؤمن المكافح الصابر وهدفه هو الحرية العدالة المساواة .

ومن يدرس السيرة سيلاحظ كيف أقام رسول الله وعبر النظام الذي أوجده العدالة بكافة صنفها وألوانها من عدالة سياسية أصبح فيه الجميع مشاركون في القرار صانعون للأحداث .

وعدالة اقتصادية فلم يعد فقير واحد في مجتمع كان جلّه من الفقراء .

وعدالة اجتماعية أصبح فيه رئيس العشيرة وهو يُقدّم ابنته الى أحط الناس في السلم الاجتماعي ذلك لأن الاسلام ساوى بينهم فجعل المسلم كفء للمسلم .

ومن ثمرات النظام الذي أوجده النبي (ص) هو ضمان الأمن والاستقرار فكانت المرأة الحجازية تخرج الى اليمن دون ان يمسه ضرر . وأصبح دار الاسلام دار أمن حتى للمشركين

﴿ وإن أحداً من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ﴾ .

فالعيش بأمان حق مسلم به لكل انسان حتى لو لم يكن مسلماً .

وقد يعترض البعض بغزوات النبي (ص) التي سلبت الأمن والاستقرار من جزيرة العرب . في الاجابة كان لا بد من توضيح هذه الحقائق :

أولاً : كل الغزوات التي قام بها النبي (ص) كانت دفاعية فلم يذكر لنا التاريخ ان النبي (ص) هاجم أحداً دون ان يكون هناك مبرر للهجوم أما رداً على عدوان أو خشية قيام عدوان .

ثانياً : كان هم الرسول (ص) الأول في كل الغزوات هو تجنب القتال مثلما حدث في غزوة تبوك عندما أقفل راجعاً بعودة جيش الروم . وعندما كان جيش الخصم ينهزم كان المسلمون يتركونهم ولا يحاولوا ان يزيدوا في القتل .

ثالثاً : أثناء القتال كان المسلمون في منتهى الانسانية في تعاملهم مع الجريح ومع الاسير ، أضف الى ذلك تحريم قتل النساء والاطفال وقطع الاشجار والأثمار .

وكان لا بد لمن يدرس تاريخ الاسلام ان يستوعب هذه المعاني وهو

يعايش تلك الحقبة الزمنية حيث كان هم المقاتل هو القتل مهما كان لونه ومصدره .

لقد جاء الاسلام بمبادئ انسانية وقام بتطبيق هذه المبادئ حتى في الحروب فكيف في حالة السلم .

وكان علينا وعندما نريد ان نقيم تلك المكاسب ان ننظر اليها من خلال وضع الانسان والمجتمع في العصر الجاهلي .

رابعاً :بعث القيم البناءة ..

قام مركز للدراسات الحضارية في واشنطن بتجربة فريدة ، أخذ عينات مختلفة من شعوب مختلفة وتم تعريض هذه العينات الى توجيه مركز حول العمل ، وكان الهدف من هذا التوجيه ايجاد مشاعر حب اتجاه العمل وازالة أي شعور بالضيق والكره وبعد فترة من التثقيف والايحاء المركز بضرورة العمل أعيدت العينات الى أماكنها ، وبعد فترة من الوقت وضعت هذه العينات تحت المراقبة فوجد المركز ان نسبة الانتاجية للعينات التي خضعت للتجربة كانت أكبر من السابق وانها أيضاً متفاوتة بين العينات المختلفة والتي أخذت من شعوب مختلفة فتبين ان جميع العينات استجابت للايحاء المركز لكن كان تجاوبها مختلفاً من شعب لآخر .

تذكرتُ هذه الحكاية التي قرأتها في احدى المجلات وأنا اكتب عن القيم التي جاءت بها الرسالة والتي أستطيع ان أشبهها بالفيتامين الذي يزيد في الأمة النشاط ويضعف لديها العزيمة والارادة مثلما يفعل الفيتامين في تقوية البدن وتمكينه من انجاز النشاطات المختلفة .

وقد جاء التركيز على هذه القيم في كل مناسبة وفي كل حادث يستدعي ذلك وقام القرآن الكريم بدور كبير في زرع هذه القيم لدى المجتمع المسلم

فهي مفردات تركب الحضارة الاسلامية . ونستطيع ان نشبه عمل القيم البناءة في المجتمع بعمل البطارية التي بواسطتها تتحرك دواليب الحياة وتتسارع عجلات المجتمع الى الأمام .

وكما البطاريات بحاجة الى شحن باستمرار بواسطة أجهزة خاصة فكذلك هذه القيم بحاجة الى شحن متواصل ويؤمن الايمان بهذا الدور كلما ضعفت القيم في النفوس .

من هنا فإن المجتمع بحاجة الى هذه القيم لكي يتمكن من الحركة بصورة ذاتية . والقيم التي جاء بها الاسلام وبني عليها حضارته هي :

١ - السلام ..

فقد دعى الاسلام الى السلم فتحية المسلم عندما يلتقي بالمسلم الآخر هو السلام وقد قال الله تعالى ﴿ وان جنحوا للسلم فأجبح لها ﴾ (الانفال ١) .

﴿ يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ﴾ (البقرة ٢٠٨) .

﴿ والله يدعوا الى دار السلام ﴾ (يونس ٢٥) .

وقال (ص) : (يا أيها الناس افشوا السلام)^(١) .

والسلام هو الأمن والطمأنينة وبعث الطمأنينة في نفوس الغير وهو قيمة حضارية وركن من أركان التقيف الاسلامي فالسلام هو شعار المسلم في البيت بين أبنائه وأهله وفي المجتمع بين أخوته واصدقائه وفي المعاملة بينه وبين المشتري أو البائع .

فالسلم الذي أوجده النبي (ص) هو سلام في العلاقات الاسرية وفي

(١) كلمة الرسول الاعظم ، السيد الشيرازي : ص ١٠٩ .

العلاقات الاجتماعية وفي العلاقات الاقتصادية وحتى في العلاقات الدولية .

والسلام يوجد أجواء البناء ويربط بين القلوب ويُركّز المثل ويوجد الاحساس بالثقة والطمأنينة . وأول ما يبدأ الاسلام هو ان يوجد السلام والطمأنينة في نفس الانسان ثم ينتقل من العالم الداخلي الصغير الى العالم الخارجي الكبير . فكل شيء في الاسلام يدعو الى السلام .

وكل مسلم مسؤول عن السلام ، عليه ان يعمل من أجل أن يسود السلام ليس وطنه فحسب بل العالم بأسره . فما أحوج عالمنا اليوم وهو يموج بالصراعات وتطحنه الحروب والنزاعات ، ما أحوجه الى السلام . . لكن من يستطيع ان يوفر له هذا السلام غير الحضارة الاسلامية .

٢ - التعاون . .

لا يستطيع الانسان ان يعيش لوحده فهو بحاجة الى الآخرين . فوصاه الاسلام بالتعاون وهو طريقه الى التكامل ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان ﴾ .

وقال النبي (ص) :-

* طوبى لمن أنفق الفضل من ماله .

* طوبى لمن حسن مع الناس خلقه وبذل لهم معونته .

* يلزم الحق لامي في أربع : يحبون التائب ويرحمون الضعيف ويعينون المحسن ويستغفرون للمذنب .

وقال أيضاً (ص): أربعة ينظر الله اليهم ويذكهم ، من فرّج عن لهفان كربة ، ومن أعتق نسمة ، ومن زوّج عذبا ، ومن حج ضرورة .

فالثلاثة الأولى تدعوا الى التعاون . وقد استطاع النبي (ص) وخلال فترة قياسية ان يوجد مجتمعاً متعاوناً غنياً يتحمل عبأ الفقير وعالمه يتحمل عبأ الجاهل . وأبرز صورة لهذا التعاون المؤاخاة بين الانصار والمهاجرين . وكان من مصاديق المؤاخاة هو تقسيم الانصاري ثروته بينه وبين المهاجر ، وقد وصل أمر المؤاخاة أن طلب سعد بن الربيع من عبد الرحمن بن عوف ان يختار أحد زوجتيه كي يطلقها ليتزوجها عبد الرحمن ، فأين نجد مثل هذا التعاون وهذه الأخوة غير الاسلام .

لقد استطاع الاسلام ان يبني نظاماً رائعاً من التكافل الاجتماعي قائماً على مبدأ التعاون وظل المسلمون ولفترة من الزمن شعارهم التعاون . واستطاعوا ان يحققوا أكبر الانتصارات وأن يحققوا ازدهاراً اقتصادياً بواسطة هذا الشعار لكن وبعد ان ضعف الايمان في المجتمع الاسلامي ضعفت روح التعاون بين المسلمين فأخذوا بالتراجع . فما أخرى أمتنا ان تعود لتلتزم بهذا الشعار وترجمه بصورة عملية في حياتها لتعيد مجدها وعزتها من جديد .

٣ - المسؤولية . .

من أساليب الرسالة في اشراك الناس في البناء هو اشعارهم بالمسؤولية فليس هناك انساناً واحداً يعيش على هذه الارض متجرد عن المسؤولية .

* خمس من أتى الله عزّ وجلّ بهنّ أو واحدة منهنّ أوجب له الجنة : من سقى هامة صادية أو أطعم كبداً هافية أو كسى جلدة عارية أو حمل قدماً حافية أو أعتق رقبة عانية .

* وقال أيضاً : إذا كان يوم القيامة ، لم تزل قدما عبد حتى يسأل عن أربع ، عن عمره فيم أفناه ، وعن شبابه فيم أبلاه ، وعما اكتسبه من أين اكتسبه

وفيم أنفقوه وعن حبنا أهل البيت .^(١)

* وقال أيضاً انصحو الله في عباده ، فانه من استرعى شيئاً من أمور الناس ، ثم لم ينصح لهم ، حرّم الله عليه الجنة^(٢) .

* أربعة لأربعة ، لا لأربعة : المال للانفاق لا للامساك ، والعلم للعمل لا للمجادلة ، والعبد للتعبّد لا للتنعّم ، والدنيا للعبرة لا للعمارة^(٣) .

* أنكر المنكر بيدك ، فإن لم تستطع فبلسانك فان لم تستطع فبقلبك ، وذلك أضعف الايمان^(٤) .

* أيها الناس أكلفوا من الأعمال ما تطيقون فان الله لا يملّ من الثواب ، حتى تملوا من العمل وخير الأعمال ما ديم عليه^(٥) .

بالمسؤولية أصبح كل فرد من أفراد المجتمع الاسلامي عنصراً فاعلاً مؤثراً وأصبح هذا المجتمع متحركاً متكافئاً مستجيباً لما هو مطلوب منه . وهذا هو حال المجتمع الاسلامي الذي أصبح يحمل بعضه بعضاً فلم يعد يوجد انسان واحد في المجتمع الاسلامي مستثنى من التكليف وبهذه الروح العملية أصبح المسلم يبحث عن أي موقع للعمل حتى يرفع عن نفسه التكليف . وإذا كان وراء الانبعاث الاسلامية من سبب فإن الشعور بالتكليف وانطلاق هذا الشعور من المحفزات الذاتية هو السبب في كل تقدّم أحرزه المسلمون خلال فترة قصيرة من عمرهم . فتحمل أفراد المجتمع الاسلامي للمسؤولية خفف الكثير من أعباء

(١) كلمة الرسول الاعظم، السيد الشرازي: ص ٥١١ .

(٢) نفس المصدر السابق: ص ١١٣ .

(٣) نفس المصدر السابق .

(٤) أدب الدين والدنيا، الماوردي: ص ١٠٢ - طبع بيروت .

(٥) أدب الدين والدنيا، الماوردي: ص ١١٣ .

الدولة لانها وجدت من يشاركها العمل وينجز قسماً كبيراً من الأعمال التي توكل في العادة الى الدول .

ومن ايجابيات التكليف عدم حصر مسؤولية الدفاع عن الوطن بعهدة فئة محددة من الناس فالكل مسؤولون ويتحملون أعباء هذا العمل وأي عمل آخر تقتضيه المصلحة الاسلامية العامة .

٤ - الأخوة :

أضحى الشعار الأول للمجتمع الاسلامي والذي لازال مدوياً هو الآية الكريمة انما المؤمنون أخوة فقد أرسى رسول الله (ص) دعائم المجتمع الاسلامي على مبدأ المؤاخاة وظلّ يوصي أصحابه (اياك وهجران أخيك فان العمل لا يتقبل مع الهجران) .

وقال أيضاً : المؤمنون اخوة تتكافأ دماءهم وهم يد على من سواهم ، يسعى بذمتهم أدناهم^(١) .

وقد شاهدنا ثمرة الاخوة الاسلامية وكيف جعلت من المجتمع الاسلامي الوليد قادراً على الوقوف على قدميه وكيف استطاع هذا المجتمع وعبر الوحدة ان يلغي الخلافات وان يزيل الحواجز بين قبائل متقاتلة وكيف تمكن هذا المجتمع ان يتجاوز المشاكل الاقتصادية ومشاكل السكن والثروة عبر هذا المبدأ الاسلامي . فلو أعاد المسلمون تطبيق هذه القاعدة فهل سيبقى في مجتمعنا الاسلامي فقير أو محروم ، وهل سيبقى في هذا المجتمع ظلم وتعدي على الحقوق .

وجميل جداً ان دائرة الأخوة لم يحصرها الاسلام في نطاق ضيق بل وسعها لتشمل البشر أجمع ، فعن علي بن أبي طالب (ع) وهو تلميذ

(١) كلمة الرسول الأعظم - ص ١٠٨ .

رسول الله (ص): الناس أما أخ لك في الدين أو أخ لك في الخلق .

فالجميع أبناء لأب واحد هو آدم . ومن هذا المنطق أخذ الاسلام يتعامل مع غير المسلمين فتعامل مع اليهود في بداية الامر كأخوة وجعلهم أمة مع المسلمين .

والاسلام بهذا المنطق يريد ان يعمق مشاعر الإلفة والمحبة بين الناس حتى بين المسلم وغير المسلم حتى يسود الوثام والسلام والتعاون المجتمع البشري .

وكان للمسلمين تجربة رائدة في تطبيق مبدأ الأخوة ليس على صعيد أنفسهم فقط بل حتى مع من يعيش معهم من أصحاب الديانات الاخرى فغير المسلم لم يكن ليشعر بالغرابة بل كان يحس بأنه واحد من المجتمع الاسلامي .

وإذا راجعنا تأكيدات النبي (ص) على الأخوة وما تضمنته سيرته المباركة من صور حية . فاننا سنخرج بنتيجة ان غاية الاسلام هو بناء مجتمع متراس من داخله وليس بقوة خارجية متكافل بذاته وليس بقوة خارجية وان طموحه ان تسود هذه العلاقة المجتمع البشري برمته وهذا ما كان يعمل من أجله الاسلام .

وإذا ما نظرنا الى عالمنا اليوم وما فيه من أحقاد وصراعات وحواجز نفسية وقومية وعرقية فهذا أسود وذاك أبيض ، هذا غني وذاك فقير لوجدنا ان القسم الأعظم من مشاكل العالم ناتجة عن سوء العلاقة بين الانسان والآخر وينتج عن ذلك سوء العلاقة بين دولة وأخرى . فإذا ما سادت الأخوة الشعوب بأجمعها فكم من مشكلة مستعصية ستذلل وكم من حروب وويلات تنتظرها البشرية ستبتدئ وكم من مآسي وكوارث اقتصادية واجتماعية يمكن مواجهتها بشعار الأخوة .

٥ - الأمل . .

يعيش الانسان في هذه الحياة على الأمل وبدون الأمل يضحى ميتاً غير قادر على الحركة . فالأمل هو الذي يحيي النفوس المتعبة وينقذها من موت محقق .

والشعوب المضطهدة والمحرومة لا ينفعها ساعة النهوض إلا الأمل ولا يسعفها ويشدها الى الحياة إلا الأمل .

وكان رسول الله (ص) يقاوم عوامل الضعف والتهرؤ في المجتمع ببعث مشاعر الأمل فبالأمل يعاد صياغة الانسان من جديد . فبالأمل استطاع رسول الله وصحابته ان يقاوموا سنين عصيبة من العذاب قضوها في مكة وبالأمل استطاع المسلمون ان يواجهوا الاعداء وهم أكثر منهم عدة وعدداً .

فالأمل هو مفتاح النجاح ونقطة التحرك .

أما تدري كيف قلع رسول الله (ص) الخوف والهلع من نفوس أصحابه يوم الأحزاب . . وبالأمل وقف المسلمون في مواقعهم بينون ويجاهدون حتى استطاعوا ان يقيموا الاسلام في جزيرة العرب برمتها ثم لم يكتفوا بذلك . . بل واصلوا طريقهم حتى أوصلوا الاسلام الى أواسط أوروبا غرباً وحتى الصين شرقاً كل ذلك بالأمل .

فبالأمل تتوهج شعلة الحياة في أعماق الانسان وتدفعه نحو العمل .

يقول رسول الله (ص) في ذلك : الأمل رحمة لأمتي ، ولولا الأمل ما أرضعت الأم ولداً ولا غرس غارس شجرا .

أجل لولا الأمل لما كانت الحياة ولما عمل الانسان ولما ضحى المجاهدون .

والقرآن الكريم محفوف بآيات الأمل فمع كل تكليف يكلف به الانسان يضع الى جانبه الأمل .

* ﴿ وأن ليس للانسان إلا ما سعى . . وان سعيه سوف يرى ﴾ .

* ﴿ ان جندنا لهم الغالبون ﴾ .

* ﴿ ان تنصروا الله فلا غالب لكم ﴾ .

وبالأمل يزداد الانسان ثقة بنفسه وثقة بربه وثقة بأخوته ومجتمعه ويصبح حريصاً على وقته حريصاً على طاقاته وامكاناته .

فلا يأس في الاسلام ﴿ ولا تيأسوا من روح الله ﴾ (يوسف ٨٧) ، ﴿ لا تقنطوا من رحمة الله ﴾ (الزمر ٥٣) . واليأس هو عامل تفتيت وعامل تخدير وعامل تخريب .

والأمل هو عامل نهوض وعامل حركة وعامل بناء .

وإذا ما استولى على مجتمع اليأس فانه سيكون مجتمعاً متأخراً ومتخلفاً .

وبالعكس المجتمع الذي يعيش الأمل هو المجتمع الذي يتقدم .

فالأمل هو السبيل الى الحضارة .

ويوم فقدت أمتنا الاسلامية الأمل فقدت ثقتها بنفسها ، وكانت النتيجة هي التبعية للغرب والشرق وتخلف في مناحي الحياة وتراجع يوماً بعد آخر .

فالأمل هو سبيلنا الى النهوض والتقدم من جديد .

٦ - التفكير :

ألغى المجتمع الجاهلي أية صلة له بالفكر والتفكير وأحل محله الخرافة والوهم وفي الوقت الذي كان هذا المجتمع يسبح في ظلمات الجهل والتخلف

طرق الاسلام أبواب العقول المعطلة فدعى الانسان الى التفكير وطلب منه ان ينزع عن نفسه الوهم والخرافة وأن تستقيم حياته على الفكر السليم والعقل النير فعشرات الآيات جاءت لتفتح الأبواب الموصدة وتفتح الطريق أمام عمل العقل فكان من الكلمات الكثيرة التي وردت في القرآن الكريم ﴿لعلهم يتفكرون﴾ .

وقد أظهر الاسلام هذا الاهتمام الكبير بالفكر والتفكير بسبب نظره الى العقل .

فالعقل من أعظم وسائل الانسان المعرفة الخير والعمل به .

قال رسول الله (ص): انما يدرك الخير كله بالعقل . ولا دين لمن لا عقل له^(١) .

وقال أيضاً : لكل شيء آلة وعدة ، وآلة المؤمن وعدته العقل^(٢) .

فالاسلام يعتمد على العقل كمساعد له في نشر الفضيلة وفي استتباب الخير ولا نجد في تاريخ البشر ديناً أو مذهباً اهتم بالعقل كما اهتم الاسلام .

والرسالة الاسلامية في أيامها الأولى لم تكن لتستطيع ان تشق طريقها إلا بازالة الصدأ الذي رأن على العقول وفتح الطريق أمام العقل لبدأ عمله ونشاطه حتى أصبح تفكير ساعة خير من عبادة سنة كما ورد في حديث للنبي (ص) .

وقال أيضاً : لا عبادة كالتفكير . وأيضاً : لا عقل كالتدبير .

ووضع الاسلام منهجاً للتفكير يستند على الملاحظة الواقعية ويعتمد على سلامة الحواس الانسانية وأمره بالابتعاد عن كل ما يغفل الفكر من الاعتقادات

(١) تحف العقول : ص ٤٤ .

(٢) نفس المصدر .

الوهمية ومن الايمان بالخرافة ، وأمره أن يتجنب شرب الخمر وكل ما يضعف الفكر ويسلب من الانسان العقل .

وبعد ان وضع المنهج طلب من الانسان ان يفكر في كل شيء لأن من تفكر أبصر كما قال الإمام علي (ع) .

وحتى في مجال العبادة يجب ان لا يعطل الفكر ، ففي وصية النبي (ص) الى أبي ذر :

رعتان مقتصرتان في التفكير خير من قيام ليلة والقلب ساه^(١) .

وتفكير الانسان على هدى منهج سليم حصانة له من الانحراف ومنطلق له نحو البناء والازدهار فبالفكير تتقدم الحياة أشواطاً كبيرة والتفكير تستثمر موارد الحياة والتفكير تزداد المعرفة وتزداد العلوم والتفكير يكتشف الانسان الخطأ ويكتشف الى جانبه الحل أيضاً .

وبالتفكير ازدهر المجتمع الاسلامي وانتشر العلم وفتحت للمعاهد أبوابها لطلب العلم .

وبالتفكير بلغ الاسلام أهم أهدافه في خلق الانسان الايجابي المتفاعل القادر على البناء .

فقد كانت عقبات كثيرة تحول دون تقدم الانسان الى الأمام عقبات نفسية وعقبات في الواقع الاجتماعي والاقتصادي ولم يكن من سبيل لاقتحام تلك العقبات إلا بالابداع .

وهذه من أهم سمات حركة النبي (ص) حيث كانت تشق طريقها بالابداع . الابداع في الحرب وابتكار اسلوب الصفوف بدلا من الكرّ والفرّ كان

(١) مكارم الأخلاق: ص ٥٤٧.

سبباً للانتصار في بدر والابداع في حفر الخندق هو الذي حال دون هزيمة المسلمين والابداع في صنع المنجنيق هو الذي أجبر أهل الطائف الاذعان للحق .

ومسيرة الرسالة مملوءة بصوره من هذا الابداع الذي هو نتيجة للتفكير السليم والتخطيط الحكيم .

٧ - العدل

من أهداف الاسلام اقامة مجتمع متوازن متجانس الأجزاء وهذا لا يتم إلا بسيادة العدل . فركز الاسلام وقادته الميامين على العدل كقيمة حضارية لها أبعادها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية .

فالأب عندما يعدل في البيت بين أولاده وزوجاته وعندما يعدل الفرد وهو في الوسط الاجتماعي أو الوسط الوظيفي وعندما يعدل الحاكم بين الرعية يسير هذا المجتمع نحو الخير لا يعرقل مسيرته أي معوّق . وقد قال رسول الله (ص) في العدل .

عدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة^(١)ض وهو يشمل عدل الأب والأم في البيت وعدل كل انسان مسلم في المجتمع وعدل المسؤول بين موظفيه وعدل الحاكم بين الرعية . فعدل ساعة سيؤدي الى حماية المجتمع من انماط الظلم ويجعله مجتمعاً مستقيماً يسوده الخير فهو إذن أفضل من سبعين سنة من العبادة .

وقال أيضاً : من صاحب الناس بالذي يحب ان يصاحبه كان عدلاً^(٢) .

(١) العلامة المجلسي ، بحار الأنوار : ج ٧٥ ص ٣٥٢ .

(٢) العلامة المجلسي ، بحار الأنوار : ج ٧٧ ص ١٧١ .

فالعَدل في العلاقات الاجتماعية هو أساس العَدل في العلاقات السياسية .

وقال أيضاً (ص): أول من يدخل النار أمير لم يعدل^(١) .

من ولى عشرة فلم يعدل فيهم جاء يوم القيامة ويداه ورجلاه ورأسه في ثقف فأس^(٢) .

وقد أرسى الاسلام بناء المجتمع على عدة أنظمة متداخلة ، نظام اقتصادي ونظام أسري ونظام اجتماعي ونظام سياسي . وكانت القاعدة القوية التي قامت عليها كل تلك الأنظمة هو العَدل . . فالعَدل هو أساس الأسرة وهو اساس الاقتصاد وهو أساس المجتمع وهو أساس الحكم .

وننتهي من ذلك ان العَدل هو ركيزة النظام في الحضارة الاسلامية وبدون هذه القاعدة يخرّب بناء الحضارة مثلما حدث في الفترة المظلمة من التاريخ الاسلامي عندما انهارت الحضارة الاسلامية وانهارت الأنظمة الاسلامية والاقتصادية بانعدام العدالة .

وبالعَدل تزدهر الحياة ويسود الأمن ويعرف كل انسان ما له وما عليه . فالحقوق والواجبات تتعين من خلال العَدل . وبواسطة العَدل تتقدم الحياة الاقتصادية ويتطور الانتاج ويتقدم المجتمع صوب الاكتفاء الذاتي .

وتحوّل العَدل في المجتمع الاسلامي الى شعار يهتف به كل انسان ويقوم عليه كل عمل خير حتى سادت العدالة هذا المجتمع ، والعدالة هي غاية من غايات الرسالة الاسلامية ووظيفة من وظائفها في ارساء دعائم حضارة عالمية تستوعب حاجات كل البشر .

(١) نفس المصدر السابق .

٨ . العمل الصالح:

من الشعارات الاسلامية في دفع المجتمع الى التقدم هو العمل الصالح .
وليس هناك من لفظ كثر وروده في القرآن الكريم كهذا اللفظ حتى أصبح يتردد
على ألسنة المسلمين . وما من لقاء بين رسول الله (ص) وأحد أصحابه إلا
والدعوة الى العمل الصالح على رأس كل حديث .

جاء قيس بن عاصم المنقري على رأس وفد من تميم وقال
لرسول الله (ص): عظمي . . فمن جملة ما وعظه :

وانه يا قيس لا بد لك من قرين يدفن معك وهو حي وتدفن معه وانت ميت
فان كان كريماً أكرمك وان كان لثيماً أسلمك ، لا يحشر الا معك ، ولا تحشر
الا معه ولا تسأل الا عنه ، ولا تبعث الا معه فلا تجعله الا صالحاً فانه ان كان
صالحاً لم تأنس إلا به ، وان كان فاحشاً لم تستوحش إلا منه وهو عملك^(١) .

وقال (ص) أيضاً: صنائع المعروف تقي مصارع السوء^(٢) .

وقال (ص): العمل كنز والدنيا معدن^(٣) .

والعمل الذي يحبذه رسول الله (ص) هو الذي يأتي بعد العلم فسيكون
حينذاك عملاً صالحاً .

قال النبي (ص): من عمل بما علم ، ورثه الله علم ما لم يعلم^(٤) .

(١) كلمة الرسول الاعظم ، السيد الشيرازي : ص ١١٤ .

(٢) نفس المصدر السابق .

(٣) بحار الأنوار: ج ٧٧ ص ١٨٣ .

(٤) بحار الأنوار: ج ٤٠ ص ١٢٨ .

ويجب ان يتطابق العمل مع العدل. قال النبي (ص) لعلي (ع): يا علي لا خير في قول الام مع الفعل.

والعمل هو أساس التقدم في اي مجتمع من المجتمعات وقد رفعت الماركسية منزلة العمل إذ جعلته الأساس الذي يحدد مستوى معيشة الانسان. أما الاسلام فقد رفع من شأن العمل حتى أصبح مقياساً لمعرفة الانسان ليس في الدنيا وحسب بل في الآخرة أيضاً.

فالمسلم يعمل ليس من أجل الأجر الدنيوي فقط بل من أجل نيل رضى الله سبحانه وتعالى وهذا هو أكبر محفز للعمل والانتاج. فقد أوجد الاسلام محفزات أقوى من الدوافع الدنيوية في ربط الانسان بميدان العمل فكان كل فرد يعمل لغايات أسمى ، وهذا ما جعل المجتمع الاسلامي في حالة استفار وتسابق نحو ميدان العمل بخلاف ما كان عليه الانسان قبل البعثة فقد كانت النظرة السلبية تجمّد كفاءاته وتجعل منه عضواً راكداً في المجتمع.

فكان العربي ينظر الى بعض الأعمال بنظرة ازدراء ، وجاء الاسلام ليستأصل أية نظرة سلبية نحو الحياة والعمل. فكان من نتائج تركيز هذه الفكرة في نفوس الناس ان تحوّل المجتمع الى خلية نحل لا تفر من العمل وحدثت الثورة الانتاجية التي غيرت الوضع الاقتصادي للمسلمين.

ونظرة الى مجتمعاتنا الاسلامية اليوم نجد انها بحاجة الى ثورة انتاجية واسعة.

فثروات العالم الاسلامي من الكثرة بحيث تؤهله القيام بأكبر نهضة اقتصادية لكن المشكلة تكمن في الانسان ولا تحل معضلة الانسان الا بثورة ثقافية يستعيد فيها المجتمع تلك القيم البناءة التي جاء بها الاسلام. ومنها هذه القيمة الحضارية التي تتأتى من العمل الصالح.

ولادة جديدة

بهذه القيم وغيرها وضع النبي (ص) أسس بناء الحضارة الانسانية وجعل من هذه الحضارة وسيلة لسوق الناس الى الأهداف التي خلقوا من أجلها. ففي ظل هذه الحضارة يجد الانسان انسانيته ويجد ثمرة أعماله ونشاطه في تقدم المجتمع أشواطاً الى الأمام.

ويوم تخلينا عن هذه القيم فقدنا حضارتنا وأصبحنا نستجدي ما نريده من حضارات الشرق والغرب. وباتت بلادنا تعيش على موائد أعداءها الذين سلبوا ثرواتها ونهبوا منها كل ما كانت تملكه من ثروات حضارية بقاء الحضارة الاسلامية.

وهزيمتنا أمام الحضارات الغربية والشرقية لم تكن عسكرية أو سياسية بل كانت هزيمة القيم ، انهزمنا يوم أنطفأت شعلة القيم في نفوسنا.

يوم حلت العداوة بين المسلم والمسلم بدل السلام. فسالمنا أعداءنا وعاديننا وأخواننا ويوم تقطعت جسور التعاون بين المسلم والمسلم ويوم أخذ المسلم ينظر الى أخيه المسلم نظرة احتقار وتكبر وحقد وكراهية ويوم أصبح همنا العمل الصالح بصرف الوقت الثمين في مواخير الفساد وفي أماكن اللهو واضعين شعار العمل الصالح خلف ظهورنا.

ومن يوم أصبنا باليأس وتشاءمنا من المستقبل وأعتقدنا ان لا خلاص لنا من الواقع المتردي.

يوم أعتقدنا ان التخلف هو قدرنا مع ان القرآن وصفنا بأننا خير أمة أخرجت للناس وأعتقدنا ان التراجع هو حتمية تاريخية في حياتنا كشعوب نامية مع ان الله قد وعدنا وعدا حسنا فقال في كتابه ﴿ ونريد ان نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ﴾.

واعتقدنا أيضاً ان التبعية للغرب أو الشرق هو سبيلنا للتقدم مع ان القرآن الكريم يقول: ﴿ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً﴾ (النساء ١٤١).

فأخذنا نتراجع يوم خف الايمان في نفوسنا فأصبحنا بلا قيم وبلا حضارة فهان علينا الاحتلال الأجنبي واستعذب البعض منا التبعية للشرق والغرب. واستمرأ البعض التخلف والجهل والأمية.

واليوم لا مخرج من هذا الواقع المزري الا بولادة جديدة نعود فيها الى رسول الله (ص) نسترضع من تلك القيم التي جاء بها نأخذ منها جرعات حتى نقوي بها ارادتنا وعزيمتنا على النهوض. فقد أصبنا بالوهن خلال قرون عديدة من التراجع ولا علاج لنا في البداية الا جرعات القيم (السلم ، التعاون ، الأخوة ، العدالة ، العمل الصالح ...).

وبعد ان نأخذ تلك الجرعات تصبح نفوسنا وعقولنا معافة سليمة قادرة على النهوض من جديد عندها سيكون طريقنا الى التقدم والرفي سهلاً معبداً.

فبعد تقوية الروح والارادة تأتي مرحلة الحركة والنهوض وهذا منهج رسول الله (ص) دستور لنا. منهجه يوم كان في مكة يقارع الظالمين ولا يجد سبيلاً للمقاومة الا بايجاد النواة القوية الصابرة. ثم تتحول النواة الى تجمع منظم تسوده الأخوة والطاعة والانضباط. ومنهجه يوم قدم الى المدينة فكان أول عمل يبادر اليه هو ارساء قواعد الدولة الاسلامية فالدولة هي الدرع الواقي الذي يوفر الحماية لذلك التجمع الايماني والدولة هي الاداة لتطبيق الأحكام الألهية وهي الوسيلة لا يصال صوت الاسلام الى أرجاء العالم.

وكان الطريق الذي سلكه النبي (ص) في اقامة الدولة طريقاً واضحاً وله يترك أمراً غامضاً ألا أوضحه لنا من خلال القول أو الفعل فلا حجة لنا بعد ذلك.

ان الرسول (ص) لم يكن رجلاً جاء لهذه الدنيا ثم ذهب عنها . بل هو نبي أرسله الله برسالة الاسلام وهو خاتم النبيين ، اي انه لا نبي من بعده فكان لا بد لمنهجه من ان يبقى . . ولا بد هناك من حملة لهذا المنهج يتقاطرون على تطبيقه وهذا هو طريقنا الى النبي (ص) .

فما الفائدة ان نحب النبي (ص) ونسير بنهج غيره ، ما الفائدة ان نردد اسمه ونحن لا نفقوا أثره خطوة بخطوة ولا نغير أية قيمة لكلماته ووصاياه ، ما الفائدة ان نزوره كل عام ونحن لا بهتدي بهدية ولا نسترشد بتعاليمه .

وكأن الله لم يطلب منا ﴿ ولقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ﴾ .

فهو أسوة لنا في كل شيء ليس في الخلق الحميد ومعالي الأخلاق فقط .

بل في العمل من أجل توعية المجتمع الجاهل .

هو أسوة لنا في ايجاد المجتمع الاسلامي القيمي .

هو أسوة لنا في اقامة الدولة الاسلامية وهو هدفنا المنشود وهدف كل مستضعف ومحروم في هذه الأرض . فوق الله العاملين من أجل اقامة الدولة الاسلامية الكبرى متأسين بنبيهم الكريم (ص) ، فهم الذين قال فيهم النبي (ص) في وصيته لعلي بن أبي طالب (ع) : يا علي أعجب الناس إيماناً وأعظمهم يقيناً ، قوم يكونون في آخر الزمان ، لم يلحقوا النبي وحجب عنهم الحجة ، فامنوا بسواد على بياض . وصدق رسول الله (ص) .

فهرست المصادر

- أ -

- أصول الكافي ، العلامة الكليني ، دار التعارف بيروت .
- أعيان الشيعة ، الأميني ، المجلد الأول ، دار التعارف بيروت .
- الأصابة في تمييز الصحابة ، ابن حجر ج ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، دار الكتب العلمية بيروت .
- الأستيعاب في معرفة الأصحاب ، ابن عبد البر المالكي الأندلسي ج ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، القاهرة .
- أسد الغابة ، ابن الأثير ، دار أحياء التراث العربي .
- الأحكام السلطانية ، الماوردي ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
- ادب الدين والدنيا ، الماوردي ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
- أقتصادنا ، آية الله الصدر . دار التعارف ، بيروت .
- الأقتصاد، آية الله الشيرازي ، مؤسسة الوفاء ، بيروت .
- الإسلام وحركة التاريخ ، أنور الجندي ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت .

الإسلام وأيديولوجية الإنسان ، سميح الزين ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت .

أضواء على السنة المحمدية ، محمود أبو ريه ، دار المعارف ، القاهرة .
الإسلام ومنطق القوة ، محمد حسين فضل الله ، الدار الإسلامية ، بيروت .

- ب -

بحار الأنوار ، العلامة المجلسي ، الجزء ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ مؤسسة
الوفاء ، بيروت . - ت -

تاريخ الرسل والملوك ، محمد بن جرير الطبري ، دار المعارف ، مصر ١٩٨٦ .
تأريخ الإسلام السياسي ، د. حسن إبراهيم حسن ، دار احياء التراث
العربي ، بيروت .

تحف العقول ، أبو محمد الحراني ، المطبعة الحيدية ، النجف
الأشرف .

تأريخ اليعقوبي ، اليعقوبي ، المجلد الثاني ، دار صادر ، بيروت .

- ح -

حياة محمد ورسائله ، مولانا محمد علي ، تعريب منير البعلبكي ، دار العلم
للملايين ، بيروت .

الحياة ، محمد رضا الحكيمي ، الجزء ١ ، ٢ ، بيروت .
الحجاز والدولة الإسلامية ، إبراهيم بيضون ، المؤسسة الجامعية ،
بيروت .

حياة محمد ، محمد حسين هيكل ، القاهرة .

دراسات في السيرة النبوية ، عادل الدين خليل ، مؤسسة الرسالة ، بيروت .

الدولة الإسلامية ، محمد تقي النبهاني .

الدرجات الرفيعة في طبقات الشيعة ، السيد علي خان ، مؤسسة الوفاء بيروت .

- ر -

رجال حول الرسول ، خالد محمد خالد .

الرسول القائد ، محمود شيت خطاب .

- س -

سيرة سيدنا محمد (ص) ، ابن هشام ، دار أحياء التراث العربي ، بيروت ١٩٨٥ .

السيرة الحلبية ، برهان الدين الحلبي ، دار المعرفة ، بيروت .

سنن أبي داود ، ابي داود السجستاني ، دار الفكر ، بيروت .

السيرة النبوية ، أبو الحسن الندوي ، دار الشروق جدة .

السنن الكبرى البيهقي ، دار المعرفة بيروت .

سيرة المصطفى ، هاشم معروف الحسني ، دار التعارف بيروت .

- ش -

شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد ، دار أحياء الكتب العربية ، بيروت .

- ص -

الصحيح من سيرة النبي ، جعفر مرتضى العاملي ، ج ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، طبع
إيران .

الصياغة الجديدة ، آية الله الشيرازي ، مركز نشر الفكر الإسلامي طبع
إيران .

الطبقات الكبرى ، لمحمد بن سعد ، دار صادر ، بيروت .

- ع -

العروة الوثقى ، السيد كاظم اليزدي ، مؤسسة الأعلمي بيروت .
عبرية محمد ، عباس محمود العقاد ، القاهرة .

- غ -

الغدير ، العلامة الأميني ، دار الكتب الإسلامية طهران .

- ف -

في ظلال القرآن ، سيد قطب ، دار الشروق بيروت .

فقه السيرة ، محمد الغزالي ،

فقه السيرة ، محمد رمضان البوطي ، دار الفكر بيروت .

فجر الإسلام ، أحمد أمين .

الفكر الإسلامي وصلته بالاستعمار الغربي ، محمد البهي ، مكتبة
وهبة ، القاهرة .

- ك -

الكشاف ، محمود بن عمر الزمخشري .

كلمة الرسول الأعظم ، السيد حسن الشيرازي ، موسوعة الكلمة ،
الوفاء ، بيروت .

كنز العرفان في فقه القرآن ، جمال الدين ، المقداد السيوري ، دار
الكتاب الإسلامي .

- ٢ -

ميزان الحكمة ، محمد ري شهري ، طبع إيران .

مع المصطفى ، عائشة عبد الرحمن ، دار الكتاب العربي ، بيروت .

المائة الأوائل ، مايكل هارت ، دار قتيبة ، سوريا .

معجم معالم الحجاز ، عاتق بن غيث البلادي ، دار مكة ، السعودية .

مناقب آل أبي طالب ، ابن شهر آشوب ، دار الأضواء ، بيروت .

معجم قبائل المملكة العربية السعودية ، حمد الجاسر ، النادي الأدبي ،
الرياض .

موسوعة السياسة ، الكيالي ج ٢ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ،
بيروت .

مجمع البيان ، الطبرسي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

مروج الذهب ، علي بن الحسين المسعودي ، دار المعرفة ، بيروت .

المغازي ، محمد بن عمر بن واقد ، وكالة أكسفورد ، لندن .

موسوعة الفداء في الإسلام ، أحمد الشرايبي ، دار الجيل ، بيروت .

محمد نظرة عصرية ، مجموعة كتاب ، المؤسسة العربية للدراسات
والنشر .

محمد في مكة مونتهجري وات ، تعريب شعبان بركات ، صيدا .
محمد في المدينة مونتهجري وات تعريب شعبان بركات ، صيدا .
معالجة الإسلام لمشكلات الإقتصاد ، ابراهيم الغول ، مؤسسة الرسالة
بيروت .
من الفقه السياسي في الإسلام ، محمد صالح جعفر الظالمي ، دار
مكتبة الحياة بيروت .
المستدرك ، للحاكم النيسابوري ، دار المعرفة ، بيروت .
النظم الإسلامية ، صبحي الصالح ، بيروت .

-ن-

النظام السياسي في الإسلامي باقر شريف القرشي ، دار التعارف ،
بيروت .

-و-

ولاية الفقيه أوفقه الدولة الإسلامية ، آية الله المنتظري ج ٢ طبع إيران .
وسائل الشيعة ، للحر العاملي ، دار إحياء التراث العربي بيروت .

فهرس الأعلام

حرف الألف

ألدر بن عبد الملك

إبراهيم

. ٤٤٥ ، ٤٠٣

، ٤٠ ، ٣٩ ، ٣٨ ، ٣٤ ، ٣٠

، ٣٨٨ ، ٣٨١ ، ١٤٩ ، ٥٣ ، ٥٢

. ٤١٠

. ٣٨ ، ٣٢

أبرهة

أبي طالب

، ٧١ ، ٧٠ ، ٦٧ ، ٤٥ ، ٤٤ ، ٤٣

، ١٠٩ ، ١٠٨ ، ١٠٧ ، ١٠٢ ، ١٠١

، ١٣٢ ، ١٣٠ ، ١٢٩ ، ١١٨ ، ١١٠

، ٢٤٣ ، ١٤١ ، ١٣٩ ، ١٣٨ ، ١٣٧

. ٤٨٥

أبي لهب

، ١٠٤ ، ١٠٣ ، ١٠٢ ، ١٠١ ، ٤٤

١٥٢ ، ١١٣ ، ١١٢

أبن هشام

. ٤٨٣ ، ٣٦٤ ، ٣٦١ ، ٩٤ ، ٤٤

٢٣٥ ، ٧٤ ، ٤٧

أبو أمية بن المغيرة بن عبد الله المخزومي

أبي ذر

١٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ١٨٥ ، ١٩٩
٣٤٨ ، ٣٥١ ، ٤٢٠ ، ٤٥٨ ، ٤٦٠ ،
٤٧٣ .

أبا القاسم

أبي بكر

١٨٥ ، ٨٨ ، ٥٢ .

أبو سفيان ابن الحارث

أبو البخري بن هشام

أبو جهل بن هشام

أبا الوليد

أبو سفيان بن حرب

أبو جهل

١١٥ ، ١١٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣١ ،
١٣٢ ، ١٣٨ ، ٢٣٠ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ،
٣٩٧ .

أبا لبابة

أبو براء

أبن الاعور

أبي جندل بن سهيل بن عمرو

أبي نضير

أبناء ربيعة

أبو الهيثم بن التيهان

أبو العباس

أبا الغصن

أبا حسن

أبن عسكر

أبي جعفر

أبي هريرة

أبو نائلة

٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٤٤ .

| | |
|-------------------------|-------------------------|
| ٣٢١ . | ابو رافع بن ابي الحقيق |
| ٣٢٠ . | ابو عيسى بن حبير |
| ٣٢١ ، ٣٦٦ . | ابو قتادة |
| ٣٢٢ ، ٤٨١ . | ابن الأثير |
| ٣٤٣ . | ابن رافع |
| ٣٤٨ . | ابن ابي الحديد |
| ٣٤٨ . | ابو أيوب |
| ٣٤٨ . | ابو الهيثم بن الشيهان |
| ٣٤٨ . | ابو المؤيد موفق بن أحمد |
| ٣٤٨ . | ابو الطفيل |
| ٣٦٢ ، ٣٦٣ . | ابو عامر |
| ٣٩٤ . | ابن أبي |
| ٣٧٣ . | ابن الحصين |
| ٣٨٢ . | ابي حارثة |
| ٣٨٧ . | ابي حي بن اخطب |
| ٣٩٢ . | ابا عمرو |
| ٤٠٠ . | ابن الحارث |
| ٤٠٧ . | ابان بن سعيد بن العاصي |
| ١٣١ . | ابي الحكم |
| ١٥٣ . | ابو الخيسراني بن رافع |
| ١٥٨ . | ابو الهيثم بن النبهان |
| ١٧٥ ، ١٨٥ ، ٣٤٩ . | ابي ايوب الأنصاري |
| ١٨٥ . | ابي الدرداء |
| ١٦٥ . | ابي رويحة |
| ١٨٥ . | ابي عبيد بن الجراح |
| ١٨٦ ، ٢٧٣ ، ٣٠٩ ، ٣١٣ . | أبي بن كعب |
| ٢٠٤ . | ابي حذيفة |

ابو سعيد الخدري

ابي سفيان

ابن عباس

ابن عمير

ابن عبد الله

ابن حجر

ابان بن قيس

ابن مسعود

أبي عبد الله الصادق

ابن قيس

أبي الحارث

أحمد

الأخنس بن شريف

اروى بنت عبد المطلب

الأزدي

اسيد بن خضير

أنس بن مالك

أسامة بن زيد

اسد بن النضير

اسيد بن الحارث

اسحاق

اسا

اسماعيل

اسد

اسد الله

. ٣٧٥ ، ٢٨٢ ، ٢١٦

. ٣١٠ ، ٣٠٨ ، ٣٠٧ ، ٢٨١ ، ٢٣٤

. ٣٧٥ ، ٤٧٤ ، ٣٧٣ ، ٣٢٣ ، ٣٢٢

. ٤٣٣ ، ٤٣٢ ، ٤٢٩ ، ٤٢٣ ، ٤٢٢

. ٢٤٨

. ٢٥١

. ٣١٧ ، ٢٥١

. ٣٦٩ ، ٢٦٥

. ٢٦٧

. ٣٥١ ، ٢٩٢

. ٢٩٥

. ٣٠٧

. ٢٨٦ ، ١٩٩ ، ٨٨

. ٤٠٠

. ٣٠٧

. ٩١ ، ٨٩

. ٢٦٧

. ١٥٧ ، ١٥٦

. ٢٦٥ ، ٢٥٠ ، ٢٤٩ ، ٢٤٦

. ٢٩٢

. ٣١٠

. ٣٧٣

. ٣٨١

. ٣٧

. ٣٨١ ، ٤٠ ، ٣٩ ، ٣٧ ، ٣٤ ، ٣٠

. ١٠٤ ، ٨٥ ، ٥٤ ، ٣١

. ٧

أسماء

الاسود بن المطلب

الاسود بن يغوث

الاصنع بن عمرو

العاصي بن وائل

الاقرع بن حابس

أم حبيبة

امرؤ القيس

امية

امنة بنت وهب

ام كلثوم

ام جميل

امية بن خلف

ام غار

ام سلمى

ام الفضل

أوس بن ثابت

أياس بن معاذ

. ٥٢

. ١١٤ ، ١١١ ، ١٠٧

. ١١٣

. ٤٠٣

. ١٠٨

. ٤٠١ ، ٣٧٣ ، ٢٩٧

. ٤٤٧

. ٥٤

. ٣٧٤ ، ٨٥ ، ٥١ ، ٣١

. ١١٥ ، ٦٧ ، ٦٥ ، ٤١

. ١١٢

. ١١٣

. ٣٧٣ ، ٢٠٤ ، ١١٨

. ١٢٠ ، ١١٩

. ١٣١

. ٣٩٠

. ١٨٥

. ١٥٣

« حرف التاء »

. ٤٧٦ ، ١٨

. ٣٢٤

« حرف التاء »

. ٢٣٤

. ٣٠٤

. ٤٦٣ ، ١٤٢

تميم

تمامة بن آثال

ثابت بن قيس

ثابت بن ارقم

ثقيف

« حرف الجيم »

| | |
|-------------------------------|--------------------------|
| ٢١٢ . | جابر بن عبدالله الأنصاري |
| ٧٧ ، ٧٨ ، ١٣٢ ، ١٩٩ ، ٢٨٩ ، | جبرائيل |
| ٢٩٥ ، ٢١٦ ، ٣٠١ . | |
| ١٥٣ ، ٢٨٦ . | جبر |
| ٢٣٥ . | الجارود |
| ٢٠٢ ، ٢٠٣ . | جساس |
| ٤٣٦ . | جشم |
| ٤٤٣ ، ٢٨٩ ، ١٢٦ ، ١٢٥ ، ٤٤٤ . | جعفر |
| ١٢٤ ، ٢٨٧ ، ٤٤٢ . | جعفر بن ابي طالب |
| ٢٨٨ . | جعفر الطيار |
| ٢٠١ ، ٢٠٢ . | جليلة |
| ٤٠٩ ، ٤٣٢ . | جهينة |

« حرف الحاء »

| | |
|----------------------------|-----------------------------|
| ٣٤ ، ٣٩ ، ٦٦ ، ٢٣٣ ، ٢٨٦ ، | الحارث |
| ٣٩٠ ، ٤١٤ . | |
| ١١٣ . | الحارث بن قيس بن عدي السهمي |
| ١٥٦ . | الحارث بن كعب |
| ٢٨٦ ، ٤٤١ . | الحارث الغساني |
| ٢٨٧ ، ٢٨٩ ، ٤٤٢ . | الحارث بن عمير الأزدي |
| ٣٢٠ . | الحارث بن اوس |
| ٣٧٣ . | الحارث بن هشام بن المغيرة |
| ٤١٤ . | الحارث بن عبيد |
| ٦٧ ، ٦٦ . | حليمة بنت ابي ذؤيب السعدية |
| ٢٨٦ ، ١٨٥ . | حاطب بن المقوقس |
| ٤٢٦ . | الحليس بن علقمة |

| | |
|-------------------------------|-----------------------|
| ٤٣٥ ، ٤٣٤ . | حماس بن قيس |
| ١٠٠ . | جباب |
| ٧٠ . | الحجاج |
| ١٨٥ . | حذيفة بن عتبة |
| ١٨٥ ، ٢٧٤ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، | حذيفة بن اليمان |
| ٣٤٨ . | |
| ٩١ ، ١٠١ ، ١٢٨ ، ٤١٤ ، ٤٣٦ . | حمزة |
| ١٠٠ ، ١٢٨ ، ٢٣٠ . | حمزة بن عبد المطلب |
| ٤٦١ . | حمزة الهاشمي |
| ٢٤٥ . | الحسين بن علي |
| ٣٨٢ . | الحسين |
| ٣٨٢ . | الحسن |
| ٢١٩ ، ٢٣٤ ، ٢٩٧ . | حسان بن ثابت |
| ٣٧٣ . | حكيم بن حزام بن خويلد |
| ٣٧٣ . | حويطب بن عبد العزى |
| ٤٠٧ . | الحوراء |
| ٣٩١ ، ٤٢١ ، ٤٢٢ . | حي بن احطب |

« حرف الخاء »

| | |
|-------------------------------|------------------|
| ١١٠ ، ٤٠٣ ، ٤١٩ ، ٤٣٤ ، ٤٤٣ . | خالد بن الوليد |
| ٢٣٥ ، ٢٧٩ ، ٣٤٨ . | خالد بن سعيد |
| ١٨٥ . | خالد بن زيد |
| ١٨٥ . | خارجة بن زهير |
| ٣٠١ . | الخليل |
| ٩٠ . | الخباب بن الحارث |
| ١١٩ ، ١٢٠ ، ٢٢٣ ، ٣٠١ . | خباب بن الارث |
| ١١٩ ، ١٢٠ ، ٤٥٨ . | خباب |

خبيب

خديجة

. ٣٢٣
٤٦ ، ٤٧ ، ٥٤ ، ٧٢ ، ٧٨ ، ٧٩ ،
٨١ ، ١٣٠ ، ١٣٧ ، ١٤٠ ، ٢٠٠ ،

. ٣٧٣

خديجة بنت خويلد

. ٥٣ ، ٧٣

خزاعي بن الأسود

. ٣٢١

خزيمة

. ٣٤٨

خشعم

. ٧٠

خضعم بن عمرو

. ٣٠٧

الخطاب

. ٥٢

« حرف الدال »

دحية الكلبي

. ٤٠٣ ، ٢٨٩ ، ٢٨٦ '

« حرف الذال »

ذو نؤاس الحميري

. ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٩٨

ذي يزن

. ٤٣

« حرف الراء »

رحلة النجادية

. ٢٨٩

« حرف الزاي »

زياد بن لييد الأنصاري

. ٢٣٥

الزبير

. ٥١

الزبير بن عبد المطلب

. ٧٠

الزبير ابن العوام

. ١٨٥

الزبرقان

. ٢٣٥ ، ٢٩٧

زمنة بن الاسود بن المطلب بن أسد

١٣١ ، ١٣٢

زهير بن المغيرة المخزومي

زيد بن عمر

زيد

زيد بن حارثة

زيد بن ثابت

زيد بن الصلت

زينب

. ١٣١

. ٥٤ ، ٥٢

٤٤٣ ، ٤٤٢ ، ٣٥٨ ، ٢٧٤ ، ٧٢

، ٢١٢ ، ٢٠٠ ، ١٥٢ ، ١٢٩ ، ٨١

. ٤١٥ ، ٣١٤ ، ٣١٢

. ٣١٣ ، ٢٧٥ ، ٢٧٣ ، ٢١٤

. ٣٠٦

. ١١٢

« حرف السين »

سلمى

سلمة بن سلامة

سلامان

سليط بن عمرو

سلام بن ابي الحقيق

سلمان الفارسي

سلمان

سلام بن شكيم

سراقة

سعيد بن زيد

سعيد

سعد بن ابي وقاص

سعد بن معاذ

سعد بن الربيع

سعد بن عبادة

. ٣٦

. ١٨٥

. ٢٣٥

. ٢٨٨ ، ٢٨٦

. ٤٢١ ، ٣٩١

. ١٨٥

. ٣٤٨ ، ٢٤٨

. ٣١٣

. ١٦٦

. ٨٩

. ٩٠

. ٩٤

، ٣٤١ ، ٢٨٠ ، ١٨٥ ، ١٥٧ ، ١٢٣

. ٤٠٦ ، ٣٩٢

. ٤٦٦ ، ١٨٥ ، ١٧٩

. ٣٩١

| | |
|-------------------|-----------------------|
| ٤٣٢ . | سعد بن بكر |
| ٢٨٨ . | سعد |
| ٣١٨ . | سعيد بن سعيد بن العاص |
| ٣٧٣ . | سعيد بن يربوع |
| ١٨ . | سكاب |
| ١١٥ ، ١١٧ ، ١٢٣ . | سمية |
| ٣١٨ . | سمراء |
| ٣٤٣ ، ٣٤٢ . | سمرة بنت جندب |
| ٤٢٠ ، ٣٤٨ . | سهل بن حنيف |
| ٤٢٧ ، ٣٧٣ ، ١٧٤ . | سهل بن عمرو |

« حرف الشين »

| | |
|-------------------|------------------------|
| ٣٨٩ ، ٣٠٤ . | شاس بن قيس |
| ٢٨٦ . | شجاع بن وهب |
| ٢٧٤ . | شرحبيل بن مسنة |
| ٢٨٧ . | شرحبيل بن عمرو الغساني |
| ٢٦٣ . | شهر بن يا ذام |
| ٢٠٤ ، ١٤٤ ، ١٤٢ . | شيبة |
| ٤٤٦ . | شبرويه |
| ٤٠٢ . | شبيان |

« حرف الصاد »

| | |
|-------|---------------------|
| ٢٥٢ . | الصادق |
| ٣٧٣ . | صفوان بن امية |
| ٣٨٦ . | صفية بنت حي بن اخطب |
| ٣٧٣ . | صهيب بن امية |

« حرف الطاء »

. ٨٨

. ٣٦٨ ، ١٨٥

. ٩١

« حرف العين »

، ٨٦ ، ٨١ ، ٨٠ ، ٧٢ ، ٧١ ، ٧

، ١٦٥ ، ١٠٢ ، ١٠١ ، ٨٨ ، ٨٧

، ٢٦٠ ، ٢٥٣ ، ٢٥٢ ، ٢٥٠ ، ٢٩٦

، ٣٥٠ ، ٣٤٩ ، ٣٤٨ ، ٢٧١ ، ٢٦٩

. ٤٧٧ ، ٤٧٣ ، ٤١٤ ، ٣٨٢

، ١٨٦ ، ١٨٥ ، ١٦٤ ، ١٥١ ، ٩١

، ٣١٣ ، ٢٧٣ ، ٢٧٠ ، ٢٣٥ ، ١٩٢

، ٤٢٠ ، ٤١٩ ، ٤١٤ ، ٣٩٤ ، ٣٤٩

. ٤٨٠ ، ٤٦٨ ، ٤٥٢ ، ٤٣٢ ، ٤٢٣ ، ٤٢٢

. ٢٣٧

. ٣٠٦ ، ٣٣١

. ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٦٧

. ٤٠٨

. ٤٠٨

. ٤٠٠

. ٣٧٣

. ٣٤٨

. ٢٦٨

. ٤٥٤ ، ٣١٠ ، ٢٤٩

. ٤٠٨ ، ٢٣٥ ، ١٥٠

. ١١٤

طلحة

طلحة بن عبد الله

طليب بن عمرو

علي

علي بن ابي طالب

علي عبد الرزاق

عاتكة بنت عبد المطلب

العلاء بن الحضري

عامر بن الطفيل

عامر بن مالك

علقمة

العلاء بن جارية

عامر بن وائلة

علاء

عائشة

عامر بن صعصعة

العاص بن وائل

عبد المطلب

٣٣ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ،
٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٥١ ، ٦٦ ،
٦٧ ، ٧١ ، ١٠١ ، ١٠٤ ، ١٥١ ، ٣٤٨ ،
٣٤ ، ٣٥ ، ١٠٤ .

عبد مناف

عبد الدار

٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٧٤ ، ٨٥ .
٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٣ ، ٦٥ ، ١٥٠ .
٥١ ، ٥٢ ، ٧٠ .

عبد الله

عبد الله بن جدعان

عبد الله بن جحش

٥٣ ، ٢٢٨ ، ٢٩٢ .
٥٤ .

عبد الله

عبد الله الزبيري

١١٢ .
١١٢ ، ٢٨٧ ، ٢١٩ .

عبد الله حذافة

عبد الله بن أبي

١٧٣ ، ٢٥٠ ، ٣٠٥ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ،
٣٥٦ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ ،
٣٦٧ ، ٣٦٨ ، ٤٥٠ .
٢٨٦ .

عبد الله بن حذافة السهمي

عبد الله بن رواحة

٢٩٢ ، ٢٩٧ ، ٢٩٩ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ،
٣٠٠ ، ٤١٥ ، ٤٢٢ ، ٤٤٣ .
٢٩٦ .

عبد الله بن سلام

عبد الله بن الارقم

٢٧٣ .
٢٧٤ .

عبد الله بن نافع

عبد الله بن عتيك

٣٢١ .
٣٢١ .

عبد الله بن انس

عبد الله بن ابي كعب

٣٤٨ .
٣٦٠ .

عبد الله بن عمرو بن حرام

عبد الله بن سلام

٣٨٤ ، ٣٨٧ .
٣٧٥ .

عبد الله بن مسعود

٨٥ .

عبد شمر

| | |
|-------------------------|---|
| عبد الاشهل | ١٥٦ ، ١٥٣ . |
| عبد الرحمن بن عوف | ١٧٩ ، ١٨٥ ، ٤٦٦ . |
| عبد القيس | ٢٣٥ . |
| عبد الرحمن بن ابي العلي | ٣١٦ . |
| العباس بن مرداس | ٣٧٣ . |
| العباس | ٤ ، ١٠١ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١١ . |
| | ٤٣٣ . |
| العباس بن عبادة | ١٥٨ ، ٢٢١ . |
| العباس بن عبد المطلب | ٣٠٧ ، ٣١٠ ، ٣٤٨ ، ٤٣٢ . |
| عبد | ١٥١ . |
| عياد بن بشير | ١٨٥ ، ٣٢٠ . |
| عبيدة بن الحارث | ٢٣٠ . |
| عتيبة | ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١٢ ، ١٤٢ ، ١٤٤ ، ٢٠٤ ، ٤١٤ . |
| عتبة بن مالك | ١٨٥ . |
| عتاب بن اسيد | ٢٦٢ . |
| عثمان بن العاص | ٤٣٨ . |
| عثمان بن وهب | ٣٧٣ . |
| عثمان بن مضعون | ٣٤٩ . |
| عثمان بن حنيف | ٣٤٨ . |
| عثمان بن مالك التميمي | ٣٢٢ . |
| عثمان | ٨٩ ، ١٠٤ ، ٢٨٦ ، ٣٧٥ ، ٤٠٧ . |
| عثمان بن عفان | ١٨٥ ، ٢٧٣ ، ٤٢٧ . |
| عثمان الحويرث | ٥٤ . |
| عداس | ١٤٤ . |
| عدي | ٨٥ ، ٧٤ ، ٣٤ . |

| | |
|------------------------------|----------------------|
| ١٣١ . | عدي أبي عبد مناف |
| ٢٣٥ ، ٢٦٣ . | عدي بن حاتم |
| ٦٩ . | عروة الهوزاني |
| ٢٥٤ ، ٤٢٦ . | عروة بن مسعود الثقفي |
| ٢٥٥ . | عروة بن الزبير |
| ٣٨١ . | عزيز |
| ١٥٤ . | عفراء |
| ٢٢٤ . | عقبة بن عامر |
| ١١٤ . | عقبة بن أبي معيد |
| ٤٤ . | عقيل |
| ٤٢٢ . | عكرمة بن أبي جهل |
| ١٩ . | عمرو بن هند |
| ١٩ . | عمرو بن كلثوم |
| ٣٠ . | عمرو بن لحي الخزاعي |
| ٣٠ . | عمرو بن عامر الخزاعي |
| ٨٩ . | عمرو بن عثمان |
| ٩٠ ، ٢٤٨ ، ٣١٥ ، ٣٢٣ ، ٣٧٤ . | عمرو |
| ٣٨٦ ، ٣٧٥ . | |
| ٢٨٨ ، ١١٢ . | عمرو بن العاص |
| ١٨٧ . | عمرو بن عوف |
| ٢٨٦ . | عمرو بن العاص السهمي |
| ٢٢٨ . | عمرو بن الخضرمي |
| ٢٣٥ . | عمرو بن معد |
| ٢٦٤ ، ٢٦٣ . | عمرو بن حزم |
| ٣٢٢ . | عمرو بن أمية |
| ٣٦١ . | عمرو بن حرام |
| ٣٨٩ ، ٣٩٠ . | عمرو بن كعب |

عمرو بن ود العامري

عمر بن الخطاب

عمير بن وهب

عمار بن ياسر

عمار

عمارة

عويم بن ساعدة

عوف

عيسى

عيسى بن مريم

عينية بن حصن

. ٤٢٢

. ٣٠٨ ، ٢٧٠ ، ٨٩

. ٣٧٣

. ٣٦٤ ، ٣١٥ ، ٣١٤ ، ٢٩٢ ، ١٨٥

. ٤٥٨ ، ٣٤٩ ، ٣٤٨ ، ١١٨ ، ١١٧

. ١١٠

. ١٨٥

. ٤٣٧ ، ١٩٠ ، ١٨٨ ، ١٨٧ ، ١٨٦

. ٣٩٨ ، ١٤٩ ، ١٤٥ ، ٧٦ ، ٦١

. ٣٩٩ ، ٣٨١ ، ٢٨٨ ، ٢٨٦ ، ١٢٥

. ٤٢٢

« حرف الغين »

. ٣٦٦ ، ٢٣٥ ، ٣٢

. ٤٢٣

غسان

غطفان

« حرف الفاء »

. ٩٠ ، ٤٤

. ٢٠٦ ، ١٤٠ ، ١٣٩ ، ٩٠ ، ٨٩

. ٣٨٣ ، ٨٠

. ٢٦٣ ، ٢٣٥

فاطمة بنت اسد

فاطمة

فرعون

فروة بنت ميسك المرادي

« حرف الكاف »

. ٢٠٢ ، ٢٠١

. ٣٢٤

. ٢٨٦ ، ٢٥٤ ، ٢٤٨ ، ١١٤ ، ١١٣

. ٣٥٧ ، ٣٠٥ ، ٢٥٤ ، ٢٨٧

. ٣٩٠ ، ٣٨٩ ، ٣٢٤ ، ٣٢٠ ، ٢٧٠

كليب

كلاب

كسرى

كعب بن الأشرف

١٨٦ ، ٢٩٩ ، ٣٦٥ ، ٣٦٦ .
 ٢٩٨ .
 ٣٢١ .
 ٣٨٧ ، ٣٩١ .
 ٤٠٣ .
 ٤٠٩ .

كعب بن مالك
 كعب بن زهير
 كعب
 كعب بن اسد
 كندة
 كنانة

« حرف اللام »

٣٠٣ .
 ١٩ .

ليبد بن عاصم
 ليلى ام الشاعر

« حرف الميم »

٢٣٥ ، ٤٠٢ .
 ٤٠٢ .
 ٣٠٥ ، ٣٦٨ .

مالك بن نوبرة
 المثنى بن حارثة الشيباني
 متعب بن قشير
 محمد

٢٨ ، ٢٩ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٤١ ، ٤٣ ،
 ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ،
 ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ،
 ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٧ ،
 ٧٨ ، ٩٠ ، ٩١ ، ١٠٩ ، ١١١ ،
 ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٢ ، ١٢٩ ، ١٣٧ ،
 ١٣٨ ، ١٤٩ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٦٤ ،
 ١٦٦ ، ١٨٧ ، ٢٣٤ ، ٢٤٠ ، ٢٤٥ ،
 ٢٤٩ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٤ ، ٢٦٤ ،
 ٣٠٠ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٠٩ ،
 ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣٢٤ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ ،
 ٣٥٩ ، ٣٨١ ، ٣٨٣ ، ٣٨٨ ، ٣٩١ ،

محمد

٤٠٠ ، ٤١٥ ، ٤٢٣ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧ ،
٤٢٨ ، ٤٣٥ ، ٣١٠ ، ٤٤٧ ، ٤٦٦ ،
٤٨٣ ، ٤٨٤ ، ٤٨٥ ، ٤٨٦ .

محموداً

محمد بن عبد الله

٧٤ ، ٨٨ ، ١٠٤ ، ١٤٩ ، ١٥٦ ،
٢٤٢ ، ٢٥٢ ، ٢٨٥ .

محمد بن مسلمة الانصاري

محمد بن عمار بن حماد بن عيسى

محزومة بن نوفل

مخزوم

مريم العذراء

مرارة بن الربيع

مسعود بن سنان

المسيح

المصطفى

مصعب بن عمير

مصعب

المطعم بن عدي بن نوفل

مطعم بن علي

معاوية

معاذ بن جبل

المعيق بن ابي فاطمة الدوسري

المغيرة بن شعبة

المقوقس

المقداد بن الاسود

المنذر بن عمرو

المنذر بن الحارث بن ابي شجر الغساني

٢٩٥
٣٠٧ ، ٣٧٣ .
٣٧٣ .
١٢٥ .
٣٦١ ، ٣٦٥ .
٣٢١ .
٦١ ، ٣٨٢ .
٤٢١ .
٩٠ ، ١٥٥ ، ١٨٥ .
١٥٧ .
١١٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ .
١٥٠ .
٣٧٣ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥ .
٢٦٤ ، ٢٦٨ ، ٢٧١ ، ٣١٣ ، ٣٩٥ .
٢٧٤ .
٢٣٤ ، ٤٣٨ .
٢٣٣ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٤٤٠ ، ٤٤٧ .
٢٥١ .
١٨٥ ، ٤٠٨ .
٤٤٢ .

| | |
|-----------------------------|-------------------|
| ٢٣٤ ، ٢٦٨ ، ٢٨٧ . | المنذر بن ساوي |
| ١٣٢ . | منصور بن عكرمة |
| ٢٩٥ . | منصور بن ابي حازم |
| ١١٤ . | منية |
| ١٠٨ . | منية ابن الحجاج |
| ٢٨٦ . | المهاجر ابن امية |
| ٧٦ ، ٨٠ ، ١٤٥ ، ١٤٩ ، ٢٦٠ ، | موسى |
| ٣٨٣ ، ٣٨١ | |
| ٧٩ ، ٥٣ . | موسى بن عمران |

« حرف النون »

| | |
|-------------------------------|-------------------|
| ٧٠ ، ١٠٨ ، ١١٤ . | نبيه |
| ٣٩٩ ، ٤٠٠ . | نجران |
| ٣٢ ، ١٢١ ، ١٢٤ ، ٢٣٣ ، ٢٥٤ ، | النجاشي |
| ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٤٢٧ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨ . | |
| ٦٩ . | النعمان بن المنذر |
| ٤٢٣ . | نعيم بن مسعود |
| ٨٩ . | نعيم بن عبد الله |
| ٢٥٣ . | نسمة |
| ٣٤٤ . | النسفي |
| ١٠٣ ، ١١٤ ، ٣٧٣ . | النضير بن الحارث |
| ١٠٤ . | نوفل بن عمرو |
| ٤٢٢ . | نوفل بن عبد الله |
| ٣٤٤ . | نوفل بن معاوية |
| ٣١٨ . | نهيل الاسدية |

« حرف الهاء »

| | |
|-------------------------------|---------------------|
| ٢٠٢ . | هماما |
| ٢٦٠ . | هارون |
| ٣٦٥ ، ٣٦١ ، ٣٩ . | هلال بن امية |
| ٣٤٨ ، ١٨ . | هاشم |
| ٢٠٣ ، ٢٠٢ . | هرجس |
| ٤٤٢ ، ٤٤١ ، ٢٨٦ ، ٢٨٥ ، ٢٣٣ . | هرقل |
| ٣٧٣ ، ١٣١ . | هشام بن عمرو |
| ٤٣٦ ، ١٩ . | هند |
| ٤٣٧ ، ٤٣٦ ، ٢٨٠ . | هوزان |
| ٤٠٢ ، ٢٨٧ ، ٢٨٦ . | هوذة بن علي النخعي |
| ٤٢١ . | هوذة بن قيس الوائلي |
| ٤٢٢ . | هييرة بن ابي وهب |

« حرف الواو »

| | |
|-------------------|---------------------------|
| ١٥٢ ، ١١٣ ، ١٠٧ . | الوليد بن المغيرة |
| ٤١٤ ، ٢٠٤ . | الوليد |
| ٣٩٧ ، ٧٩ ، ٤٦ . | ورقة بن نوفل |
| ٥٣ . | ورقة بن اسد بن عبد المعزي |

« حرف الياء »

| | |
|-------------------------|----------|
| ٣٨٦ ، ١٢٣ ، ١١٧ ، ١٠٠ . | ياسر |
| ٧٠ . | اليعقوبي |

فهرس الأماكن

حرف الألف

| | |
|-------------------------------|-----------------|
| ٨ ، ٢٤٨ ، ٢٨٠ ، ٣٠٩ ، ٣٢١ ، | أحد |
| ٣٤٣ ، ٣٥٦ ، ٣٥٨ ، ٣٦١ ، ٣٨٩ ، | |
| ٣٩٠ ، ٤٠٧ ، ٤١٠ ، ٤١٨ ، ٤٢٠ . | |
| ٢٣٦ . | اسيا |
| ٢٣٧ . | الازهر |
| ٣٢ ، ٢٢٤ ، ٢٣٦ ، ٤٣٧ . | افريقيا |
| ٤٦٠ . | اندنوسيا |
| ٤٧٠ . | الصين |
| ٢٣٦ ، ٢٣٨ ، ٣١٣ ، ٤٧٠ . | أوروبا |
| ٥٩ ، ٦٠ . | ايران |
| ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٣٩٥ . | البحرين |
| ٤٠ ، ٦٨ ، ٤٤٢ . | بصرى |
| ٣٩ ، ٤١١ . | بيت الله الحرام |
| ٤٧ ، ٣٨٣ ، ٣٨٥ . | بيت المقدس |
| ٢١٨ ، ٢٦٠ ، ٢٨٠ ، ٣٦١ ، ٣٦٣ ، | تبوك |
| ٣٦٥ ، ٣٦٦ ، ٤٤٤ ، ٤٦٢ . | |

| | |
|-----------------|---|
| الحبشة | ٣٢ ، ٣٨ ، ٥٣ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٥٦ ، ٢٧٥ ، ٣٩٨ ، ٤٤٠ ، ٤٤٧ . |
| الحجاز | ٢٨ ، ٣٤ ، ٩٧ ، ١٤١ ، ٢٧٤ ، ٤٤٦ . |
| الحديبية | ٣٣٨ ، ٣٤٤ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٩٣ ، ٤٠٧ ، ٤٢٦ ، ٤٢٨ ، ٤٣٠ ، ٤٤٠ . |
| حرة الوبر | ٦١ ، ٤٢٢ . |
| حرة واقم | ١٦٢ ، ٤٢٥ . |
| حضر موت | ١٢١ ، ٢٣٥ . |
| الحيرة | ٢٨ ، ٣٢ ، ٦٨ ، ٤٠١ ، ٤٠٢ . |
| حنين | ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٤٠١ ، ٤٣٧ . |
| جدة | ١٢٤ . |
| الجزيرة العربية | ٢٨ ، ٤٢ ، ٤٨ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٩ ، ٢٤١ ، ٢٥٧ . |
| خير | ٤١ ، ١٨٢ ، ٣٢١ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٣٩٥ ، ٤٣٠ . |
| دومة جندل | ٤٢١ . |
| الروم | ٢٣ ، ١١٤ . |
| روما | ٢٤ . |
| زمزم | ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ . |
| الساسانية | ٦٢ . |
| سوريا | ٥٩ ، ٦٢ ، ٤٠٢ . |
| الشام | ٣٠ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٤٥ ، ٥٢ ، ٦١ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ١١١ ، ٢١٥ ، ٢٣١ ، ٢٦٧ ، ٢٨٠ ، ٣٦٢ ، ٣٧٥ ، ٤٠٩ . |
| | ٢٤٢ ، ٤٤٦ |

شعب ابن طالب

صنعاء

الطائف

طيبة

العراق

العقبة

عكاظ

عمان

غار حراء

غار يطنجان

فارس

الفرس

قبر حمزة

قرية النمل

الكعبة

المجاز

مجنة

المسجد الحرام

مسجد قبا

مسجد ظرار

المدينة المنورة

المروة

. ٤٣٤

. ٢٣٥ ، ١٢١ ، ٣٢

، ١٥٠ ، ١٤٧ ، ١٤٢ ، ١٤١ ، ٦٧

. ٤٣٧ ، ٣٤٤ ، ٢٧٩ ، ٢٣٤ ، ٢٨٨

. ٢٥٢

، ١١١ ، ٦١ ، ٦٠ ، ٥٢ ، ٣١

. ٤٠٢ ، ٢١٥

. ٤٤١ ، ٣٦٣ ، ١٥٥

. ٧٠ ، ٦٨

. ٢٣٣

. ٧٦ ، ٧٥

. ٣٢٣

، ٤٤٥ ، ٤٠١ ، ٦٠ ، ٣١ ، ٢٤ ، ٢٣

. ٤٥٦

. ١١٤

. ٧

. ٣٧

. ١٣٩ ، ٣٤ ، ٣١ ، ٣٠

. ٦٨

. ٦٨

. ٣١

. ٧

. ٣٦٨ ، ٧

، ٣٥٤ ، ٣٥٣ ، ٣٣٤ ، ٢٥٩ ، ٧

. ٤١٨

. ١٥٣

مصر

٣١ ، ٥٩ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٢٢٤ ،
٢٣٣ ، ٢٧٥ ، ٤٠٩ ، ٤٤٦ .
٣٧ .

المصونة

مكة

٢٣ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ،
٣٦ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٨ ، ٥٢ ، ٥٤ ،
٦٦ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٧٣ ، ٧٥ ، ٨٥ ،
٨٦ ، ٨٨ ، ٩٤ ، ١٠٧ ، ١١٠ ،
١١٥ ، ١١٩ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٦ ،
١٢٨ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٥ ،
١٤١ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ،
١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٨٥ ،
٢٠٠ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢٢٠ ، ٢٢٥ ،
٢٨٥ ، ٢٣١ ، ٢٣٤ ، ٢٤٠ ، ٢٥٢ ،
٢٦٣ ، ٢٦٧ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٣٠٨ ،
٣١١ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٧ ، ٣٣٤ ،
٣٥٣ ، ٣٦٢ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣ ،
٣٧٤ ، ٣٩٣ ، ٣٩٧ ، ٣٩٩ ، ٤٠١ ،
٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤١٠ ، ٤١٥ ، ٤٢٥ ،
٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، ٤٣٠ ،
٤٣١ ، ٤٣٢ ، ٤٣٣ ، ٤٣٤ ، ٤٣٦ ،
٤٣٨ ، ٤٤٤ ، ٤٤٩ ، ٤٥٢ ، ٤٦١ ،
٤٧٠ ، ٤٧٩ .

٢٢١ ، ٤٥٢ .

٢٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٩٧ .

٢٦٧ .

٣٩٤ .

٤٥٦ .

منى

نجران

نجد

النظارة

النيل

وادي العقيق

وادي نخلة

يثرب

. ١٤١

. ٢٢٨

، ١٥٩ ، ١٥٧ ، ١٥٤ ، ١٥٠ ، ٦٧

، ١٦٧ ، ١٦٥ ، ١٦٣ ، ١٦٢ ، ١٦١

، ١٨٧ ، ١٨٣ ، ١٧٧ ، ١٧٦ ، ١٧٣

. ٢٦٧ ، ٣٥٤ ، ٢٢٠ ، ١٨٩

، ٤٣ ، ٣٢ ، ٣١ ، ٢٨ ، ٢٧ ، ٢٣

، ٢٣٦ ، ٢٣٥ ، ٢٣٣ ، ٢٢٣ ، ٢٠٣

، ٣٠٢ ، ٢٧١ ، ٢٧٠ ، ٢٦٨ ، ٢٦٣

، ٤٤١ ، ٤١٠ ، ٤٠٢ ، ٤٠١ ، ٣٩٨

. ٤٦٢

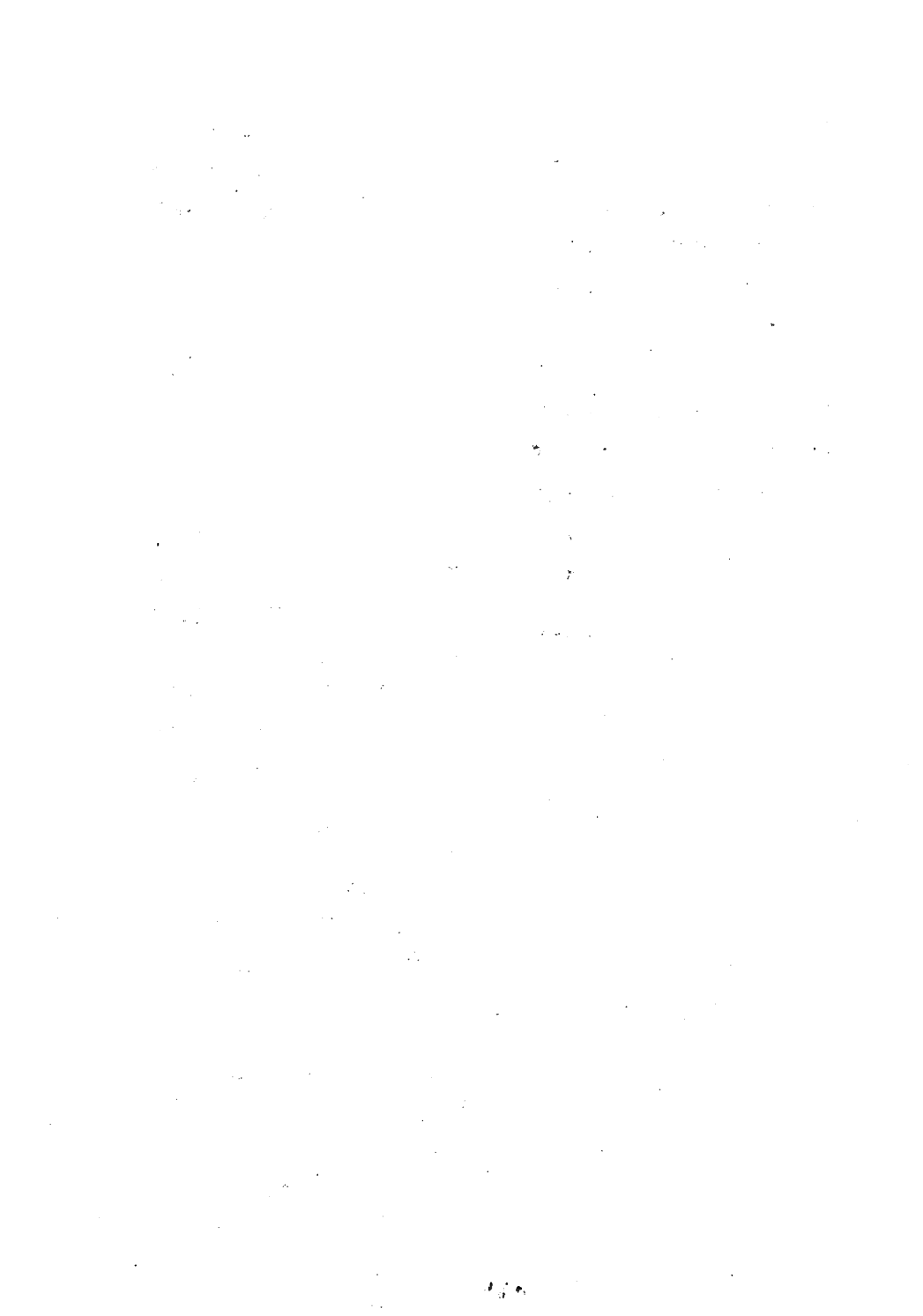
. ٢٤٠ ، ٣٢٤ ، ٢٣٣

. ٤٥٧

اليمن

اليمامة

اليونان



الفهرس

| الموضوع | الصفحة |
|--------------------------------------|------------|
| لماذا هذا الكتاب | ٧ |
| قبل الرسالة | (١٣- ٥٠) |
| الدور العالمي للإسلام | ١٤ |
| الأرض والإنسان في جزيرة العرب | ١٥ |
| لماذا نزلت الرسالة في المجتمع العربي | ٢٣ |
| الأنجذاب | ٢٧ |
| الأنجذاب إلى مكة | ٣٠ |
| الأنجذاب إلى العائلة الهاشمية | ٣٤ |
| الأنجذاب إلى محمد (ص) | ٤١ |
| عشية البعثة | (٥١- ٦٤) |
| حركة التمرد ضد الوثنية | ٥٢ |
| الأنحلال الإجتماعي في جزيرة العرب | ٥٦ |
| العالم عشية البعثة | ٥٩ |

| | |
|---------------|------------------------------|
| ٥٩ | الهند |
| ٦٠ | إيران |
| ٦١ | الروم |
| (٧٦ - ٦٥) | التنشئة الربانية |
| (٨٢ - ٧٧) | كلمات من السماء |
| ٧٩ | الخلية الأولى |
| (٩٢ - ٨٣) | مهمات البناء |
| ٨٣ | التجمع الطليعي |
| ٨٣ | مبادئ التحرك في مرحلة السرية |
| ٨٦ | مبدأ سرية التحرك |
| ٨٨ | الإتصال المنظم |
| (٩٤ - ٩٣) | إستراتيجية التربية |
| (٩٧ - ٩٥) | دار الأرقم |
| (١٠٦ - ٩٩) | الإعلان |
| (١١٤ - ١٠٧) | المواجهة |
| ١١٢ | خطط جديدة لضرب الرسالة |
| (١٢٦ - ١١٥) | حفلات التعذيب |
| ١٢٣ | صوب الحبشة |
| (١٣٢ - ١٢٧) | القبضة الحديدية |
| (١٤٠ - ١٣٥) | مهمات ما بعد الحصار |
| ١٣٧ | عام الأحزان |
| (١٤٥ - ١٤١) | البحث عن موقع أفضل |
| (١٥٩ - ١٤٧) | في ضيافة الله |
| ١٥٠ | إستراتيجية جديدة في التحرك |

| | |
|--|---------------|
| مهمة خارج الحدود | ١٥٥ |
| الهجرة صوب يثرب | (١٦١ - ١٦٧) |
| الخصائص البشرية والجغرافية والإقتصادية ليثرب | ١٦١ |
| الدولة | (١٦٩ - ١٧٢) |
| المهام الأولى | ١٧٠ |
| أولاً: مرحلة تثبيت القواعد | (١٧٣ - ١٩٦) |
| ١ - بناء المسجد | ١٧٤ |
| ٢ - المؤاخاة | ١٧٧ |
| البعد السياسي للمؤاخاة | ١٨٠ |
| البعد الإجتماعي | ١٨١ |
| البعد الإقتصادي | ١٨٢ |
| البعد الحركي | ١٨٥ |
| ٣ - الصحافة | ١٨٦ |
| ثانياً: مرحلة بناء الدولة | (١٩٧ -) |
| ١ - سد الثغرات | ١٩٨ |
| النزعة الفردية | ١٩٨ |
| الرق | ٢٠٠ |
| الانتقام | ٢٠١ |
| تحرير المرأة | ٢٠٥ |
| ارساء الأسرة | ٢٠٧ |
| توطيد السلام | ٢٠٩ |
| ٢ - تنمية الثروة الإقتصادية | ٢١٠ |
| الخزينة | ٢١٧ |
| الإستعداد العسكري | ٢١٩ |

| | |
|---------------|-------------------------|
| ٢٢٠ | بيعة على الجهاد |
| ٢٢٢ | تحالف سياسي |
| ٢٢٣ | التسليح والتدريب |
| ٢٢٥ | التعبئة المعنوية |
| ٢٢٨ | السرايا |
| (٢٣٦ - ٢٢٣) | ثالثاً: مرحلة الانتشار |
| (٢٤٠ - ٢٣٧) | مقومات الدولة الإسلامية |
| (٣١٩ - ٢٤١) | العنصر الأول: السلطة |
| (٢٥٥ - ٢٤١) | أ- الرسول القائد |
| ٢٤٥ | محمد الحاكم للإنسان |
| (٣٢٥ - ٢٥٧) | ب- جهاز السلطة |
| ٢٦٠ | ١ - وظيفة الوزارة |
| ٢٦١ | الجهاز الإداري |
| ٢٦٩ | ٣ - الجهاز القضائي |
| ٢٧٢ | ٤ - الجهاز الفني |
| ٢٧٥ | الجهاز المالي |
| ٢٧٥ | مصادر الخزينة |
| ٢٧٦ | الزكاة |
| ٢٧٨ | الخراج |
| ٢٧٨ | الجزية |
| ٢٧٩ | الغنائم |
| ٢٨١ | الفيء |
| ٢٨٢ | الجباة |
| ٢٨٢ | السياسة النقدية |

| | |
|---------------|-----------------------------------|
| ٢٨٤ | ٦ - الجهاز الدبلوماسي |
| ٢٨٩ | دار الضيافة |
| ٢٩٠ | ٧ - الجهاز العسكري |
| ٢٩٤ | ٨ - الجهاز الإعلامي |
| ٣٠١ | بعث الأمل في النفوس |
| ٣٠٢ | مواجهة الحرب النفسية |
| ٣٠٦ | الإعلان الحربي |
| ٣١١ | ٩ - الجهاز التعليمي |
| ٣١٣ | ١٠ - الجهاز الأمني والحسبة |
| ٣١٩ | ١١ - جهاز المهمات الخاصة |
| (٣٣١ - ٣٢٧) | العنصر الثاني : الأرض |
| ٣٢٩ | ملكية الأرض للدولة الإسلامية |
| (٣٤٠ - ٣٣٣) | العنصر الثالث : الأمة |
| ٣٣ | ١ - الديناميكية والمشاركة الذاتية |
| ٣٣٦ | ٢ - الانتماء المبدئي |
| ٣٣٦ | المجتمع المتجانس |
| ٣٣٧ | ٤ - التوحد الثقافي |
| ٣٣٨ | ٥ - التوحد السياسي |
| ٣٣٩ | ٦ - التكامل الإقتصادي |
| (٣٤٥ - ٣٤١) | سياسة الدولة الإسلامية |
| (٣٧٤ - ٣٤١) | أولاً : السياسة الداخلية |
| (٣٥٢ - ٣٤٧) | ١ - تجمع المؤمنين |
| ٣٤٩ | تعامل الرسول مع أصحابه |
| (٣٦٩ - ٣٥٣) | ٢ - المنافقون |

| | |
|---------------|--|
| ٣٥٥ | برنامج المنافقين في تخريب الدولة الإسلامية |
| ٣٦٣ | سياسة النبي أزاء المنافقين |
| (٣٧٥ - ٣٧١) | ٣ - المؤلف قلوبهم |
| (٣٩٥ - ٣٧٧) | ثانياً: السياسة الخارجية للدولة الإسلامية |
| ٣٨٠ | جبهة عريضة للموحدين |
| ٣٨٣ | العلاقة مع اليهود |
| ٣٨٧ | ١ - المعركة الكلامية |
| ٣٨٨ | التأمر |
| ٣٨٩ | ٣ - المواجهة العسكرية |
| (٤٠٣ - ٣٩٧) | العلاقة مع النصارى |
| (٤١١ - ٤٠٥) | السياسة حيال المشركين |
| ٤١٣ | بدر معركة الوجود |
| ٤١٧ | أحد معركة التصحيح |
| ٤٢١ | خندق المواجهة الشاملة |
| ٤٢٤ | مرحلة السلام المشروط |
| ٤٣٢ | مرحلة التحرير |
| ٤٣٧ | سقوط آخر قلاع الشرك |
| (٤٤٧ - ٤٣٩) | العلاقات الدولية |
| (٤٨٠ - ٤٣٩) | الحضارة الإسلامية |
| ٤٥٤ | سمات الحضارة الإسلامية |
| ٤٥٨ | معطيات الحضارة الإسلامية |
| ٤٦٤ | ١ - السلام |
| ٤٦٥ | ٢ - التعاون |
| ٤٦٦ | ٣ - المسؤولية |

| | |
|---------------|------------------|
| ٤٦٨ | ٤ - الأخوة |
| ٤٧٠ | ٥ - الأمل |
| ٤٧١ | ٦ - التفكير |
| ٤٧٤ | ٧ - العدل |
| ٤٧٦ | ٨ - العمل الصالح |
| (٤٨١ - ٤٧٨) | ولادة جديدة |
| ٤٨١ | * الفهارس العامة |